الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول

٢ ـ ميخائيل السوري الكبير

٣ ـ ابن العبري

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الخامس

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول

٢ ـ ميخائيل السوري الكبير

٣ ـ ابن العبري

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يعد الأدب السرياني بين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة علية خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي احساس رفيع وأمانة واخلاص.ولما كان هؤلاء جميعا من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة ، فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين ، رسمته يد العناية الالهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية.

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية الذي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون.ففي سورية والجزيرة ما زال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية.

وكتب التاريخ السريانية مسيحية في المحتوى والتعبير ، تلونت بعمق بالكتاب المقدس وبسلوك وسير اباء الكنيسة ، وقد تم تصنيف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في مدينة الرها(اديسا ـ أورفا حاليا)أو قربها ، فللرها قدسية كنسية خاصة ، على اعتبار أنها أول مدينة ، أو لنقل أو ل مملكة ، في العالم تبنت المسيحية دينا رسميا ، وقد اعتمدت لهجة الرها ونمطها بالكتابة السريانية في جميع أرجاء العالم السرياني الذي تجاوز الرقعة الواقعة فيما بين الهضبة الأرمينية في الشمال حتى حدود الجليل في الجنوب ، واقليم عدبين في الشرق حتى البحر المتوسط في الغرب.

وغطت الكتابات التاريخية السريانية اكثر من عشرة قرون ، أي منذ القرن الثالث للميلاد حتى أيام المغول ، وخلال هذه الفترة المديدة لم يتول السريان دورا مباشرا في التحكم بشؤونهم ، ثم إنهم لم يسعوا لفعل ذلك ، ومرد هذا بالاساس الى الجغرافيا ، ففي البداية توزعوا بين امبراطوريتين اريتين متنازعتين هما : بيزنطة في الغرب وفارس في الشرق ، وامتدت حدود جبهة القتال المستمر بين هاتين الدولتين فيما بين الفرات والدجلة ، وكانت الحروب مدمرة خربت الأرياف والمدن بشكل مروع ، ولم يكن للسريان اية مصلحة في هذه الحروب ، وفضلا عما نالهم من دمار وأذى مستمر من جرائها شطرت السريان الى شطرين : شرقي وغربي ، وكذلك شطرت كنيستهم ، فمنذ القرن الخامس للميلاد استقل سريان بلاد ما بين النهرين عن اخوانهم في الغرب ، وفقط مع الفتوحات العربية ازيل الستار الحديدي الذي فصل ما بين سريان المشرق والمغرب واستأنفوا تجانسهم الطبيعي ، إنما منذ أن حدث هذا بدا المسيحيون يتحولون الى اقلية متضاءلة لها بعض الأدوار السياسية والادارية.

وانعكس هذا كله على الكتابات التاريخية السريانية ، فهي لهذا حوت على حكايات كثيرة صممت لاثارة الولاءات للكنيسة ولتقويتها ، وعليه نجد فيها روايات اسطورية عن وصول اولى البعثات التبشيرية الى الرها وتراجم حياة شهداء الكنيسة ، وهي كثيرة جدا ، جل موادها خيالي مخترع لايمكن للمؤرخ الجاد الافادة منه ·

وأفضل من هذه التراجم محفوظات وثائق الرها مع انها وصلتنا مفتتة ، واقدم مادة تاريخية فيها تتحدث عن فيضان أصاب الرها سنة ٢٠١ م ، ويرجح أن كاتب وصف هذا الفيضان كان شاهد عيان ، وكان مما قاله :« أصبحت ينابيع الماء التي انبجست من القصر العظيم ، العائد للملك أبجر ، غزيرة وفاضت ، وكما حدث في مناسبة فارطة تعاظمت وطافت على جميع الجوانب » ، « وبدات

ساحات قصر الملك وبيوته تمتلىء بالماء ، وعندما راى سيدنا ابجر الملك ذلك ، صعد الى مكان امين على تل يشرف على هذا القصر ، حيث كان حرفيوا الأشغال الملكية يعيشون ويسكنون »

والمتمعن في اسلوب هذه الرواية يراها صادقة ومباشرة ومختصرة ، وهي بالحقيقة نموذج لما تلاها من كتابات ، ومن المفيد التعرف هنا الى عدد من مشاهير المؤرخين السريان وصولا إلى مؤرخينا الثلاثة الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية.

لعل تاريخ يهوا العمودي هو الأقدم بين ما هو معروف من التواريخ السريانية ، ولا نعرف شيئا عن يهوا سوى انه ابتدا كتابه بحوادث سنة ٣٩٥ ــ ٣٩٦ م وانتهى في سنة ٥٠٦ ، ويرجح ان هذا التاريخ قد صنف بالرها ، ذلك أنه كتب ببساطة وامانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع ، تحدث فيه يهوا عن الحروب بين الفرس والروم فوصف أعمال الحصار والغارات والكمائن والأسلحة ، حتى اننا نكاد نسمع دمدمة الحشود العظيمة وزحف الهون على اعالي الجزيرة وسورية،ففي سنة ٥٠٢ م قاد النعمان بن الأسود قوة كبيرة من العرب والفرس والهون فأغار على حقول حران والرها ، ولدى يهوا هنا رواية شهيرة عن قدوم تعزيزات قوطية قدمت نجدة من البيزنطيين فنزلت على اهالي مدينة الرها واحتلت مساكنهم ، اسمعه يقول:« ونهبنا ايضا الذين جاؤوا لمساعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون او رائحون بقدر ما فعل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فرشهم ، وناموا فيها ، في حين نام أصحابها على الأرض في الطقس البارد ، وطردوا آخرين من بيوتهم ، ودخلوها ليسكنوها ، وانتزعوا مواشي بعض الناس بالقوة ، كما لو كانت غنائم حرب ، ونزعوا عن آخرين ثيابهم واخذوها ، وضربوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تافه ، وتشاجروا مع آخرين في الشوارع ، وكانوا يسبونهم لأصغر سبب....وكانوا يهاجمون الناس في الطرق العامة.... من النساء العجائز الى الأرامل والفقراء وكانوا يمنعونهم من اعمالهم ليخدموهم ، وباختصار ، لقد ازعجوا

الناس جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك انسان لم يعان بعض الأذى منهم »

لقد كان البدو هم الرعب الدائم لسكان المدن والقرى في شمالي الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربي) ، بسريانية تلك الفترة ، وقصد العرب هؤلاء في الريف بشكل رئيس بين آمد وثنوريوس ـ الذي وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم الى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام بداة طيء ، كما كانوا يسمون عادة ـ هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات في المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر امير الحيرة ، الذي ضحى بأربعمائة أسيرة من العذارى لربه القمر ـ العزى ـ من فم لفم ، وبدأت المسيحية الحقيقية في اصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس ، وكتب يهوا يقول : « انهم عبروا دجلة ، وسلبوا ، واخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الأراضي الفارسية ، يا صاحب القداسة ». ويتابع مخاطبا مراسله : « يجب أن تعرف حقيقة أن الطائيين شكلت الحرب بالنسبة لهم موردا كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين ».

وقد لاحظنا بساطة اسلوب الكاتب وصراحته ، وأبدى يهوا ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم أعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفا وتفهما للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فها هو ذا يخبرنا عن أسعار القمح والشعير والخضار والنبيذ ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عن عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قلبيا.

أما المؤرخ يحيى العربسوسي (أفسوس) الذي عاش من

سنة ٥١٦ الى نحو ٥٨٧ م فـــكان ذا طبيعـــة اكثـــر حـــدة وصرامة ، وهو بالأصل من اهالي امـد ، اقـام معـظم حياتـه في القســـطنطينية ، وكان على صـــلة وثيقـــة هناك بالأباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بشـكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في أسيا الصغرى ، وكان احد الذين اثاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد أعلن هو نفسه ، بصورة مملة نوعا ما ، انه:

« لم يكن غريبا عن صراع الأحداث....بل كان واحدا مـن الذين زحفوا الى المعركة ، والذين.....تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر الام الاضطهاد والسجن... ».

وبما أن يحيى كان عضوا قياديا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقا خطيرا ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف ضيق الأفق والتعصب..والحاجة الى ضبط النفس والظلم والقسوة ، التي كانت شائعة في تلك الفترة.

وجعلت مسألة الايمان بالإرادة الواحـدة للمسـيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا اعضاء في الطائفة نفسـها. ونقرأ على سبيل المثال ، انه عندمـا سـجنت جمـاعة كبيرة مـــن المسيحيين من قبل الفرس في انطاكية ، نجح مسـيحيان عربيان في الهرب من المدينة ، وشقا طريقهما الى القسطنطينية ، وهناك أعلم يحيى بهما البلاط ، وعندما دعا تايبيروس ــ خوفا مــن الانشـقاق الديني الذي مـــزق امبـــراطوريته ــ المنذر بـــن الحـــارث الى عاصمته ، وعمل على التوصل الى تسوية مـع هـذا الملك العـربي المسيحي كان يحيى نفسه موفدا الى المؤتمر ، ونجـد في صـفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع انحاء الامبراطورية كمحارب ورجل دولة.

وقد ألقى احد معارف يحيى الآخرين ضوءا غريبا على التـاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان احد الممثلين القلائل للكنيسـة القـائلة

بالارادة الواحدة للمسيح في الاراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشيم ، وكان مجادلا فظا ، قام برحلات متكررة الى فارس ، وراوغ أعداءه النساطرة بالامتناع عن الاعتراف بصحة اصالة الرداء الارجواني ، وعندما كان بزيارة للحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس وسجل يحيى على صفحات تاريخه اخبار رسل ذي نواس الى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها ـ وهي حادثة ذائعة الصيت ـ كان لها صدى واسع في الأراضي العربية.

إننا يجب ان نقدم التقدير والاجلال لأمانة يحيى كمؤرخ ـ فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسحية ، مديحا وافرا بقوله :« وكما اثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلا حصيفا ، حكيما ، وقد أوقف نفسه طوال حياته باجتهاد على دراسة الأعمال الفلسفية... »

ويبدو أيضا أن الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو انه كان مستعدا لتقديم تنازلات كبيرة لاعادة ارساء السلام .

وهو بين مؤرخي تلك الفترة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار ، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس ، اسمعه يقول :« تلك الأحداث ، التي لم نرها أو تدركها معارفنا ، ولا يمكن أن نشهد بصحتها بقدر ما نحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها ».

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم ذاتية للنساك والزهاد الذين كانوا من معاصريه في منطقة آمد ، دار نشأته الأولى ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في تاريخ الجزيرة قبل الاسلام ، وهي مادة حول شعب ورع جاهل يمجد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابهت معاناتهم طرائق المشائيين ،

ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين الهمـوا البـدو في زمـانهم الاخلاص في الصلاة والصوم وكبح الشهوات ، فالصراحة البـدائية لمذهب المؤمنين بالارادة الواحدة في المسـيح ، قـد اجتـذبت البـداة العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها النسـاطرة وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدرا لها ان تتفجر مـن الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، اي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت مـن قبـل فارس خلال تلك الفترة ، كتـب تـراجم فقـط ، متـكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، الفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة وهي تاريخ مشـيخرخا ، مـع معلومات قيمة حـول قيام الأسرة السـاسانية ، وتـاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الاسلام ، وتاريخ ابن حدبشبا .

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العربسوسي ، كان النبي محمـد (ص) في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمـره ، وكان مقـدرا للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما امكن لاحد أن يتنبـأ بهـا في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول الفتح العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقـت بحملات هرقل والعرب في مالايزيد عن كلمات قليلة ، وعندما ارتفـع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الاسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في الفترة الاسلامية هؤلاء المؤرخـون السريان يعتمـد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهـم كانوا دائما بعيدين عن تـوجيه الامـور ، ولكنهـم الآن بـاستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بـلاط الملوك والأمراء ، بمكانة سياسية سـلبية ولامبـالية ، وحتـى بـلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، مـن

الأسلم أن تكون له صلات صغيرة بسلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥ م ، على سبيل المثال اعتقل البطريرك جورج ، وقد قدح فيه أعداؤه ، وجلد أمام الخليفة المنصور ، وعندما سأله الخليفة بجفاء : لماذا لم يتقدم بطلب (براءة ملكية) تؤكد منصبه في الكنيسة ، أجاب بلطف.: لم أرغب في إزعاج أحد .

ويلاحظ مع ذلك ، أن المسيحيين مهما كان تحفظهم وبقاؤهم بمنأى عن حروب الحكام المسلمين ومؤامراتهم.كانوا مع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل أرض وفي كل عصر ، ونستطيع أن نستخرج من تواريخنا السريانية معلومات مفيدة حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية للناس العاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهت أقلية دينية تحت الحكم الاسلامي ، ويجب بالطبع ، أن نطبق على التواريخ الأخيرة مسطرة منزلقة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخيا .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الاسلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي تصف حوادث سالفة على زمانهم ، لأنهم ربما كانوا ، يكررون آثارا موثوقة ، خلفها لهم أسلافهم ، لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزيدوا على تأكيد الحقائق ، التي رسخها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم ، أو حدثت قرب فترة حياتهم .

وملفت للانتباه أنه يوجد في هذه التواريخ فقرات نافذة ، لا بل ناقدة بقسوة للنظام الذي كان قائما ، وفي هذا دليل واضح أن السلطات الاسلامية أعطت حرية في العمل والاختيار جديرة بالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ، فقد شعر هؤلاء الكتاب ، بأنهم احرار في أن يكتبوا كما يريدون باللسان السرياني أو العربي ، ويعزز هذا كثيرا ويرفع من قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

لقد بينت من قبل أن التاريخ السرياني كما نفهم اصطلاح

التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبدا ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبيا بالتدوين في العصور الاسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، وحتى عندما أصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للاسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشارقة الجزيرة ـ دنحا وايشودنح ، وتوما المرقي والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجم للشهداء والقديسين ـ لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة وهناك استثناءان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع في سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه لابد قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ، ويحتمل أنه صنف من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ الياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس اكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة على الرغم من القلة في العدد ـ باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها.وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في التواريخ أولا بصورة غير صحيحة إلى البطريرك دانيوس التلمحري ، والذي ينتهي تاريخه بعام ٧٧٤ م ، وهو رواية مملة نوعا ما مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب ضد خطايا الانسان ، مع الاضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك فهي تعطينا وصفا ضافيا لبلاد الجزيرة في القرن الثامن ، من مثل قوله :« لقد كانت الأرض كلها .... رائعة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير في قرية ، لايملك حقلا وجملا وماعزا ، ولم يكن هناك مكانا قابل للزراعة تقريبا ، لم يبذر أو يزرع بالكروم حتى في

الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمر ، كانت الكروم تزرع .... وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعي الكثيرة » .

ولكن مؤلفنا يستغرب ،« فالأرض مليئة ايضا بالظلم » ، وقد كتب بمرارة عن الصراع المصطنع ضمن الكنيسة ، وضد عدم الاستقرار الداخلي ، أو الثورة ضد السلطة ، والمجازر التي كانت تعقب ذلك ، وقد ندد بالابتزاز ، الذي قام به الحكام واتباعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجال لضمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر في حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال « بالصيد في النهر بدون تصريح » ، وكان الموظفون يبالغون في تقدير العشور : « وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تماما ، حتى لو لم يحصد أكثر من خمسة أضعاف البذار ، وقد تحمل العرب محنا أقسى من السريان » .

« ثم انقض جباة الضرائب عليهم بالضرب والتعذيب من كل الأنواع ، وكان عليهم نظريا أن يأخذوا العشر ، ولم يكن العرب يستطيعون جمع ماهو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل مايملكون ، وقد حاولوا حثهم على أن يأخذوا وفق القانون ، الذي شرعه محمد (ص) والملوك الأوائل ، وأن يأخذوا من كل واحد حسب مايملك قمحا ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا سلعكم واعطونا ذهبا » .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التي كتبها البطريرك دانيوس الذي نسب إليه خطأ التاريخ الذي وصفناه لتوناء.
وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراسة التاريخ في أحد الأديرة ، عندما سيم رغما عنه بطريركا لليعاقبة في عام ٨١٦ ، وناضل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الانشقاق من الداخل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغداد ، وحتى إلى مصر يلتمس تدخل السلطات ، وترى سيرته الذاتية من خلال انه

كان مراقبا داهية للرجال ، وقد صورت عجز الاقليات واعتمادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلا من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلي كلمات الخليفة المأمون القاسية التي وجهها إلى دانيوس : « إنكم تزعجوننا وتضايقوننا كثيرا ايها المسيحيون وخاصة اتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التي يقدمها احدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد ايام » .

وفي روايته حول زيارته لمصر ، لدينا صورة نابضة بالحياة للطائفة المسيحية هناك :« مدينتنا محاطة بالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو اي موارد أخرى ، ولايمكننا أن نربي ماشية ، المياه التي نشربها تأتي من بعيد ، ونحن نشتريها بسعر اربعة مثاقيل للراوية ، وعملنا محصور بالصوف الذي تغزله نساؤنا ، ونقوم نحن بنسجه ، والثمن الذي نحصل عليه من تجار القماش ، هو نصف مثقال في اليوم ، وحيث أن عملنا لايوفر الخبز الكافي لأفواهنا ، وعندما نطالب بالضريبة ، نضطر إلى دفع خمسة دنانير (أي ثلاثين مثقالا) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا بالسجن ونكره على تقديم بناتنا وابنائنا كضمان للعمل كعبيد عامين لقاء دينار واحد ....» .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحاكم مصر الذي « اعطى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قانون الجزية ــ ٤٨ مثقالا من الأغنياء ،و ٢٤ من متوسطي الحال و ١٢ من الفقراء ــ عند جمع الجزية » .

وننتقل إلى مؤرخينا الثلاثة ونصوصهم ، والنص الأول هو حولية لمؤرخ رهاوي مجهول لعله باسيل مطران الرها في فترة أحداث الحولية ، التي تعالج أخبار مدينة الرها وما كان مايحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إنها رواية دقيقة ، تذكر بقوتها بأسلوب تاريخ يهوا العمودي الأقدم بنحو سبعة قرون ، فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وإلفة المؤلف مع خطط الرها ، انه كان معاصرا لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضها ،

لهذا رجحنا أنه ربما كان باسيل المطران السوري لمدينة الرها في ذلك الوقت ، ونقرأ عنده عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل واسيره الصليبي جوسلين ولكن مثل هذا الكرم ، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار في الرها والمدن المجاورة ، خلال فترة السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكي سنة ١١٤٤ م ، مما اثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قيام حملة صليبية جديدة ـ واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة اكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥ : « وخرج المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الانجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته واحواله وقال إنه جاء من اجلهم لامدادهم بما ينقصهم .... لقد زار كنائسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت العادة في زمن الفرنجة ... ، وأوصى المطران أن يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون حكومته » .

وهذه الرواية واردة أيضا في تاريخ كان مؤلفه حاضرا عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣ .

واشهر منه واعظم اهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة ميخائيل السوري (ت ١١٩٩) لقد اصبح راسا لكنيسة اليعاقبة في سنة ١١٦٦ م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاما ، ولقد كان كاهنا عسكريا ميالا للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين اتباعه ، وكثيرا ماكان تاريخه مثيرا للجدل المذهبي ، وهو لهذا لايقدر بثمن ، وهو مرتب في ثلاثة

أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمانية ، وتعلق الثاني بالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وامورا ذات اهمية شخصية ومحلية.وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مع مافيه من تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالبا الاكثر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشيوخ القبائل الصغار في الجزيرة ، قليلي الاهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسطاء من اهل المدن ، والفلاحين الذين تكونت منهم رعية ميخائيل . وبالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصة مشابهة لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم من المسلمين أو الفرنجة

وفي القتال بين الاكراد والتركمان ، كان كل طرف يصب نقمته على المسيحيين المحليين ، ولقد كانت لنور الدين سمعة في الورع والاحسان بين المسلمين ، ولكن المسيحيين رأوه خلاف ذلك ، وعندما جاء الى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلا : « ضاعف المكوس على المسيحيين ، وزاد الجزية ، والزمهم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعرفوا ويمكن تمييزهم من قبل العرب. وقضى أيضا أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على اكتافهم ، حتى يعرفوا »

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، اعدم الوزير ابن البلدي وأوضح ميخائيل ، أن الوزير الذي ذبح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفة الجديد بمحبة المسيحيين نكاية بالوزير وكراهية له.

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضعوا املا كبيرا في عموري الأول ، الذي روعهم موته ، في سنة ١١٧٤ م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخائيل نفسه أن يدين أو يصف باللاأخلاقية الرشاوى المقدمة للحكام والعسكريين وسواهم من أجل دفع اذيتهم.

وكان نصيرا مدافعا قوي الشـكيمة عن رعيتـه ومحـافظا على حقوقهم كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسـيف الدين غازي ، الذي اقترح تسمية كاهن منافس له ليكون بطريركا:

« إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك مـن أسـلافك ، فلتعلم انك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل مـن الأنبياء ، مـوسى وعيسى ومحمد (ص)لأنك تدمر مشيئة الله... أما بالنسبة لي ففقدان رأسي لا قيمة له ...وها أنا أقدم بحرية رأسي فدعهم يقطعوه ، لأني أخالف مبادىء القانون ».

وفي عام ١١٨١ استدعى ميخـائيل مـن قبـل قلج ارسـلان الى ملطية ، فذهب مرتعشا ، ولكن السلطان استقبله بكل حفاوة وتكريم ومجـاملة ، وتناقش البـطريرك معـه واصـغى اليه (يؤكد لنا) بسرور ، وتأثر بحكمته الى درجة جعلت الدموع ، تنهمر مـن عينيه (السلطان).

وتوفرت لميخائيل فـرصة لحضـور القـداسات في جميع انحـاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القـدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل عموري الأول وبلدوين الرابع.

وكانت تعليقاته على مجموعات القوى الرئسية الثلاث في غربـي اسيا في تلك الفترة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الأول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسـع ، اسـمعه يقول : « وفي السنوات التي سنكتب عنهـا الآن ، سـيطر الهـدوء والأمن في كنيسـتنا الأرثـوذكسية لهـذا السـبب .... وكان الروم القساة محتجزين وراء البحار » •ولم يثر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية ايضـا،وكان لهـم أساقفة في كنائسهم ، صـعوبات في أمـور العقيدة ، ولكنهـم كانوا يعدون مسيحيا كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للأتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البـلاد التـي يسـكنها

- ١٩٦٠ -
المسيحيون ، فـكرة عن الأسرار المقـدسة ، وعليه فقـد اعتبـروا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أو اضـطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك أنهم شعب كافر شرير ».

ونأتي مع ابن العبري الى آخر تواريخنا السريانية . لقـد اكمـل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخـائيل السـوري حتـى عام وفـاته سنة ١٢٨٦ م ، وجاء تاريخه بالسريانية ـ لا ابحث هنا في تاريخه بالعربية ـ في جزأين : تعـامل أو لهمـا مـع الأحـداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية وقد غير وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصـف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط راسه ، وكان هو نفسه حاضرا كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغـول في سـنة ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م .وكان على معـرفة بـأمراء وأميرات من البلاط المغولي.

وقد اتبعت مصائر المسيحيين مسارا ، لا يمكن التنبؤ به ، فمـن جهة وحد العرب صفوفهم مـع المسـيحيين للدفـاع عن ملطية ضـد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣ م .ومرة أخرى في سـنة ١٢٥٦ م . وهكذا أيضا في وجه العدوان المغولي على بغداد في سـنة ١٢٥٨ م . وقد أودع العـرب الاغنياء في المدينة ممتلكاتهـم للحفـظ في خـزائن الجاثليق ، ومن جانب آخر ، نهبت الأديرة المسيحية من قبـل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبـل الغوغاء من المسلمين في بغداد والموصل واربل.

وكانت الطائفة المسـيحية بـالتأكيد في وضـع شـاذ في تلك الفترة ، ولم يتخذ أمراء المغـول مـوقفا عدائيا تجـاههم ، بـل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصـب عليا في البلاط ، وأعلن ابن العبري : « حازت الكنيسة على الاسـتقرار والحماية في كل مكان » وقد دعا قبلاى خـان بـاسم« الملك الحـكيم

العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء والأطباء من جميع الأمم ».

ومع ذلك إن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها :« إنهم في جشعهم ، قتلوا أيضا كثيرا من المسيحيين وأسروهم ونهبوهم ، مع أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لا يؤذوا المسيحيين ».

وتاريخ ابن العبري بكل ما حـواه ، ليس مـرضيا ، فمـؤلفه لم يعطنا شيئا من اللمسات الشخصية ، التي جعلتنا مهنتـه وصـلاته الشخصية نتوقعها ، فقد كانت ولاءاته طائفية ضـيقة ، ويبـدو أنه كان يفتقر الى معايير تمـاسك الذات والأمـانة ، التـي تميز بهـا المؤرخون الأقدم ، لأن قسوة القائد المغـولي سـندغا وغدره (ذلك الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغـي علينا ، أن لا نحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته هذا التـاريخ ، لم تتعد ، بالنسبة له ، كونها تمرينا في الانشاء السرياني وجزءا مـن محاولته العامة لاحياء الاهتمام باللغة القـديمة ، وقـد حـكم على التجربة سلفا بالاخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرته ، وإنه لأمر له دلالته أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية ، وهـي عربية بأحرف سريانية.

وتكاد روايات ابن العبري عن احداث الحروب الصليبية ان تكون مجرد تكرار مختصر لما كتبه سـلفه ميخـائيل الكبير ، ولهـذا عدت مواد ميخائيل أعلى اهمية ومكانة ، ولا شك أن الافادة منها ستكون أكبر لدى مقـارنتها بمـا أورده ابـن الأزرق الفـارقي الذي ارخ في العصر نفسه وعاش في المنطقـة ذاتهـا مثله مثـل البـطريرك ميخائيل ، وتتأتى الفائدة ليس من الخلاف في عرض الروايات وإنما من الخلاف بالمشاعر.

إنها المرة الثانية التي انشر بها نص المؤرخ الرهـاوي المجهـول بالعربية ولكن الأولى بالنسبة لنص ميخـائيل الكبير ، على انه مفيد أن نذكر انه لتاريخ ميخائيل الكبير ترجمة بالعامية العـربية كتبـت بالكرشونية ، منها اكثر من نسخة مخطوطة واحـدة في بلدة صـدد قرب حمص وعليها أعتمدت كمـا اسـتفدت كثيرا مـن التـرجمة الفرنسية للكتاب ؛ وسبق للقسم الاسلامي من تاريخ الزمان لابـن العبري أن نقل الى العربية من قبل الأب اسحق ارملة ونشر تباعا في مجلة المشرق ثم أعيدت طباعته بعد جمعه في بيروت ١٩٨٦ ، وهـذه الترجمة متوسطة الحال ، لاتخلو من بعض الأخطاء خاصة في أسماء الأعلام.

الأمل كبير هنا أن يأتي نشري لهذه النصوص السريانية محرضا لمزيد من العناية بالأصول التاريخية المكتوبة بـالسريانية وتحقيقهـا وترجمتها الى العربية لأنها جزء عزيز من تراثنا نحن أحـق الناس بالافادة منه فضلا عن العناية والصيانة ، وأتمنى ألا ينفرد بالقيام بهذا الواجب من أتقن السريانية فقط ، بل أن يكون هناك تعاون مع الاختصاصيين بالتاريخ فهذا يجعـل العمـل اكثـر كمـالا فيتجنب الوقوع بكثير من الأخطاء التي شاهدناها في كتاب سيغال عن الرها وغيره من المترجمات الحديثة.

من الله أستمد العون وأطلب الرشاد والتـوفيق وصـلى الله على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق الثالث من رمضان ١٤١٣ هـ

الخامس والعشرين من شباط ١٩٩٣ م

روايات

المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية

في سـنة ١٤٠٥ (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) وبعـد مضي واحـد وخمسون عاما على فتح التـركمان ، لهـذه البـلاد وعندمـا كان الكسيوس امبراطورا في القسطنطينية جرى تعيين التركماني يغـي سيان واليا على انطاكية مـن قبـل ابـو الفتـح (١) ، وكان الأفضل (٢) المصري في القدس التي استولى عليهـا مـن سـكمان التركماني واخوته أبناء أرتق (٣) قبـل سـنتين ، وبـذلك اصـبح الساحل كله بيد المصريين ، (٤) ، وكان ثيودور كوربلات بن هـاتيم في الرها (٥) ، وقد حفظها من التركمان ، وكان يأمـل ان يسـلمها للامبراطور (٦) فيما بعد ، وفي هذا الوقت ظهر عدد كبير مـن الملوك والزعماء الفرنجة ومعهم جيش لجب ، يصحبه جمهرة مـن العمـال والحرفيين من جميع الأنواع يعدون بالألوف ، لابل بعشرات الألوف وقاد هذا الجيش اربعة من الملوك . وهم بـوهيموند ، وغودفـري ، وصنجيل ، وتانكرد مع جيش من الأساقفة والرهبان ، وقد توجهوا للسير برا عبر الأراضي البيزنطية ، وقرروا أن يعبـروا البـوسفور حيث تقوم القسطنطينية ، وحيث يتصل البحران بواسطة مضـيق ، وأرسل هؤلاء الملوك سفراء للامبراطور الكسيوس ، ليستعد ليذهب معهم ، وليهيء لهم مايحتاجونه من مؤن وعلف لاستعمال الجيش ، وقد وعدهم الكسيوس بالمساعدة بكل مايحتاجونه (٧) .

وعندما تقدمت جيوش الفرنجة ، وبدأت تدخل الحدود ، ووصـل قسم منهم إلى بعض المعسكرات .. (٨) ارسلت شرائم من المشـاة والعمال للعبور قبل وصـول الجند ، لكن الكسـيوس أنذر الأتـراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، وأخبرهم بقـدوم هؤلاء ، وطلب منهم أن يهاجموهم ، وهكذا أسرع الأتـراك إلى مـلاقاة هؤلاء على شاطيء البحر ، وذبحـوهم عن بـكرة أبيهـم دون شـفقة أو رحمة (٩) ، وعندما وصلت جيوش الفـرنجة إلى القسـطنطينية ، قابل رجالها الأمبراطور الكسيوس ، وقام النبـلاء بـأداء الأيمـان المغلظة على الولاء والطـاعة له ، واسـتعد الكسـيوس لمرافقتهـم شخصيا في طريق أخر من خلال غالشيا ، وبـدا الفـرنجة والاغريق

زحفهم مباشرة باتجاه نيقية (١٠) التي انتزعوها من التركمان وسلموها للامبراطور ، ثم زحفوا من هناك إلى كليكية وقد مادت الأرض تحت اقدامهم ، وارتجفت امامهم ، ثم اتجهوا إلى سورية ، حيث قرروا أن يبدأوا بالهجوم على انطاكية (١١) راس البلاد السورية ، فنصبوا خيامهم في جميع الامكنة حول أنطاكية ، وبذلك اقفلوا الطريق على كل من يود الدخول إليها ، او الخروج منها ، ثم بدا القتل والنهب في جميع انحاء المنطقة المحيطة بأنطاكية .

وكما سبق بنا القول كان تيودور يحكم الرها ، وعندما سمع اهالي هذه المدينة (١٢) أن الفرنجة قد وصلوا إلى انطاكية ، وعسكروا حولها ، طلبوا منه أن ينشد المساعدة من الفرنجة لحماية المدينة من التركمان ، ولم يوافق تيودور على هذا الاقتراح أولا ، إنما عندما راى أن اهالي المدينة لم تكن لهم القوة الكافية ، وأنهم سوف يستدعون الفرنجة خلافا لارادته ، تظاهر بالموافقة مع أنه لم يكن حقيقة مسرورا من مجيء الفرنجة ، بل كان خائفا جدا ، لأن أهالي المدينة كانوا يكرهونه ، لهذا أرسل رسله إلى الدوق غودفري رئيس الفرنجة وقائد جيوشها ، وطلب منه أن يرسل بعض الفرق العسكرية لحماية تلك البلاد ، وعندما قرا الفرنجة كتب تيودور هذا ، ابتهجوا غاية الابتهاج ، وارسلوا بلدوين أخا غودفري ، وكان رجلا تقيا ، يخشى الرب ، ويخافه ، كما كان محاربا شجاعا ، وفي ذلك الزمن كانت الرها مدينة كبيرة ، تعج بعدد كبير من السكان ، وتشتهر بما كان بها من رجال الدين والرهبان ، وكانت ارضها تغص بالقرى والمزارع والدساكر .

بعد أن اقام بلدوين ورجاله من الفرنجة في الرها بعض الوقت ، بدا بعض رجال المدينة الفاسقون الأشرار يثيرون البغضاء ، وقد وصل الأمر إلى درجة القيام بحبك المؤامرات لقتل الحاكم تيودور ، وجعل الفرنجة يحكمونهم بدلا منه ، ولم يكن ذلك حبا بالفرنجة ،

لكن بسبب البغضاء والنقمة التـي كانت تمـلأ قلوب أعداء تيودور ، فقد هاجوا كالحيوانات المفتـرسة ، وحـرضوا بعضـهم بعضـا ، وجمعوا جمهورا عظيما ، واثاروا الشغب والفـوضى بنزولهـم مـن القلعة القائمة قرب رأس النبع ، وعندما جاء تيودور نحو ذلك الحشد ليستطلع جلية الأمر ، هاجموه ، لكنه هرب من أمـامهم إلى القلعـة السفلى ، التي كان قد بناهـا فـوق البـوابة الشرقية للمـدينة ، وهاجموه في تلك القلعة ، فطلب منهم ان يعطوه الأمان ويقسموا بأن يسمحوا له بمغادرة القلعة مع زوجته واطفاله دون أن يأخذ اي شيء معه ، واستجابوا لمطلبه ووعدوه بذلك ، واقسموا له الأيمـان ففتـح لهم البوابة ، ولكنهم حنثوا بقسـمهم ، وخـانوا مـاعاهدوه عليه ، وتقدموا منه وضربوه وربطوه بالحبال ، وقادوه وهو عار تمـاما إلا بما يستر سواته ، ثم قذفوا به من أعلى السور المرتفع مقابل المدينة إلى الأسفل .... (١٣) ... ابن هاتيم وخراب بيته ، وقد تسلم بلدوين جميع ممتلكات تيودور مـع القلعتين ، وعندمـا سـمع الفـرنجة أن بلدوين قد استولى على الرها ابتهجوا كثيرا ، ونصبوا خيامهم قرب انطاكية واحكموا حصار المدينة ، وضيقوا عليهـا ، وحـالما اشـتد القتال حاك بعض رجال الحامية مؤامرة للتسليم ، وارسلوا رسـالة إلى بوهيموند لتسليمه المدينة ،وعندما تم حبك خيوط المؤامرة صعد بعض الفرنجة إلى أعلى السور ، ثم بدؤوا بالاندفاع إلى الأسـفل ، إلى داخل المدينة ، وعندما رأى يغي سيان أن المدينة قد سقطت فـر عبر باب القلعة العليا على التلة إلى نواحي شرقـي الجبـل ، وكان سقوط انطاكية بسـبب الخيانة وتسـليم الحـامية قـرب التلة على الجانب الشرقي (١٤) .

وبينما كان الفرنجة يحـاصرون انطـاكية ، إذا بـأحد زعمـاء التركمان الكبار واسمه كربوغا يصل إلى الرها من الشرق ، ويدخل بوابة المدينة ، وقـد كانت الأراضي حـول الرهـا مملوءة بقـطعان الحيوانات والمواشي والماعز والرجال والبيوت ، فأحدث دمارا كبيرا وتخريبا وقتلا وسلبا ، واخذ الكثيرين عبيدا ، ثم اتجـه نحـو حلب

للذهاب إلى انطاكية ، وعندما وصل إلى حلب علم أن انطـاكية قـد سقطت بأيدي الفرنجة ، فأسرع نحوها وعسكر حولها ، ومعه قـوة عظيمة جمعها من بغداد والعراق والجزيرة ، وحاصر الفرنجة وضيق الخناق عليهم في انطاكية ، وبدأ بـالهجوم على المدينة وقـد قـاست الحامية بسبب نقص المؤن والعلف للخيول ، فـالبلاد أقفـرت ، ولم تصلها اي امدادات في تلك السنة ، وكان الفـرنجة كثيرون يعـدون بالالوف ، لذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشـدت المجـاعة عليهم خناقها ، حتى صار ثمن الحمار الواحد عشرين دينارا وانعدم القمح والشعير ، وفي هذه الأثناء رأى احد المطارنة حلما أن هناك في مكان معين في كنيسة القسيان العظيمة الرمح الذي طعن بـه جسـم المسيح (على يد اليهود في طبـريا) ، وقـد قـال له الهـاتف في الحلم : « خذ هذا الرمح ، وضعه أمام الجنود ، واخرج معهـم إلى العدو فلسوف تهزمونه. » .

وعندما وجدوا الرمح ارتفعت معنوياتهم ، وابتهجوا واسـتعدوا للهجوم على التركمان ، وخصوصا وأن المجاعة قد شحذت هممهم ، فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجا افضل مـن الموت داخـل البيوت كالنساء ، ووضعوا علامة الصليب وشارات هذا الرمح على حرابهم ، وزحفوا إلى الأمام فوهبهم الرب النصر من لدنه ، وانهار جيش التركمان فهرب ، وبعد أن أعمل الفـرنجة القتـل بـأعدائهم رجعوا إلى خيامهم ومراكزهم بعـد أن غنمـوا كثيرا مـن الغنائم ، والحبوب والخيول والسلع الأخرى ، وقد انتشر خبر هذا الانتصـار في الخارج ، فكسرت شوكة ملوك التركمان (١٥) ، واستولى الخوف والفزع على قلوب جميع ملوك المنطقة .

وحكم بوهيموند (١٦) انطاكية بمسـاعدة ابـن أخته تـانكرد ، واحتفظ التركمان بسروج (١٧) ، وتملك الأرمـن مـن ابناء بـازاك زيوجما (١٨) بضفاف الفرات ، وأخذ باسيل اللص وهو من الأرمن

كيسوم (١٩) ورعبان (٢٠) (وقد دعي بهذا الاسم لانه كان يسطو على المسافرين باستمرار) واحتفظ غازي (٢١) التركي صاحب بلدوقيا بسميساط (٢٢) واحتفظ البيزنطيون ابناء فيلارتوس بمرعش (٢٣) والجبل الأسود ، واحتفظ الأرمن ابناء رافين بعين زربة (٢٤) وكليكية ، واحتل الفرنجة بطرسوس (٢٥) والمصيصة واذنه (٢٦) .

وعندما قويت شوكة الفرنجة ، استعدوا للتقدم ولحصار القدس ، وزحفوا برا وبحرا ، وقد حاصروا أولا يافا التي تقع على الساحل الفلسطيني ، واحتلوها في بضعة أيام ، ومن ثم تحركوا فورا ، ونصبوا خيامهم أمام القدس ، واحاطوا بها من كل جانب وقد هاجموها بضراوة ، وبنوا الأبراج الخشبية المتحركة أمام المدينة ، وكانت المدينة تحتوي على جمع غفير من الجند المصري ، والأسلحة والعدد الحربية ، وعندما اشتد الهجوم سلم الحاكم المدينة للفرنجة في شهر تموز في السنة الثانية لبدء تلك الحملة عام ١٤٠٩ (٢٧) ، ولقد قتل في المدينة ثلاثون الف مسلم ونهبت المدينة (أما المسيحيون فقد كانوا قد طردوا منها قبل وصول الفرنجة) ونصب الدوق غودفري ، وهو أحد قوادهم الكبار ، ملكا على القدس ، (٢٨) ، ثم انتشروا في جميع أنحاء البلاد واحتلوا القرى والقلاع ومدن فلسطين ، وجميع الجليل .

واخذ الكونت صنجيل احد مقدمي الجيش الذين قدموا مع الفرنجة قوة كبيرة وحاصر طرابلس ، وهاجمها بضراوة ، وكانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار وخندق عميق بين كل سورين ، ولكنها كانت مدينة صغيرة ، وبها حامية كبيرة من الجنود الأكفاء ، وبنى صنجيل حصنا على منحدرات جبل لبنان الجنوبية وجعله مدينة مأهولة كما هو الآن (٢٩) ، وقد حارب وقتا طويلا للاستيلاء على المدينة وظل الحصار مدة سبع سنوات حتى سلمها صاحبها (٣٠) ولقد غنم كثيرا من الأسلاب ، وقتل جميع المسلمين الذين كانوا في

المدينة ، وقد احتل جميع الأراضي حولها وجميع الساحل ماعدا صور وعسقلان اللتان بقيتا بيد المصريين ، وأما دمشق وحمص وتدمر وبعلبك وحماه وحلب وبصرى وكلا (٣١) ومنبج وحران والرقة فقد احتفظ بهم المسلمون الذين كانوا يلحقون الأضرار الفادحة بكل الأراضي التي احتلها الفرنجة .

وفي هذا الوقت كان جبريل القلقيلي (٣٢) يحكم ملاطية ، وكان قد عينه بوزان (٣٣) قائدا عليها وواليا لها ، وعندما قتل بوزان ظلت المدينة تحت سلطة جبريل ، وقد أرسل إلى بوهيموند في انطاكية يقترح عليه أن يأتي إلى ملاطية ويتزوج ابنته (ابنة جبريل) ويستلم ملاطية كمهر (دوطه) للبنت ، وكان اسم البنت كيرا ـ مورفيا ، واتجه بوهيموند نحو ملاطيه ، لكنه عندما اقترب منها تصدى له الدانشمند حاكم بونتوس وكبدوكيا وقد هزم بوهيموند وقتل من كان معه من الفرنجة ، أما هو فقد وقع اسيرا (٣٤) وبعد مدة افتدي بمبلغ ضخم من المال ، ورجع إلى انطاكية حيث عين ابن اخته تانكرد حاكما عليها ، ثم ابحر إلى موطنه حيث مات ، وكذلك فعل صنجيل (٣٥) الذي فتح طرابلس بأن جعل ابنه حاكما على طرابلس ، ثم ابحر عائدا إلى موطنه .

وحدث أن رغب أحد أمراء الفرنجة المدعو بيتافين (٣٦) أن يتوجه إلى المنطقة عندما سمع أن الفرنجة الذين اتو قبله قد استولوا على سورية وفلسطين ، فعمل خطة بأن يمر من خلال بامفيليا وكبادوقيا ، ويمتلك الأراضي الشمالية وبعدما وصل إلى القسطنطينية اجتمع بالأمبراطور الكسيوس وطلب منه أن يقدم بعض المرشدين الذين يعرفون خفايا الطرق ، ولكن الكسيوس خانه وضلله فأرسل معه رجالا أمرهم أن يقودوه إلى الأراضي الصحراوية حيث لاماء ولاعلف : ثم اخبر التركمان في تلك النواحي أن يحيطوا به ويحاصروه ، وقد تحقق كل مارمى إليه الكسيوس ، فقد اتت قوة عظيمة من التركمان ، واحاطت به وبمن معه ، وهاجمتهم وهم في حالة تعب وإعياء من الجوع والعطش وقد رماهم التركمان بوابل من

النبال ، ولم يكونوا بحالة تسمح لهم بالقتال ، ولم يكن امامهم مكان يفرون إليه ، ولهذا هزموا شر هزيمة ، وقتل التركمان الكثير منهم بسيوفهم وغنموا منهم مبالغ طائلة من الذهب والفضة ، وقد هرب بيتافين قائدهم ومعه القليل من رجاله ورجع خائبا إلى بلاده .

ومات غودفري ملك القدس بعد سنتين من حكمه ، وترك المملكة لأخيه بلدوين ملك الرها ، وعندما علم بلدوين بالخبر سلم الرها لبلدوين اخر ، وكان رجلا ابيا وزعيما كبيرا من زعماء الفرنجة المحترمين ، وذهب إلى القدس حيث حكم مكان اخيه ، وكان جوسلين وهو احد اقارب بلدوين الذي اصبح حاكم الرها يحكم تل باشر (٣٧) في منطقة منبج ، وعندما اصبح بلدوين حاكم الرها عرض عليه جبريل صاحب ملاطية أن يتزوج ابنته كما كان قد عرض من قبل على بوهيموند وقبل بلدوين وتزوج كيرا مورفيا ابنة جبريل وأخذها إلى الرها ، وقويت شوكة الدانشمند حاكم كبدوكيا الداخلية خاصة بعدما أسر بوهيموند ، واستلم فدية كبيرة لاطلاق سراحه ، فجمع جيشا عظيما وعسكر حول ملاطية واصابها بأضرار ، وقد حاربت حامية المدينة قدر استطاعتها ولكن عندما شعر رجال الحامية أن القتال أصبح دون جدوى ، أصابهم الوهن فاقنع بعضهم أسقف المدينة الذي كان مخلصا في تشجيع الرجال على القتال ، أقنعوه بأن يطلب من جبريل ويشير عليه بأن يوافق على المصالحة والتسليم ، وعندما اشتد القتال تكلم المطران مع جبريل لاقناعه ، ولكن جبريل الشقي ظن أن هنالك مؤامرة ضده فدخل الشيطان إلى قلبه ووسوس له فأقدم على قتل الأسقف وعدد من رجال المدينة المسيحيين المعتبرين ، معتقدا أن في ذلك خلاصا له ، لكن العكس هو الصحيح كانت سببا في نهايته ودماره ، وكان اسم الأسقف سعيد ابن صابوني ، وقد تغلب المحاصرون على المدينة وفتحوها ، واصبح الدانشمند صاحبها (٣٨) ، وقد قتل جبريل وازيل بيته من الوجود كليا .

وكانت بلدة سروج (٣٩) قرب الرها بلدة غنية ، ومأهولة بالسكان

المسلمين والمسيحيين ، وفيها جميع انواع التجار وأكثرهم شهرة ، وكان واديها غنيا ومأهولا بالسكان ومليئا بالدساكر ، وكان يحكم هذه البلدة تركماني اسمه بلك (٤٠) وهو احد ابناء أرتق ، وقد قام فرنجة الرها بمهاجمة هذه البلدة وحصارها من طرف من أطرافها ، وأتى لمساعدتهم أرمن منطقة الفرات ، ووضعوا انفسهم تحت تصرف الفرنجة ، وهاجموا تلك البلدة بعدما أحكموا الحصار حولها من كل جانب ، ولما أدرك صاحب سروج أن البلدة لايمكن أن تقاوم وتستمر وسط الأراضي المسيحية راسل بلدوين حاكم الرها يعرض عليه أن يسلمه سروج وفق شروط يعينها له وأيمان موثقة ومؤكدة ، فوافق بلدوين وأعطى كل المواثيق المطلوبة فسلمت له سروج مع قلعتها ، وعين بلدوين أحد الفرنجة المشهورين ويدعى بوتشير ، وقام هذا فجمع الأموال الطائلة من سروج ، وقد صادر أموال احد الرجال العرب المسلمين واسمه عبيد ، وكان واحدا من قادة البلدة وأعيانها ، مع أموال أخوته وأقاربه ، وأخذ من بيوتهم اموالا وثروات لايمكن حصرها ، وهكذا غدا بوتشير غنيا وقويا .

وحينما سمع سكمان بن ارتق (٤١) عم بلك بأن الفرنجة قد استولوا على سروج ، جمع جيشا عظيما وحاصرها معتمدا على عدد المسلمين الكبير في البلدة ، ولدى سماع بلدوين حاكم الرها بذلك خف لقتاله ، وعندما اقترب الجمعان من بعضهما ، نصب التركمان كمينا للفرنجة ، وأطبقوا عليهم من المقدمة والمؤخرة ، فكسر الفرنجة ، وقتل منهم عدد كبير ، لكن بلدوين هرب إلى الرها ثم تسلل وهو مفعم بالخوف عبر الفرات ، ووصل إلى انطاكية ليجمع جيشا وينقذ سروج ، وكان بوتشير حاكم سروج قد وقع اسيرا ، وقد انسحب جميع المسيحيون هناك ، وتجمعوا في القلعة ومعهم باباياس أسقف الفرنجة في الرها الذي صدف أن كان موجودا في الرها في ذلك الوقت وقد اصطحبوا معهم العمال والنجارين والحدادين وجمعوا المؤن وبعد أن هزم الفرنجة بدا التركمان في حصار القلعة وهاجموا النصارى بقسوةوبينما كان هؤلاء يقاتلون ليلا نهارا وصل رسول من بلدوين يحمل رسالة يقول فيها استعدوا

من داخل القلعة ، وعندما بزغ الفجر أشعل الفرنجة المشاعل ، ووضعوها على رؤوس الرماح وهجموا ، وقد سادت الأرض تحت وطأة أقدامهم ووصل ضجيجهم إلى عنان السماء ووافاهم رجال الحامية وأمدوهم بالعون والمساعدة ، وهكذا حل الرعب في قلوب التركمان وتملكهم الخوف فهزموا ، وذبح الكثير منهم بحد السيف وتقدم الفرنجة إلى معسكر التركمان وأعملوا النهب فيه دونما توقف ، وغنموا الأموال والسلع ، وحل الخوف في قلوب سكان المدينة من المسلمين ، ولم يصدقوا أن الفرنجة سوف يعاملونهم بأي نوع من الرحمة أو الشفقة ، وهكذا أقفلوا أبواب المدينة وحصنوا الأسوار وبدؤوا بمقاومة الفرنجة ، وكانوا يأملون أن يحتفظوا بالبلدة حتى يأتي جيش من جيوش المسلمين لتخليصهم ، وحاول الفرنجة أن يقنعوهم بأن يتخلوا عن هذا العناد ، ويتخلوا عن هذا الموقف ، وطمأنوهم بالأيمان المغلظة أنهم لايرغبون في قتلهم ، ولكن هؤلاء لم يعيروا الفرنجة أذنا صاغية ، فأعلن الفرنجة « أنه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا اشارة الصليب » ، وبعدها هجموا كالأسود ، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف ، لابل عشرات الألوف ، التي لاتعد ولاتحصى ، وقد خربت تلك البلدة الآهلة بالسكان ، وتجمع المسيحيون الذين بقوا أحياء حول القلعة وعاشوا معيشة البؤس والفقر (٤٢) بعد هزيمة كربوقا (٤٣) المذكورة أعلاه ، وبعد هزيمة سكمان والمصائب التي حلت بالمسلمين في سروج ظهر أحد الأمراء من الشرق ويدعى جكرمش (٤٤) واستعد بجيش عظيم لقتال الفرنجة ولحماية البلاد ، فبدأ بمهاجمة الرها وجاس جيشه خلال البلاد وأعمل بها قتلا ونهبا واستعبادا حسب هواه ورضاه ، وحالما اقترب الجيش من المدينة خرجت حاميتها للقائه عند الباب الشرقي لمنعه من الاقتراب منها ، وتقدم كثير من أهالي الرها الحمقى بسيوفهم وأسلحتهم ، وخرجوا من المدينة لقتال التركمان الذين حالما رأوهم قادمين بسرعة ودونما نظام انسحبوا إلى الوراء قليلا حتى مكنوا الفرنجة من الانتشار في السهل أمام الجسر الشرقي ، ثم حيا

التركمان بعضهم بعضا وبدأوا يطبقــون على الفــرنجة مــن جميع الجوانب ، ورأى الجنود على الأسوار كل هــذا فخشــوا أن يلتقــي الجيشان ويختلطان بعضهما ببعض ويرجعا معا إلى المدينة ولهــذا اقفلوا الابواب وانعطف التركمان واطبقوابقسوة على المحاربين من أهالي الرها فهــرب هؤلاء ، وعندمــا وجــدوا أن الابــــواب مقفلة ارتجفوا وحل بهم الذعر والهلع ، لأنهم لم يستطيعوا الوصــول إلى الجسر فوق الخندق ليعبــروه بين الأســوار ، فســقط معــظمهم في الخندق في أحد جوانبه أو في الجــانب الآخــر ، ونزل الرجــالة مــن التركمان خلفهم وأعملوا فيهم القتل دونما رحمة ، وامتلأ الخندق في لحظة بجثث القتلى ، وجرى الدم كالنهر وانســاب في الخندق ، وهذا انسحب جركمش بعد أن خرب وأحــرق مــــاشاء مــــن القـــرى والريف (٤٥) .

وفي هذا الوقت كان رجل من بلدوقيا يعيش في سميساط ، ويحكم بها مع عدد من التركمان فأقدم على تسليم هذه البلدة للفرنجة لقاء بعض المال ثــم انســحب ، وفي أرض الشـــمال في كركر (٤٦) كان الأرمن يعيشــون ويحــكمون ، وكان مقــدميهم : جســتادين (٤٧) وتابتوج وكريستوفر أبناء سنبيل ، وكانت البلاد غنية تحــوي كثيرا من الأديرة وبيوت الكهنة من بينها دير السلالم « المعــراج » ، ودير القديس أبخاي عند منحدرات صخور الفرات ، ودير الرهبان الحفاة في باسكين ، ودير القديس جورج ، ودير القديس شاباتي في شيرا ، ودير مالكوس مع عدد مــن القــرى الآهلة بــالسكان ، والدســاكر والحقول ، وكان لديهم كثير من المقيمين جميعهم من الأرثــوذكس ، وكان الأرمن الذين يحكمونهم خاضعين للفرنجة .

وفي عام ١٤١٤ (٤٨) عندما كان الفرنجة في ذروة قــوتهم اجتمــع جميع ملوكهم ومعهم الجيوش العظيمة وأتوا إلى الرها وقــرروا أن يزحفوا شرقا ويفتحوا البلاد هناك ، وكما جرت عادتهم الســيئة لم يتفقوا على شيء بسبب تنازعهم وغطرسة مقدميهم وتفــاخرهم على بعضهم بعضا ، ولقد مكثوا مدة طــويلة في الرهــا يناقشــون كيفية

تقسيم المدن التي سوف ينتزعونها من التركمان ، فأحدهم كان يريد ميافارقين ، وآخر أراد آمد ، وثالث طلب نصيبين ، ورابع أصر على أخذ الموصل حتى وصل بهم الأمر إلى أن رموا قداح القسمة بشكل مثير للسخرية ، ثم استعدوا للزحف على نصيبين ، ولدى سماع التركمان بتجمع ملوك الفرنجة بدأوا يلمون شعثهم ايضا ، وفي حين كان الفرنجة مايزالون في الرها يتجادلون حول تقسيم البلدان جمع التركمان قواتا عظيمة ، وأعدوا العدة لمهاجمة الفرنجة عند شروعهم بالزحف .

وعندما غادر الفرنجة الرها رافقتهم جماعات كبيرة من سكان المدينة الذين كان لاهم لهم سوى السلب والنهب وجني الثروات ، والاستيلاء على الأسرى من المسلمين والتركمان عندما تقع الهزيمة بين صفوفهم ، وهكذا تضخم حجم معسكر الفرنجة ، وعندما وصل الفرنجة إلى سهل حران زحفوا عبره شرقا حتى وصلوا إلى بيت إبراهيم في مكان يدعى دهبانه (٤٩) ، حيث كان هناك مسجد كبير وبيت لعبادة المسلمين وخشي أهالي حران من الفرنجة ، فأخذوا مفاتيح بلدتهم وقدموها عنوانا على طاعتهم وخضوعهم لهم وولائهم ، وهنا رأى بلدوين صاحب الرها أن حران من أملاكه ، لأنها واقعة ضمن أراضيه ، وأنه بالتالي إذا عسكر الفرنجة قربها وتملكها ملوكهم سيجعل ذلك جنودهم يدخلونها ويعملون بها النهب والسلب ، وبذلك ستضعف المدينة ، وهذا لم يكن في مصلحته ، لهذا ارجع المفاتيح للأهالي وأخبرهم أنه يعتبرهم من أتباعه ، وأمرهم أن يحافظوا على المدينة حتى يرجع بعدما يتفرق بقية الغرباء ، وعندما سمع تانكرد صاحب انطاكية والملوك الآخرون بما حدث اغتاظوا من عمل بلدوين وأخبروه بصراحة أنه لم يتصرف تصرفا لائقا ، إذ كان من الواجب احتلال تلك المدينة الغنية ، وأن يتركوا أمتعتهم الزائدة فيها ، ويذهبوا خفافا لمقابلة الأعداء القريبين منهم ، وإذا وهبهم الرب النصر فسوف لن يتجرأ أحدهم أن ينتزعها من بلدوين ، ولسوف يحل الزعر بالتركمان عند سماعهم بسقوط

تلك المدينة ، وإذا هزم الفرنجة لاسمح الرب فستكون هذه المدينة ملجأ وملاذا لهم ، ولكن بلدوين لم يوافق على هذا الكلام .

وزحف الفرنجة من دهبانة وانتشروا باتجاه نهـر البليخ ، وكان تانكرد مغضبا لذلك فضل أن يظل دوما في المؤخرة،وعندمـا وصـلوا راوا التركمان امامهم الوفا لابل عشرات الألوف وبدأت المعركة حالا (٥٠) فأمطر التركمان الفرنجة بوابل من سهامهم التي كانت تنهمـر كالمطر،وهذا جعل الرعب (٥١) والفزع يدب في قلوبهم،ثم سل الاتراك سيوفهم وبداوا بالقتل والذبـح في المؤخـرة ، وحـالما رأى تـانكرد ورجاله في المؤخرة أن المذبحـة قـد بـدأت بين صـفوفهم لووا أعنة خيولهم وهربوا تاركين اولئك الذين في المقدمة لقـدرهم ، وهنا زادت قوة التركمان فبـدأوا بـالقتل دون شـفقة أو رحمـة ، واسروا الكثيرين ، وقد أسر بلدوين صاحب الرها مع بعض أقـاربه ، وكذلك الكونت جوسلين صاحب تل باشر ، وكان فارسا شجاعا وقيدوهـم جميعا بالأصفاد الثقيلة ، ونهبوا معسكرهم واسـلحتهم وخيولهـم وجميع ممتلكاتهـم التـي لاتحصى (٥٢) ، واخـذ التـركمان بلدوين وجوسلين مقيدين بالأغلال إلى الموصـل ، وهناك انعـكست الآية ، وخابت آمالهم حيث حكم عليهم بأن أودعوا السجن ، بعدما خططوا آملين بالاستيلاء على الموصل ، ومضى تانكرد صاحب انطـاكية إلى الرها وارتـاح هناك بضـعة أيام يأكل ويشرب ويفعـل مـايشاء ويهوى ، وأخذ منها ثروات كبيرة وخيولا كثيرة ثم عين أحد رجـاله واسمه ريتشارد (٥٣) حاكما عليها وغادرها عائدا إلى انطاكية .

وكان ريتشارد هذا رجلا فاسدا طاغية خشنا ظلومـا ، وانتهـز اشرار اهالي الرها هذا الظرف الذي ناسب مفاسدهم فوشوا ضـد بعضهم بعضا ، وتآمروا ، ووجد كل من كان يحقد على أخر الفرصة المناسبة لايذائه ، وعاملهم الحاكم بعنف وعذبهم وسـجنهم ، وانزل بهم الذل ، وقد جمع منهم كثيرا من الأموال خـاصة وأنه كان يدرك أنه كان مغتصبا وعابر سبيل ، وليس سيدا حقيقيا أو وراثيا .

وظل بلدوين صاحب الرها وقـريبه جـوسلين الشـهير أسرى في الموصل ، ولم يزعج أحد من الفرنجة نفسه ويسعى لتحـريرهما لأن تانكرد كان حاقدا عليهما ،وريتشارد كان يتصرف بـأملاكهما كمـا يشاء ، وبدأ السجناء بالتداول في الأمور فقال بلدوين إن من الصعب إطلاق سراحه لأنه رجل كبير الأهميه ، وإن جوسلين ينبغي أن يطلق سراحه أولا فعندها يستطيع أن يعمل لاطـلاق سراح بلدوين ، وتـم التفاوض مع التركمان واتفق على اطلاق سراح جوسلين مقابل مبلغ قدره اثني عشر الف دينار ، واطلق سراحه لجمع هذا المبلغ ، ووضع مكانه في السجن اثني عشر رجلا مـن أعيان أصـدقائه كرهـائن ، وبينما كان يجمع المال المطلوب ، هرب الرهائن الاثنا عشر ونجـوا من سجن الموصل ، وهكذا تحرر جـوسلين واصـدقاؤه دون عناء ، وبمساعدة صاحب قلعة جعبر على الفـرات ((٥٤) ـ وهـو رجـل مشهور بشهامته وقدرته على التوسط ـ حددت فدية بلدوين قـدرها سبعين الف دينار ميخائيلي(٥٥) . وجمع جـوسلين حـوالي خمسـة وعشرين الفا وحملها بنفسه إلى قلعة جعبر ، ووضع نفسـه كرهينة لدفع الباقي ، وأرسل صاحب قلعة جعبر رسولا من قبله إلى الموصل مع الدنانير التي دفعها له جوسلين ، وتعهد بدفع الباقي باعتبار ان جوسلين كان في عهدته ومتحفظا عليه عنده ، وفي هـذا الوقـت تعين حاكم جديد للموصل يدعى جاولي (٥٦) ، فسمع بجـوسلين ولكنه لم يكن قد رآه ، وعندما سمع انه وضع نفسه رهينة لدفع النقود ، رغب في رؤيته ، وعندما حضر الرسل ومعهم مبلغ الخمسة وعشرين الف دينار ، وتعهد صاحب قلعة جعبر وكفالته بدفع الخمسـة والاربعين الفـا البـاقية ، اطلق سراح بلدوين ، ولكنه رغب في رؤية جـوسلين شخصيا ، لانه سمع بشهامته وأنه محارب شجاع ممتاز ، وعندهـا عمد صاحب قلعة جعبر الى ارسال جوسلين الى الموصل ، بعـد أن زوده بهدايا وثياب وحصان مطهم وأسلحة فرنجية ، وعندما وصـل جوسلين جمع الحاكم افضـل فـرقه وعسـاكره للقـائه على أرض العرض ، وامر جوسلين أن يعرض مهارته الحربية امامه فقام هـذا باللعب برمحه ، وبمناورات حربية اعجبت الوالي ، فـأنقص عشرة

الاف دينار من فدية بلدوين ، عندها ترجل جوسلين وقبل الارض بين يدي جاولي وشكره ، وكتعبير عن امتنان الوالي لسلوك جوسلين هذا أمر بخصم عشرة الاف اخرى من الفدية ، وفي اثناء عودتهما الى المدينة أقام الحاكم له وليمة كبرى ، وخصم عشرة الاف اخرى ، وقد اقام جوسلين بضعة ايام في الموصل اظهر له الحاكم اثناءها كل مودة واقسم له أنه لن يحاربه ، وجعله يقسم الا يحاربه واتفقا الا يتحاربا ماداما على قيد الحياة بل على العكس ان يساعد بعضهما بعضا وقت الحاجة ، ثم اعطى جوسلين الهدايا ، واطلق سراحه نهائيا ، وسامحه بكل ما بقي من فدية بلدوين ، وسمح له بالذهاب بامان ، وهكذا وبمشيئة الرب اطلق سراح الاثنين .

وعندما اطلق سراحهما (٥٧) ، جمع رتشارد الذي كان يحكم الرها كل ما استطاع جمعه من المدينة ، وتوجه عائدا الى ارضه في مرعش ، وحالما وصل بلدوين وجوسلين الى الرها وعلما بما قد فعله تانكرد وريتشارد هناك استشاطا غيظا من جديد ، واخذا يستعدان للمعركة ، وارسل جوسلين رسالة الى جاولي صاحب الموصل يطلب منه العون فارسل هذا عددا من الجنود التركمان لمساعدته ، والتقت الجيوش في الاراضي التابعة لدير جبة بين كلز ودلوك (٥٨) وقد ارتفع غبار المعركة الى عنان السماء ، وكانت نتيجة المعركة أن هزم الاتراك وهربوا ، ولحق بهم رجال انطاكية واعملوا بهم القتل ، ثم هرب بلدوين ورجاله ، وهكذا كانت نتيجة المعركة ، وبعد زمن اتفق الفريقان وحل السلم بينهما ورجعت الالفة والمودة الى سالف عهدها .

وفي عام ١٤١٧ عندما كان ملوك الفرنجة في حالة سلم ، جمع مودود حاكم الشرق جيشا لجبا لايعد ولايحصى وتوجه الى الرها اولا وقد عسكر في السهل الشرقي حول قلعة كاساس (٥٩) وقد ارسل مودود عددا من الفرسان لنهب البلاد ، فقطعوا الاشجار والحدائق واتلفوا الارض ، وخربوا الديارات ولكنهم لم يقتربوا من

المدينة لمحاربتها ، بل نصبوا حولها الات الحصار ، واكتفوا بالاقتراب منها ثم رحلوا عنها .

وعندما سمع الفرنجة في انطاكية بهجوم مودود على الرها بدأوا بجمع جيش على جناح السرعة لانقاذها ، وتحركوا بسرعة نحو الفرات وعبروه ، وعندما سمع التركمان بمقدمهم انتقلوا الى نهر الجلاب ، واتخذ الفرنجة موقعا لهم امام معسكر مودود ، وكان جيش الفرنجة يحوي كل من بلدوين ملك بيت المقدس صاحب الرها سابقا وابن صنجيل صاحب طرابلس ، وتانكرد صاحب انطاكية ، وعدد كبير من الجند والخيول ولكن كان ينقصهم القمح والعلف ، فقد كان (مودود) قد خرب البلاد واتلف المؤن ، وقد قاسى الفرنجة من قلة المؤن ، وكعادتهم لم يكونوا يتحلون بصفة الصبر(٦٠)وصمموا على العبور الى غرب الفرات وهم لايزالون في مواجهة العدو ، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون في طريقهم الى سميساط وهم يشكلون جيشا كبيرا يتبعه عدد هائل من القرويين وسكان المدن مضى فرنجي من مطايا الشيطان وادواته ، كان قد تشاجر مع رئيسه ، مضى الى معسكر الاتراك على نهر الجلاب واخبر مودود ان الفرنجة فروا وهم في حالة يائسة قد اضعفهم الجوع ، وانهكتهم مصاعب الطريق وقال له :« اذا اسرعت الى مطاردتهم فانك سوف تلحق بهم افدح الخسائر » ، وفي الحال اصدر مودود الاوامر بالهجوم ، واخذ المنادون يصرخون والابواق تنفخ ، وتقدم المحاربون الاشداء وتبعوا جنود الفرنجة الذين اصيبوا بالدهشة ، ولم يعلموا ماذا حدث ولم يستطيعوا ان ينظروا امامهم او خلفهم ، وعندما وصلوا الفرات تقدم المحاربون اولا بينما انتظر المشاة وحاملوا الامتعة في الخلف ، وكان الرب غاضبا على شعبه ، وخصوصا على اهالي الرها الذين شكلوا اكثرية الجيش ، وفجأة انقض عليهم التركمان وهاجموهم كالجزارين واخذوا يذبحون دون رحمة او شفقة ، ولقد غرق منهم اكثر مما قتل ، وكان التركمان يطعنون الغرقى بالرماح واخذوا الكثيرين منهم اسرى ، ثم استولوا على الغنائم والمؤن والاثقال ، وهكذا آل زحف الفرنجة الى نهاية تعيسة ، وهنا قفل مودود راجعا

الى ارضه وبلاده ، وعسكر حول المدينة واتلف الاراضي والمحـاصيل الزراعية حولها ، وقطع الاشجار والحدائق التي بقيت(٦١)وحـاصر المدينة وسبب لهـا الكروب طيلة الصـيف ، وانتشر الخـوف وحـل الرعب والبـؤس في المدينة بسـبب قلة الاطعمـة ، وتـولاهم اليأس وهلعت قلوبهم ، لانهم زرعوا وتعبوا وشقوا سنة بعد سنة ، لكنهـم لم يحصدوا شيئا ، وقد ارسل لهم مودود يمنيهم ويطلب منهم تسليم المدينة له ، وبذلك يصيبهم الخير بدلا مما هم فيه من التعب والويل ، ولم يرسل له اهالي الرها اي جواب ايجابي ، ولكن عشرون ارمنيا تامروا مع مودود لتسليم المدينة وخيانتها ، فنقل معسـكره ونصـبه مقابل سروج ليوهم اهالي الرهـا انه قـد يئس وذهـب ، وبـذلك لايهتمون بحراسة السور ، وبعد منتصف الليل في ليلة الأحـد اتـى التركمان بسرعة من الشرق وتسللوا من بين الاسيجة في الحدائق حتى لايلاحظهم احد وارسلوا بعض المحاربين الاشـداء الى المكان المتفق عليه قرب السور في شرقي المدينة داخل الجسر السفلي فـوق الخندق المملوء بالماء ، حيث كان هنالك مكان مناسب للمغامرة ، فقد كان هنالك برج في الزاوية يحرسه رجـل مـن اهـل الرهـا يدعى سيروس ، وهنالك تقابلوا طبقـا للاتفـاق ، فـانزل الخـونة بعض الحبال وسحبوا سلالم قوية ثبتوها على السور ، وبدأوا يتسـلقونه ولما راهم الحراس على السـور اخـذوا يصرخـون إن الاعداء قـد تسلقوا السور ، وسمع الاعداء هذه الاصوات وبداوا يحدثون ضجة وجلبة في الغرب ويضربون الطبول وينفخون بـالابواق حتـى يظـن اهالي المدينة ان مشهد المعركة مـن الغـرب فيتجهـون الى هناك ، ويتركون الخونة وشأنهم حتـى يسـتطيعون اتمـام التسـلق على الاسوار ، وقد قتلوا كل من كان في تلك الناحية ولم يستسلم لهـم ، اما سيروس فقد ظل صامتا اذ انتابه الخوف وفقد ارادتـه فتـركهم ينفذون خطتهم ، وقد صعد الى البرج حوالي ستون رجلا ، وعندمـا طلع النهار راى الجميع التركمان على السور وعلى البرج فـاصيب الفرنجة وزعماؤهم بالذعر عندما علمـوا ان هناك خيانة في المدينة ، واذا بالعدو في الخارج والسور يغص بالتركمان والناس يتراكضون الى بيوتهم واطفالهم ، وصدف ان كان جوسلين صاحب تل باشر في

- ١٩٧٩ -

الرها في ذلك اليوم ، فقام باعمال الابطال اذ صعد الى السور من ذلك الجانب ، واقترب من العدو وعندما رآه الاعداء تجمعوا في البرج الكبير ووقفوا على سطح فوقه وامطروه بوابل من الذشاب والحجارة ، ولكنه دخل البرج الذي كانوا يقفون على سطحه وكله شجاعة واقدام ، ومد سيفه من خلال نافذة مخصصة لرمي السهام

وقطع حبال السلالم التي كانوا يصعدون عليها بينما كان كثير من الرجال على تلك السلالم فسقط الجميع الى الأرض مهشمين وأما الذين كانوا فوقهم فقد ارتجفت قلوبهم لما رأوا هذا المنظر ، وفقدوا الأمل ، فبادر جوسلين بالصعود الى جيث كانوا وقد ضربوه بالحجارة من الأعلى وكسروا درعه ، فأخذ كيسا مملوءا بنشارة الخشب كان ينام عليه الحرس ووضعه فوق رأسه وتسلق بكل جرأة وقوة ونزل بينهم فهربوا ، وقد أوقع بعضهم بضربة من سيفه وبعضهم قفز الى الأسفل وتحطم ، وهكذا اخفقت المؤامرة ودفنت في مهدها وهي لم تكد تبدأ ، وقد رجع مودود الى بلاده ، بينما أخذ الفرنجة يحاكمون المتآمرين والقوا القبض على كثير من المذنبين والأبرياء ، وقطعوا الأيدي وجدعوا الأنوف وقلعوا الأعين ، وقد مات الكثيرون من جراء ذلك ، وأعدم الآخرون.

وبعد بضعة سنوات (٦٢) ذهب مودود الى دمشق وفلسطين وطبرية وخرب البلاد ونهب وسلب ودمر وأخذ كثيرا من الأسرى ، وعندما وصل الى دمشق ودخل الجامع الكبير ليصلي في يوم الجمعة كعادة المسلمين قام الاسماعيليون باغتياله (٦٣) وفي السنة نفسها (٦٤) مات تانكرد صاحب انطاكية الذي لم يكن له ولد ، فورثه ابن أخته روجر ، وكان شابا متغطرسا ومتعجرفا ، وكان روجر متكبرا ووسيما ، فجمع فرقا كبيرة من الجند وتزوج أخت بلدوين صاحب الرها ، وهاجم بجيشه قلعة أعزاز الحصينة في وادي كلز ، وقد حفر سراديب في الأرض تحت الأسوار ووضع عوارض من الخشب داخلها ثم أشعل النار بالعوارض فترنح السور وسقط ، فهجم الفرنجة من خلال الثغرة التي حصلت ، واستولوا على الحصن

وذبحوا المسلمين في داخله ، وهكذا استولى روجر على هذا الحصن الشهير (٦٥) .

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٤٢٢ وعند الفجر يوم الأحدضربت هزة أرضية مدينة جرمانيكا التي هي مرعش (٦٦) فهدمتها كليا ، ودمرت المعابد واديرة الرهبان وسقط السور بكامله وقتل اربعة وعشرون الف شخص غير الغرباء واكثر من مئة من رجال الدين والشمامسة ومحيت قلعة منصور وازيلت واماكن اخرى كثيرة من الوجود ، وفي هذه السنة غضب بلدوين صاحب الرها من جوسلين ووضعه في السجن وعذبه ، وبعد ان اطلق سراحه ذهب الى بيت المقدس ، ونزل عند بلدوين الذي رحب به واحبه وجعله حاكما لطبرية والجليل(٦٧) ، وهناك ولد له ابن سماه جوسلين ، وفي هذه السنة مات رضوان صاحب حلب (٦٨) . وكان السلطان السلجوقي يعيش في ايران ، وقد ارسل ولاة لسائر البلدان الغربية ، وعندما قتل مودود في دمشق ارسل البرسقي الى اقليم اقور (الموصل) ، فتقدم هذا وعسكر حول الرها واتلف الحدائق واحدث الأضرار العظيمة في الأراضي (٦٩)، وعبر الفرات ، وخيم في اراضي حلب وعمل كل ما في وسعه لتخريب الأراضي التابعة للمسيحيين قدر استطاعته ، ثم عاد أدراجه وفي السنة التالية اتى كالعادة الى الرها وعاث في الأرض واتلف المحاصيل وسبب اضرارا عظيمة ، ثم تحرك متجها الى حلب واستعد لحرب الفرنجة الذين جمعوا جيوشهم ، وعسكروا بين حلب وانطاكية ، وفي عام ١٤٢٧ نظمت الصفوف ونفخت الأبواق ، ودقت الطبول ، وقد وهب الرب النصر للفرنجة وهزم التركمان وذبحوا ، ونهب معسكرهم بينما هرب البرسقي (٧٠) ومعه بضعة رجال .

وكان ابو الغريب وهو ارمني يحكم قلعة البيرة الحصينة (٧١) وقد قام بلدوين صاحب الرها ومعه قريبه جاليران على رأس جيش كبير بحصار هذه القلعة مدة طويلة ، لانه لم

يستطع الاستيلاء عليها بـالهجوم المبـاشر ، ولما لم يسـتطع ابـو الغريب أن يحصـل على اية مسـاعدة ، اسـتسلم للفـرنجة على شروط ، وتزوج جاليران ابنته ، وكانت القلعـة هـي المهـر لهـذا الزواج ، وهكذا استولى الفرنجة على تلك القلعة .

وفي عام ١٤٢٥ (٧٢) ذهب بلدوين صاحب الرها للحج الى بيت المقدس وكان بلدوين صاحب بيت المقدس قد جمع جيشا وزحف على راسـه الى مصر ووصل الى الفرما (٧٣) ومات هناك وكان قبل وفاته امـر أن تدفن جثته في قبر اخيه غودفري ، وان يصـبح بلدوين صـاحب الرها ملكا لبيت المقدس ، وقد نفذ هذا ، وعندها دعا بلدوين الكونت جوسلين صاحب طبرية واحل السلم بينهما ، وهكذا أصـبح بلدوين حاكما لبيت المقدس ، وجوسلين حاكما لطبرية وكان جوسلين عندما عاش في طبرية قد ربح عدة انتصارات ، واصبح مرهوب الجـانب في جميع انحاء المنطقة .

وكان ميخائيل بـن قسـطنطين وهـو ارمني يحـكم اراضي كركر (لاقى جستادين الأب حتفه بعـد أن دفـن وهـو اسـير في سمسياط عند حدوث الزلزال الذي دمر مرعش) وكان ميخائيل هذا شابا متعجرفا قام بـارتكاب الكثير مـن الأعمـال الشريرة بـدعمه للعصابات واللصوص في جميع الأنحاء ، وكان بلك بن أرتق (الذي حـكم سروج سـابقا) والآن صـاحب هنزيط وحصـن زياد (خرتبرت) (٧٤) قد حذر ميخـائيل مـن مغبـة اعمـاله الشريرة ، وطلب منه ان يكبح جمـاح اللصـوص الذين يهـاجمون التجار والمسافرين،لكن هذا لم يعر هذا التحذير اي اهتمـام وكانت الشكاوى ترد الى بلك بـاستمرار حتـى انه لم يعـد يسـتطيع الاحتمال ، فجمع جيشا عظيما من التركمان في شهر كانون ، وهـو شهر قارس البرودة ، وتوجه الى اراضي جـرجر الأهلة بـالسكان وقد رافقتـه العناية الالهية وسـاعدته وأرشـدته لأن مياه نهـر الفرات كانت متجمدة في ذلك الوقت ، فعبر هو ورجاله النهر بسهولة تامة فوق الجليد ، بينما لو ود ان يعبره بالقوارب لاستغرق ذلك منه

خمسة ايام على الاقل ، ودخل إلى اراضي جرجر في المساء ، وأخفى رجاله بين الصخور الشاهقة ، ولم يعلم بهم احد ، فالرب كان غاضبا على اهل تلك البلاد وفي تلك الليلة هطلت كميات كبيرة من الثلوج ، وهكذا استطاع التركمان ان يقتفوا على الثلج آثار كل اولئك الذين هربوا من القرى المجاورة الى التلال او المراعي العليا وقتلوهم او اخذوهم أسرى ، وانتشروا كالطوفان خلال الأراضي واحرقوا البيوت والقرى وانزلوا الخراب بالمنطقة .

وكان بلدوين عندما ذهب للحج في بيت المقدس عين جاليران صاحب البارة (٧٥) نائبا عنه في الرها ، وجمع هذا مااستطاع جمعه من العساكر ، وهاجم معسكرات التركمان في السهول المتاخمة لجبل حزمه Hisma شرقي الرها ، وفي اراضي ايلغازي بن ارتق ، ففاجأهم على حين غرة ، وأسر خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال ومئتي حصان ومئة الف راس من الماشية والابل والماعز ، وقتل كثيرا من المحاربين وجلب الأسرى الى الرها وقد حدث هذا في شهر آذار عام ١٤٢٦ (٧٦) وكان سببا في اندلاع الفتنة والشر ، وغضب ايلغاري وكان قد استلم زعامة آل ارتق ، فجمع جيشا عظيما وعسكر قرب الرها في زمن الحصاد ، ولكنه ابتعد قليلا عن الحقول والمحاصيل الزراعية ، ولم تقع الحرب بل عقد السلم بينه وبين الفرنجة الذين أعطوه جميع الأسرى التركمان الذين يمتلكونهم ، فغادر المدينة دون ان يلحق بها اي ضرر ، ثم انتقل الى حران واحتلها ، وبعد ذلك عبر الفرات واحتل حلب وما جاورها ولذلك اصبح اقوى زعماء التركمان وخضع له حتى امراء اقليم آقور ، وجمع جيشا غزا به انطاكية.

وعندما سمع روجر صاحب انطاكية بزحف ايلغازي تقدم لملاقاته ، وقد كان بلدوين آتيا من بيت المقدس مع جاليران لمساعدته ، ولكن ذلك الشاب المتعجرف لم ينتظر قدوم الملك لأنه فكر انه قادر على انزال الهزيمة بالتركمان لوحده ويحتفظ لنفسه بمجد النصر ، وتقدم بدون تردد تجاه معسكر المسلمين ، وكان الأتراك

يتوقون لقتاله قبل قدوم الفرنجة لنجـدته ، وأحـاطوا بـه احـاطة السوار بالمعصم وأمطروه بوابل من النبال كسحب من البـرد وكان الرب غاضبا على الفرنجة واشاح بوجهه عن روجر الذي قتـل اثناء هذه المعركة ، ولم يجد احد جثته لابين الموتى ولابين الاسرى (٧٧) ، وقد استولى الاتراك على الامتعة وجميع ما كان بحوزة الفرنجة.

وبعد مـوت روجـر وصـل بلدوين ملك بيت المقـدس ، وكونت طرابلس وجاليران من الرها ، وخـرج رجـال انطـاكية لمقـابلة الملك ، فاستلم زمام السلطة ، وجمع الجنود الموجودين ، وزحـف لمقابلة ايلغازي ، وابتدا الالتحام وكان الرب غاضبا على التـركمان لذلك هزم ايلغازي وقتل عددا كبيرا من عساكره ، ونجـا بصـعوبة بالغة مع بضعة (٧٨)من اتباعه حيث ذهب الى حلب .

ورجع بلدوين وهو مزهو بانتصاره الى انطـاكية ، وتـوجه الى بيت المقدس ، حيث استدعى جوسلين من طبرية ، وبعـث بـه عام ١٤٣٢ حاكما على الرها (٧٩)،وهذا ماابهج قلوب سكانها ، وقد رجع جاليران الى البارة ، ثم جمع جوسلين جيشا هـاجم بـه المعسـكر التركي وغنم كثيرا من الأسرى ، وقد انتشر اسمه خـارج منطقتـه ووصل صيته حتى شمال مـابين النهـرين ، وحلت رهبتـه في قلوب التركمان حوله .

والتجأ التركمان الذين اخذ رفاقهم عبيدا الى ايلغـازي صـاحب ماردين ، واقنعوه بأن يهاجم الرها وينتقم لهـم ، فجمـع جيشـا عظيما ، وعسكر حول الرها والتهم المحاصيل ، وقـطع الأشـجار والحدائق ، ونهب وسلب ثم رحل(٨٠) .

واصبح ايلغازي قويا وارتفع شـأنه لانه كان يحـكم زيادة على اراضيه : اراضي أبناء اخيه سكمان ، واراضي ابن عمه داود حتـى بلاد اقور وارمينية ، وارض العبـرانيين(٨١) ، وكان احـد اقـاربه يحكم جميع ارمينيا ، وقد بدا الخلاف يدب بينهمـا وبين الملك داود ملك العبـرانيين الذين كانوا وثنيين ، وكان ايلغـــازي جـــريئا

جدا ، فجمع كل اقــربائه ومعهــم قـــوى عظيمـــة ، وغزا أرض العبرانيين ،وعندما سمع الملك بهذا الأمــر جمــع جيوشـــه وتقـــدم لمقابلته ، وحدثت معركة قهر بهــا ايلغــازي وطــارد العبـــرانيون فلوله ، وقتلوا كثيرا من رجاله ، ونهبــوا كل مقتنياتهــم ، وهــكذا رجع ايلغازي يجر اذيال الخيبة والعار ، وهرب الى بلاده ، وبعدها بقليل اصابه المرض فمات (٨٢) وخلفه ابنه تمــرتاش الذي حــكم في ماردا (ماردين) ودارا وميافارقين ، اما بلك ابن عمه فقــد احتفــظ بقلعة زياد هنزيط (٨٣) .

وفي ملاطية حكم رجل من أسرة السلاجقة ملوك التركمان العظام (٨٤) بعد زوال حكم ابناء الدانشمند ، وبعد موته حكم ابناه القاصران مع امهما ، وقد حكم مسعود أكبرهما في قونية وأراضيها المتوغلة تجاه الأغريق (البيزنطيين) وأما غازي بن دانشمند فحكم في ســبسطيه وقيصرية ، وقيصرية الجديدة ، وقد أصبح متكبرا متعجرفا وطاغية وصمم على احتلال ملاطية ، وعمــل كل مــا في وســعه للقبض على صاحبها ، واخذ المدينة منه ، حتى انه رغب بتزويج ابنتــه له ، ولما لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالحيلة والخــداع قــرر اســتعمال القوة ، فجمع جيشا وحاصرها ، وضيق عليهــا الحصــار وســبب المجاعة فيها حتى انتشر بهــا الوبـــاء ، فـــاستولى عليهـــا في عام ١٤٤٣ (٨٥) ، وهكذا تعاظمت قوته ، وأصبحت املاكه تشمل كبدوكية وملاطية وجميع المدن بينها وبين بحر الخزر ، واصبح يغزو الأراضي الأغريقية (البيزنطية) بانتظام ، وبدأ بالنهب والسـلب في منطقــة غلاطية وكولونيا وهــرقلية ، وجميع شـــواطىء البحـــر الشمالي ، وقد أخذ العبيد وسبب الكثير من الأذى والضرر.

وتزوج جوسلين كونت الرها بابنه روجر صاحب انطاكية وحصل على أعزاز كمهر معها ، ثم ذهب ليجلب عروسه الى الرهــا وأمضى ليلة في البارة ، واخبروه أن التركمان قد اغاروا على المنطقة واخذوا كل من لا قوه أسيرا ، وكان هؤلاء مــن جيش بلك صــاحب هنزيط وقلعة زياد ، وقد كان بلك قد اتى من حلب ومعه اربعة الاف فــارس

ارسلهم في جميع الجهات للنهب والسلب بينما عسكر بنفسه قرب بئر يسمى هابج ، وهو ينبوع دائم طوال السنة في مملكة الرها عند احدى القلاع الشهيرة مقابل راس كيفا ، وعندما سمع الفرنجة هذا الخبر اشتاقوا لمطاردة الغزاة ، إذ لم يكن لديهم أية فكرة أن بلك كان معسكرا هناك ومعه جميع عساكره ، وقد قام جاليران بتشجيع جوسلين خاصة وذلك لأن الأرض ارضه ، وبداوا في الهجوم بسرعة ليلا ممتطين خيولا ضعيفة وهزيلة ، وطاردوهم وهم يظنون أن باستطاعتهم اللحاق بهم في اراضي راس كيفا ، وعندما وصلوا الى أمكنة راوا فيها اثار اقدام الغزاة تبعوهم طيلة الليل حتى منتصف النهار ، وكان قد اصابهم التعب والعطش وارهقهم الغبار واشتداد الحرارة ، ومع هذا تابعوا مطاردتهم حتى وصلوا الى المعسكر العظيم لجيش بلك ، فراوا جندا عظيما بينما كانوا قلة منهكة بسبب الجوع و السفر الطويل ، ورآهم التركمان ولم يعد بمقدورهم التراجع ، وعندما تقدموا لسقي خيولهم ، بادر التركمان بالاصطفاف على ضفة النهر وامطروا وابلا من النشاب كل رجل من الفرنجة حاول هو أوحصانه أن يقترب من النهر ، ثم احاطوا بهم وقتلوا الكثيرين ، واخذوا الباقين أسرى احياء ومنهم جوسلين وجاليران وفرسانهم ، وجلب هؤلاء الى حضرة بلك الذي لم يكن يصدق ما يرى إذ لم يكن يحلم أن مثل هؤلاء الأمراء قد اصبحوا أسرى تحت رحمته ، وهكذا أسر هذان الاميران الشهيران وهما في غفلة ولا يتوقعان ذلك ، وأخذهما بلك الى امام باب الرها وهو يتوقع أن تسلم له المدينة ، ولكن الأهالي اهانوه ولم يتفوهوا بأي كلمة عن السلام ، لذلك وضع أسراه في قلعة زياد.

وكان الملك بلدوين في انطاكية عندما سمع هذه الأخبار ، فتوجه في الحال الى الرها وبقي هناك ، ووضع حامية فيها تحت قيادة راهب محترم يدعى غودفري الموين حتى يعرفوا ماذا سيحدث لأسرى بلك ، وفي هذا الوقت كان ميخائيل الأرمني صاحب كركر مهددا من قبل الأتراك ، ولما كان يعلم حق العلم انه لا يستطيع الاحتفاظ بالقلعة لذلك اعطاها وسلمها للملك بلدودين ، واستلم

اماكن أخرى لاعالة نفسه في هذه الحياة ،فبعد أن سلم كركر استلم ميخائيل دلوك مكانها ، وسار بلدوين الى انطاكية واستمر بلك بالهجوم على كركر ونهبها ، وكذلك على سميساط « وجاكسي » وقلعة منصور فاضطر بلدوين للرجوع ثانية لانقاذها ولجلب القمح من كيسوم وسميساط وعندما سمع بلك أن بلدوين في كيسوم جمع جيوشه وتوجه الى نهر سنجة بين كيسوم وسميساط . ولم يكن يعلم شيئا عن قدوم بلك وانه اصبح قريبا منه لذلك استمر في اقامة الحفلات والولائم بمناسبة صعوده الى كيسوم ، وفي الثلاثاء سار هو وجنوده دون اتخاذ اية احتياطات حتى وصلوا الى قنطرة سنجه الشهيرة وكانوا على بعد حوالي فرسخ واحد منه (الفرسخ = ٤ اميال) وكان معظم خيالته وفرسانه بعيدين عنه ، فهم لم يكونوا قد وصلوا الى النهر بعد ، وكان الملك سائرا في المقدمة وامامه الراية ، ومعه بضعة مرافقين ، وعندها فاجاه كمين أعده بلك ، واحاط به التركمان كالذئاب الكاسرة من جميع النواحي احاطة السوار بالمعصم ، وهم مسلحون ومجهزون ومتعطشون لنيل الغنائم ، عندها اسروا الملك وابن اخته وكان شابا وسيما ومعه كثير اخرين ، وقد قتل منهم كثيرون ، واخذ بلك الملك الى كركر وعذبه حتى سلمه القلعة فاحتلها بلك واكتفى بذلك.

وتخلصت البلاد من اللصوص وقطاع الطرق الذين عاثوا في الأرض فسادا ، ونهبوا الفقراء ، واخيرا حل السلم ، وقد قيل ان بلك كان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير ، ولم يكن يسمح لأي شخص أن يهين أي مسيحي ولو بكلمة ، ثم وضع حامية في كركر ، ونقل الملك والأسرى الآخرين الى قلعة زياد ، حيث انضموا الى جوسلين وجاليران ، وكان جوسلين قد اسر في شهر ايلول ، ووصلت أخباره الى الرها في أمسية عيد الصليب ، فالغيت الاحتفالات والمواكب في تلك السنة ، وحل محلها الندب والنواح ، وكان أسر بلدوين في أخر ثلاثاء من شهر نيسان ، وروي أنه عندما غادر بلك قلعة زياد قال لجوسلين : سوف

أجلب الملك ليكون معك انشاء الله ، وهكذا كان ، فبعد ستة أشــهر التحق بهم الملك بلدوين.

وللمرة الثانية في هذه السنة عسكر بلك حــول الرهـــا ، واتلفــت المحاصيل الزراعية والحدائق وخرب الأرض ، ومن ثــم ذهــب الى حران التي سُلمت له ، ثم الى حلب التي خضــعت أيضـــا بــدورها له ، وبعدها بدأ يغزو الفرنجة في تل بـــاشر ودلوك وأعزاز ، واخــذ كثيرا من الأسرى والقرى بعد أن نهبهـــا وارســـل مـــن فيهـــا الى بلدة ، ثم استولى على قلعة منصـــور ، وهـــزم رجـــال خـــلاط (٨٦) وأحدث الضرر العظيم في أراضي الفرنجة في ذلك العام.

وفي شهر آب من تلك السنة وهي ١٤٣٥ (٨٧) قام عشرون رجلا من الأرمن ممن كان يخدم في حصن كيسوم مع غودفــري الموين والملكة فذهبوا الى قلعـــة زياد متنكرين بشـــكل جنود فقـــراء ، وكان عشرة منهم يحملون العنب والفواكه والطيور الداجنة ، وقد تــظاهر هؤلاء أنهم قرويون أتوا للشكوى ضد واليهم الذي ظلمهم ، وبقي الآخرون خارجا وهم مستعدون للالتحـــاق بـــرفاقهم عندمـــا تحين ســـاعة العمل ، وذهبت الجماعة التى تحمل الأحمـــال الى بـــوابة الحصـــن العليا واخبروا البواب عن سبب مجيئهـــم ، وهـــو الشـــكوى ضـــد واليهم ، فطلب منهم الانتظار بين البوابات بينما يخطر شحنة القلعة بقدومهم ، وصدف أن كان الشحنة يقيم وليمة لضباطه ، وقد أثرت الخمرة بهم ، وكانوا بمنتهـــى الغبـــطة والسرور ، وكان كثير مـــن الحرس يشاهدون الوليمة ولم يبق سوى اثنان أو ثلاثة مع البـــواب على البوابة ، وعندما ذهب الرسول لاخبار الشحنة عمـــد الرجـــال لاختطاف السيوف المعلقـــة بين البـــوابات وقتلوا البـــواب وكل مـــن وجدوه هناك ثم دعوا أصدقائهم الذين كانوا بانتظارهم في الخـــارج وانضم هؤلاء اليهم وفتحوا الأبواب واندفعوا وقتلوا جميع الضباط الذين كانوا يشتركون في الوليمة بدون اســـتثناء ثـــم فـــكوا أســـار الأسرى ، واحتلوا القلعة وساعدهم جميع الأرمن الموجودين داخـــل المدينة ، وحالما انتشر خبر هذه الواقعـــة أرســـل الخبـــر الى بلك في

حلب ، وتجمع الأتراك من كل حدب وصـوب ، وأحـاطوا بـالقلعة وراقبوها عن كثب حتى لا يخرج منها احد أو يدخلهـا أحـد وعمـد جوسلين في الليلة الأولى ومعه اثنان أو ثـلاثة آخـرون الى الهـرب بشجاعة ، فاخترقوا الحصار ونجوا ، وكان جوسلين قد وعد الملك بألا يرتاح حتى يصل الى بيت المقدس ويجلب جيشا لانقاذه ثم سار مارا بكيسوم ، ثم تل باشر ثم انطاكية ، فالى بيت المقدس.

وزاد فرح الفرنجة لدى سماعهم أن بلدوين وجـاليران قـد أطلق سراحهما وأن قلعة زياد قد سقطت ، ولكن عندما سمع بلك بما حدث في قلعته الحصينة ، عاصمة مملكته ، وبيت ماله ومخزن ثروته بـدأ بالتحرك حالا مع فرق جيشه ، ووصل الى قلعـة زياد بمـدة أربعـة ايام ، أي بعد عشرة ايام من حـدوث الكارثـة ، وهـاجم القلعـة بضراوة ونصب آلات الحرب التي حطمت السور دون تـوقف دقيقـة واحدة لئلا يحضر الفرنجة لنجدتها ، وفي بضعة أيام فتحوا ثغـرة في السور ، وطلب بلك تسليم الحامية ووعدها أن يحفظ حياة أفرادها لانه لم يرغب أن يهاجم القلعة ويدمر سمعته وشرفه ، ثم هدم برجا أخر واقفا فوق صهريج المياه وعندما حدث هـذا فقـد المحـاصرون الأمل وخرج جاليران بنفسه ليطلب كلمـة الشرف مـن بلك لحفـظ حياتهم ، وأعطاهم بلك كلمة الشرف ، فسلموا له القلعة فـدخل بلك وبدأ بتعذيب الأرمن وسلخهم أحياء ، ثم أعيد الملك وجـاليران الى سجنهم (٨٨) السابق.

وذهب جوسلين الى بيت المقدس ، وجمع جيشا ونزل خارج حلب في جبل جوشن مقابل البوابة الغربية لمدة ثلاثة أيام ، واخذ الجـزية منهم ، وقد أراد أن يخلص قلعة زياد ، لكنه سمع أن بلك قد احتلها وقتل الأرمن لهذا عمد الى هدم المساجد الواقعـة على الجبـل الذي كان نازلا بـه ، وكان احـدها مشـهد الدكة واخـر بني للملك رضوان ، ثم قطع الأشجار وخرب الحدائق ورجع (٨٩) .

وفي حلب طلب أبو الحسن بن الخشـاب قـاضي المسـلمين مـن

- ١٩٨٩ -
المسحيين في المدينة أن يعيدوا بناء المسجدين وكان هنالك اسقفان في المدينة أحدهما ارثوذكسي اسمه غريغوري او شمشوم الرهاوي والآخر ملكاني وكانت خزينة الكنيسة لاتسمح بمثل هذه النفقات فقالا :إننا لانستطيع ان نفتح علينا بابا ، إذ انه كلما هدم مسجد توجب أن نعيد بناؤه من « أموال الكنيسة » ، وعندما سمع المسلمون هذا الكلام قاموا في يوم الجمعة بناء على أمر القاضي فهجم ألوف من المسلمين ، ومعهم النجارون والفؤوس على الكنائس ، فاقتحموا كنيسة القديس يعقوب وكسروا المنبر وحطموا ملائكة المذبح وشوهوا الصور ، وفتحوا محرابا في حائط الحرم الجنوبي ، وبدأوا بالصلاة هناك ، وحولوا الكنيسة إلى مسجد ، وقد حدثت العملية نفسها في كنيسة ثيوتوكس الاغريقية وكنيسة النساطرة ، ونهبوا الكنائس وحجر خلوات الأساقفة ، وقدهرب الأسقف الملكاني إلى أنطاكية والأرثوذكسي إلى قلعة جعبر ، وقد حدث كل هذا في عام ١٤٣٥ عندما كان أثناسيوس بن قماري بطركا (٩٠)

وعندما سمع بلك بتحركات جوسلين اسرع في جمع قوات عسكر بها قرب منبج وخرب الأراضي التي لم تكن تابعة له وذلك عقابا للأهالي الذين لم يساعدوه ، وفي أثناء القتال ضد منبج أصيب بسهم اطلق عليه من أعلى السور فمات ، فأخذوه إلى حلب ودفن هناك بعيدا عن أسرة أرتق (٩١) .

وفي تلك الأثناء وفي اثناء الحوادث التي حدثت في قلعة زياد في عام ١٤٣٥ ، تجمع بعض الفرنجة ويدعون البنادقة وجمعوا جيشا عظيما وجهزوا كثيرا من السفن وابحروا في البحر إلى فلسطين تحت قيادة ملكهم المدعو الدوج ، فوصلوا إلى ساحل صور وصيدا ورسوا بسفنهم هناك ، وعندما سمع الفرنجة بقدومهم اتى بطرك بيت المقدس لاستقبالهم لأن الملك بلدوين كان اسيرا ، وقد حاصروا صور التي كانت لاتزال تحت حكم المسلمين واصبحت ملجأ لكل من احتل الفرنجة بلادهم ، وهاجم هؤلاء صور برا وبحرا وحاربوها

بمختلف انواع الاسلحة ونصبوا المجانيق والعرادات التي قذفتها ليلا ونهارا ، وبنوا برجين من الخشب مؤلفين من سبع طبقات ، وكل برج طوله عشرة أذرع وغطوا البرجين بأنواع قوية من خشب البلوط الرطب التي لاتؤثر بها نيران النفط ، وعندما انتهوا من بناء البرجين سحبوهما ووضعوهما أمام الأسوار ، والآن لم يكن للمدينة سور واحد بل ثلاثة أسوار عالية يفصل بينها ثلاثة أسوار صغيرة ، وخندق عميق بينها ، وكانت الأسوار مسلحة تسليحا قويا ، ووجد عليها جنود مسلحون بأقوى الأسلحة ، ورجال صور مشهورون بأنهم محاربون أشداء .

واستمر الحصار مدة سبعة أشهر ، وقد فتحت ثلمات في الأسوار في بضعة مواقع وهدمت عدة أبراج ، ولكن الحامية لم تتأثر لأن الطعام كان موفورا لديها إنما أصبح أفرادها في كرب عظيم عندما نفد الطعام ، ولما لم يتمكنوا من الحصول على أية مساعدة من حاكم مصر توجهوا إلى صاحب دمشق ليساعدهم ويحكمهم ، وكانت المراسلات تجري بواسطة الحمام لأنه لم يكن هنالك مجال لانسان لدخول المدينة أو الخروج منها ، وجمع حاكم دمشق جيشا لجبا لمساعدتهم وأرسل لهم رسالة بواسطة الحمام أيضا تقول أنا قادم بعد أيام للتفريج عنكم وبصحبتي جيش عظيم كونوا أقوياء ، استمروا في المقاومة ولاتهنوا ولاتضعفوا ، ولكن بمشيئة الرب وقعت الحمامة بيد الفرنجة في معسكرهم فقرأوا الرسالة ، وكتبوا رسالة أخرى ذات معنى معاكس نصها :

« لقد كتبتم لنا بأن نأتي لنجدتكم . نحن لانستطيع القدوم لأنه ليس لدينا عساكر تقاوم هؤلاء الذين يحاصرونكم فسلموا المدينة ، وتأكدوا من الحفاظ على أرواحكم » وربطوا هذه الرسالة بجنح الحمامة وأطلقوها وعندما قرأ أهالي صور هذه الرسالة فقدوا الأمل لأنه لم يكن لديهم طعام « حذفت هنا فقرة تخص قصة الاسكندر الكبير » .

وأرسلوا بعض أعيان المدينة إلى الدوج قائد الفرنجة والبطرك ،

- ١٩٩١ -

ورجوا أن تحفظ أرواحهم فاتفق على ان كل من يرغب بالبقاء يمكنه البقاء في المدينة ، وكل من يرغب في الخروج يمكنه الخروج مع عائلته إلى حيث شاء ، بأمان ، عندها فتحت ابواب المدينة ودخل الفـرنجة وتمركزوا فيها في شـهر تمـوز (٩٢) ، وفي هـذه الأثناء كان بلدوين (وجوسلين) وجاليران لايزالون في السجن (٩٣) .

اطلاق سراح بلدوين وموت جاليران (٩٤)

اما البرسقي الذي سبق وروينا خبر انكساره فقد رأى حلما وهو في الموصل أن أحد عشر كلبا قد مزقوا جسـمه إربـا إربـا وعندمـا استيقظ أخبر عن حلمه ، فحذروه بألا يذهب للصـلاة في ذلك اليوم ، وأن يحتاط لأمره ، ولكنه رفض أن يتخلى عن صلاة الجماعة في يوم الجمعة في الجامع الكبير في ذلك اليوم ، وبينما كان يسير داخلا مـن باب المسجد في منتصف النهار متوجها إلى المسجد للصلاة كما هـي عادة المسلمين ، إذا بأحد عشر رجلا من الاسماعيلية يحيطـون بـه ويطعنونه بالمدى ويقتلونه (٩٥) ، وقد خلفه في حكم الموصـل واقـور ابنه الذي كان يدعى البرسقي ايضا ، وتجمع الفرنجة : الملك بلدوين وصنجيل صاحب طرابلس وجوسلين كونت الرها والتحق بهم احـد المسلمين المنفيين المدعو دبيس صاحب الحلة والعراق ، وكان قد اتى إلى انطاكية وانضم إلى جانب الفرنجة ، وحاصر هؤلاء حلب بجيش عرمرم وهاجموها من جميع الجوانب مدة تسعة أشهر ، وقد أصبح الأهالي في كرب عظيم بسـبب المجـاعة ، واكلوا لحـوم الحيوانات القذرة ، وبعد تسعة أشهر عندما أصبحوا على وشـك الاسـتسلام أتتهم رسالة من البرسقي حاكم أقور أنه قادم لنجـدتهم ، واقتـرح دبيس أن يعطى جيشا يذهب على رأسه ويمنع البرسقي أو يعيقه من عبور الفرات حتى يتمكنوا من فتح المدينة ، وقد كان الفرنجة عنيدين فلم يأبهوا لنصيحته وعبر البرسقي الفرات ودخل حلب ليلا بمنتهـى الجرأة ، وفي الصباح فتح أهالي حلب أبواب المدينة وزحفـوا وعلى رأسهم البرسقي ، وهاجموا الفرنجة الذين تـركوا حصـار المدينة وعسكروا على قلعة الجـوشن ، وبعـد عشرة أيام جلواعن المنطقـة

واتجهوا إلى انطاكية ، فطاردهم البرسقي حتى الأثارب ، وقد قـام بضرب المتخلفين من الجيش ، ونهب الأمتعة ثم رجع إلى حلب وقـد انتابه السرور العظيم .

ثم بدأ البرسقي حصار عزاز ، وركب الآلات لضرب الأسوار ليلا ونهارا ، وقد حفرت الأنفاق تحت الأسوار حتى يدب الفزع في قلوب الحامية ، وعندما سمع الفرنجة في انطـاكية تلك الأخبـار تجمعـوا تحت قيادة بلدوين وجوسلين ، ولكنهم كانوا يخشون التقدم لانقـاذ المدينة لأن عدد التركمان كان عظيما ، وقد وقعت الحملة في ارتبـاك عظيم فلم يستطع احد أن يدخل أو يخرج ، ولكن رجلا واحدا تبـرع بالمخاطرة بنقل أخبار الوضع السيء إلى الملك ، وقـد وعده الأهـالي بمكافأة سخية إن هو رجع إليهم سالما ، فـامتطى حصـانا قـويا ، وأخذ سيفا في يده وحمامة على صدره ، وخرج من البـوابة كالبـرق واجتاز جماعة جماعة مـن جمـاعات الأعداء الذين كانوا يراقبـون البوابة وقفز فوق الخندق الذي حفر حول المكان ، وعبر إلى الضـفة الأخرى ، وقفز الأعداء عليه مـن كل حـدب وصـوب ولكنهـم لم يستطيعوا إيقافه ، فوصل إلى انطاكية وسلم الرسالة للملك ، فبـدأ الفرنجة في الاسـتعداد لاغاثـة اعزاز وهـم يعتمـدون على الرب ، وأرسلوا رسالة بواسطة حمامة يقولون فيها : « سوف نغيثكم بعـد بضعة أيام كونوا أقـوياء ولاتهنوا وتضـعفوا » ونزلت الحمـامة في معسكر الأتراك الذين كتبوا رسـالة بمعنى معـاكس تحمـل اسـم جوسلين وهي تقول : « لاأمل يرجى منا إن الملك مشغول بمحـاربة المصريين الذين يحاصرونه ، انقذوا أرواحكم وسلموا الحصـن » ، وعندما قرأ أفراد الحامية هذه الرسالة انقسموا في الراي ، وقالوا : « سوف نصمد ونتحمل لئلا يحدث لنا مـاحدث لحمـامة صـور ، إذ ربما كانت هذه الرسالة مـزورة ، فلنبـق أقـوياء ولنحـافظ على صمودنا أكبر مدة نستطيعها ، دعنا نمـوت ولا نسـتسلم » ، ورأى الاتراك أن حيلتهم قد أخفقـت فـأرسلوا بعض أمتعتهـم إلى حلب لانقاذها من الفرنجة وأرسلوا الجواسيس إلى انطاكية ليعرفوا متى يتحرك الفرنجة ، وبعد بضعة أيام جاءت الأخبار أن الفرنجة بـداوا

بالتحرك ، فأعاد الاتـراك كل مـاكان لديهـم مـن ادوات إلى حلب وأحرقوا الات الحصار ، ولم يبق إلا الرجال المحاربون ، واختـزن الفرنجة أمتعتهم في كلز وتركوا التلة وتمركزوا في السهل فـوق كلز ، وعندما راى الأتراك الفرنجة بداوا يتحركون هنا وهناك واصـبحوا على يسارهم ، ومر الفرنجة الذين كانوا قليلي العدد بين التـركمان دون قتال ، وعسكروا حيث كان الأتراك معسكرين ، وراى الاتـراك قلة عدد الفرنجة فارتفعت معنوياتهم وناقشوا القضية بهذا الشكل . إذا توقفوا في مكانهم فإننا سـوف نحيط بهـم ونقـطع عنهـم المؤن فيموتون جوعا ، وإذا هربوا فذلك علامة ضعفهم ولسوف نطاردهم ، أما الفرنجة فأدخلوا عددا كبيرا من الرجـال إلى داخـل القلعـة ، وأعطوهم التعليمات التالية : « نحن متوجهون لفترة قصيرة غربـا حيث ترتاح خيولنا ونحصل على الماء والغذاء (لم يكن اي شيء مـن هذا في أعزاز) فإذا طاردنا رجال العدو راقبوهم فعندما يخـرجون من مكانهم ويصبحون كتلة واحدة خلفنا عندهـا ارفعـوا شـارات الدخان فوق القلعة ، وعندها تتم مشيئة الرب » ، وتحرك الفـرنجة عند الفجر في طريق انطاكية ، وعندمـا تبعهـم الأتـراك تـظاهروا بالهرب ، وتشـجع الاتـراك فـأظهر جميع الرجـال الذين كانوا في الكمائن انفسهم ، وطاردوا الفـرنجة بـكل عزم ، وظهـرت علامـة الدخان فوق القلعة ، فأصدر الملك الأمر ونفخـت الابـواق وجلبـت الأعلام الملكية إلى المؤخرة وكان الرب غاضـبا على الأتـراك الذين هربوا وتـركوا خلفهـم الفـي قتيل ، ولم ينج إلا البـرسقي وبعض مرافقيه الذين طوردوا حتى حلب ، ثـم عاد إلى الموصـل ومـات في الرحبة على الفرات (٩٦) .

وارسل الملك بلدوين واحضر مـن اوربـا ابـن بـوهيموند الأول صاحب انطاكية (الذي رجع إلى بلاده بعد ان اطلق سراحه من اسر الدانشمند) وقد خطبه لابنته وجعله حاكما لأنطـاكية وبعـد هـذا احضر شابا أخر من عائلة الكونت فولك وخطبه لابنته الأخرى (٩٧) وأعلنه ملكا على بيت المقدس اثناء حياته ، أمـا طغتـكين صـاحب دمشق وبانياس فقد راى انه لايستطيع الاحتفاظ ببانياس ، لأنهـا

محاطةبأراضي الفرنجة ، وهكذا أعطاها لبهرام ، الاسماعيلي فقبلها هذا ، وجمع خمسمائة رجل وارسل بعض الهدايا لملك الفرنجة وقدم له ولائه .

اما ابناء رافين الارمني أسياد كيليكية فقد قاوموا غازي بن دانشمند ، وبدأ رجالهم بالنهب في أراضيه ، فبدأ غازي وهو من اقوى الامراء في مهاجمة اراضيهم واستعد بوهيموند صاحب انطاكية الذي كان متضايقا منهم أيضا ، للهجوم على كليكية ، وعندما بدأ بوهيموند بغزو كليكية ، قام غازي بالهجوم عليها من الجانب الآخر ، وقد تقابلت جيوش الفرنجة مع جيوش التركمان في الحال ، وكانت مقاصدها واحدة ، وهي تخريب تلك البلاد ، وأحاط التركمان بجيش بوهيموند وقضوا عليه ، ولم ينج منهم أحد ، وقتل بوهيموند الشاب النبيل ، فأخذوا رأسه وسلخوه وأزالوا الشعر الرقيق عنه وارسلوا جلد رأسه مع اشياء أخرى لطيفة : دروع ورماح فرنجية ، ومهاميز للخيل ارسلوها جميعا للسلطان في اصفهان كهدايا النصر ، هكذا قضى الأميران الواحد على الآخر ، واطلق سراح الأرمن ، ومن الغريب أن نذكر أن دانشمند أبو غازي قضى على جيش بوهيموند الأكبر وحطمه ، وهو أبو بوهيموند هذا واخذه أسيرا ، بينما ابنه غازي قضى على جيش بوهيموند هذا ، وقتل غازي الشاب بوهيموند الشاب .

وفي عام ١٤٤٢ (١١٣١ م) مات السلطان السجلوقي في اصفهان ، وحدثت زلزلة قوية سببت الكثير من الوفيات في خراسان ، وقد أنعم خليفة بغداد على غازي بن دانشمند ، وهو صاحب كبدوكية وملاطية بالسلطنة ، وقد كان اقوى امراء الاتراك في تلك الديار .

وفي هذا العام جمع جوسلين صاحب الرها الذي كان قد طعن في السن ولم يتوقف عن القتال ، جمع جيشا لتدمير قلعة تدعى تل أعرن (٩٨) بين حلب ومنبج حيث كان يعيش بعض اللصوص الذين عاثوا في الأرض فسادا باستمرار،وقد حفر الخنادق حولها ليحدث

ثغرة في الاسوار ، لكن انهيار الثغرة طمره عندما نزل ليرى الثغرات بنفسه ، وعندما اخرجوه من تحت الانقاض كان في حالة سيئة جـدا يكاد يموت فقد تحطم جسمه فحملوه إلى تل باشر حيث بقـي وهـو مريض هناك ، وفي اثناء ذلك جمع غازي جيشا للهجـوم على اراضي الأرمن أبناء (رافين) ، وعندما سمع جوسلين هـذا الخبـر امـر بجمع جيش ، وحمل على نقالة وتقدم لمقـابلة غازي الذي رحـل إلى بلاده عند سماعه هذا الخبر ، وبعد أن وصل جوسلين إلى دلوك توفي هناك ودفن في الكنيسة هناك ، وقد حكم بعده ابنه جوسلين الشـاب الذي كانت تعوزه المعرفة والفهم ، وفي هذه السنة ايضا مات بلدوين ملك بيت المقدس وحكم بعده صهره الأمير فولك اوف انجو ، وكمـا ذكرنا من قبل فقد كان هذا الشاب يتمتع بسلطة الملك اثناء حياة عمه ابي زوجته ، واما في انطاكية فبعد موت بوهيموند بن بوهيموند حكم بيتابين الذي ذكرنا ان جيشه قـد تحـطم في الاناضـول ، وعاد إلى بلاده .

وفي الشرق بعد موت البرسقي الأصغر في الرحبة عين السـلطان العظيم عام ١٤٤٣ (الصحيح ١١٢٧) زنكي بن اق سنقر حـاكما في الشرق.وكان اق سنقر احد رفقاء بـوزان الذي ذكر قبـل مجـيء الفرنجة ، وقد قتلهما تتش وهو تاج الملك ، وكان السلطان في بغـداد هو مسعود ابن اخي سنجر شاه العظيم ، وهـو ابـن ابـي الفتـح ملكشاه الذي دخل إلى سورية في ايام فيلارتـوس الدمشـقي وعين يغي سيان حاكما على انطاكية وبوزان حاكما على الرها ، وطغتكين على دمشق ، وقد ولد سنجر شاه لأبي الفتح مـن الملكة العـظيمة في سنجار ، وهكذا حصل اسمه ، وفي هذه الأثناء كان مسعود ابن اخي سنجر شاه يحكم اراضي اصفهان وخراسان والعـراق وبغـداد وكل البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد تبعت له اراضي اقليم اقور في الشمال الغربي ايضا ، وفي الموصل كانت السلطة بيده ايضا ، وكان بها حاكم يدعى اتابك ، وهذا الاسم اطلقه عليه التركمان ، وقد حكم كل منطقة مابين النهرين والشمال وحلب وفينيقية ، وفي الموصل كان هناك صـلاح الدين (٩٩) المشـهور وكذلك ناصر الدين وزين الدين

علي ، وهم تركمان حصلوا على الحظوة لدى السلطان ، وعندما مات البرسقي تقلدوا جميع السلطة في الشرق وحرضوا السلطان على تعيين زنكي بن آق سنقر حاكما(وهو عماد الدين) ونفذوا هذا الأمر ، ثم جعل زنكي حاكما على أقور ، وجميع مابين النهرين وسورية وفينيقية ، وقد أعطاه ولدي السلطان مسعود الشابين ليكونا سيدين على المنطقة بينما احتفظ زنكي لنفسه بمنصب الوصي والحامي،وفي هذا الوقت مات مسعود صاحب أصفهان وقد خلفه ابنه سليمان شاه في همذان (١٠٠).

في عام ١٤٤٣ زحف زنكي إلى جوار الرها ، وحاصر قلعة واقعة في شرق المدينة التي كان الفرنجة قد انتزعوها من شخص عربي يدعى مانع بن عطير ، واحتل زنكي قلعة شان (١٠١) ثم زحف واقترب من الرها ، وأرسل رسولا لأهالي المدينة قائلا إنه لايريد الحرب مع الفرنجة بل يبغي السلم معهم ، فأرسلوا له الهدايا من طعام المدينة وشرابها ، وهكذا مر بسلام إلى حلب .

وحكم تاج الملك دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، وبعد زمن قتله الاسماعيلية ، ولم يتفق ابناءه واخوته الباقون ، فاستولى احد القادة الذين كانوا مع تاج الملك على دمشق وهو انر باسم احد ابنائه ، واستولى ابن اخر على بعلبك ، وجمع زنكي جيشا وحاصر به بعلبك ونصب الات الحصار التي خربت تلك الابنية الرائعة ليلا ونهارا ، حتى انه كان يرمي عليها كل يوم الف حجر ضخم ، ولهذا سلمت المدينة بسبب ماأصابها من كروب ، وهكذا استولى زنكي على بعلبك وبدأ القتال باستمرار ضد دمشق .

وعندما رأى انر صاحب دمشق ان زنكي كان قويا يمكن ان يتغلب عليه بسبب ضعف جيشه وافتقاره إلى القوة طلب العون من ملك بيت المقدس ورشاه ليأتي لمساعدته ، وجمع ملك بيت المقدس جيشا وتقدم حتى أصبح قريبا من جيش زنكي وبحركة فنية بارعة انسحب زنكي من أمامه كما لوكان هاربا حتى توغل ملك بيت المقدس في البلاد ، وبعدها انعطف عليه زنكي بعنف وشراسة تسببت

في هزيمة الملك وهرب جيشه ، فبدأ التركمان بـذبحهم بـالسيوف ، ولكن ملك بيت المقدس هرب مع بعض رجـاله إلى حصـن الأكراد في أراضي طرابلس ، واختبأ هناك مـع الرجـال الذين هـربوا معـه ، وحاصر زنكي هذا الحصن وضيق على الحامية ، حتـى انهـم اكلوا الخيول والحمير دون ملح ، واسـتغاث ملك بيت المقـدس ببتـابين صاحب انطاكية وجوسلين الأصغر صاحب الرهـا ليأتيا لاغاثتـه ، وقد قاسى الملك ورفقاؤه وهم ينتظرون جمع الجيش ومجيء النجدة ، وعندما سمع زنكي بـالهرج والمرج ، وتجمـع الفـرنجة وإمـكانية مجيئهم ، وعما يعـانيه الملك أرسـل له الأطعمـة الطيبـة اللذيذة لاسترضائه وعمل معه اتفاقا وعهـدا وميثـاقا مشـفوعا بـأغلظ الأيمان ، ثم سار زنكي في حـال سـبيله (١٠٢) ، وسرعان مـاوصل الفـرنجة وأرادوا أن يطـاردوا زنكي ، ولكن الملك لم يسـمح بـذلك بسبب ميثاقه وقسمه ، وقويت شوكة زنكي واستمر في حرب دمشـق بعناد ، وأخذ اراضيها واستولى على تدمر في الصحراء .

وبعد إحلال السلم مع الملك لم يعد زنكي يحارب الفـرنجة ، بـل كان كل همه محاربة المسـلمين ، وأخـذ أراضـيهم ، وإخضـاعهم لسلطته ، وكان هنالك قلعة قرب حلب تدعى الأثارب ، وقلعة أخـرى تدعى هادانا (زردنا) وهي تحت حكم أحد زعماء الفرنجة ، الذي جمع جيشا واخـذ في تخـريب الأراضي في حلب ، واخـذ كثيرا مـن الأسرى ، ثم رحل ، وعندما سمع زنكي بهذه الأخبار ، أخذ جيشـه واحدق بهذه الأماكن ، واستولى الذعر على الأهالي ، فـطلبوا مـن زنكي أن يقسم بالحفاظ على أرواحهم ، فـأقسم ولكن كانت نيتـه الغش ، فقال بأنه سيأخذهم إلى بوابة انطـاكية ، وعندمـا فتحـوا الأبواب ، اخذهم جميعا رجالا ونسـاءا وأولادا إلى حلب ، لكن إلى باب يدعى باب انطاكية في حلب ، وبذلك حافظ على قسمه ، لكنه ذبح جميع الرجال بالسيف ، وأما النساء ، والأطفال فقـد جعـل الأولاد عبيدا والبنات جواري .

وعندما مات غازي بن دانشمند (١٠٣) حـكم ابنه محمـد بعـده ،

واصبح قويا ، لكنه كان رهيبا ، وزاد ثقل نيره على ممتلكاته في كبدوكية ، وخصوصا على أهالي ملاطية ، وقد أرهقهم بالضرائب وخصوصا الجزية ، وعاقبه الرب بأن اصيب بمرض خبيث ، ومات ، وكان لغازي ولدان اخران هما (دولة) والآخر (يعقوب) وعندما مات محمد استلم الحكم (دولة) بعده (١٠٤) .

وفي عام ١٤٤٦ (التاريخ الصحيح هو ١١٣٧ م) بدت الحماسة في الظهور عند الأمبراطور جون في القسطنطينية لغزو سورية فجمع جيشا يقدر بأربعمائة الف رجل من الأغريق والفرنجة والألمان والهنغاريين واستعد للزحف على طول ساحل كيليكية ، حتى يظل بجانب البحر وبذلك ينقل امتعة في السفن التي تستطيع ان تمده بالمؤن والعلف للخيول بانتظام ، وكان حاكم كيليكية في ذلك الوقت (ليو) (ليون بن رافين) الأرمني ، وهو خال جوسلين الأصغر صاحب الرها ، وقد تحسنت أحوال (ليو) هذا واصبح قويا ، وعندما قتل بوهيموند في أراضيه زادت سلطته على الفرنجة وعلى الأراضي الساحلية المدعوة « تاغر (١٠٥) » واستولى على طرسوس ، وسبب كثيرا من الخسائر للفرنجة ، وعندما حكم بيتابين في انطاكية نمت وزادت هذه العداوة ، وقد استمر (ليو) هذا في غزو أراضي الاغريق ، وسبب هذا الانزعاج للامبراطور ، وفي الوقت الذي حدثت فيه غزوة الامبراطور ، كان بيتابين قد جمع جيشا ، وبدأ بنهب اراضي كيليكية ، واستعد (ليو) للقتال ، ولكنه فوجيء بكمين فرنجي فأسر وأخذ إلى انطاكية حيث اودع السجن ، وبينما كان (ليو) أسيرا وصل الامبراطور إلى ابواب كيليكية ، وأرسل رسالة إلى الفرنجة طلب بها من كل من يخضع له أن يأتي ويقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعندها اتى جوسلين وبيتابين لتقديم فروض الطاعة وقابلاه فيما وراء طرسوس ، واستقبلهم الامبراطور بسرور ثم رجعا كل إلى مدينته ، واستولى الامبراطور على طرسوس والمصيصة واذنة واستولى على عين زربة بعد حصارها ، ثم تقدم إلى سهل انطاكية وانتشر جيشه في السهول والقرى ، وانزل اضرارا جسيمة بالقرى المسيحية ، وعندها اتى

- ١٩٩٩ -
حاكما انطاكية والرها مرة ثانية لتقديم فروض الطاعة للامبراطور ، وقد رغب أن يضع الأمتعة التابعة لجيشه وأمواله في انطاكية بمثابة عهد منه وتعهد بأنه تغلب على أراضي المسلمين فسوف يعطي هذه الأراضي لصاحب انطاكية ، لكن صاحب انطاكية لم يكن راضيا عن هذا الاجراء.

وزحف الامبراطور على رأس جيش عرموم ومعه أموال كثيرة ورافقه أبناؤه الأربعة وأخوته وأصهاره وجميع رجال بلاطه الامبراطوري ، وقد أقسم يمينا بألا يرجع مع قياصرته وأغسطسه وبطارقته وبقية نبلائه دون أن يحرز نصرا مبينا ، وهذا مادبره الامبراطور ولكن الرب يعطي نصره وتأييده لمن يشاء ، فعندما رجع بيتابين إلى أنطاكية أطلق سراح (ليو) الذي رجع إلى بلاده وانضم للامبراطور بمثابة رديف ، ولكن الامبراطور سجنه واحتل أراضيه وأرسله إلى القسطنطينية مع أولاده وأهل بيته .

وبينما كان الامبراطور في سهل أنطاكية والفرنجة يخدعونه إذ لم يكونوا مستقيمين بالتعامل معه ، أتت أخبار تستحق الرثاء من أذنه التي حلت بها نوازل قاسية ، فقد كانت أذنه مليئة بالمسيحيين اليعاقبة ومعهم مطرانهم يحيى يسوع بن أريك الرهاوي ، وعندما استولى عليها الامبراطور ترك فيها قوة لحمايتها ، وانتقل الى أنطاكية وقد فرح أهلها لأنهم أصبحوا تحت حكم الاغريق الذين خلصوهم من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنجة عليهم ، وبينما كانوا هادئين وناعمي البال في أحد أيام الأحد اذا بجيش تركماني (١٠٦) ينقض عليهم ويحيط بهم إحاطة الخندق بالأسوار ، وبدأ هذا الجيش بالهجوم عليهم كالريح العاتية ، ونصب جنده السلالم على الأسوار وتسلقوا عليها ، وعندما كانت حامية السور تدفعهم من جانب كانوا يظهرون في جانب آخر ، ولقد ضعفت الحامية بسبب السهام التي كانت تطلق عليها من جميع الاتجاهات والحجارة ، والهجوم المركز المحيط بها ، وصمدت الحامية من الفجر حتى منتصف

النهار ، وأشاح الرب وجهه عنهم وتـركوا لتتسـلمهم أيدي الأعداء بطريقة غريبة عجيبة لايصدقها أي شخص يسمعها ، اذ دفـع أحـد الاتراك سلما على السور وبدأ بالتسلق عليه ولكن عندما وصـل الى نهاية السلم كان السور لايزال أعلى منه . فتمسك بحجـر بـارز في السور ووقف عليه واذا بواحد من رجال الحامية فوقه يطعنه برمحه ليرميه على الأرض وتمسك التركماني بالرمح فسـحب الجندي الذي على السور الرمح بشدة ليخلص الرمح مـن يد التـركماني وبهـذه الطريقة سحب التركماني الى الشرفـات في أعلى السـور ، وسـل التركماني سيفه وهجم على الجندي الذي انهارت قواه وسقط مـن أعلى السور ، عندها اعترى الجنود الآخرين الخوف والفزع فهربوا من التركي ، وتركوا أمكنتهم وتشجع التركمان فتسـلقوا وتبعـوا رائدهم ، واحتلوا السور ، وفي لحظة من الزمن أصبح السور يعـج بالتركمان الذين نزلوا الى المدينة وفتحـوا ابـوابها ، وأدخلوا بقية الجيش التركي ، ولقد كان الرب غاضبا على أدنه وسكانها ، وجمع التركمان جميع الرجال وأمروهم بـالركوع ثـم قـطعوا رؤوسـهم بالسيوف ، وقد نهبوا البيوت والأديرة والكنائس ، وجمعـوا غنائم لاتعد ولاتحصى ، وأخذوا أسرى من الأولاد والبنات بشكل مجـاميع كاملة ، وأخذوا المطران والكهنة والشـمامسه الصـغار وربـطوهم بالحبال وجروهم الى الأسر المهين ، ودمروا المدينة وجعلوها خرابا يبابا ، ثم رجعوا الى بلادهم ، وعندما وصلت الأخبار للامبـراطور أرسل جيشا لمطاردة التركمان ، ولكن لم يسـتطع هـذا الجيش أن يدركهم لأنهم كانوا قد ابتعدوا مسيرة سبعة أيام ، وبيع الأسرى في أماكن متعددة خصوصا في ملاطية ، وأما الذين نجوا فقد رجعوا الى مدينتهم وقد اهتم الامبـراطور بـأمرهم ووهبهـم كل مـايحتاجونه لاقامة أودهم في هذه الحياة ، وجاء تدمير مدينة أدنه وخرابها بعـد خمسة أشهر مضين منذ بـداية حملة الامبـراطور ، وعندمـا حـل الشتاء قضاه الامبراطور في كيليكية مع جيشه وقـد كان هنالك كثير من المرضى وأعداد لاتحصى من الوفيات .

وفي نهـاية شـهر تشرين الأول وعندمـا كان الامبـراطور في

كيليكية ، تجمع جمهور كبير في بسمسياط واتجهوا الى الرها لأنه في مثل هذه الحالات لم يكن التحرك مأمونا الا بشــكل جمــاعات وذلك بسبب الكمائن التي كان ينصبها العدو على الطــرق ، وكان معهــم جملة من العلف والنبيذ وجميع ضروريات الحياة ورجــال وحيوانات لاتعد ولاتحصى ، ويصحبهم فرسان ومشاة من الفرنجة ، وعندمــا عبروا نهر الفرات وأصبحوا على بعــد بضــعة أميال مــن الرهـــا فاجأتهم قوى تمرتاش بن ايلغازي صــاحب مــاردين وميافــارقين المؤلفة من عشرة الاف فــارس عند غروب الشــمس في ٢٩ تشرين الأول عام ١٤٤٧ وتحاربوا طيلة الليل ، وظل القتال مســتمرا مــن فجر ذلك اليوم حتى الظهر بشكل مرير ، وقــد تــوجهت عدالة الرب ضد القافلة قرب قرية تدعى باتال على طريق الرها ، واطبق عليهــم التركمان واعملوا بهم الســيف وقتلوا منهــم عددا لايحصى واسروا الألوف ، وغنموا غنائم هائلة من الخيول والبغال والحمير واخــذوا الأسرى المصفدين بالاغلال واوقفوهم أمام ابــواب الرهــا صــفوفا صفوفا ، وخاطبوا اهالي الرها قائلين : أيهــا الحمقــى ، مــاذا تأملون سلموا المدينة ، ونحــن ســوف نطلق سراح أسراكم ، ولم يحر أهالي الرها أي جواب وهكذا انسحب الجيش لأنه لم يكن لديه أي آلات حصار .

وعندما انتهى الشتاء وأتى الربيع (١٠٧) استعد الامبراطور لدخول سورية وارسل إلى زعماء الفرنجة حسب الاتفاقية ومر بمرعش وعين تاب وتل باشر ثم أتى الى منبج ، وقد قاده جوسلين لحصار حصــن بزاعه بين منبج وحلب فاستولى عليه ونهبه ، ثم سلمه الى جوسلين وفي عام ١٤٤٨ (١٤٤٩) (١٠٨) زحفوا مــــن بـــزاعه ومروا مــــن حلب ، وبدوا مثل أسراب الجــراد جيشــا لايعــد ولايحصى ، وقــد ارتجفــت قلوب أهــالي حلب حين ظنوا ان الامبــراطور قــد حضر ليهاجمهم ، وعلموا أنه اذا فعــل ذلك فــالمدينة ســوف تســقط حتمــا ، ولكن الفــرنجة الماكرين الغشــاشين لم يكونوا راغبين بانتصار ســـاحق للامبـــراطور ، فـــكانوا يقلبـــون له الحقائق ، ويتظاهرون بالتفاني في حبه والولاء له ، ولكن كذبا ورياء

فنصحوه بألا يهاجم حلب بل أن يقدم على عمل انتحاري بحصار (شيزر)، وهي قلعة حصينة واقعة على قمة تلة عالية ، ويجري نهر أسفل منها ، وكان أصحابها من نبلاء العرب يدعون (بنو منقذ) وهم اقارب صاحب قلعة جعبر وهو الذي الجأ بلدوين كما سبق واشرنا عندما أطلق سراحه من الموصل ، وكانوا كرماء الأصل طبيعتهم حب الخير والمصالحة لاينوون لأحد الشر ، وكان زنكي في حلب وابتهج كثيرا عندما راى خطط الاغريق والفرنجة السيئة ، فأدرك فورا أن اغراض الفرنجة تتضارب مع أغراض الاغريق ، وبينما كانوا يحاصرون شيزر تصرف زنكي بحكمة وفضل ان يتجنب مصادمتهم في الوقت الحاضر ، فأخذ يقوي رجاله ، ويحمي حدوده ، وتقدم قليلا بمحاذاة المعسكر الاغريقي ، وهاجم الامبراطور قلعة شيزر دون جدوى ، وبدأت المجاعة تتغلغل في صفوف الاغريق لأنهم كانوا يؤلفون جيشا عظيما يحتاج لمؤن كثيرة ، وقد منع زنكي عنهم المؤن بحكمة مدوية ، وعندما اشتدت وطأة المجاعة ، ولم تكن هناك أي حيلة للاستيلاء على الحصن بالقوة ، أدرك الامبراطور ، خيانة الفرنجة في اضاعة وقته في حصار هذا الحصن ، وأرسلت حامية الحصن رسلا الى الامبراطور قالوا لها « ان الفرنجة قد ضللوك ، وقد اتوا بك لتحاصر هذا المكان مع اننا لم نسبب أي ضرر للمسيحيين ، وارسلوا له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة ، واحتفظوا بها منذ زمن ابائهم ، وغادر الامبراطور شيزر وذهب الى انطاكية ، وبعد مسيرة مرهقة وصل الى عين زربه ، ولم ينجز أي عمل في ذلك الصيف .

وتوجه زنكي الى بزاعه واستولى عليها وقتل جميع الفرنجة فيها وكان الأسرى الذين أخذهم الفرنجة منها عند استيلائهم عليها قد وضعوا في اعزاز ، وكانوا يأخذونهم كل يوم الى حقول القمح ليأكلوا لأن الطعام كان نادرا ، فوضع زنكي كمينا قتل جميع حراس أولئك الأسرى واطلق سراحهم وأخذهم الى بزاعه وكان الأمبراطور

في كيليكية ، وقد مــات ابنه الأكبــر فحنطــوه وارســلوه الى العاصمة ، وسرعان مامات ابن آخر من أبنائه فحنط ايضا وأرسل الى العاصمة ، وتــأثر الامبــراطور كثيرا وزاد حــزنه فــرجع الى القسطنطينية خــائبا دون ان يســتولي على بيت واحــد مــن بيوت المسلمين ، أو أن يربح معركة واحدة فقط .

وفي بداية السنة التالية استعد الامبراطور جون ثانية ، وأتى الى طرسوس ومعه جيش كبير ، واستدعى زعماء الفرنجة ووبخهم على مافعلوا به في السنة الماضية ، ورتب مصاهرة وزواجا حتى يتفقــوا معه بموجب حب حقيقي ، وبينما كان يقوم بهذه الترتيبات ذهب الى الصيد في يوم عطلة وظهر له غزال ففوق القوس نحوه بعد أن وضــع به سهما ، ولكن رأس السهم جرح يده اليسرى فالتهبت ، وحــدث تورم في ذراعه وبعد بضــعة أيام مــات ، وكان معــه ابنه الاصــغر مانويل الذي كان قــد أعلن امبــراطورا اثناء حياة والده ، وحنطــه الجيش وأخذه مع ابنه الى القســطنطينية وأصــابهم كرب وحــزن شديد ، وفي تلك الأثناء حدث زلزال شديد فتهدمت عدة مدن وخــاصة في كيليكية وسورية ، وقد اختفت قلعة الأثارب الحصينة ، وغارت في الأرض كأنها لم تكن ، ولكن القــدس نجــت وفي هــذه الأثناء تــوفي بلدوين وخلفه ابنه .

وبدأ زنكي الذي استراح وأمــن جــانب الفــرنجة والأمــراء المسيحيين ، بالهجوم على أعدائه من التــركمان ، فعبــر الفــرات وهاجم ابناء أرتق وتمرتاش وابناء داود ، وأخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شــبختان ، واخــذ حــاني وارقين والحميمة ، وفي شدتهم اســتغاث ابناء أرتــق بجــوسلين صــاحب الرها ، واعطوه مقــابل مســاعدته حصــن بــابولا في أراضي كركر ، فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي ، وقد كان ذكيا وماكرا فعقــد السلم مع الأراتقة الذين كانوا راغبين في هــذا الســلم لأنهــم كانوا يعلمون انه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب ، وشــعر زنكي بالغضب من جــوسلين ، ولم يوفــر اي محــاولة أو وســيلة

لاحتلال الرها ، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتأكد من ان المدينة كانت خالية من الجند ، وكان في حران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر ، وكان يكره رجال الرها ، وكان الجواسيس يأتون اليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر آمد .

وجمع جوسلين جيوشه وذهب للاغارة على المقاطعات القائمة على الفرات قرب بالس والرقة ، وبادر رئيس حران الى اخبار زنكي ، وكان في آمد : ان الرها باتت خالية من الجنود ولذلك ارسل زنكي على الفور جنودا مدربين تحت قيادة صلاح الدين (١٠٩) الشجاع ، واوعز اليهم ان يعملوا جهدهم لاحتلال الرها ، واخذها على حين غرة ، واذا لم يستطيعوا فتحها عليهم ان يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها ، فاذا وجدوا الدفاع قويا وفعالا فعليهم ان يعودوا ، والا فعليهم ان يحدقوا بها ويستدعونه .

وما ان بدات الحملة سيرها ، حتى سار زنكي على اثرها وقد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم والليلة التالية ، ولو انها وصلت في الظلام لكان باستطاعتها الاستيلاء على المدينة لأن سكان المدينة لم يكونوا متوقعين ابدا مثل هذا الهجوم ، ولكن حدث ان هبط مطر غزير ، وكان الليل شديد الظلام ، وعندما اقتربت الحملة من المدينة ضلت الطريق ، وعند الفجر وجدت نفسها قد سارت في طريق حران ، وعندما رجعت كان عنصر المباغتة قد اصبح لاامل منه ، فهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني عام ١٤٥٥ ، ووصلت الى الهضاب المحيطة بها ثم قتلت بعض الرجال الذين كانوا بين الأسوار ، وعندما رأت ضعف المدينة أرسلت الى زنكي رسالة بواسطة الحمام الزاجل ليأتي حالا ، فوصل في فجر يوم الخميس على راس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء ، ملأ السهول حول المدينة واحاط بها فرقة تلو فرقة ، ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين ، وقد كان العسكر حريصين ان ينصبوا خيامهم امام المعاقل الخارجية ، فقد نصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف ، والى الشرق منه نصبت خيمة الملك العظيم ابن

السلطان ، والى الشمال كانت خيمة الايراني العاقل جمال الدين الوزير ، الذي كان مسؤولا عن جباية الضرائب وادارة الواردات من اراضي زنكي حيث عسكر على تلة المراقبين .

واما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة حيث يوجد ضريح مار أفرايم ، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما ، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير دبيس سيد الأراضي المنخفضة مقابل بابل ، وهو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان (١١٠) وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوزان كان ابو علي صاحب زعفران وارقنين ، وفي الشمال الشرقي كان ابناء باقساق وهم حكام سبابرق على شواطىء الفرات ، وفي شرقي باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان وجذوب هذا عسكرت قبائل من الأكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب ، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة ، ولم يكن بها أي جند ، بل فيها الاسكافيون والنساجون ، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسه فقط وكان بها ثلاثة اساقفة هم بابياس (١١١) من الفرنج وباسيلوس السرياني بن شومنا ، وهو من أبناء المدينة ، والأرمني اهنانيوس ، وقد قاوموا بشراسة ، وقاتلوا قدر استطاعتهم ، فنصب الأعداء آلات الحصار ، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي امامه ، وقد ضربوا السور بعذف ، وقد حفروا الانفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج باب الساعات ، ووصلوا الى أسس السور بينما كان القتال مستعرا في الخارج ومستمرا ، وقد حاول زنكي اضعافهم بارسال اقتراحات السلم ـ رفضوها ـ لأنه كان يرغب أن تستسلم له المدينة استسلاما دون أن تدمر ويقتل الاهلون ، فأرسل لهم: « انصتوا ايها الحمقى انكم ترون الا أمل لكم بانقاذ أرواحكم ، لماذا تنتظرون

وتأملون ، أشفقوا على انفسكم وأبنائكم وبناتكم وزوجاتكم ومدينتكم حتى لايحل بها الخراب ، وتصبح خالية من السكان» ، ولم يكن هنالك أحد من السكان يملك اي سلطة ، فكل واحد يفعل ما يريده ، وهكذا تركوا للخراب والنهاية المحزنة ، فقد أجابوا زنكي بوقاحة بالاهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل ، وقد اقترح الاسقف السرياني بعد التشاور مع اسقف الفرنجة ان يكاتبا زنكي ويطلبا منه هدنة مؤقتة لزمن محدد حتى تأتيهم النجدة ، وقد بدت هذه الفكرة جيدة ، وهكذا استشار بعض الرجال العقلاء فكتبا الرسالة وقرأها للشعب وكان الهدف من ارسال الرسالة هو تأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم ، لأنهم فقدوا أملهم في الحياة ، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمام مقالع الحجارة ، وكانت النساء والبنات والاولاد قد أخذ منهم التعب كل مأخذ من حمل الحجارة التي يلقيها الأعداء ، بواسطة آلات الحصار تسقط عليهم من الخارج . ، ولم يكن هنالك نهاية للاضطرابات المحيقة بهم ، لذلك فكر الاسقفان أن يرتبا هدنة ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة ، ويتأجل ولو الى فترة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم ، وقد رأيا السور وقد هدم من جميع جوانبه بفعل آلات الحصار ، وفي المقلع الشمالي اتلفت أسس السور ووضعت في مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم ، وبذلك يسقط السور ، وعند ذلك قام رجل جاهل ، وهو تاجر حرير يدعى حسدون ومد يده بمزق الرسالة ، فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفسدت هذه الخطة الحكيمة ، ومع أن زنكي كان قد قال:« اذا رغبتم في هدنة فاننا سنهبكم ذلك فاذا اتتكم النجدة ، او لم تأتيكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنقذوا أرواحكم » ، فهو لم يكن راغبا في اتلاف المدينة ، لكنه رأى الا فائدة ولا جدوى من الاقناع ، ولذلك كما قيل في الكتاب المقدس « لقد جعل الرب قلب فرعون قاسيا كيما يدمره » .

واصدر زنكي الاوامر باشعال النار تحت السور ، وهكذا اصبح هدم السور امرا محتـوما ومقضـيا ونادى المنادون في المعسـكرات يحثون الجند أن يستعدوا للقتال وأن ينقضوا عندمـا يرون السـور يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلمة ، وقـد سـمح بنهـب المدينة لمدة ثـلاثة أيام والتهمـت النار الزيت والكبـريت وتسربـت للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها ، بينما هبـت ريح شـمالية فدخل الدخان في أعين رجال الحـامية في الأعلى ، وتـرنح السـور العظيم وسقط وكان الخندق الموقت غير كاف لصد التركمان ، فقـد ظهر بأنه قصير لأن الجزء الذي سقط وردم كان اطول مـن الجـزء الذي بنوه وقاتلت الحاميةفي الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة من مساء عيد العذراء (أم الرب)(٢٤ كانون الاول) ، وبعـد أن قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة ــ لأن الرب كان غاضـبا على اهاليها ــ وبدأوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا احدا ، وقتـل في ذلك اليوم حوالي ستة آلاف شخص.

وعندما دخل التركمان هرب النساء والأطفال والشباب الى القلعة العليا لينجوا من القتل ، وكان الباب مغلقا وذلك طبقـا لتلك العـادة السيئة التي اتبعها الفرنجة بألا يفتح الباب إلا بناء على أمـر مـن الأسقف ، والا ينفذ الأمر مـا لم ير رجـال الحــامية الأســقف بنفسه ، ولهذا فقد ا ذسحق الحشد سحقا وذلك خـوفا مـن القتـل والأسر ، فأخذوا يدوسون بعضهم ،وانه لمنظر يسـتدعي الشـفقة منظر مفزع مخيف ، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مـؤلفة مـن حوالي خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البـائس ، واقتيد حوالي عشرة آلاف ولد وبنت الى الأسر ، وعندما وصـل زنكي الى القلعة ورأى منظـر أولئك المختنقين تـأثر كثيرا وامـــر بـــايقاف المذبحة ، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه الى القلعة ، وقتل كثير من الكهنة والشمامسه والرهبان.

وكان عندما وصل زنكي الى بوابة القلعـة تـكلم مـع الحـامية

برفق ، وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفـر أرواحهـم ، فخـرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة ، وكان بينهم الكاهن بارصوما (الذي غضب عليه الرب) الاشماعيلي ، وكان قد تمكن بتأثير حديثه من جعل نفسه رجلا بارزا في القلعة ، واقسم لهم زنكي قسما مغلظا ان يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة ، وفي اليوم التـالي اسـتعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات ، فأختير بعضهم وارسلوا الى الرق ، وامـر بـوضع الحرس على الأبواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة،ورجع اهالي الرها الباقون الى بيوتهم ، واعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم.

ولنعد الآن الى ما حل بأولئك الذين كانوا في القلعة عندما سلمت للاتراك ، وعندما هلك جمع غفير مـن النسـاء والأطفـال بعـد أن اختيروا للأسر ، وكان عددهم حوالي الفين ، وقد قتل ستة الاف او اكثر بحد السيف أو الاختناق امام القلعـة ، واطلق الحـاكم سراح حوالي عشرة الاف من الجنود ، امـا اولئك الذين اختبـأوا تحـت الأرض او في الحصنين فقد نجوا ايضا ، وعندمـا سـقط الحصـن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على ارواحهم احضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفـظ يحـرسه احـد الجنود وبـدأوا باحضار الفـرنجة الذين كانوا في الحصـن مـع نسـائهم واطفالهم ، وكذلك الكهنة والشمامسة واحضروا معهـم كثيرا مـن الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك ، وقد التحق بهـم الكثيرون لأن زنكي اقسم أن يأخذهم عبر نهـر الفـرات ، ويطلق سراحهـم ويسمح لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا ، ودخل القائد صـلاح الدين الى القلعة واخذ المطران من يده وقـال :« نريد مـن قـداستكم ان تقسموا على الصليب والانجيل ان تكونوا صادقين معنا ، وتخلصو لنا ، لأنكم تعلمون جيدا انكم تسـتحقون القتـل لأنكم قـاومتمو واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسـنة ونطلق سراح جميع الأسرى ، وانتم تعلمون انه منذ الزمن الذي اسـتولى المسلمون به على هذه المدينة ، بقيت تحـت سـلطتهم مـئتي سـنـ

ازدهرت خلالها واصبحت مدينة كبرى ، ولكن اليوم بعد ان حكمها الفرنجة مدة خمسين عاما ، اتلفوها وخربوا اراضيها كما ترون ، وإن الحاكم هنا مستعد ان يعاملكم معاملة حسنة ، وهكذا عليكم أن تعيشوا بسلام وأن تلجأوا اليه، وان تصلوا لأجله»(١١٠).

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن ، وذهب كل منهم الى بيته ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيرا من الجواهر ، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه ، وارسلوهم اسرى الى حلب ، أنما الآخرون فقد اختاروا أصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة ، لكنهم عذبوا حوالي مئة شخص ، وبعضهم الآخر ذبحوهم بالسيوف ، وهكذا فقد أصبح كل شيء معطلا ، وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الاخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران والعلف ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكما للرها ومعه سبعة زعماء أخرون ، وشكل حامية قوية للدفاع عن المدينة ، وبعد اربعة أيام من الحصار سار زنكي مارا بحران الى الرقة على الفرات ، وقد افتدى أهالي الرها أسراهم فأعيدوا الى المدينة ، وكان الحاكم زين الدين رجلا عادلا واظهر لهم منتهى العطف.

وبعد أربعين يوما من سقوط الرها أرسل زنكي جيشه الى سروج ففر المسيحيون الى البيرة ، واحتل التركمان سروج ، ثم ساروا الى البيرة في أول الشهر القمري من شهر أذار عام ١٤٥٥ (١١٤٤ م) وحضر زنكي بنفسه ووضع الات الحصار حول المدينة ، وقام بهجوم ضار مركز ، وظل القتال دائرا دون انقطاع من يوم عيد الفصح (يوم الخميس حتى مساء يوم أحد - القيامة) في اليوم الرابع والعشرين ، وحطم التركمان السور الخارجي ، وفي هجوم تال احتلوا القلعة الخارجية ، وقد حدثت

ضجة عظيمة مزقت السكون في الارض ، لكن الحـامية كانت قـوية وشجاعة فاستل افرادها سيوفهم وقفزوا على التركان وردوهم على اعقابهم خائبين.

وحضر الى قلعة الروم وهي قلعة على الفرات على مسيرة يوم أو اقل من البيرة ، حضر احد قادة الكونت (جوسلين) واسمه روبرت السمين ومعه قائد آخر يدعى روبرت ، وكان كل منهما محاربا عنيدا ومجربا ، وقد قدما ومعهمـا مـؤنا واسـلحة وكل مـا يحتاجونه ، وابحرا في النهر ، وعندما اقتربا من القلعة قاما بعمـل سخيف يدل على الحمق ، فقد نفخـا في الابـواق ، وعندمـا سـمع التركمان اصـوات الابـواق ذعروا واندفعـوا مـن جميع الجهات ، فعندما راوا أن القاربين قادمين لنجدة الحاميةهاجموهما من كلتا الضفتين ، وارسلوا قوارب ضدهما ، ولم تعلم الحامية بما كان يحدث وحل بها الخوف عند سماع نفـخ الابـواق لأن افـرادها ظنوا ان هذا هجوما من قبل العدو ، وعندما اقترب القـاربان مـن ضفة النهر لم يكن هناك من احد يرمي حبلا او يمد رمحا لمساعدتهما وقفز من كان بهما واحدا تلو الآخر الى الماء وخرجوا بسرعة وهم في خوف شديد ، وبعضا منهم جرفه التيار وامسكهم العدو وبعضهم الآخر غرق ، وقد انجرف القـارب الذي بـه روبـرت السـمين الى القلعة ، ووصل الى منتصـف معسـكر العـدو اذ لم يكن هناك مـن يوقفه ، وفقد الفرنجة الأمل ، وقفز بعضهم الى الماء ليموت غرقـا ، بينما قتل التركمان كل من بقي داخـل القـارب ، ورمـى روبـرت السمين بنفسه الى الماء ، ومشى في الوحل حتى وصل الى قـرية على الضفة الغربية ، ولما كان عاري القدمين وثقيل الحركة ، لم يسـتطع أن يذهب بعيدا فاختبأ في مخزن مليء بالتبن والقش ، وأتـى في ذلك اليوم بعض التـركمان الى القـرية لجلب التبـن(١١١)فوجدوه في ذلك المخزن ، فقبضوا عليه وارسـلوه الى زنكي الذي ارسـل بـه مـع الأسرى الى حلب ، واما روبرت الآخر ومعه بعض مـن نجـو فقـد وصلوا الى الحصن ، وفي أثناء القتال اصابه سـهم في عينه فمـات على الفور ، وقد دام حصار القلعة اربعون يوما .

وبينما كان الحصار على أشده أتى رسول راكبا على جمل وهـو مسرع كالعاصفة ، وأفضى بنبأ أن نصير الدين(١١٢)القائد الذي عينه زنكي في الموصل قد قتل وأن بلاد أقور قد ثارت وتمردت ، وهـو قـد ترك الموصل بسرعة ولايدري ماذا حل بـالمدينة ، وخـاف زنكي لأنه فكر أن ابن السلطان قـد نصـب نفسـه ملكا واسـتولى على كل أقاليمه ، وكان يخشى من الجيش الذي معه فاستدعى في الحـال زين الدين صاحب اربيل وحاكم الرها وأرسله بسرعة الى الموصل ليحـل محل نصير الدين المقتول.وتـرك تلك الليلة زنكي البيرة وذهـب الى حلب اذ كان يخشى اندلاع عصيان هناك.وفي الصباح أفـاق أهـالي البيرة فلم يجدوا أي أثر للمعسكر الذي كان يحاصرهم ، ولم يجدوا أثرا لأي رجل أو خيمة ، وقد رأوا المعجزة وهم في أعلى الحصـن ، لقد شهدوا لهب الحرب قد انطفأ والخطر قد زال عنهم ، وهكذا نجت البيرة من زنكي بعد حصار دام أربعين يوما.

وكان نصير الدين قبل مصرعه متمركزا في الموصـل لدعم مـركز زنكي بعدما أصبح نائبه هناك ، وقد كان محاربا شـجاعا وحـاكما عاقلا وحكيما ، وكان ولدا السلطان التركي العظيم الذي كان يحكم في بلاد خـراسان ، في عهـدة زنكي ، وكان عندمـا استولى عمهمـا مسعود على العرش في أصفهان أرسلهما مع زنكي الى تلك المنطقـة لحماية هذه البلاد ، وقد أخذهما زنكي كما لو أن هـذه المنطقـة قـد أعطيت لهما من قبل عمهما ، وأنه هو الوصي عليهمـا ، وهـو قـائد جيشهما ، وقد كانا يتمتعان بكل الاحتـرام الذي ينبغـي للملوك أن يتمتعوا به ، فأحدهما كان يعيش في الموصل ، والآخر كان يتنقل مع زنكي الذي كان يحكم البلاد باسمه ، فبالاسم كان خـادما لهمـا ، وبالحقيقة كانا هما الخادمين ، وعندما كبر أحدهما وهو الموجود في الموصل ذكره بعضهم أنه هو الملك ، وأن الأراضي والبـلاد تـابعة له ولأبيه ، لأنه لايملك حولا ولاقوة فهو كالعبد ، وأنه يجب أن يتصرف كالملوك بدلا من أن يطيع أوامر العبيد ، وقد أعارهم أذنا صـاغية ، فقام مع أعوانه بحبك مؤامرة لقتـل نصـير الدين والاسـتيلاء على الموصل وطرد آل زنكي ، وفي الصباح حالما أتى نصير الدين كالعادة

ليقدم فروض الاحترام لابن السلطان قتله عبيده بين أبواب القاعة الكبيرة في القصر ، وخيم الرعب على الموصل ، لكن فرق جيش الأكراد في الموصل اتحدت مع غلمان نصير الدين وقوت عزيمتهم ودخلوا القاعة الكبرى وقبضوا على ابن السلطان وسجنوه في أحد أجنحة القصر ، وبعد عشرة أيام وصل زين ومعه تفويض بالحكم من لدن زنكي فسلموه المدينة والحصون وخزينة الدولة وكل مظاهر السلطة ، وقد استلم مقاليد الحكم بقوة ، وألقى القبض على الكثرين ممن تسببوا في الفتنة وأعدمهم على الخازوق ، وأمر بقتل ابن السلطان سرا ، وأصبح عين الدولة صاحب (شبختان) حاكما على الرها بعد زين الدين ، وكان فضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سببا في سقوط المدينة موجودا هناك (أي في الرها) ، هذا ولابد لي أن أشير أن جميع الذين عاشوا في الرها بعد الاستيلاء عليها لأول مرة ظلوا أشرارا ولم يتحولوا عن آثامهم ، مع أن الأسقف كان قد وعظهم ، وذكرهم بالمصيبة والكارثة التي حلت بهم ، وقد ظل عبدون مصرا على ممارسة أعماله الشريرة ، مع أنه كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما ، وكان بارصوما هو الآخر رجلا شريرا ، وقد تزوج بعض نساء الرها من رجال التركمان ، وبذلك خالفوا روح الرب وأنوها ، وقبل ان تمر سنة على احتلال التركمان للرها اقترن حوالي مئة امرأة برجال « وثنيين » وهكذا حلت عليهن نقمة الرب الذي هجرهن وسبب لهن المصائب .

وبعد ان مكث في حلب مدة سنة واحدة انتقل عماد الذين زنكي بن آق سنقر الى الرها في موسم الحصاد في السنة الثانية وترك جيشه على ضفاف نهر (الجلاب) بين كاساس وحران ، ودخل المدينة ومعه قواد جيشه ومستشاريه والولاة في اليوم الخامس ، وكان يوم الثلاثاء ،وفي منتصف ايام عيد العنصرة ، ودلف المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيون لاستقباله من جهة واحدة اما من الجهة الأخرى فقد أتى جميع المسلمون الموجودون هناك ، والذين تجمعوا من الأماكن المجاورة لاستقباله ، وقد حيا المسيحيين بحرارة ، وقبل الانجيل وسلم على المطران واطمأن على صحته

وأحواله ، وقال انه اتى ليطمئن على أحوالهم ويمدهم بما يحتاجونه ، وقد مر من البوابة الشرقية ليدخل المدينة من البوابة الشمالية التي حدث اختراق المدينة وفتحها منها ، وكان اهالي المدينة قد رمموا الثغرات والأبراج السبعة التي دمرتها آلات الحصار ، وجعلوها أقوى مما كانت قبلا ونقشوا عليها باللغة العربية قصة سقوطها واسم الحاكم ، وهدموا كنيسة الاعتراف واستعملوا حجارتها لترميم السور وبدأوا يبنون حصنا للحاكم بجانب كنيسة القديس يوحنا الجميلة ، حيث سكن الحاكم ، ووضعوا حراسا على الكنيسة لحمايتها من الضرر لأن الفرنجة قد جملوها وغيروا السقف وجددوا القرميد ، وكان بها حوالي مئة نافذة كبيرة زينوها جميعها بالشعريات الرصاصية ، لادخال النور ، ومنع الطيور من الدخول وقد دفن فيها كثير من الاساقفة والبطاركة ، وقد دفن الأساقفة الفرنجة بما فيهم (بابياس) الذي قتل أثناء الحصار ، دفنوا جميعا خلف المنبر وقد غطي ضريحه بقطعة من المرمر الأحمر نحتت بحيث تمثل صورة الأسقف ، وكان جسم آداي Addai الرسول والملك أبجر في تابوت مطلي ومموه بالفضة ، وعند سقوط المدينة سرق التابوت وتناثرت العظام ، ولكن الرجال المؤمنين جمعوا هذه العظام ووضعوها مع نتف من بقايا القديسين في جرة من الفخار في كنيسة السريان التي تدعى كنيسة القديس ثيودور ، وقد استولى المسلمون ايضا على كنيسة القديس اسطفان وجعلوا كنيسة القديس توماس اصطبلا ، وكنيسة القديس اسطفان مخزنا للعلف والواردات الأخرى التي تصل للحاكم ، وهدموا ايضا كنيسة القديسين ثيودور وميكائيل الملاك في شرقي المدينة ، واستعملوا حجارتهما لترميم الثغرات في السور من تلك الناحية ، والقلعة الشمالية حيث هلك الجمهور واختنقوا ، وأصلح المسلمون المسجد الذي كان قد استعمل كمقر للمطران الفرنجي ، ودخل زنكي من البوابة الشمالية بوابة الساعات ، وذهب باتجاه كنيسة القديس يوحنا ثم انحدر باتجاه الينابيع وعاينها بدقة ، وذهب الى كنيسة توماس الرسول وأفطر هناك ، ثم امتطى حصانه وذهب الى الينبوع المستدير

المدعو « أبجروس » حيث كان هناك في السابق مقر قصر للملك أبجر قد دمر منذ مدة طويلة ، وقد غرست هناك حديقة لاتزال تدعى حديقة المطران ، وفي أواخر الليل ذهب الى كنيسة القديس يوحنا حيث بات تلك الليلة ، وقد نصبت حولها خيام قواده ، ودعا في الصباح المطران واستفسر منه عن البئر الموجودة في جنوب المدينة حيث كان يشفى منه المصابون بالجذام فأخبروه قصة هذا البئر من أولها .... (١١٣)

كان زنكي يشكو من مرض داء الفيل (تورم القدمين) الذي اصاب قدميه ، وعندما سمع قصة البئر اعتقد ان بركة المسيح يمكن ان تفعل المعجزات فركب وذهب الى البئر ، واخرج منه ماء غسل به قدميه ، وكان كل مابقي من الكنيسة هو المذبح في الشرق ، لذلك امر زنكي ببناء دار ضيافة ومأوى للمرضى الذين يفدون الى ذلك المكان للاستشفاء ، واوقف على هذا المأوى ريع الحقول المجاورة ، ولكن الرب لم يرغب ان يتم هذا العمل لذلك عجل بموته قبل ان يتمه .

وزار كنائسنا السريانية وتأمل في جمالها ، وامر بوضع ناقوسين كبيرين يعلقان فيها كما كانت العادة عند الفرنجة ، ثم استعد للذهاب وأوصى المطران ان يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون الحكومة ، وترك المدينة يوم الجمعة بعد انتهاء عيد العنصرة ، وذهب الى الرقة عن طريق حران وارسل بعض الجنود لنهب اراضي قلعة جعبر ، ثم اسكن ثلاثمائة عائلة يهودية في الرها ، وبعد اقامة قصيرة في الرقة تقدم زنكي على راس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر ، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى لأنها كانت قلعة حصينة وضايق القلعة بهجوم شديد لأنه كان قد اقسم الا يرجع حتى يستولي عليها ، وفي ليلة الأحد وهو يوم عيد الصليب المقدس الموافق ١٤ أيلول ، وبينما كان زنكي نائما لايشعر بأي هم من هموم الدنيا ، ويحلم ان يعيش سنوات وسنوات اذا باثنين من خصيانه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه ، ثم يهربان الى القلعة ، وانتشر الخبر في تلك الليلة ان زنكي قد قتل ، وخيم

الرعب على المعسكر وانتشرت الفوضى فيه ، فأخذ كل شخص يقتل الآخر ، وكل من كان يحمل اي حقد على جاره ويملك اي سلطة ، كان يقوم بالانتقام فورا ، اما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت افكارهم واصبحوا يضربون اخماسا بأسداس ، فقد عقدوا اتفاقات سرية وهربوا الى بلادهم ، وأما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا ، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره واموواله ومخازن اسلحته واملاكه الشخصية ، وإبله وخيوله التي لاتعد ولاتحصى ، وكلها نهبت واصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الأمس وحيدا في الصباح دون ان يجد من يدفنه ويواري جسده التراب ، وكان له اربعة أبناء ، وكان الاكبر غازي سيف الدين في بلاد العجم مع سلطان« ميديا (١١٤) وبابله والثاني نور الدين محمود كان معه في المعسكر عند قتله ، والابنان الآخران وهما قطب الدين مودود وميرميران كانا في الموصل ، ولكن الزعيم العاقل صلاح الدين ، حالما سمع بمقتل زنكي بادر بأخذ ابنه محمود والقواد الآخرين الذين كانوا معه الى حلب ونصبه حاكما عليها ، وقد استولى على الأموال والثروات الموجودة هناك ، ولم يدفن احد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه الى الرقة ودفنوه هناك ، وحكم قطب الدين مودود في الموصل وكان زين الدين هو مستشاره ، وحكم نور الدين في حلب ومابين النهرين في عام ١٤٥٨ (١١٤٧ م) ، واستولى على حماه وحمص ودمشق مع أن والده لم يستطع ذلك ، وعقد هدنة مع الفرنجة حيث قابل جوسلين وعملا عهودا موثقة بالقسم ، وكان اكثر دهاء وبراعة من والده ، ولهذا زادت قوته ، واخذ اعزاز ، وبعلبك التي استولى عليها حاكم مصري يدعى الضحاك .

وبقي الفرنجة في كل مكان واخلدوا للراحة والسلم ، وقد حزن جوسلين من أجل الرها ، ولكن لم يستطع ان يعمل شيئا ، وعندما سمع بمقتل زنكي فرح فرحا شديدا لأنه ظن أن المسلمين سوف يتنازعون ولاينتبهون للرها ، وعمل خطة تقضي بأن يقوم بلدوين

صاحب كيسوم ومرعش بمد يد المساعدة له ، ولكن بيتا بين صاحب انطاكية أهمل المساعدة وذلك لأنه كان حنقا عليهما لأنهما لم يعترفا به سيدا ، وبعد اربعين يوما من موت زنكي جمع بلدوين وجوسلين قواهما في دلوك واستعدا للزحف على الرهـا ، وفـكرا أن يباغتا المدينة ليلا ، وسمع حكام حلب ماازمع عليه جوسلين وماجمعه لهـذه الغاية ، فأرسلوا رسلا لحكام الرهـا يقـولون لهـم ان الفـرنجة يجمعون الجموع ، ولانعلم الى اين هم ذاهبـون ، فـاذا اتجهـوا نحوكم فنحن قد جمعنا قـوانا ايضـا وسـنأتي بـالسرعة الكلية ، انتبهوا لانفسكم وحافظوا على المدينة ، اجعلوا المسيحيين يقسمون بالولاء لكم وخذوا منهم رهـائن ، وعندمـا وصـلت هـذه الأوامر الى الرها اخذ حكامها رهائن من المسيحيين حوالي خمسين رجلا من رجال الحرف كالبنائين والصناع والحدادين ، وأعدوا كل ماهو مفيد ويمكن ان يحتـاجونه في الحصـون في المدينة ، وسرعان ماحضر الفـرنجة في السـابع والعشرين مـن تشرين الأول (بعـد سنتين من سقوط المدينة) وقـد اختبـأوا في احـد الوديان حتـى المساء ، وعندما هبط الليل ارسـلوا بعض الرجـال الأشـداء على الأقدام فاقتربوا من المدينة من جهـة الغـرب ، واختـاروا احـدى الزوايا حيث لم يكن هنالك حـرس فيهـا ، وتسـلقوا السـور بسرعة ، ثم أنزلوا الحبال واخذوا يسحبون السـلالم مـع بعض الرجال من رفاقهم ، وعندما تقدم الحراس ليروا من أتى الى السور هاجموهم وقتلوا قسما منهم ورموهم الى خارج السـور وسـمعت الأصوات وحدثت ضجة عظيمة وجلبة ، وصرخ الفرنجة على السور صراخ الفرح ، واخذوا يسبحون بحمد الرب فسمع الجنود في الكمين المنصوب على مسافة ، فاندفعوا بشكل كتلة مـوحدة ووصـلوا الى المدينة في الساعة الثالثة ليلا ، ثم نزلوا وفتحوا الأبـواب : البـاب الغربي بجانب النافورة ، ودخل فـرسان الفـرنجة ومشـاتهم الى المدينة ، وفي الحـال تـوقف هؤلاء الحمقـى عن القتـال واهملوا الحراس المسلمين والمسيحيين وأخـذوا يضـعون ايديهـم على كل مايجدونه ، وحالما راى المسلمون هذا الخطأ ، هرعوا الى الحصون ففتح لهم من كانوا في الأبواب واسـتقبلوهم واسـتقبلوا اطفـالهم

ومقتنياتهم دون ضجة او فوضى ، ولم يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة عندما سقطت المدينة لأول مرة بأن اقفلوا الابواب وسببوا الفوضى والتشويش والاختناقات ، وقفز كثير من المسلمين من السور ليلا وهربوا الى حران لانه لم يطاردهم احد ، وعندما طلع الصباح استدعى الكونت المطران السرياني وطلب منه أن يهيء آلات الحصار للهجوم على القلاع ، ووضعوا الات الحصار ونصبوها وهاجموا القلعة السفلى بضراوة ، ولكن دون جدوى او نجاح لأن القلاع كانت تعج بالرجال وكانت عالية وقوية – ولم يستطيعوا ان يهاجموا القلعة العليا لانها كانت مليئة بالرجال الاشداء ، وهكذا ظلت المدينة عرضة للشدة والكرب ستة ايام ، وعندما رأى الفرنجة انهم لايستطيعون ان يستولوا على الحصون ، وان اعداءهم كثيرون وهم يتقاطرون من كل حدب وصوب ، حلت بهم المخاوف ، واستولى عليهم القلق ، وتجمع في كل ليلة اهالي المدينة حول المعسكر الفرنجي قرب كنيسة ابجر ، وذلك خوفا من التركمان ، وفي يوم السبت اتى جاسوس قادم من جهة العدو وحذر جوسلين من أن فرقا من الجند قد تحركت من حلب ومنبج ومعها كثير من التركمان ، وقد انتشروا فوق السهول الشرقية والتلال ، وقرر الفرنجة

ان يخلوا المدينة في الليل دون علم المسلمين في الحصون أو التركمان في السهل الشرقي والتلال الشرقية ، ولكن هل من الممكن ان يخرج الألوف من الرجال والخيول من بوابة واحدة دون ان يشعر بهم احد ؟ ولو خرجوا ليلا لأوقفوا حركتهم ، ولكنهم انتظروا حتى مضت ثلاث ساعات من الليل ، وفتحوا البوابة الشمالية وهي باب الساعات وبدأوا بالخروج ، وعندما رآهم أهالي المدينة المسيحيون ونساؤهم وأطفالهم ، وعلموا ان الفرنجة قد تركوهم تحت رحمة الطغاة الوثنيين ، بدأوا بالصراخ والعويل ،-وغرقت المدينة في لجة من الفوضى وساد عويل النساء والأطفال الضائعون يتجولون وهم شاردون في كل مكان ، وهم يصرخون بألم طلبا لأمهاتهم دون جدوى ، وهم يتراكضون بين جماهير الرجال وسنابك الخيول التي

كانت تدوسهم وتفتك بأجسامهم وتمزقهم بحوافرها اربا اربا دون ان ينقذهم اي انسان ، وكانت السماء مظلمة ولم يكن هنالك اي نور او ضوء ، واندفع الجميع باتجاه البوابة الشمالية رأسا من خلال الشارع الذي يؤدي الى بوابة الساعات ، وهنالك كنت ترى الجنود والرجال المدججين بالسلاح والدروع والخيول والحيوانات ممتزجة بالأولاد والنساء والأطفال يتدافعون ويدوس بعضهم بعضا دون شفقة او رحمة ، والماشية والبغال والحمير التي كانت تحمل الاسلاب التي اخذها الفرنجة من المدينة ، وسقطت هذه الحيوانات على الأرض ولم يستطع احد أن يرفعها او أن يرمي ما عليها من اثقال واحمال ، وقد انسحق الأطفال بين هذه الحيوانات ولاقوا حتفهم بشكل بائس مريع ، وفي كل طريق كنت ترى الكثيرين يلقون على الأرض : رجال ، حيوانات ، نساء وأطفال ، شباب كلهم لاقوا حتفهم بشكل بائس وليس هناك من يمد لهم يد العون ، وهكذا كانت نهاية هذا الخروج المعيب ، وقد تركوا بيوتا مملوءة بالمؤن والحاجيات ، أبوابها مفتوحة والمصابيح فيها مضاءة والفرش ممدودة.وغادرت العساكر الفرنجية ومن استطاع اللحاق بها المدينة وتجمعت حول أحد الأبراج وهو ، عمود النساك امام كنيسة الاعتراف حيث شكل التركمان نطاقا حولهم وامطروهم بالسهام التي اخترقت اجسادهم ، وقد اختلط الحابل بالنابل فلم يكن يسمع الا صوت السيوف وهي تضرب فيما يشبه جذوع الأشجار ، وارتفعت الأصوات في الظلام ، ولم يكن من السهل على المسيحيين التفريق بين التركمان والعساكر الفرنجية ، واختلط جنود الفرنجة بالجمهور وكان كل واحد منهم يحاول أن يخفي نفسه بالاندفاع نحو الوسط ، وصاح قادة الفرنجة بسخط وفزع: اكراما للرب تعالوا نحو الخارج وقاتلوا برجولة وقاوموا هجوم العدو ، وإلا فإننا سنضيع وترجل الفرسان واحاطوا بالحشد وظلوا هكذا حتى طلوع الفجر ، وعندما طلع النهار ركب بلدوين وجوسلين مطاياهما واعادا النظام بين صفوف الجند ، وتقدم بلدوين الى الأمام وقاد جوسلين المؤخرة ، بينما كان المشاة على يمين ويسار

الحشد ، وعندما بزغ النهار في يوم الأحد الحزين هذا في الثالث من تشرين الثاني ، وهو عيد القديس جورج ، ساروا بهدوء في طريقهم الى قلعة (سميساط) ، وكان العدو الذي يعد بالالوف لا بل عشرات الألوف قد أحاط بهم وقتل كثيرا من الجنود ، ومن الرجال غير المقاتلين ، ولكن الجنود حاربوا ببسالة ولم يعطوا مجالا للعدو للتقدم نحو الحشد ، لأنهم كانوا رماة أشداء ، وتحرك الفرنجة وقد اخذ التعب منهم كل مأخذ فضلا عن الخطر الشديد الذي كان يحدق بهم ، إذ ليس باستطاعة القلم ان يعبر عن الحزن الشديد ولا أن يصف ذلك المنظر المشؤوم لشعب أصيب في الصميم مثل شعب الرها ، فقد ساروا حفاة على الحجارة الصلبة والأشواك والحسك والمسامير ، وقد مزقت اقدامهم كما لو بالسكاكين وسال الدم من أرجلهم مما سبب لهم الآلام المبرحة ، وكانوا يتدافعون دون أيما نظام ويسقطون بعضهم فوق بعض ، وكان الواحد منهم يجر قدميه جرا ويتقدم ويندفع ثم يسقط ويمد جسمه نحو الشرق ، وبالوقت نفسه كان المطاردون يذبحونهم كالغنم ، وكان الاطفال يركضون حفاة الأقدام بين الأشواك ، والسنتهم متدلية من شدة العطش ، وافواههم مرة كالصبر او العلقم ، وأسنانهم سوداء كالسخام ، شاردون ، منساقون بين الحشود تدوسهم سنابك الخيل ، وهم يهلكون ، زد على ذلك أن طريقهم لم تكن لتمر على أرض معبدة ، بل كان عليهم أن يمروا بالأدغال ، وكان امامهم غابة كبيرة تقع في السهل ، وأشعل العدو النار في الغابة فأصبحت النار تتوهج أمامهم وحولهم ، ولم يستطيعوا أن يتحولوا عن الطريق بل تابعوا السير بأقدام محترقة ، وظلوا في هذا العذاب حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي ، وكان التعب قد حل بالعدو أيضا لأنهم ظلوا يحاربون طوال الليل والنهار يقاتلون ويزحفون ، لذلك استعدوا للعودة خشية أن يباغتهم الفرنج من بعض الحصون ، يضاف الى هذا أن قسما منهم رغب أن يساهم في نيل الغنائم من المدينة ، لأن كثيرا من المشاة بقوا هناك حيث كانت حاميات الحصون قد بدأت في نهب المدينة ، وهكذا رجع العدو ولم يبق الا قليل من التركمان.

وارتكب الفرنجة خطأ فادحا فقد صمموا على مهاجمة الاتراك الذين كانوا لا يزالون حولهم ، ولذلك هاجم الكونت جوسلين ورجاله الذين كانوا في المؤخرة ، هاجموا العدو قربهم وعن يسارهم اي في الغرب وعندما راى بلدوين ان جوسلين قد بدأ الهجوم وان الابواق قد بدات تنفخ هاجم الفرنجة من اليمين وتقدم فرسان الفرنجة بشكل متهور وسط جموع التركمان الذين التفوا عليهم من المؤخرة وكسروهم ، ولم يعد الفرنجة يفكرون بالنظام والتماسك ، بل أصبح كل منهم يبغي النجاة لنفسه بشكل هزيمة معيبة مخجلة ، ورموا برماحهم ودروعهم وسوابغهم المصنوعة من الزرد وكل ما لديهم من سلاح ، وحتى السيوف التي بأيديهم ، وذلك نتيجة للفزع الذي حل بهم ، ووصل المشاة الى قلعة متهدمة قريبة على يسارهم على تلة النسور حيث التجأ اليها حوالي الفان وكانوا من شباب الرها المنعمين المترفين ، اما النساء والأطفال والرضع فقد تركوا للنهب والاسر والعبودية ، واصيب جوسلين بجرح في يده من رماية بسهم لكنه نجا ووصل الى قلعة سميساط في حالة تعيسة ، واما بلدوين الذي كان شابا وسيما أشقر طويل القامة ، عريض المنكبين ، شديد المراس في الحرب والقتال ، لم يعد يعرفه أحد من شدة ما نزل به من الضربات بالسيف والطعنات والسهام ، وقد هلك كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان الذين نجوا من الحصار الأول ، واحتل التركمان المدينة بكاملها ، ونهبوا اموال جوسلين وبلدوين وجميع اموال الشعب.

واصبح التركمان والقبائل المختلفة اسيادا لتلك المدينة الشهيرة التي لم تنهب ابدا منذ تأسيسها من ايام سلوقس قبل الف وخمسمائة وستين سنة ، ففي المرة الأولى استبيحت للنهب مدة يومين فقط ، وقد انقذت من النهب والسلب على يد زنكي عندما أمر بأن يرجع الجميع الى بيوتهم وديارهم ، ولكن في هذه المرة استمر النهب سنة كاملة بدلا من يومين ، فكان التركمان يتجولون في المدينة ويحفرون ويبحثون في الأماكن السرية والأسس والأسطحة ، وقد

وجدوا كثيرا من الكنوز التي خبأها الآباء وقدماء السكان ، والتي لم يكن يعرف عنها الأهالي الحاضرون شيئا.

وأما أولئك الذين نجوا من الهلاك والتجأوا الى القلعة فقد تفرقوا بأعداد صغيرة تبلغ الخمسة أو العشرة رجال عند حلول الليل ، وقد قتل بعضهم ونجا الآخرون ، ووصلوا الى سميساط لأن أملاك الفرنج كانت قريبة منها ، وقبض على الأسقف الأرمني وبيع عبدا في حلب ، وأما باسيلوس المطران السرياني فقد هرب الى (سميساط) ولكن لم ينج الكثير من الكهنة فبعضهم قتل وبعضهم أسر ، وأما رئيس الكهنة ورأس الفتنة والفوضى ومخرب الكنيسة وهو (عبدون) فقد ألقي القبض عليه في تلك الليلة المشؤومة خارج بوابة المدينة ، فسقط في الخندق لكنه ظن أن المسيحيين سوف ينتشلونه فصاح « من يريد أن يكسب مائة دينار فلينتشلني » وسمعه أحد التركمان فنزل إليه وقتله وأخذ كيس نقوده الذهبية الذي كان معه ، وكل ما كان في حوزته من الأموال ، وأكلت الكلاب جثته وذهبت روحه الى العقاب الأبدي ، وإذا لم يعف الرب عنه فإن مصيره الى جهنم وبئس المصير ، وبدأ جميع الذين نجوا من الأسر والدمار بالتجوال والاستجداء من أقاربهم المستعبدين ، غير أن المسيحيين الذين كانوا في الشرق والغرب وخصوصا الذين سكنوا ماردين وشبختان وفي (سبابرق) كانوا كرماء ورحماء نسأل الرب أن يرحمهم ، ونذكر بينهم الفضائل التي يعجز عن وصفها اللسان التي امتاز بها يوحنا أسقف ماردين وهو من أهل الرها ، نسأل الرب أن يعلي اسمه ويكتب عاليا في بيت المقدس ، أما في غربي الفرات فكانت الرحمة معدومة بين المسيحيين ولم يظهر منهم سوى الشر والقسوة وعناد الرأس والعقول المتحجرة ، خصوصا عند الكهنة والرهبان والأساقفة.

(الحملة الثانية)

وفي عام ١٤٥٨ (التاريخ الصحيح ١١٤٨ م) بعد سقوط الرها للمرة الثانية اجتمع ملك الالمان وملك فرنسا على راس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون الف مقاتل ، ووصلوا الى القسطنطينية عاصمة الاغريق عن طريق البحر ، وغرر الامبراطور بهم وارسل معهم ادلاء قادوهم الى الصحراء حيث لاماء ولا طعام ، وبعد ان تقدموا مسيرة عشرة ايام عن القسطنطينية نفد منهم طعامهم ، ولم يجدوا بيوتا او قرى يستطيعون ان يشتروا منها أي شيء ، وحتى الماء نفد منهم ، فهاموا في صحراء جافة مجدبة ، ولم يعلموا ماذا يفعلون ، فقد هجرهم مرشدهم ليلا واخطروا تركمان كبدوكية ، فخرج الأمير مسعود مع جيشه ، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش ، ونجا الملكان ومعهما قليل من الجند ، ووصلا الى البحر ، ثم تقدما حتى انطالية وذهبا بالسفن الى انطاكية بعد ان خسروا كل شيء ، اماالتركمان فقد غنموا غنائم لا تعد ولا تحصى من الذهب والفضة التي كانت بين أيديهم كالحصى ، وفي أواخر العام وصل الى عكا امير اخر يدعى الفونسو (الفنش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه الف من الخيالة وكان من اقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى أن يطالبه هذا بحصة أرضه واملاكه ، لذلك دس له السم الزعاف مع واحد من افراد بيته الذي ناوله اياه فمات.

وكان بلدوين على عرش القدس أنذاك ، وقد قابله ملك الألمان وملك الفرنجة في بيت المقدس ، واتفقوا جميعا على مهاجمة دمشق ، والقاء الحصار عليها ، وعندما احاطوا بالمدينة ، شددوا الهجوم عليها وخصوصا الألمان ، وارادت الحامية أن تستسلم بعد ان شعرت بالضيق والخطر ، ولكن الحسدوالغيرة التى امتاز بهما الفرنجة سببت اخفاق الحصار ونجاة المدينة ، فقد بدا ملك بيت

المقدس يفكر بنفسه أن الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المدينة فانهم سوف يصبحون اقوياء ، وربما اخذوا بلاده منه ، ولذلك ارسل رسالة الى رجال الحامية يسألهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟ وسبب هذا العرض السرور لدى جند الحامية ، فوعدوا باعطاء ملك القدس مئة الف دينار ذهبية ، فنصح الملكين أن يحولا معسكريهما ، وهكذا انتقلا من موقع حصين الى موقع غير مناسب ، وعندما راى الملكان ان ملك القدس غير مخلص غضبا ، وتركا دمشق وذهبا عائدين الى عكا ، واستلم ملك القدس مئة الف دينار ، لكنه وجد بعد وقت قصير انها كانت من النحاس الأصفر وليس ذهبا ، هذا وقفل الملكان راجعين الى بلادهما بحرا ، وعندما سمع (عين الدولة) بن غازي بن دانشمند صاحب ملاطية بما حل بجوسلين في الرها ، وتأكد أن بلدوين صاحب كيسوم قد مات ، وبما انه هو الذي كان يحكم اراضي زوبر ومنطقة التلال حتى حدود ملاطية ، فقد جمع جيشا وهاجم به الأديرة في(زوبر) ، وكانت أرمينية ، وهي دير روبير الكبير وتاجنكار وشمانج وشيكار ، فاستولى عليها جميعا مع القرى والأديرة التي كانت حولها في مدة ثلاثة ايام ، وكانت هذه الأديرة قوية وغنية ، ومليئة بالمحاصيل الزراعية ولم يفتحها أي عدو منذ زمن طويل ، وقد استباح السكان ، وجعلهم عبيدا ، وعددهم سبعة آلاف واربعمائة نسمة ونهبهم ، وقد كان جنوده مشدوهين لما رأوه من الثروات ، فأصحاب هذه الثروات لم يساعدوا الفقراء ولا المحتاجين ، وبعد أن نهبهم استعبدهم واشعل النار في المباني وأراق الخمور واتلف الزبيب والتين والجوز واللوز والأعلاف والاطعمة ، وكانت بكميات لا تحصى ، وأحرق كثيرا من الكتب من جميع الأنواع ، وفي تلك الأثناء استولى التركمان على قلعة تدعى تل ادنا أو اجنجاتل (تل اعذي) وهي فوق سميساط فقتل رجالها واستعبد عددا كبيرا من نسائها وأطفالها ، ثم دمر القلعة بالنار وايضا قلعة أخرى تدعى سروج في ارض(تل باشر) ، وقتل الرجال واستعبد النساء والأطفال واستولى أبناء داود الأرتقي على تل ارسينوس على نهر(١١٥) يسمى بذلك الاسم ، وهو أحد روافد

الفرات ، وبعد موت الوالد تفاهم الأبناء ، فالأبناء الأقوياء استولوا على ذلك المكان بالقوة واستعبدوا خمسة الاف سرياني مسيحي ونهبوا كل شيء ورحلوا ، ونهب جوسلين دير القديس بارصوما .

وفي عام ١٤٦١ (التاريخ الصحيح نهاية عام ١١٤٨ م) جمع نور الدين جيوشه وحاصر يغرى(١١٦) وهي جوار انطاكية وكان صاحبها في (جبلة) على البحر ، وعندما سمع الخبر سار بجيشه وضرب التركمان فجأة وقهرهم ؛ وهرب نور الدين ومعه خمسمائة فارس إلى حلب ، وقتل حوالي عشرة آلاف ، واستولى الفرنجة على معسكر نور الدين والذهب والفضة والعبيد الذكور والاناث والطبول والأبواق والجواري المغنيات والموسيقيين ، واستولى الفرنجة على كل هذا ورجعوا إلى انطاكية مسرورين ، وعندما خرج سكان انطاكية لاستقبالهم حدث ما لايمكن وصفه من الابتهاج بين جميع المسيحيين ، وكان مع الفرنجة سيد من أسياد العرب يدعى علي بن وفاء الذي كان يحقد على نور الدين ويخدم في انطاكية .

وبعد ثلاثة اشهر من هذه الهزيمة جمع نور الدين جيشه وحاصر إنب ، وعندما علم بيتابين صاحب انطاكية بذلك جمع جيشه واستعد لحربه ، ولدى سماع نور الدين بمجيء الفرنجة ترك القلعة وانسحب إلى التلال وعسكر الفرنجة في السهل حوالي إنب ، وقد أخبر الكشافة نور الدين أن عدد الفرنجة صغير ، فاستعد للقتال ونفخت الأبواق ، وانحدر جيشه وأطبق على الفرنجة وكان الرب غاضبا على الفرنجة ، ولذلك هزموا وهربوا ، وقد قتل غودفري صاحب مرعش وعلي بن وفاء ، وأخذ نور الدين كثيرا من العبيد ، وانزل اضرارا جسيمة بأراضي الدوق (جوسلين) واستولى أيضا على حارم وعم وارتاح ، وجميع القرى حول حارم ، وقد قتل حاكم انطاكية ، وكان انكسار الفرنجة هزيمة مذكرة ، فقد أخذ التركمان عبيدا واسرى وخيولا وبضائع لاتقدر بثمن ، وكان جوسلين صاحب الرها في أعزاز عندما علم بمقتل حاكم انطاكية ، وهكذا جمع بعض الرجال من هناك ، وذهب الى انطاكية ليحكمها ، وعندما وصل إلى قورس

واستعد للعبور إلى شـيخ (١١٧) (الدير) ، هناك انقض عليه بعض التركمان وقبضـوا عليه بعـد أن كانوا مختبـئين بين الأشـجار ، فوعدهم أن يعطيهم كل مايريدونه إذا أوصـلوه إلى اعزاز ، لكنهـم اخذوه إلى قرية تدعى شيح الدير ، ولم يكن التركمان يعـرفونه لكن المسيحيين عرفوه وارادوا أن يشتروه من التـركمان ، فـاتفقوا أن يكون الثمن سـتين دينارا ، عندهـا حـدث بمشـيئة الرب الذي لا اعتراض على حكمه فهو يفعل مـا يريد ، أن مـر يهـودي صـائغ بالقرية ، وعرفه فأخبر التركمان انه جوسلين ، وهكذا اخـذوه إلى حلب فأمر نور الدين بسمل عينيه ورماه في السجن مقيدا بالسلاسل والأغلال ، وقد بقي تسع سنوات في السجن ثم مات هناك (١١٨).

وفي عام ١٤٦٣ (التاريخ الصحيح ١١٥٣ م) اسـتعد بلدوين ملك بيت المقدس وحاصر عسـقلان ، وكان احـد رجـال الفـرنجة البارزين قد أبلى بلاء حسـنا في حصـار عسـقلان ،واسـمه ريمون (١١٩) وقد طلب هذا مـن ملك بيت المقـدس أن يزوجـه أرملة صاحب انطاكية المقتول ، فوافق الملك على ذلك واذن له بالذهاب إلى انطاكية لاتخاذ سيدتها زوجة له وليصبح حاكما للمدينة ، وغادر هذا متوجها إلى انطاكية وبلدوين مايزال يحاصر عسقلان وشدد الفرنجة الحصار ، وبنوا برجا من الخشـب كان أعلى مـن سـور المدينة ، ووضعوا جنودا على البرج ، وآلةلرمي الحجارة والسهام على المدينة مباشرة ، فأصبح كل من يخرج من بيته أو يأتي إلى الشارع معرضا للقتل ، وهكذا شعر أهـالي المدينة بالكرب من الجوع والقتال ، وكان الحصار طويلا ، ولما راوا الا منفـذ لهـم ، لأن حـكام مصر كانوا يحاربون بعضهم بعضـا كمـا سـنذكر ، ولم يكن هناك أي أمـل بالمساعدة من أي جهـة أخـرى ، طلب اهـالي المدينة أن تحفـظ أرواحهـم ، فنزل الأعيان منهـم وقـابلوا الملك والبـطريرك اللذان أعطياهما وعدا معززا بـالقسم ، وهـكذا اسـتسلمت المدينة وخير الناس من أراد أن يبقى في المدينة تحت حكم الفرنجة سمح له بذلك ، وأما الذين رغبوا بالذهاب إلى مصر فأخذوا أسرهم وأموالهم ورحلوا بسلام .

وحدث في تلك السنة زلزال هدم مدينة (شيزر) بكاملها ، وقـد هلك حاكمها واولاده واهل بيته ، واربعـون الفـا مـن الرجـال الاخرين ، وسقط نصف الصخرة التي بنيت عليهـا القلعـة وقتـل كثيرون في حماه والسلمية وفي معظم القرى المجاورة ، وحدث أيضـا ان اسـتولى نور الدين على حـران وانتـزعها مـن اخيه (ميرمران) وكذلك على بيت هسنا (بهسنا) بعد حصارها واستولى التركمان على دير البـارد وقتلوا أربعـة مـن الرهبـان ، واستولى نور الدين على عين تاب ايضا عنوة ، ودمـرها كليا ، ولم يظهر اي رحمة ولاشفقة واخذ الأسرى والغنائم إلى حلب .

وفي عام ١٤٧٠ (التاريخ الحقيقـي ١١٥٧ م) اتـى إلى بيت المقدس رجل شهير ينتمي إلى ملوك الفرنجة ويدعى كونت فلاندرز ، ومعه عدد كبير من الجند ، وكون جيشا عظيما بعد أن جمع معه ملك القـدس وكونت طـرابلس وطـوروس الأرمني صـاحب كيليكية ، وحاصر شيزر واستعبدوا كل من فيهـا واسـتولوا على الحصـن ، ونهبوها كليا ، وقتلوا الكثيرين ، واخذوا حوالي خمسة الاف امراة وطفل عبيدا لهم ، واخذوا كميات من الذهب والفضة لانهاية لها ، ثم زحفوا إلى حارم التي استسلمت لأن المسلمين فيها قـد ذهبـوا إلى حلب ، وفي نهاية العام اتى مـانويل امبـراطور القسـطنطينية إلى انطاكية وعسكر على ضفاف نهر (عفرين) ، وتظاهر أنه يريد حلب وهكذا جمع نور الدين الفرق الاسلامية من اقور ومـابين النهـرين وامد وماردين وميافارقين ليحارب الامبراطور ، وذلك لأن المسلمين كانوا شديدوا الخوف من الامبراطور ، ولكن الامبراطور سـمع أن اندرونيكوس الذي كان واحدا من النبلاء قد ثار ضده في العـاصمة ، لهذا بادر إلى عقد هدنة مـع نور الدين ، وافـق بهـا نور الدين على إخلاء سبيل الأسرى الذين في حلب بما فيهم ابن الفونسو الذي دس له كونت طرابلس السم ، ورجـع الامبـراطور إلى عاصـمته ، ولم يحقق أي عمل ، او اي انتصار في هذه الحملة .

وفي تلك السنة حدث زلزال هدم مـدينة (جبلة) على السـاحل ،

وتسبب في قتل حوالي الفين من الناس ، وفي تلك السـنة غزا أراضي حلب ونهبها رينالد صاحب انطاكية وجوسلين وهو ابـن جـوسلين الذي اسر في حارم ، وبعد ان عاثا في الأرض فسادا وأسرا وقتلا من شاءا ، رجعا إلى أماكنهما دون أن يحدث لهمـا أي ضرر ، وذهـب رينالد إلى أنطاكية ، بينما بقـي جـوسلين في إحـدى القـرى يأكل ويشرب ، وإذا بجيش التركمان يداهمه ويلقي القبض عليه ويأخـذه إلى حلب حيث وضع وهو مقيد بالسلاسل والأغلال مـع والده ، وفي تلك السنة عاد رينالد لنهب وسلب أراضي حلب ، لكن في طريق عودته داهمه جيش تركماني وكسر جنوده عند النهـر الأسـود ، واخـذه اسيرا وقيد بـالسلاسل ، وفي تلك السـنة أصـبح احـد أبناء بيتابين(١٢٠) حاكما على انطاكية ، فطرد والدتـه التـي ذهبـت إلى اللاذقية .

وحشد في عام ١٤٧٥ (١١٦٤ م) نور الدين جيوشـه ، وجلب اخاه قطب الدين حاكم أقـور والموصـل وزين الدين حـاكم إربيل ، وحاكم سنجار ، وزين الدين صـاحب حصـن كيفـا وارض هنزيط وحسام الدين صاحب ماردين وشهاب الدين صاحب زندان والبيرة ، وابن عمه مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج والرهـا ، وعندمـا تجمع كل هؤلاء حاصروا حارم ، وقد بلغ عددهم سبعون الف فارس واربعون الف راجل ، ووضعوا آلات الحصار وقاموا بهجوم ضـار على الحصن الذي كان يحكمه رينالد(١٢١) وكان محاربا ، وقد قاوم هذا بعنف وشجاعة وجمع الفـرنجة سـتمائة خيال وخمسـة آلاف راجل تحت قيادة كونت طـرابلس وصـاحب انطـاكية وطـوروس الارمني ، وزحفوا جميعا من انطاكية إلى حـارم ، وعندمـا سـمع التركمان خبر قدوم الفرنجة وتقدمهم نحوهم انتقلوا إلى قرية تدعى عم ، ووصـل الفـرنجة وعسـكروا في المكان الذي كان التـركمان يعسكرون به ونصحهم طوروس صاحب كيليكية وقال إنه مادام أنهم قد نجحوا في رفع الحصار عن الحصن ، يجب عليهـم أن يسحبوا الجنود الضعاف من الحصن ويضعوا مكانهم جنودا اقوياء شجعانا ويرجعوا إلى انطاكية وينتظروا رجوع ملك القدس من مصر ، ولكن

كونت طرابلس لم يوافق على هــذه النصــيحة واصر على القتــال ، وقهر التركمان لانهم جميعــا كلاب حسـب رايه ، وهــكذا زحـــف الفرنجة من حارم إلى عم ، وعندما اقتــربوا راى التــركمان الذين كانوا على التل انهم قليلي العدد ، ونفخوا الأبواق وانحدروا نحوهم وهاجموهم ، واحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وضربوهم ضربة قــاضية ، وهــرب كونت طــوروس الأرمني ، وأسر دوق الاغريق ، وقتل جميع الرجالة ، وأسر صــاحب انطــاكية ومعـــه كثير مـــن الفرسان ، وهلك الكثيرون ومعهم خيولهم ومؤنهم بــأعداد كبيرة كل ذلك في آب من تلك السنة ، وبعد أن هزم الفرنجة حــاصر التــركمان حارم التي استسلمت ، ثم غزوا أراضي الدوق وأخــذوا الاسرى ثــم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير اغريقــي مشــهور ونهبــوه واخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الاشياء الثمينة ، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشــاء الرباني والصلبان والمباخر وتماثيل من الذهــب والفضــة ومــلابس الكهنة الرسمية الثمينة ، ونهبوا الرهبان واخــذوهم جميعــا اسرى إلى حلب وقد قتل اكثر من عشرة الاف افرنجي عند الهــزيمة التــي حلت بهم في حارم وعند أكثر منهم من التركمان وبعــد هــذا زحــاف التركمان إلى بانياس التي استسلمت كما استسلم صاحبها (١٢٢) ، وأما ملك القدس فكان في مصر (١٢٣) .

روايات المؤرخ
ميخائيل السوري الكبير

« زحف الفرنجة إلى بلاد المشرق »

لما استولى الترك على بلاد فلسطين وسورية أخذوا يفحشون في تعذيب النصارى القاصدين الحج إلى بيت المقدس ، ويتقاضون منهم المال عند دخولهم المدينة وزيارتهم جبل الجلجلة وضريح السيد المسيح ، ويبالغون في التضييق خصوصا على الزوار الوافدين من روميه وإيطاليا إلى بيت المقدس ، ويوقعون بأقوام منهم ظلما وعدوانا فتحمس ملوك الفرنج واقطابهم فحشدوا جيوشا كثيفة وخرجوا من رومية وانضم اليهم في الطريق الامراء والقواد والعساكر من القواد والعساكر من جميع انحاء أوربا يريدون استنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان خروجهم من بلادهم ١٠٩٧ م وهي السنة الثانية والخمسين لظهور الترك (٤٩١ هجرية) وكان الكسس يومئذ ملكا على القسطنطينية .

وكان يضم جيش الأفرنج الوفا وربوات من العساكر والجنود والضباط والصناع واستصحبوا طائفة من الاساقفة ولفيفا من الاكليروس والرهبان وعلى راسهم ملكان وسبعة قمامصة اما الملكان فهما بوهموندوطنركيد ، واما القمامصة فهم روجر وبيموند وبلدوين وجوسلين وغالارن وغودفري وصنجيل فساروا إلى إسبانيا أولا وملكوها ، ثم توجهوا برا وبحرا إلى القسطنطينية ، فوصلوا إلى الخليج حيث يجتمع البحران ، وارسلوا وفدا إلى الكسس لينضم إليهم ، وليوصي أهالي مدن مملكته ليجهزوا المؤن للعساكر والخيل فوعدهم بذلك ، لكنه مالبث أن خلف بوعده ، فاتصل بالامراء الترك في نيقية وغيرها ليرسلوا عساكرهم ويقاتلوا الافرنج فاحتشدوا للحال وساروا بحشدهم وجموعهم وانقضوا عليهم في سواحل البحر ، واعملوا فيهم السيوف قتلا ونحرا حتى ابادوهم برمتهم ، فانهزم الباقون إلى القسطنطينية وحاصروها سبع سنوات (١) ثم تحالف الافرنج مع ملك الروم ووزرائه فخرجوا معا

من ناحية غلاطية ، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها واحتلوها وملكوا عليها الكسس ، ولما ارتحلوا إلى قليقيلة ارتجت لهم الأرض وهلعت منهم القلوب وبات الملوك جميعا يحسبون لهـم الف حسـاب ، ثـم توجهوا إلى انطاكية لانها مفتاح بلاد سورية ، وخيموا في ضواحيها واخذوا يغيرون على الغادين والرائحين ، وقـطعوا المؤونة عن البلد وعاثوا في الحقول والضياع والمزارع المحيطة بها فسـادا وخـرابا ، وقد بقي الأفرنج يحاصرون انطاكية تسعة اشهر .

في ذلك الزمان عندما كان الأفرنج يحاصرون انطاكية حدث فيهـا زلزال عظيم فقوض كثيرا من الابنية الفخمة ، وقد ظهـر في اسـاس احد ابراجها المتهدمة بيت قديم يشتمل على أشخاص مـن نحـاس شتى بأشكال فرنجية تمثل رجالا ممتطين الخيل مدججين بـالرماح والسيوف النحاسية ، متدرعين بأصناف الأسلحة فـأمر يغسـيان التركي أن يبحثوا عن اصلها وفصلها فلم يهتد احد إلى حقيقتهـا ، بل غلب على ظنهم انهـا أصـنام وثنية فـأمر الوالي بتـكسيرها وتحطيمها ، واتفـق أن عجـوزا عمياء أذاعت انذاك أنهـا سـمعت الكهان يقولون إن في أسفل ذلك البرج طلسمات لتمنع امم الفرنج من الخروج ومن عبور البحر ، فلمـا سـمع يغسـيان الوالي قـول تلك العجوز ندم لأنه حطم تلك التماثيل ، وسألها هل سمعت كيف يمـكن أن ترمم فأجابت : لا ، فأمر بضربها وقتلها .

اما الأفرنج فبعد أن خرجوا من البحر إلى الساحل عقدوا مجمعا وعاهدوا الله تعالى انه إن أتاح لهـم الاسـتيلاء على بيت المقـدس فإنهم سوف يعاملون بـالحسنى جميع النصـارى مـن أي مـذهب كانوا ، وانهم سوف يهبـون لكل طـائفة تـؤمن بـالمسيح كنائس وأديرة .

« استسلام الرها للفرنجة »

لما سمع الرهاويون بقدوم الفرنج إلى بلاد المشرق ووصولهم إلى انطاكية طلبوا من الوالي ثاودوس بن هاتم أن يكاتبهم ويستحثهم القدوم إلى الرها ليحميهم من هجمات الترك أعدائهم ، فرفض ذلك في بادىء الأمر واخذ يثنيهم عن ذلك ، لكنه تخوف أن يتصلوا بالفرنجة سرا ، فأرسل إلى الدوق غودفري رئيس القواد وفدا حمله كتابا يطلب فيه أن يرسل جيشا ليتسلم منه ولايته ، ولما اطلع الفرنج على ذلك الكتاب ابتهجوا ابتهاجا عظيما واستبشروا خيرا ، وقالوا : كما أن الرها سبقت أورشليم في الايمان بالسيد المسيح هكذا شاء الله تعالى أن تدخل قبلها في حوزتنا ، فبعث غودفري بأخيه بلدوين وسيره في شرذمة من الجنود ، فخرج الأهالي لاستقباله مرحبين وادخلوه المدينة وملكوه عليهم مسرورين .

وما أن استلم بلدوين مقاليد الأمور في الرها حتى بدأ الأهالي يتعرضون لثاودوس الوالي لحقدهم عليه ، ثم مالبثوا أن ثاروا عليه فهرب إلى الحصن الذي كان قد سلف له أن بناه فوق باب المدينة الشرقي فأحاطوا به وتسلقوا الحصن وقبضوا عليه وخلعوا عنه ثيابه سوى مايستر عورته ، ثم دلوه من أعلى السور على هذه الحالة فانقض عليه الأهالي وفتكوا به ، ثم صادر بلدوين أمواله وسيطر على الحصنين ، ووضع فيهما حامية .

« الاستيلاء على انطاكية »

عم الفرح بين الفرنج بعد الاستيلاء على الرها ، وقد شد عزائمهم هذا المكسب فزحفوا إلى انطاكية ، فاستدعوا روزبه الفارسي ، واخوين ارمنيين ، وكان هؤلاء الثلاثة يحرسون البرج من ناحية كشكروف واغراهم بوهيموند بمال كثير إن سمحوا لهم بالعبور فوق الجسر المبنى على قضبان حديدية ، وهكذا كان فأقبل الافرنج ليلا وعبروا المضيق وتسلق بعضهم بالحبال إلى اعلى السور ، والتف الباقون حوله وقبل بزوغ الفجر شرع الأفرنج ينفخون في الأبواق فاستفاق يغسيان الوالي مذعورا معتقدا ان الافرنج قد استولوا على القلعة ، فهرب من الباب الأعلى للحصن في ناحية الجبل الشرقية الجنوبية ، وسار باتجاه حلب بصحبة ثلاثة رجال ، لكنه سرعان ماااكتشف ان الفرنج لم يستولوا على القلعة بعد ، فحزن حزنا شديدا واخذ يعض انامله ندما ويقول : والهفي كيف تركت بلدي واهلي واولادي واموالي وخرجت وحيدا متشردا ، وكان طوال الطريق يلتفت نحو أنطاكية وينوح عليها إلى ان سقط عن حصانه ، فأركبه أصحابه ، فسقط ثانية فأركبوه ثالثة فتركوه وحده ، فمر به رجل أرمني كان يقطع حطبا في الجبل فقطع رأسه وأخذه إلى الفرنج .

بعد ذلك دخل الفرنج انطاكية دون اكتراث بالعسكر التركي المتبقي في القلعة وبقي الأتراك داخل القلعة ثلاثة عشر يوما ، أجهدهم فيها الجوع الذي كان يفتك بهم وبدوابهم حتى اكلوا لحم خيولهم ، واشتدت المجاعة حتى بلغ ثمن راس الحمار عشرين دينارا تقريبا .

في هذا الوقت اقبل كربوقا التركي في مائة الف فارس من اطراف بغداد والموصل ، فمر بالرها واستباح ضواحيها قتلا ونهبا واستأنف

المسير إلى حلب فبلغه ان الفرنج قد احتلوا أنطاكية فغضب غضبا شديدا وعجل لاستردادها ، وكان العسكر التركي الذي في القلعة مازال محاصرا يقاوم الفرنج ليل نهار ، فوصل كربوقا مع جيشه وخيموا عند بفراس حيث كان معسكر الفرنج قبل دخولهم البلد ، فأصاب الفرنج بأس شديد ، وأخذوا يقيمون الصلوات ويثابرون على الصوم ، ويتضرعون إلى الله ليساعدهم على الغلبة ، في ذلك الوقت رأى طنكريد رؤيا فحفروا في أحد أمكنة بيعة القسيان وعثروا على مسامير صليب المسيح ، فسكبوا منها صليبا وسنانا لواحد من رماحهم ، وخرجوا لقتال الترك وأعملوا فيهم السيف وملأوا الأرض من جثث القتلى ، ودحروا من بقي إلى ما بين النهرين (الجزيرة) حدث ذلك في ٣ حزيران عام ١٠٩٨ م وتولى أنطاكية بوهيموند وابن أخته طنكريد .

ثم أتى الأفرنج إلى المعرة وسروج وكانتا لبني عطير .

استيلاء الفرنج على بقية سورية وبيت المقدس

كان المصريون قد صعدوا واخذوا بيت المقدس من الترك قبل خروج الافرنج ، فتوجه الافرنج اولا الى يافا ، واخذوها بالسيف ، ثم توجهوا الى بيت المقدس ، وكان بها والي الافضل المصري فاقاموا برجين احدهما عند باب صهيون في الناحية الجنوبية وثانيهما عند مار اسطفانس في الجهة الشرقية ، فبادر المسلمون والقوا النيران في برج باب صهيون فاندلعت وانتشرت ، لكن ما ان انتهى الحريق حتى وقعت في البلد صيحة عظيمة ان الفرنج قد اقتحموا المدينة ودخلوها من الناحية الشرقية .

وقد استطاع الفرنج ان يدخلوا بيت المقدس في تموز سنة خروجهم (١٠٩٩ م) وقد اعملوا السيف في العسكر والاهالي واوغلوا في سفك الدماء اسبوعا كاملا ، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين الفا ، وقتلوا في المسجد الاقصى نيفا وسبعين الفا ، وامتلأت شوارع المدينة من جثث القتلى فكوموها واحرقوها .

وكان اول ملك افرنجي بها هو غودفري وقد ملك سنتين ثم ملك بعده بلدوين مدة سبع سنوات .

ولما انتهت تلك المعركة الدموية ، اخذت امور الفرنج تقوى وتتحسن ، وتمت لهم الغلبه فتوجوا الدوق غود فروي ملكا على القدس ، ثم جالوا في اطراف فلسطين واحتلوا ضياعا وحصونا ومدنا شتى ، وساروا الى حبرون ، وابتنوا فيها كنيسة ضخمة ، واوحي الى بعضهم وهم قانتون صائمون عن مغارة الاباء حيث اضرحه ابراهيم واسحق ويعقوب فابتنوها على اجمل طراز .

ولما تمكن الفرنج في بيت المقدس وصلحت احوالهم اخرجوا الروم من الكنائس الكبرى ، وابعدوا اساقفتهم واقاموا من شعبهم

- ٢٠٣٥ -

بطريركين احدهما لاور شليم والثاني لانطاكية ، فنصب البطريريك الانطاكي اساقفه لطرسوس والمصيصة والرها ودلوك وافاميا وطرابلس واللاذقية وجبلة وقوروس ومرعش وحارم ،ونصب بطريرك اورشليم اساقفه لبيت لحم وحبرون والسامرة ويافا والناصرة وقيساريه وصيدا وبيروت ، وكان جملة الاساقفة الفرنج عشرون اسقفا ، ولما استولوا على صور رسموا لها ايضا اسقفا .على ان مدينتي صور وعسقلان بقيتا في حوزة المصريين زمنا .

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة

في عام ١١٠٣ استولى صنجيل (القائد الفرنسي) على طرطوس فبلغ الترك ان عسكره قليلون ، فوجهوا اليه من طرابلس ودمشق وحمص جيوشا ضخمة ، والتقى الجيشان الفرنجي والتركي . فانكسر الجيش التركي وهرب جنوده وقد سقط منهم كثير من القتلى .

فتوجه صنجيل الى طرابلس واستطاع احتلالها بعد حصار طويل ، فنظم احوالها ثم ولى عليها اولاده وعاد الى بلاده حاملا الحربة التي استخرجها الفرنج في انطاكية ـ كما ذكرنا من قبل ـ وعند وصوله الى القسطنطنية التمس الكسس الملك منه ان يعيره اياها لكي يتبرك منها ، فأعطاه اياها صنجيل ، لكن الكسس صاغ من تلك الليلة حربه مثلها وارسلها الى صنجيل واحتفظ بالحربة الحقيقية ، وهذه الحربة هي التي طعن بها اليهود في طبرية يقونة السيد المسيح تهكما وسخرية فسال منها للحال دم وماء .

احتلال الاتراك ملطية

كان الروم قد وضعوا جبرائيل الرومي (الملكي) على ملطية ، وكان الامير دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يضايقه ويقلقه ويغزو بلاده اثناء الصيف وينقلب الى حاضرته ، فعول جبرائيل على التملص من مساوئه وعدوانه ، فكتب الى بوهيموند صاحب انطاكية يستقدمه ليسلمه البلد ، واقسم له على الوفاء بذلك ثلاثا ، مصرحا له بأنه يروم بكل خاطره ان يزوجه ابنته كيرا مورفيا ويوليه على ملطية بدلا من جهازها ، فوثق بوهيموند بكلامه وسار اليه في جيش جرار ، بيد ان ولاة الارمن مثل باسيل صاحب كيسوم وابناء روبين واصحاب ارمينيا تخوفوا من الفرنج متوهمين انهم اذا اخذوا بلادهم اخرجوهم عنها ، فارسلوا الى اسماعيل بن دانشمند سرا ليكمن لهم ويمنعهم من الدخول ، ولما اقترب بوهيموند من ملطية وخيم في قرية جفنة اوفد الى جبرائيل يطالبه بانجاز وعده ، فراح يؤجله من يوم الى يوم حتى وصل ابن دانشمند في عسكره وكمن لبوهيموند حتى تمكن منه ، واوثقه واوفده مكبلا الى سبسطيه ، وتوجه هو الى ملطية وشدد عليها الحصار ، فسار وجهاء البلد الى السيد يوحنا سعيد صابوني اسقف المدينة يتوسلون اليه ليشير على جبرائيل الوالي ان يسلم المدينة صلحا ، مع ان المطران المشار اليه كان فيما سلف يشجعهم ويبعث في قلوبهم النخوة ليقاتلوا الترك ، بيد ان جبرائيل ابى الا التصلب في رايه واستشاط سخطا على المطران وطعنه بيده ، فغاصت روحه حالا ، وعمد الى طائفه من وجهاء المدينة المسيحيين ، فقتلهم ظانا ان فعلته هذه سوف تمكنه من التشبث في بلدته ، لكنه مالبث ان هجم عليه قائدان قويان اتفقا مع الترك ، فسلموهما البلدة يوم الاربعاء في ١٨ ايلول ١٤١٣ يونانيه (١١٠٢) فانقضوا على ملطية التعيسة ، واخذوا اموالها لكنهم ابقوا على سكانها واعادوهم الى بيوتهم .

بعد هذا اوفد ابن دانشمند فاستحضر من بلاده الذخـائر والمؤن والغنم والبقر ، واجزل الخيرات للاهالي ووطنهم وولى عليهم باسيل التقي الورع .

بعد ذلك اقتصت العدالة من جبرائيل فصار يعذبه التـرك بقسـاوة كذلك قام كثير من المسيحيين ، واخذوا ينتقمون منه فضربوه وعذبوه واخذوا يذكروه بقتل المطران القديس والرؤسـاء المظلومين ، وبقية الفظائع التي كان يقترفها وبعد ان اشبعوه احتقـاراً وسـقوه مـراً اخذوه الى قلعة متمردة مقطوعة كانت امراته فيها ، فأمره الترك ان يقول لامرأته ان تسلم القلعة فحاول القيام بحيله شيطانية ليضـللهم فقال لها لك علامة ان ارسلت الفتى ميداس ، فاعطيهم القلعة ، لكن هذا الاسم في اللغة الارمنية يعني لاتعـطي ، فلمـا عرف التـرك انه يخدعهم قتلوه ورموه للكلاب فأكلته الكلاب .

اما الدانشمند فقد امر بإحضار الملك بوهيموند من سبسطية عام (١١٠٣) وقبض منه في ملطية مـائة الف دينار ، وارسـله الى انطاكية فولى عليها ابن اخته ، اما هو فرجع الى بلاده وهناك انجب ابنا دعاه باسمه ، وقد خـرج هـذا بعـد زمـان قليل وتملك على انطاكية .

مجمـــــــــل احـــــــــــداث ١٤١٢ ـ ١٤٢٥ يونانية ١١٠١ ـ ١١١٢ م

فيما مضى كان يملك في خراسان الترك اما في بلاد اثور والجزيرة ومابين النهرين فكان التــرك مختلطين مـــع العـــرب الذين رجعـــوا وضبطوا هذه الاماكن .

اما في مصر فكان العرب المسيطرون ، لكن لما اندلعت الحــرب في خراسان كانت هذه الحرب بين الاتراك ولذلك قويت شــوكة العــرب. وفي سنة ١٤١٢ يونانية خرج ابن ملاعب العربي مـــن حمص واخــذ أوفيمية (افاميا) .

وفي تلك الســـنة ملك على دمشــق دُقــاق الغُــزّي وملك على حلب رضوان بن الملك الغزي .

وفي سنة ١٤٢٠ اخذ عمر بن سالم العـــربي ســـوكره وصـــابوره واشتعلت الحروب بين الترك والعرب .

اما الترك الذين في كبدوكية والبيتونية فلم يكن بينهـــم احـــد مـــن العرب لانه كان قد انطفأ كليا حكم العرب من هذه المناطــق بســـبب قتالهم مع اليونانيين ومع بعضهم بعضا .

ومات بسبسطية دانشمند بعـــدما ملك ملطية لمدة عامين ، فـــأقبل بعد ذلك السلطان قلج ارسلان الى ملطية وكان بهـــا يغســـيان بـــن دانشمند ، فنزل عليها في ٢٨ حـــزيران وحـــاربها حـــربا شـــعواء واقاموا المنجنقيات على البرج المجوف الواقع في الناحية الغربية من شرقي المدينة ، ولما علم الذي كان بهـــا انه قـــد دنت ان تـــؤخذ طلب الامان وسلمها ، وتملكهـــا قلج ارســـلان ودخـــل ملطية في ٢ ايلول سنة ١٤١٧ يونانية .

- ٢٠٤٠ -

في هذا الزمان وقع انشقاق بين الترك والعرب الذين في اثور ، لان سلطان خراسان غياث الدنيا ارسل رجلا اسمه ابو منصور جـاولي لمجابهة الافرنج ، ولما وصل لبغداد توجه الى الموصـل وكان بهـا في ذلك الزمان جكرميش ، لكن هذا لما سمع بزحف جاولي نحوه حصن المدنية وجهز عساكره للحرب ، واشـتبك مـع جـاولي وانتصر عليه واعتقله وادخله الموصل موثقا لكن بعد ايام يسيره مـات جـكرميش فخرج جاولي وجمع عسكرا في بلاد صابورا ليعود الى المكان نفسـه لان اهل الموصل اقاموا عليهم ابن جكرميش رئيسا ، لانهم خـافوا ان لايستطيعوا الوقوف في وجه جاولي ، ولما سمعوا ان قلج ارسلان قد استقر بملطية ارسلوا يطلبون منه النجدة ويعطوه بالمقابل الموصل ولما سمع جاء وقطع الفرات ، وكان حكام مـدائن مـابين النهـرين اتراكا من قبيلة ارتق حين سمعوا بمجيء السلطان خـافوا وكلهـم اتوا لخدمته :

ابن شافك من قلعة زياد وابراهيم من آمد وإلغازي من ماردين ، فلما نظر جاولي هؤلاء لم ينزل الى الموصل .

اما قلج ارسلان فقد دخل الموصل وحكمها ، اما جاولي فقد حكم على الرحبة ولما سمع السلطان اتى بعسكر عظيم وصار الحرب على نهر الخابور لكن وبفعل الاعداء وقع انشقاق بين عساكر السـلطان فتركوه وهربوا،وبقي يحارب وقام في الحرب ببطولات عظيمـة،اخيرا دخل في النهر ليجتازه لكن بسبب ثقل الحديد الذي يلبسـه اختنق في النهر ومات •

وملك جاولي على الموصل وعلى نصيبين واخـذ يضـطهد اعداءه بقساوة،وجمع مالا كثيرا ورجع الى خـراسان حينئذ غازي عم الذي نزل في ماردين واخذ مدينة نصيبين .

في سنة ١٤١٧ في اول جمعة من صـيام الاربعين ظهـر كوكب في المغرب وكان ذنبه باتجاه المشرق وبقيمن أول المساء حتى آخر الليل

المصاعب التي تزايدت في ملطية بعد موت السلطان

لما اتى خبر موت السلطان قلج ارسلان اقاموا بملطية ابنه الصغير الذي كان اسمه طغرل ارسلان،وصار مدبره رجل شيخ اسمه برميش وكان هناك رجل آخر اسمه ارسلان ،فاتفقت معه أم الصبي ان قتل برميش تتزوجه وهكذا كان ، لكنه صنع شرورا كثيرة بأهل المدينة فأخذ يجمع الذهب ، ثم أخذ يعتقل الجميع ليمضي الى بلاد الروم ولما عرفت به المراة اتفقت مع ابنها وامسكت بارسلان ، وحبسته وظن الناس انه قتل وبعد سنة أخرجته وارسلته للسلطان،وكان لطغرل ارسلان ثلاثة بنين اخرين كبار هم : عرب ، وملكشاه ، ومسعود ، أما عرب فقد قتله الأمير إلغازي بن دانشمند،وتنصب ملكشاه سلطانا وأمسك اخاه مسعود وحبسه ودخل القسطنطينية عند الكيس الملك ، لكن رئيس عسكر ملكشاه مالبث ان عصى عليه فأخرج مسعود واتوا لعند الأمير غازي ابن دانشمند ونصبوا مسعود سلطانا ، ولما خرج ملكشاه من القسطنطينية وهو يحمل الذهب صنعوا له كمينا وامسكوه وقلعوا عينيه ، ولما نظر الافرنج ان الترك يحاربون بعضهم بعضا اشتد ساعدهم،واتى بوهيموند واخذ ابلستين وبلاد جيحان وخضعت له كل بلاد ملطية ، حينئذ اجتمع بالرها جمع عظيم للاحتفال بالانتصار وقد بقوا اياما كثيرة يتخاصمون مع بعضهم بعضا لأجل قسمة المدن ، ولما طالت هذه المشاجرة اجتمع الترك لمهاجمتهم فخرج الأفرنج وهم مختلفون مع بعضهم حول قسمة البلاد ، ولما وصلوا الى حران خرج أهل حران لاستقبالهم واحضروا لهم المفاتيح لكن بلدوين حاكم الرها لم يأخذها لأن حران كانت حصته ، وقدر انهم اذا دخلوها اولا فسينهبونها ويقتلوا شعبها ، فتركوها وهم مختلفون خصوصا لأنهم لم يدخلوا حران ، فلما التقى بهم الترك وحدثت معركة انكسر فيها الأفرنج وأسر الاتراك بلدوين وجوسلين واخذوهما للموصل،اما تنكرد فقد هرب للرها ووضع بها شرد

رئيسا ، هذا صار في سنة ١٤١٤ على نهر البليخ الخارج من فدان آرام (٢) ، والذي هو اليوم مسجد للعرب ، ويدعونه بيت ابراهيم، ويجري ليختلط مع الفرات عند قالينيقوس،اما تنكرد فقد ترك الرها بيد شرد وقد ابتلى هذا الرهاويين بشرور كثيرة ومضى لانطاكية ولم يكن يريد خلاص جوسلين بسبب الفتنة التي صارت بينهم،لكن اناسا من تل باشر تبرعوا ان يجلسوا في السجن رهنا ليخرج جوسلين ويحضر الذهب،غير ان أولئك المسجونين كسروا البيت المحبوسين به وهربوا وخلص جوسلين دون ان يدفع دراهم ، اما بلدوين فقد كان غرضه سبعين الف دينار ، فأخذ جوسلين ثلاثين الف ومضى الى قلعة جعبر وجلس هو رهنا على الباقي ، فأخرج بلدوين ، ولماسمع سلطان الموصل ان جوسلين سلم نفسه ليدخل السجن تعجب وطلب ان يراه لأنه لم يره من قبل وانما سمع عن حسن قامته ، فمضى جوسلين الى الموصل ، ولما رآه السلطان حذف من جزية بلدوين عشرة الاف ، فسجد جوسلين ووضع وجهه على الارض،حينئذ ولأجل هذه السجدة ترك عشرة الاف اخرى ايضا ، ثم ارسلوا وابتهجوا ، وخرج في الصباح السلطان مع عسكره فأمر ان يركب جوسلين فركب وحمل سلاحه ، ولما نظر السلطان حسن جوسلين وقوته تعجب هو وكل الشعب ، فسمح له بكل ماتبقى من غرامة بلدوين ، ولما خرج بلدوين من السجن صعد ليصلي بالقدس ، وحين وصل وجد أنه في يوم الأربعاء الذي يتقدم على عيد الشعانين .

وفي تلك السنة التي هي ١٤٢٨ كان قد وقع بلدوين الملك عن فرسه ، ولما علم انه سيموت أمر ان يصير ملك مكانه بلدوين هذا حاكم الرها الذي هو ابن اخته ، وكان قد وصل فجأة وبدون معرفة بما جرى ، فعرف ان الرب قد اختاره ففرح به الجميع ، ونصب يوم الثلاثاء الذي يتقدم على يوم الجمعة العظيمة في ٩ نيسان ، ولما صار ملك اعطى الرها لجوسلين الشجاع الجبار .

وفي هذه الأيام اتفق بعض الأرمن مع الاتراك عندما راوا أن

الأتراك قد سبوا بلاد الرها ووصلوا الى السور ووقفوا ، فـأدخلهم هؤلاء الأرمن بأحد الأبـراج لأن الأرمـن ظنوا بـأن التـرك يأخذوها ، لانه ليس لها رئيس لكن الله تعالى صنع تـدبيرا فـوجد جوسلين ان الأتراك قد صعدوا الى رأس البرج،فـدخل وحـده وكان يلبس درعا فقتل ثلاثين رجلا بالسيف فـوقع الذين كانوا يتسـلقون عليها وتكسروا وهكذا نجت المدينة •

قبل هذا الزمان اي في سنة ١٤٢١ خـرج مـن خـراسان رئيس للجيش اسمه مودود ومعه مائة الف ، وحل على الرها ثلاثة اشـهر، فأجتمع الأفرنج ليهاجموه فتركها الترك وهربوا •

كمل هذا ايضا بعون الرب صلوا علي •

في سنة ١٤٢٩ تراءى في بلاد جيحـان نور في نصـف الليل كنور الشمس وبقي نحو ثلاث ساعات ، وفي الرابع من نيسـان مـن تلك السنة حدث،ظلام على وجه الأرض ، وغطى قرص الشمس نوع من الرماد من أول ساعات الصباح وحتى ثالث ساعة ، ومن ثالث ساعة الى الساعة العاشرة أضاء قليلا قـرص الشـمس ثـم انظلم ثـلاث ساعات اخرى من النهار ، ثم صار قرصا مثل النارولم تعد للضـياء، وبقي هذا الظلام اثني عشر يوما .

في ٢٥ من أيار اظلمت ثلاث سـاعات،وفي أول حـزيران تـراءى كوكب بذنب،وذنبه كان كالرمح ممتـد لناحية المشرق،وبقـي خمسـة عشر يوما وكل يوم كان يمشي للامام ، .وفي تلك السنة في شهر ايلول حدث زلزال شديد،وتهدمت اماكن كثيرة .

انخساف مرعش بالزلزال

في سنة ١٤٢٥ في ٢٩ تشرين الثاني ليلة الأحد ارتجت الأرض، وصار زلزال قوي جدا وقد غارت مدينة مرعش كليا وانقلبت اساساتها وابنيتها وصارت قبرا لسكانها ، وقد انهارت بهذا الزلزال بيعة ماريوحنا في كيسوم ، وبيعة الأربعين شهيدا،وبإدارة مارديونوسيوس اسقف كيسوم اعيد بنيانها ، وايضا سقطت شميشاط بهذا الزلزال واختنق بها كثيرون ، ومن جملتهم قسطنطين صاحب قلعة جرجر،وتهدمت في جميع المدن والقرى اماكن كثيرة .

وفي سنة ١٤٢٧ اتى ضباب معتم ومظلم وحدثت زوبعة هدمت ابنية وقلعت صخورا وقلبت الأشجار،كذلك صار في الرها سيل وثقب السكر المدعو سكر أوف الرسول .

وفي هذا الزمان جلب ابن جالبي عين ماء الرها .

خبر اخوانية الرهبان الفرنج المدعويين داوية

وفي أول عهد مملكة بلدوين الثاني ملك القدس (١١١٨) خـرج من رومية رجل فرنجي اسمه دفزين في ثلاثين فـارسا مـن الأخـوة الرهبان يريدون الحج الى القدس ، وعاهد ذلك الرجل نفسه انه لن يعود في اصحابه الى وطنه الا بعد ان يساعد ملك بيت المقـدس مـدة ثلاث سنوات في جميع المواقع الحربية،وانه اذا وفقـه الله تعـالى في بغيته عكف بقية حياته على اعمال الرهبنة في المدينة المقدسة ، فلمـا وصلوا الى القدس واكملوا الفروض الدينية اخـذوا يختلفـون الى المعارك الحربية،فابلوا بلاء حسنا مدة الأعوام الثلاثة .

على أن بلدوين الملك وأرباب دولته لما راوا ماهم عليه من البسالة والشجاعة أشاروا عليهم ان يستخدموا في الجندية ليصونوا الأراضي المقدسة من هجمـات الأعداء ، ويعـدلوا عن الانقـطاع الى احـد الديرة ، فأجاب ذلك الرئيس ورهبانه الى مشورتهم فخصصوا بيت سليمان الملك لاقامتهم وعينوا لهم بعض القرى لمعيشتهم ، وتـكرم عليهم البطريرك بشيء من ريع الأوقاف الكنسية .

بناء عليه ابرم اولئك الرهبان عهدا على نفوسهم أمـام الله ، ان يسيروا سيرة الرهبـان،وقـرروا انهـم لن يتشـبثوا بزواج ، ولايختلفون الى حمـام ولايسـتبدون بملك او عقـار بـل يجعلون اموالهم باسرها عمومية مشاعة ، ومامر القليل من الزمـن حتى اشتهروا شهرة عظيمة وضاع شـذا اعمـالهم المجيدة في جميع البلاد القريبة والسحيقة،واقبل الملوك وابناء السـلاطين والعـظماء والعوام وانخرطوا في سلكهم واتخـذوا معهـم إتحـادا اخـويا روحيا ، وكان كل من ينضم اليهم يتنازل لهم عما ملكتـه يداه مـن المال ، فأزدادوا في برهة من الزمان ونموا نموا عجيبـا واسـتولوا على أمكنة شتى في فلسطين وايطاليا وورومية ، وانشأوا لهم قوانين وضوابط حتموا ان يقوموا بها .

وكانوا اذا قصدهم احد للانضمام في سلكهم اضطروه ان ينزوي في قلايته سنة كاملة يعمل الروية في مانواه ، وكانوا يتلون عليه تلك القوانين سبع مرات،ويقولون له في كل مرة احذر وانتبه لئلا تندم فيما بعد او يتعذر عليك الثبات حتى النهاية في حفظ هذه القوانين ، والا فالخليق بك ان تطلعنا على مكنونات قلبك وتعود الى بيتك .

وكانوا اذا وافق احد على تلك القوانين ورضي بها طوعا ونذر ان يحفظها ويعمل بها صلوا عليه ووشحوه بثوبهم ، واذا اتفق فنكث احدهم وخالف نذره ضربوه بالسيف واستعملوا قتله .

اما قانونهم فكان يشتمل على عدة بنود : أخصها أنه لايجوز لكائن من كان منهم ان يملك شيئا خصوصيا لابيتا ولاذهبا ولاقناعا ، وان لايذهب الى اي محل كان دون اذن الرئيس ، ولا يرقد الا في بيت الرهبان ، ولايأكل على مائدة العوام ، وان يذهب طوعا الى حيث يؤمر مهما كلفة ذلك من المشقة ، ولو افضى به ذلك الى الموت ، ويلزمه ايضا ان يوفي بنذره هذا فيخدم في الجندية حبا للدين حتى الممات .

وكان اذا توفي احدهم اقام له كل فرد منهم أربعين قداسا، واطعموا لأجله أربعين مسكينا مدة أربعين يوما ، وذكروا اسمه في قداساتهم على مدى الأزمان ، واعتبروا من مات منهم في ساحة الحرب شهيدا ، أما من كان يخفي عنهم شيئا ويحتفظ به لنفسه فكانوا لايحتفلون بدفنه ، وكانت ثيابهم جميعا بيضاء بسيطة لايجوز لهم ان يتزينوا بزي أخر ، وكانوا اذا رقدوا رقدوا لابسين ثوبهم الرهباني وزنارهم .

وكانوا يأكلون اللحم أيام الأحد والثلاثاء والخميس ، وكانوا يقتصرون في سائر الأيام على اكل الحليب والبيض والجبن ، وكانوا يشربون الخمر يوميا وقت الغذاء فقط ، أما قساوستهم وشمامستهم فكانوا يمارسون الصلوات والطقوس في الكنائس ، وكان قوادهم وضباطهم وفرسانهم يصلون صلواتهم وهم مزاولون مناصبهم الجندية ، وكان رجالتهم يقضون فروضهم

الدينية وهم في ساحة الوغى ، أمـا الصـناع والفـلاحون فـكانوا يمارسون فروضهم وقت العمل،وابتنوا لهم في كل مدينة وقرية بيتـا خصوصيا يتولى شؤونه رئيس ومدبر يأتمر كل مـن فيه بـأمر ذلك الرئيس ونهيه ، اما رئيسهم العام فكان يسـكن في القـدس وكانت اوامره تشمل الجميع على حد سواء ، ولم يكن له ان يتمتع ويتفرد بشيء خاص اصلا ، واتصـف هؤلاء الرهبـان خصـوصا بـأعمال الرحمة فكانوا يوزعون على المساكين عامـة عشر مـايصيبهم مـن الغلال كالقمح والخمر وغيرهما ، وكانوا كلما خبزوا خبزا في احـد ديرتهم او بيوتهم وزعوا على الفقراء عشره مع كل ما كان يفضل من طعامهم . وكانوا يوزعون ايضا خبزا وخمرا على المساكين مرتين في الاسبوع.

وفي عنفوان امرهم اخذوا يتولون حراسة الجنود أثناء اختـلافهم الى تأدية فروض العبادة والصلاة وقت خمود نيران المعـارك ، ثـم اخذوا يخرجون مع ملوكهم لمحاربة الترك فنموا نموا عجيبـا حتـى بلغوا مائة الف راهب ، وامتلكوا قلاعا وحصـونا منيعـة في جميع البلاد التى احتلها المسيحيون ، وازدادت لديهـم الأرزاق والأمـلاك والأسلحة ، وتـوفرت عندهـم القـطعان والغنم والبقـر والخنازير والجمال والخيل اكثـر مـن جميع الملوك ، وعلى الرغم مـن كثـرة املاكهم كانوا زاهـدين متجـردين كأنهـم لا يملكون شـيئا البته ، وكانوا يعتبرون ويحبون على حد سواء كل من امن بالصليب وسجد له.

وانشأوا في جميع الأماكن التي شـغلوها ولا سـيما في القـدس مستشفيات أو ملاجيء للمرضى أقـاموا فيهـا خـداما يعتنون بهـم ويسهرون على شفائهم. فكانوا ينقلون اليها كل غريب اصيب بمرض ويعالجونه حتى يصح. فاذا تعافى اعطوه زادا وسرحوه بسـلام واذا توفي شيعوه باكرام (٣)

واتفق لهؤلاء الأخوة الرهبان الداوية انهم حين حـدوث المجـاعة الشديدة في القدس واصلوا توزيع الخبـز على المسـاكين كمـألوف

-٢٠٤٨-

عاداتهم الحميدة حتى كادت تنتهي مؤونتهم وتفرغ اهراؤهم. فـأبلغ الوكلاء رؤساءهم ومديريهم وسألوهم أن يشرفوا على تلك المخـازن استدراكا للخطر ، فيروا بأم عينهم ما تبقـى فيهـا مـن الذخـائر الزهيدة،فعقدوا مجمعا وتفاوضوا في ذلك الأمر الخطير فقـالوا :إننا إذا حرمنا المساكين ما يتبقى لدينا مـن المؤن فـلا تعـود تـكفي لنا ايضا ، فالأجدر أن نواصل التوزيع كعادتنا اذ اننا مساكين ويلزمنا أن نحاكي المساكين في شدتهم إن جاعوا جعنا معهـم ، وان مـاتوا متنا معهم . وبعد أن أبدوا اتفاقهم هذا واثبتوه جميعا ثـابروا على التوزيع كعادتهم فتعهدهم الله بغزير مراحمه كما تعهد الوف الجياع في القفر واشـبعهم بقليل مـن الأرغفـة ، على أن الوكلاء تفقـدوا الأهراءات يومئذ فالفوها مشحونة بالقمح والشعير والخمر وسـائر الحبوب ، وذاع أمر تلك الاعجوبة الباهرة في جميع البلدان. وحمـد الله تعالى كل انسان

وفاة تنكرد

في سنة ١٤٢٥ مات تنكرد حاكم انطاكية وملك بعده ابـن اختـه روجيل وقد كسرَ هذا برسق التركي وكان ذلك في ٢٦ ايلول مـن تلك السنة.

وفي السنة عينها كان تركي يتولى قلعة زياد فمضى وسبى سـكان البلد وباعهم عبيدا.

كذلك ابراهيم سبى بـلاد عرقـة وامتـلات ملطية أسرى ، حينئذ أظهر المؤمنين حرارة الأمانة فخلصوا الجميع.

(أحوال الأرمن)

كان امراء الأرمن يتولون بعض الجبال والقلاع والمدن في بلاد الجزيرة وقليقية ، وكان الفرنج تارة والروم طورا يستعملونهم عليها ، وكانت امراة باسيل يومئذ تتولى سميساط ومرعش وكيسوم،وتحت امرتها عدد كبير من الفرسان والمشاة،وكانت تدفع لكل فارس اثني عشر دينارا ذهبيا في الشهر ، ولكل جندي من المشاة ثلاثة دنانير ذهبية ، وكان أولاد قسطنطين بن روبين في قليقيه وميخائيل واوهنس في جرجر. وباسيل اللص في رعبان وكيسوم وقلعة الروم ، وقسطنطين وتبتوغ وبيستفور ابناء سنبل في سميساط ، وكان ابناء سنبل سريانا مخالفين لباسيل اللص، وباسيل الفتى الذي تربى عند امراة كوغ يبغض السريان بغضا شديدا ، فاحتل الدير المعروف بدير الاحمر عند كيسوم ، وكان هذا الدير لجماعتنا منذ اجيال بعيدة ، فطرد الرهبان وولى عليه غريغوريوس الجاثليق ، ونفى رهبان دير حصن عرنيش وأنزل بهم الوان العذاب ، واقام فيه الحراس والعسكر فلم يتيسر للفرنج أن يتغلبوا عليه فزوجوه امراة افرنجية يقال لها كلاماري فأماتته مسموما.

وما دمنا سردنا أخبار الأحداث حسب تسلسل السنين دعونا نوضح انه في سنة ١٤٢٣ استولى اتابك سلطان ملطية على بلاد جيحان من الافرنج.

وفي سنة ١٤٢٤ خرجت امراة قلج إرسلان من ملطية وتركت أولادها عند أتابكهم،ومضت الى بلك امير بابولا وقالت له : إني سمعت السلطان يقول أن ليس بين امراء الترك في هذه البلاد مثل بلك رجلا جبارا وحكيما ، ولهذا السبب وثقت به وبوساطته حفظت مكانتي وهو عظيم جدا .

ولما رجعت خاتون من عند بلك طردت الاتابك وجلست هي وابنها بالقلعة حينئذ تضايق ذلك التركي الذي في قلعة زياد فباعها لسلطان ملطية ، واخذ عوضها ذهبا واماكنا ، ولما دخل رجال سلطان ملطية الى القلعة قدم نحوهم ابن سلطان خراسان فجأة بجيش عظيم ، فسلموا حصن زياد هذا لابن سلطان خراسان دون حرب، وللحال تم الصلح.

وفي سنة ١٤٢٩ اغار امير منبج وحاكم قامح على بلاد ملطية، في ١٥ اذار فنهب وسبى ، فأرسلت خاتون ملكه ملطية الى جوسلين حاكم الرها واقامت معه صلحا لكي يساعدها.

وتوفي في سنة ١٤٢٨ يونانية(١١١٧ م) الخليفة المستظهر ، وفي شهر أب في هذا العام توفي ايضا الكيس ملك الروم ذلك الحكيم الجبار،وهو بحكمته نجى مدينتهم من الأفرنج ومن القوفيين والصربيين والبلاكيين ، وقد جاهد ضد كل هؤلاء وحفظ مملكته ودبرها بالاستقامة تسع وعشرين سنة ، ثم ملك بعده ابنه يوحنا في سنة ١٤٢٩، فتآمر عليه اخوه واخته وامه فوضع اخوه واخته في السجن وجعل أمه راهبة،وعندها استتبت له المملكة.

في تشرين الأول عام ١٤٠٦ توفي اغناطيوس المؤرخ مطران ملطية ورسم عوضا عنه مار اثناسيوس سعيد بن الصابوني المتبحر بالعلم والكاتب الماهر في خطنا السرياني هذا والخط اليوناني ، وقد ارتسم في عيد الصعود في تلك السنة في قان قرن بنواحي أمد ودعي يوحنا ، ولأن انتخابه تم بموافقة جبرائيل الحاكوز ، فقد دخل المدينة وهي محاصره من الترك ، وفي اليوم الذي دخلها اغلقت ابوابها و كان يحاصرها ويعزلها سلطان قونية قلج أرسلان ، فطلب جبرائيل من المطران أن يشترك مع الحراس في الحراسة ، فشرع يداوم على ذلك طوال العام بكل اخلاص.

ثم ارسل السلطان رسولا من عنده شماسا فقال للمطران وكان جبرائيل موجودا في المقابله :

يقول لكم السلطان أن تعطوه المدينة سلما وهو يعاهدكم بـالأمن وسيغدق عليكم الخيرات ، والا فسوف يأخذها بحد السيف ، عندها فان الله سوف يطالبكم بدم كل الشـعب،فـأجاب المطـران البـار الشماس: لم يستطع احد ان يأخذ هـذه المدينة بـالحرب منذ القـدم وحتى الأن ، وإن فيها خبـزا لعشر سـنوات وأكثـر ، ثـم اطلق الشماس ، لكن جبرائيل التفت الى المطران البار وقال :اسـمع مني ياسـيدي انه لخير لنا أن نسـلم المدينة بـاراد تنا ، لكن المطـران البارحين سمع ذلك رفض ، فابتدأ جبـرائيل يبغض المطـران. امـا اليونانيين فأخذوا يحتقرون كثيرا هذا البار لأنه كان يخزي الأفرنج في تعليمه ، وكانوا يتهمونه بأنه يريد أن يسلم المدينة للترك ، وصدف ان كان البار على السور يوم الجمعة يحـرس وأثناء خـدمة ثـالث ساعة اخذ يتكلم بين الشعب بكل محبة ووداعة ، وكان الشعب يلتف حوله فاغتاظ جبرائيل واليونانيون من محبة الشـعب له والتفـافهم حـوله ، ففـكروا أن يقتلوه ، ولما نزل عن السـور قـالوا له : إن جبرائيل قد أمر أن يقتل رجل مؤمن بحد السيف ، فـذهب اليه ليلا ليتشفع لذلك المظلوم عنده ، فوجد جبرائيل الأثيم على فرس خارجا بين السورين وحوله جنود فأخذ يتضرع له المطـران البـار قـائلا : اشفق على المساكين ، من الخارج قتل ، ومن الداخل قتل ايضا،لكن المنافق ملكونه نوى أن يقتل المطران البار ، فقـال وأنت يا كذا وكذا تريد أن تسلم المدينة للترك ، حينئذ قال لأحد الجنود ، وكان يحمـل حربة :إضربه فلم يتجرأ ، فأخذ الحربة بيده وضرب بها البـار على راسه فقتله ، وكان ذلك يوم الجمعـة في تمـوز سـنة ١٤٠٦،امـا القساوسة الذين كانوا هناك فقد هربوا وتبددوا وضجت المدينة كلها واجتمعت الجموع حيث استشهد البار ، أما جبرائيل القـاتل فقـد خاف لما رأى هذا الجمع الحاشد فـأصر على أن يدخلوا البـار الى البستان ويخفوه بين القصب ، وبعد يومين سجي جسـده في بيعـه الساعي الكبيرة.

فاما البطريرك اثناسيوس لكونه لم يقدر أن يدبـر امـور البيعـة بسبب تدخل عبدون المتمرد فقد سافر الى بغداد وقابل الخليفة ابـو

جعفر عبد الله القائم بالله ، واحضر منه كتابا الى كل الحكام وولاه المملكة في اثور والجزيرة وبين النهرين وكل سورية كبدوكيه والى العرب والترك يأمر أن يقبل اثناسيوس ويعزل عبدون.

عبدون المتمرد رسم أربعة اساقفه هم: اياونيس اسقف تلمحرون الذي اكلته الكلاب ، وابدوخوس اسقف عرقه الذي طرد وصار هرطقيا،وايجنا اسقف ماردين الذي انقبل بالتوبة ، وابن كوريزا الذي اسلم في أمد.

اخبار البيعة في هذا الزمان

بعد ان رجع البطريرك من بغداد بفترة قليلة توفي عبدون العـاصي في حصن منصور ، فأمر ان يقبر امام باب البيعة لكي يدوسه كل من يدخل اليها ، لأنه اخطأ بحـق بيعـة الرب ، فـأما البطريرك ماراثناسيوس فقد جمع الأساقفة وصنع له جنازا وصلاة للغفـران وقد قال : صحيح انه أحب الرئاسة وداس القوانين المقدسة لأجـل ذلك ، لكنه لم ينحرف عن الأمانة المستقيمة المجد ، فيجب أن نصلي له ليرحمه الرب ويرحم كل خاطىء .

وبعد ان قتل سعيد بن صابوني وخـرب الأتـراك المدينة ادخـل البطرك ديونيسيوس اسقف غوبوس ابن المعترف واقـامه مـطرانا لملطية ، لأنه كان معلمـا وحـكيما وذلك في اول كانون الاول عام ١٤١٣ ، وكان ديونيسيوس الذي ادخل الى ملطية قد تتلمـذ في دير ابن جاجي عند مار يوحنا البطريرك ابن شوشن ، ثـم ارتسـم اسقف لغوبوس ، ولما خربت بلاد غوبوس اثناء الخروج الأول للترك اتى هذا الى دير مار برصوم حيث نظم الدير ورتب الخدمة كما كانت في دير ابن جـاجي ، وفي شـيخوخته رسـمه البـطريرك على كرسي ملطية ، فلما وجدها فقيرة في العلم اهتم بها ، وجدد بهـا التعليم ، وكان يعلم في العهدين القـديم والجـديد ، وكتـب المعلمين الأوائل ، وكذلك كان يعلم الكتابة ، وبعد هذا رسم البطريرك مطرانا للرها ابو غالب ابن صابوني أخـو سـعيد الذي قتـل في ملطية ، لأن هـذين الأخوين كانا مشهورين بالعلوم الكنسية ، وفي المعـارف الخـارجية وفي الكتابة باللغتين ، وبالجدال ضد الهـراطقة ، وبـالاختصار كانا المع كل افراد جيلهم من المستقيمين المجد . وكان سعيد الذي ارتسم لملطية قد دعي يوحنا ، لكن بعـد اربعين يومـا مـن رسـامته قتله جبرائيل بملطية كما أوضحنا من قبل .

وابو غالب الذي رسم مطرانا للرهـــا دعي بـــاسيليوس لكن قبـــل كمال الأربعين يوم حدثت مشاجرة بينه وبين البطريرك فحرمه وبقي بعيدا عن الخدمة لكونه قام في وجه البـــطريرك ، لكن بســـبب هـــذا الخصام صار انشقاق في البيعة كما سنوضح .

ولما ملك الافرنج انطاكية اخـــرجوا اليونانيين مـــن البيع الكبيرة وطردوا رؤساء كهنتهم ، وأقاموا بطريركا مـــن شـــعبهم ووضـــعوا مطارنة في طرسوس والمصـــيصة والرهـــا ومنبـــج وافـــاميا ، كذلك وضعوا مطارنة في طرابلس واللاذقية وجبلة وقورس ومرعش وحارم واقاموا لهم بطريركا في القدس ، ورسم اساقفة لبيت لحم ولحبرون والسامرة وليافا والناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت ، ولما استولوا على صور رسم لصور اسقفا ايضا لأنهم لما طلبوا نفقة من بـــطريرك انطاكية على رحيلها لم يعطهم ، وكان اسم أول مطران قام للفـــرنج في الرها مبارك ، وقد تراءت له رؤيا حول جسدي أري وابجـــر حيث وجدهما في صندوق ماريوحنا .

وخلال السنوات الثلاث التي حاصر بها الدانشمند ملطية حـــدث بها جوع عظيم وبيعت حنطة الحاكم بدينار للمد .

وفي سنة ١٤١٣ تبلبل بدء صوم المسيحيين بملطية وفي البلاد كلها بما فيها القســـطنطينية فصـــام السريان والأرمـــن في ٨ شـــباط، ووضعوا الفصح في ١٣ نيسان ، امـــا الخلقيدنيين فصـــنعوا العيد في ٢٦ نيسان ، ولما علموا ان النور قد فاض على القبر في القـــدس في ١٣ نيسان صار اليونانيون يجدفوا على النور لأنه تطابق مع عيد السريان والأرمن .

وفي سنة ١٤١٤ في بدء الصوم ، اي في الأسبوع الأول من شهر شباط حدث زلزال كبير دام يوما في كل مكان ، وقال الجميع ربمـــا صار هذا لأجل اختلاف المسيحيين حتى في الصوم ، وهذا دلالة على غضب الرب.

فصل ثان عن أخبار البيعة

يارب اعن،لما اخذ الأفرنج فلسطين اخرجوا منها المصريين واتوا الى حبرون جيث بنوا هيكلا مجيدا ، كذلك انوجدت مغارة المضاعفة التي اشتراها ابراهيم ، وكان بها ثلاثة قبور للآباء فزينوها ببذيان عجيب .

اما سبب الخلاف الذي صار بهذا الزمان في بيعتنا فكان ان لما ارتسم ابن صابوني مطرانا للرها طلب البطريرك منه ومن الرهاويين الأناجيل التي كانت في خزانة البطركية ، لكن لما وقعت بيد عبدون العاصي وضعها رهنا بالرها ، واخذ ذهبا ورشى الحكام في ذلك الزمان ، فلما طالبه البطريرك وعد ابو غالب مع الرهاويين الذين حضروا رسامته انهم بمجرد رجوعهم الى الرها سيرسلون هذه الكتب المصفحة بالفضة والذهب ، وقد كتب ابن صابوني تعهدا بيده انه ان لم يرسلها فلن يكون له سلطان أن يخدم رئاسة الكهنوت ، ولما ارتسم ومضى رفض ان يعطيها ، وكان يحتج بأن اكابر الرها منعوه أن يعطيها ولهذا السبب زرعت بذور الفتنة وحرم البطريرك ابن صابوني قائلا : كما وكتبت بيديك فأنت محروم وليس لك سلطان لأن تخدم ، أو تدعى رئيس كهنة اما هو فقال : ان هذا الحرمان لايسري عليه لأنه ليس بارادته امسك الكتب .

واما الرهاويون فصاروا فرقتين منهم من كان مع البطريرك وضد المطران،ومنهم من كان مع المطران ويشجعه على التمرد ، حتى أنه تجرا ورسم قساوسة وشمامسة وهو محروم ، حينئذ صار اضطراب بكل البيعة وخاصة بالرها ، وكان حاكمها الفرنجي يساعد المطران وقد ارسل مرارا كثيرة القساوسة ، واكابر المدينة ومعهم اناس من الأفرنج ليطلبوا من البطريرك ان يحل حرمانه فلم يقبل ، ثم أتى ايضا مطران ملطية مارديونسيوس ومعه سبعين

رجلا مؤمنين الى البطريرك في دير ماربرصوما وخروا على وجوههم امام رجلية وقالوا : مانرفع وجوهنا عن الأرض حتى تحل حرمان مطران الرها ، ولم يقبل وبعد هذا اجتمع الاساقفة كلهم وسألوا البطريرك ان يعيده الى حظيرة الكنيسة واجابهم قائلا : في نيسان تعالوا جميعكم ويأتي هو ايضا وعندها يصير الحل ، وبهذه الحجة ارسلهم فارغين ولم يجمع مجمعا ليغفر لابن صابوني ، بل عزل الشيخ ابن المعترف من رعاية ملطية لكونه كان يدافع عن ابن صابوني ، وقد خدم المطران ديونسيوس رئاسة الكهنوت بملطية اثنتي عشرة سنة وعلم ورتب ووضع بها عادات مستقيمة ، واغناها بالعلوم التي مازالت الى اليوم يعلمون بها بعد ان تسلسلت من جيل الى جيل ، ولما أخرجه منها البطريرك بقي وحيدا ، اما السبب الذي لأجله لم يجمع البطريرك مجمعا كما وعد فهو انه لما خرجوا من عنده مشككين لعدم قبول طلبهم،كتب ديونسيوس مطران ملطية وطيماثاوس اسقف قليسورية وديونيس اسقف جيحان وقرروا ان عقد البطريرك مجمع كما وعد فسيشهدوا ان ابن الصابوني مظلوم ، وان لم يصنع جمعا فان ابن الصابوني سيكون ايضا محلولا من حرمانه ، فلما سمع البطريرك اغتاظ جدا خصوصا من المطاردين ، ولم يجمع جمعا بل وأخذ ملطية من غوبوس ابن المعترف ودعا اليشع راعي دير البارد ورسمه عليها ، ودعاه اياونيس فوصل اليها في تشرين الثاني ١٤٢٥، ثم طلب منه الحاكم ذهبا فدفعت عنه اهل المدينة مائتي دينار وقبلوه عندهم ، واخيرا لما احسوا انه يحب معاقرة الخمر احتقره جميع الناس ونبذوه

حروب الأمير ايلغازي بن أرتق

وفي سنة ١٤٣٠ في شهر ايار جمع الأمير غازي ابن دانشمند (٤) سبعة الاف من الترك ودخل الى بلاد انطاكية فخرج الى لقائهم رجيز صاحب انطاكية مع رجال كثيرين ، فكمن لهم الأتراك ووقع الأفرنج في الكمين فأحاط بهم وقتل كثيرا منهم ، وقد قتل غازي بن دانشمند رجيز صاحب انطاكية وسبى الترك البلاد ، واحتلوا كثيرا من القلاع ، وقتلوا جملة من الرهبان في الجبل الأسود ، وبقي الأتراك ايام كثيرة في تلك البلاد ، وقد صنعوا قطاعات مروعة ، وحين سمع بلدوني ملك القدس اتى ، فلما سمع الترك بان الملك قادم كمنوا له ايضا،لكن الملك اكتشف الترك ، وطاردهم وكسرهم لكن الذين كانوا يكمنون من الخلف انقضوا على العساكر الرجالة وقتلوا كثيرين منهم الى أن احس الملك ، فكر عليهم وقتل الذين كانوا يكمنون كليا ، ثم طارد غازي فهرب مع الترك ، فذهب بعضهم الى حلب وبعضهم الآخر مع غازي ، وقد لحقت بالترك ضربة عظيمة .

وفي ذلك اليوم خلص الأفرنج الذين نجوا من القتل خلصوا الأسرى الذين سباهم الأتراك في البلاد ، ودخلوا مع الملك الى مدينة انطاكية .

وفي تلك السنة تملك سلطان ملطية ضيع بلاد جيحان وابلستين .

وفي شباط من تلك السنة سبى الأفرنج بلاد جرجر ، وأما اليونانيون فقد اصطفوا على ساحل البحر مقابل الترك مدة شهرين ثم عادوا دون حرب .

وغزا سلطان ملطية مع ملك بلدة قماج ، فهرب صاحب تلك البلاد ابن قلج ارسلان الى طرابزون ، والتجأ لليونانيين فاتى معه

جيراس ، ثم ان بلك وسلطان ملطية غازي بن دانشمند اتفقا ، ولما صـــارت الحــرب انكسر اليونانيون واسر جيراس وابـــن قلج أرسلان ، فبيع جيراس بثلاثين الف دينار ، اما ابن قلج ارســلان فخلصه غازي لأنه كان ختنه،وبهذا صارت عداوة بين السلطان مــن جهة وبلك وغازي من جهة ثانية .

وخرج يوحنا ملك اليونانيين في تلك السنة واخذ ثلاث قــلاع مــن الترك .

وجمع غازي عسكرا ، ودخل الى بلاد الرها واحرق الغــلال واذ لم يجد عساكر تمنعه أو تصدمه تابع سيره الى بلاد انطاكية وســبى ورجع الى بلاده وتملك بلك قلعة زياد والبلاد التي حولها ، وصــارت ملطية تحت امره وكان يخيف كل الأمراء .

اما الأرمن الذين في جــرجر فـــكانوا يخـــربون بـــلاده بالسرقة ، فأرسل الى ميخائيل الذي في جرجر يتعهد ان يعـطيه كل سنة الف حمل حنطة ان كان يمنع الأرمن مــن السرقــة ، واعطـاه ثلاث قــرى في بــلاده فحلف ميخــائيل عدة مــرات لبلك لكنه لم يف بعهده ، وذات يوم بينما كان يرسل الحنطة هاجم لصوص ميخائيل واحرقوا قــريتين بهنزيط ونهبــوا كثيرا وقتلوا التــرك الذين كانوا يرافقون ارسالية الحنطة وكانوا غير مسلحين معتمــدين في ذلك على الصلح الذي صنعوه وعلى هدية الحنطة التــي يرافقــوها ، ولما علم بلك بما جـــــرى غضـــــب واحتـــــال على الأرمـــــن واصطادهم ، واهلكهم ، ففي الشتاء القــاسي حيث كانت الجبــال مملوءة بالثلج الكثير واهل جرجر قابعين لا يفكرون بشيء ولايضعون حراساءعبر بلك على مياه الفرات المتجلدة الى جوباس ، وخدع أهل جرجر فأوهمهم بانه ماض الى ابعد من منطقتهم وسير امامه الوف الخيل الى جبل العسر المكني الشمعة ، وهكذا أندثــر الثلج وســار العسكر وخلال يوم واحــد وصــلوا الى دير مــاربرصوما ، وفي تلك الليلة عبروا جبل جرجر،وفي الصباح هجــم بلك على البلدة الشــقية وســـــــباها،وكان ذلك يوم الأثنين في أول كانون الثـــــــاني

سنة ١٤٣٢ ، ولم ينج من ايادي الترك لابشر ولابهائم ، لقد حرقوا كل شيء وخرجوا ، وبقيت البلد خالية ، واما بلك فقد صنع رحمة كثيرة مع الشعب ، فلم يسمح أن يهلك منهم أحد ،ولم يجعلهم اسرى بل هم وبهائمهم وكل ما لهم حفظه لهم ،واعطاهم قرى واسكنهم في بلدة هنزيط وحلفهم أن لايرجعوا لجرجر ، اما من يهرب ويعود الى جرجر فانه متى اقبل مرة ثانية اليها فسوف يؤخذ عبدا ، وهكذا صار لأن بعد سنة اتى بلك لجرجر وقد اخذ كل الذين وجدهم عبيدا ، واحرق القرى والكروم والزيتون ثم اتى عليه جوسلين فهرب بلك للجبل فلم يقدر عليه الأفرنج فرجعوا ، أما هو فرجع الى بلده .

وفي سنة ١٤٣٣ ارسل سلطان خراسان مائة الف من العسكر ودخلوا الى بلاد الترك لكي يملكوا هناك ايضا،فسد عليهم ملك الاتراك المعابر من كل جانب وقتلهم كلهم بحد السيف .

وفي تلك السنة سبى جوسلين بلاد جوباس ، وفي تلك السنة ايضا قتل يوحنا ملك اليونانيين شعب القومنيين « الكومان »وصاروا عبيدا لليونانيين ، وقد كتب البار بسيليوس مطران الرها عن القومنيين لانه كان هناك ، فقال : لما اتى القومنيون الى القسطنطينية احتال الملك يوحنا وعقد معهم سلاما ، ولما اختلطوا ودخلوا المدائن والقسطنطينية اصدر الملك امرا بان يمسكوا بوقت واحد كل من يجدوه منهم اينما كان ، فأمسك منهم بمعسكر الملك نحو ثلاثة الاف ، وفي كل مدينة الذين وجدوا منهم ، وفي اليوم الذي امسكوا به مضى الملك وعساكره الى معسكرهم ، فاما هم فحسب عاداتهم فقد احاطوا معسكرهم بابراج من خشب وصاروا يحاربون، فنزل الملك عن فرسه وأمر كل الفرسان ان ينزلوا عن مطاياهم ويحاربوا،وهكذا اشتد الحرب وقفزوا ودخلوا وقتلوا اكثرهم، وامسكوا اكابرهم وغيرهم كثير،وجروهم عبيدا للقسطنطينية وصار هدوء عظيم في عهد هذا الملك بعد انتصاره على هؤلاء القومنيين.

- ٢٠٦٠ -

اما القومنيون فهم جزء من الأتـراك ولسـانهم تـركي لكنهـم لأيؤمنوا بموسى أو بالمسيح أو بمحمـد او بـالأنبياء كافـة ، كانوا حيثما يذهبوا يأخذوا نساءهم واولادهم وبيوتهم معهم ويضعوهم في الأبراج الخشبية التي يصنعوها حول مقر سكنهم .

وبهذا الزمان صعدوا مـن شـاطيء نهـر دجيس واتـوا ليملكوا القسطنطينية الى ان كسرهم هـذا الملك كسرة عظيمـة،ومـن ثـم اصبحوا عبيدا في مملكة اليونانيين •

اسر بلك ملك بيت المقدس بلدوين

في سنة ١٤٣٤ دخل الأمير بلك الى بلاد انطاكية واجتمع الأفرنج لمقابلته وقد بقي الجيشان معسكران وجها لوجه مدة اربعة اشهر ثم تفرقوا بغير حرب .

فاما جوسلين الوالي لما توفيت امـراته وهـي ابنة رجير حـاكم انطـاكية،اراد ان يأخـذها الى الرهـا فصـنع له بلك كمينا في الطريق ، وامسكه وارسـله لبـولا وصـار لبلك اسـما كبيرا عند الأتراك ، فاجتمعت اليه الشعوب ودخل ايضا الى بـلاد الأفـرنج ، اما ميخائيل الأرمني الذي كان في جرجر فلما رأى الترك قد تسلطوا اعطى جرجر للملك واخذ له مكانا في بلاده فلمـا اخـذ الملك جـرجر ووضع محارس وجمع عساكره اتى ليطرد الترك مـن بـلاد حصـن منصور وكيسوم .

وحين كان الأفرنج متوجهون على نهر سنجة خرج عليهم فجـأة بلك من كمين كان قد نصبه لهم،وخربوا معسكر الأفـرنج وامسـكوا الملك،وقتلوا الذين معه،وكذلك امسـكوا جـوسلين وغاليران ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب كذلك اعتقلوا بلدوين الملك يوم الأربعاء جمعـة البياض من تلك السنة ، ولما صار ملك القدس اسيرا وبقيت البـلاد بغير رئيس او سـيد اراد المصريون أن يملكوا القـدس وبـاقي البلاد ، فأرسلوا جيشين واحدا في البر وآخر في البحر ، أمـا جيش البر فقد انكسر وفقـدوا جمـالهم وكل امـوالهم وادخلوهـا الى القدس ، وقد فرح الأفرنج ووقفوا للصلاة والصوم واحـد وعشرين يوما .

أما الجيش الآخر والذي كان يبحر على ظهر السفن،فعندما وصل الى عكا،كان شعب البنادقة قد وصـلوا في ذلك الوقـت للزيارة،فلمـا

راوا العرب في البحر اصطفوا مع الأفرنج وحدثت معركة انتصر فيها الأفرنج ، حينئذ عادت الثقة لأهل القدس فهجموا على صور .

أما بلك فإنه لما أمسك ملك الأفرنج نزل على حصن منصور فأعطوه إياه صلحا ، لكن الترك القساة سبوا الشعب واحرقوا المدينة والبلاد ، حينئذ انسحب الأفرنج من جرجر ايضا ، فدخلها الترك ايضا،أما بلك فسجن الملك وجوسلين وباقي الأفرنج في قلعة زياد في قلب بئر عميق ، ونزل فاستولى على حران وحلب من العرب وتل باشر ، وثلاث قلاع أخرى من عرب الأفرنج ، حينئذ حدث تمرد عليه في قلعة زياد ، فأناس من الارمن كانوا داخل القلعة يعملون في البناء ، ولما نظروا أن القلعة فارغة وليس فيها الا القليل من الحراس اجتمعوا عند الباب وصاروا يدمدمون لأجل اجرتهم ، ثم هجموا فجأة وحملوا السيوف التي كانت موضوعة عند الباب ، وقتلوا ثلاثة رجال من حراس الباب ، واخرجوا الملك وجوسلين والباقي ، وقتلوا العرب واستولوا على القلعة فاجتمع اهل المدينة واخذوا يقاتلونهم ، حينئذ تحيل جوسلين وخرج ليلا برفقة رجل ارمني واقسم للملك أن يجمع عسكرا يعود لأنهم لم يستطيعوا لاان يحافظوا على القلعة ، ولاان يأخذوا الملك معهم ، ولما مضى جوسلين وصل بلك ونصب أربع منجنيقات وهدم الأسوار ، حينئذ خرج الأفرنج وبعد ان عذبوهم بمرارة قتلوا منهم سبعين رجلا ، ثم أخذ معه الملك وغالران ابن اخته ، ورجع عاجلا لأنه كان يريد ان يستولي على كل المسكونة ، ولما حل على مرعش أرسل المرعشيون يستنجدون بجوسلين ضد بلك مقابل ان يؤدوا له جزية ، فأتى جوسلين واشتبكوا في حرب من الصباح الى المساء ، فقتل حاكم كيسوم المدعو مونيجوفري ، وقد كان هذا بعدما خرج من رومية راهبا ادى بطولات في القدس أثناء الحرب ، فصنعوه رئيسا للعسكر ، ولما تجول الملك ليحفظ البلاد احضره واعطاه كيسوم ورعبان ومرعش ، وقد قتل بهذه الحرب فأوقفت المعارك ، وفي الصباح قام بلك وتقدم الى السور ليريهم اين يجب ان يضعوا المنجنيق فأتاه سهم من حارس كان يقف في أعلى

السور فأصاب منه مقتلا ، فهربت العساكر الى حلب واقــامت لهــا رئيسا هو ابن عم بلك ، لكن هذا باع الملك بمائة الف دينار ، فرجع الملك بلدوين الى القدس ، ورجع بعض الاتراك الى قلعة زياد واقاموا لهم رئيسا اسمه سليمان رئيس اسرة الأراتقة .

من نظر خطأ في هذه الأسطر الذميمــة فليصــل لراحــة كاتبهــا الكسلان .

في ســنة ١٤٣١ يوم الخميس اول كانون الأخير صـــارت زلزلة صعبة دامت ثلاث ساعات وأفسدت اماكن كثيرة .

بهذا الزمان صار جــوع عظيم في القــدس وكان اولئك الأخــوان الذين يسمونهم داوية ـ أي الهيبين ـ يعطون المســاكين ويقــدمون كعاداتهم بغير نقصان ، ولما قلت الغلة التــي كانت مــوجودة ، ولم يبق سوى القليل قالوا فيما بينهم : إذا أوقفنا اطعام المساكين فــان مابقي يكفينا ، ثم قرروا وقالوا لن نقطع عن المساكين شيئا بل نحن والمساكين نقتات سوية بما تبقى الى ان ينتهي ، وحينئذ نموت نحن والمساكين ، لكن الرب افتقدهم ، وهو الذي اشبع بالبرية من خبز قليل كثير من الناس ، فدخل فجأة الوكلاء لبيوت المخازن فوجدوها مملوءة بالحنطة والشــعير والخمــر والحبــوب ، وانتشرت هــــذه الأعجوبة في كل البلاد، ليتمجد اسم الرب .

وفي أول كانون الثــاني ســنة ١٤٣١ ســـقطت نار في وســـط القسطنطينية وافسدت عشرة الاف بيت وحانوت ، واتــى الى ملطية جراد طيار واكل الزروع ، فأقاموا صلوات متصــلة فلجــت افــواه الجراد ولم تعد تاكل شيئا ، فســلمت المزروعات، وبعــد قليل خــرج جراد ناعم واكل الأشجار والكروم لكنه في الحال اضمحل .

وفي هذه السنة غرقت مدينة بفارس اسمها اردبيل فجأة وصارت بحيرة ماء ، وكل سكانها اختنقوا بداخلها .

وفي سنة ١٤٣٢ صار شــتاء قــاسي أربعين يومــا، وتجلدت مياه الفرات وباقي الأنهر وصار الناس يمشون على الأنهر .

وفي ٣٠ ايار من تلك السنة في ليلة الاثنين تراءى قوس كامل وهذا امر لم ير قط منذ اجيال ، واظن انه خارج عن الطبيعة او لعله فوق الطبيعة ، وكان يظهر كالقوس بالليل ، لأجل ذلك صار الأمر عجبـا لكل من يشخص به ، ولكن كل شيء سهلا للقادر على كل شيء ، وهو كل مايشاء يصنع .

كمل هذا الخبر عن عجائب يصنعها الرب :

في سنة ١٤٣٣ في ١٨ كانون الأول صارت زلزلة اربـع مـرات بالليل وأربع مرات بالنهار ، وتشققت الصور في بـلاد صـمحا على شط الفرات ، وغرقت أماكن كثيرة ، وصارت قبورا لساكنيهم.

وفي سنة ١٤٣٤ صارت قلة في المطر وصار في كل مـوضع جـوعا عظيما ، خصوصا في ناحية المشرق .

وفي تلك السنة ايضا وقعت نار بـالقسطنطينية واحتـرقت فيهـا بيوت ودور وصار انكسار وانتصار ، امـا لماذا هـذا الأمـر وكيف صار ، لاأحد يعرف علته الا ذلك الذي وحده عالم بكل شيء ، وهـو يعرف بالصحيح وقد صار على الشكل التالي . فجأة ابتدأت تجتمع طيور الشامهرج،اي ابو الحودنج،من موضع واخذت تلتـأم ، وكذلك اجتمع الكراكي وصـاروا مجمـوعتين على نهـر تـالاكوم وظلوا مجتمعين لمدة أيام كثيرة ، واخيرا كمـا شـهد كثيرون مـن الذين راوهم كانوا يرسلون مثل الرسل من معسـكر لمعسـكر خمسـة أو عشرة من الطيور،وبعدما تقاولوا كثيرا قفزوا بغتة وصرخ الجـانبان صرخة عظيمة ، وصاروا يضربون بعضهم بعضا ويقتلون الواحد مع الأخر،والذين كانوا يضعفون كانوا يقعون ويموتون ، وهكذا سـقط من الشامهرج ومن الكراكي الافا ، وتكوموا تلالا تلالا على الأرض، وقد دامت بينهم هذه الحرب العظيمة من ثالث ساعة من النهـار الى تـاسع سـاعة ، واخيرا انكسرت طيور الشـامهرج وأكثـرهم ماتوا ، اما الذين بقيوا فقد هـربوا ثـم طـار الكراكي في أثـرهم فلحقوهم في أوكارهم ، ومات لهم صغارهم في الأعشاش .

مجمـــــل الأحــــداث التـــــي وقعـــــت بين عامي ٥٠٠ ـ ٥١٦

هذا القسم فيه اخبار كان يجب ان تقدم لأنها مقتبسة من كتـــاب تاريخي مكتوب بلغة عربية ويؤرخ بالسنة الهجرية القمــرية ، وقــد أدى هذا الى اختلاف في ترتيب الأعوام سببه الاختلاف بين الأعوام العربية القمرية،وبين الأعوام اليونانية الشمسية .

ومن هنا على القارىء ان يفهم ان الخبر المكتوب لاحقا حول نجم الدين الأرتقــي ، الذي ملك على حلب يجــب ان يكون متقــدما على اخبار بلك التى وردت مقدما ، لأنه بعد موت نجم الدين ملك بلك على حلب .

شروحات من كتـــب عربية في اثـــور وبـــابل قــــالت انه في سنة ٥٠٠ للعرب كان ابو العباس احمد المستظهر ، هو خليفة للعرب في بغداد ، وكان سلطان خراسان غياث الدنيا وقد قتل الاســـماعيلية وزيره المسمى أبو مــظفر (٥) وفي تلك الســنة قتــل الاســـماعيلية كوسدكين أحد رجالات السلطان،فتحرك السلطان غياث الدنيا وقتل كل الاسماعيلية ، الذين كانوا من العرب ، لكنهم طــائفة لاتتبــع لا العرب ولا الترك لا بالايمان ولابالعوائد ، ويقــولون عن المســيح انه هو الذي تنبأ عنه الأنبياء لكنه لم يصنع خلاصا لأن اليهود لما قاموا عليه ليقتلوه هرب الى السماء ، وهو مزمع ان يأتي وحينئذ يصــنع خلاصا ، اماعن محمد (ص) فيقولون اقــوالا ســمجة ولايقبلون القرآن،ويقدمون انفسهم للقتل بغير شفقة لكي ينتقموا من أعدائهــم، على رجاء الذي سيصير لهم في العالم الأخير

وفي سنة ٥٠٠ للعرب ملك سيف الدولة صدقة بن دبيس على العرب، فأخذ تكريت .

وبهذه السنة كان في تـــكريت ديلمـــي اســــمه قباذ بـــن هزارسب ، وكان ظالما شريرا وقد خرب مسجد العــرب الكبير الذي كان قريبا من القلعة ، ولما علا ضجيج العرب اخذ بيعه المســيحيين الكبيرة واعطاها للعرب .

وفي سنة ١٤٣٣ أخذ الحسين بيعة تكريت الكبيرة البهية المدعوة بيعة الجرداء مع اثاثها ودورها وحوانيتها واعطــاها للعـــرب ، ولما كثرت المصادمات بين المسيحيين والعـــرب ارســـل الســـلطان الكبير غياث الدين اميرا اسمة أق سنقر فتحارب مع تكريت ســبعة اشــهر، ولما تضايق حاكمها سلمها لصدقة ملك العرب وخرج منها،وبعد اربعة عشر يوما مات ، ولما سمع السلطان غياث الدين ان صدقة بن دبيس قد تملك على تكريت وتمرد عليه ، جمع عســاكر الأتــراك وزحــف ضده ،

حينئذ جمع صدقة عساكر العرب وصار الحرب على النهر المدعو **دقهرني** (٦) ، **فانكسر العرب وقتل صدقة ملكهم وههنا انتهت مملكة العرب كليا.**

وفي سنة ٥٠٠ هجرية سنين العربية اي سنة ١٤٣٣ يونانية بعــد ثلاثة سنين من خروج الترك،وفي سنة ٥٠٢ للعرب خــرج أمير يدعى مودود بن التونتكين بمعــرفة الســلطان غياث الدين ليمضي ويقــاتل الافرنج،واعطاه الموصل والجزيرة ونصيبين ، وأمر جملة امــراء أن يمضوا معه ، ولمــا وصل الى الموصل رفض جــاولي ان يعــطيها له، فاقام عليها المنجنيقات وشن حربا عنيفة ، وفي يوم الجمعــة وفيمــا كان العرب في صلاتهم صعد رجــال اقــوياء الاســوار،لكن جــاولي ورجاله تحصنوا بالقلعة ، حينئذ اقســم لهــم مــودود ان يعــطيهم الأمان ، فخرج جاولي ورجاله ومضى الى نجــم الدين بــن ارتــق في ماردين،فاجتمعوا وصعدوا ليتحاربوا مع الافرنج ليكون يد لهم عند السلطان الكبير،لأن مــودود لم يركب على الأفــرنج لكنه رجــع الى السلطان ، فاتفق جوسلين حاكم الرها مع حــاولي لأنه تــكرم عليه

بالموصل ، ورضوان حاكم حلب اتفق مع ذلك الملك وانكسر جاولي وجوسلين .

وفي سنة ٥٠٠ للعرب اخذ الفرنج طرابلس التي على شاطىء البحر من ابي علي بن عمار بعد حروب كثيرة أخذوها بيومين ، ولما دخلوا قتلوا العسكر وسبوا الشعب وكل البلاد وباعوهم عبيدا .

وفي هذه السنة وقع سكمان بن ارتق من الفرس ومات،وخرج الأفرنج واخذوا الاثارب وقتلوا بها الفين،واتوا الى منبج وسبوا وتملكوا ايضا على المدينة،ووصلوا حتى بالس واحرقوها بالنار ، ولما وجد رضوان صاحب حلب ونظر انه لن يستطيع ان يلاقي الأفرنج ارسل لهم اثنين وثلاثين الف دينار وعشرين بغل واربعين ثوب اطلس،وارسل لهم ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق عشرة الاف دينار،وحاكم حماة الفين وحاكم عسقلون اربعة الاف دينار،وعقدوا صلحا . (٧)

وفي سنة ٥٠٥ هـ ايضا ارسل السلطان غياث الدين عساكر مع مودود ليتحارب مع الأفرنج ، ولما وصلوا الى شبختان اخذوا قلاعا كثيرة،واتوا على الرها لكنهم لم يستطيعوا ان يأخذوها ، وهاجموا تل باشر ، كذلك لم يستطيعوا أخذها ، وتوجهوا الى حلب لكنهم لم يتركوهم يدخلوها ايضا .

ومرض سكمان (٨) حاكم أخلاط فحملوه ليأخذوه،لكنه مات في الطريق .

واجتمع الفرنج وهجموا على مودود ثلاث وعشرين هجمة في يوم واحد وتحاربوا،وكان قد غلبهم في أول هجمة مودود لكنه انكسر فيما بعد وهرب الى دمشق ، وفي يوم الجمعة بعد الصلاة خرج وهو يتفرج ويمسك بيد حاكم دمشق فوثب عليه اسماعيلي فقتله . (٩)
وفي سنة ٥٠٨ للعرب خرجت عساكر السلطان غياث الدين مع

ابنه ابو الفتح مسعود وقسيم الدولة أق سنقر البرسقي ليتحاربا مع

الأفرنج،ولما وصلوا الموصل خرج لخدمتهم تيمرك بن أرسلان وزنكي ابن آق سنقر واتفقوا ايضا معهم ، وحين وصلوا الى ماردين خرج نجم الدين لخدمة ابن السلطان وارسل معه سبعمائة وثلاثين فارسا ، ولما جازوا الذبك أرسل نجم الدين الى الأفرنج وساعدهم ، ولما عرف ابن السلطان بهذه المسألة امسك ابن نجم الدين ورماه في الحديد وسبى بلاده ، ونزل على دارا ، ولكن نجم الدين مضى الى شهرزور وجمع شعبا كثيرا واتى اليه ركن الدين ابن عم حاكم كيفا وبلك بن بهرام أخوه الأكبر ، وجمع رجالا يفوقون العدد،واتى بقوة عظيمة ليلتقي بابن السلطان ويخلص ابنه،ولما وصلوا القرديس بقرب دارا كان هناك شرذمة من عسكر ابن السلطان نازلين وغير عارفين ، ولما رأوا فرسان قليلين من عسكر نجم الدين اتوا عليهم واشتبكوا كلهم ، وكان بينهم حاكم شبختان وحاكم نصيبين وحاكم مكسين .

ولما علم ابن السلطان ان عساكره قد انكسرت ترك دارا وهرب لنصيبين ونزل نجم الدين واخذ الخيام وكلما كان لهم ، فأما ابن نجم الدين لما رآهم مرتجفين وصار الليل وليس من يعتني برفيقه ، وكانت رجلية بالحديد وهو راكب ، فطرح نفسه من على البغلة واختفى بين جماعة من اليهود،واذا بكردي اتى واعلم ابوه فأرسل عشرة رجال وحملوه فأحضره،وصار فرح عظيم لبيت ارتق. فأما ابن السلطان فتوجه نحو أبيه واشتكى على نجم الدين فأرسل السلطان تهديدا لنجم الدين كونه حقر سلطنة الترك ، فصنع نجم الدين مسالمة مع الأفرنج ، ومع أتابك حاكم دمشق،وتحالفا انهم يساعدان بعضهما بعضا،فمضى كل واحد لبلده،وبقي نجم الدين وحده ، ولما اتى حاكم حمص عليه ليلا وجده سكران وغيرعالم اين هو فحملوه ووضعوه في حمص وارسلوا أعلموا السلطان ، ولما ابطأ الجواب ، اعطى نجم الدين وعده ، وترك ابنه،فأما هذا فجلب عسكرا من السلطان ، ولما وصل اصطلحوا واطلق ابن نجم الدين (١٠) ودخلت عساكر السلطان الى بلاد الافرنج ليسبوا فالتقى

بهم الأفرنج وقتلوهم كلهم ، يقولون إنهم احرقوا منهم ثـلاثة الاف بالنار .

وفي سنة ٥١٣ سلم حاكم حلب مدينته لنجم الدين لأن الأفرنج قد اضعفوها ، وفي تلك السنة أخذ نجم الدين الغـازي نصـيبين ، ولما مضى الى حلب ليصنع صلحا مع الافرنج ولم يقبلوا فجمع جملة مـن الاتراك لأنهم كانوا يطيعونه جدا ، يقولون أنهم أرادوا أن يحصوهم فمـــا قدروا ، الف أمير كان فيهم ، ولما اصطفوا لم يصبر حاكم انطـاكية حتى يأتي الملك فانكسر ، وأخذ نجم الدين نحو الشرق ، ولما رجـع الى ماردين سمع أن أهـل حلب قـد عصـوا عليه فتـوجه الى ميافارقين ، ومات في الطريق وأمر أن يملك ابنه بعـده وكان اسـمه حسـام الدين تمـرتاش ، ولأنه لم يكن مسـتعدا ، وكان سـليمان حاضرا هو الذي ادخله الى ميافـارقين وقبـره ، ولذلك ملك هناك ، وملك أخوه تمرتاش في مـاردين ، وكان هـذا في سـنة سـت عشرة وخمسمائة للعرب . وهذا الفصل يجب أن يسـبق الذي قبله لأنه ملك بعد نجم الدين على حلب بلك(١١).

أحـــداث مـــا
بين ١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م .

نتابع في مطلع هذا القسم الحديث حـول حصـار ملطية لأننا إلى هذا الزمان تحدثنا في المقالة المتقدمة عن موت بلك الذي كانت باسمه تحفظ ملطية بأيادي ابن السلطان ، ثم انقسمت بلاد بلك بين حـكام عديدين : مدينة حلب أخذها حسـام الدين تمـرتاش ، وقلعـة زياد اخذها سليمان،وسلطان ملطية اخذ مسرا وجرجر،ولأجل هـذا وقـع خصام بين حكام قلعة زياد وبين حكّام ملطية ، وبهذا انفتح البـاب امام الأمير غازي ابن دانشمند حاكم سبسطيه الذي اراد أن يأخـذ ملطية،وعقد عهدا مع السلطان مسعود الذي كان ختنه،فجمع شـعبا كثيرا وهجـم على ملطية يوم الجمعـة في ١٣ حـزيران سنة ١٤٣٥ وسبى قراها،ونزل على المدينة شـهرا،ثـم مضى غازي وترك ابنه محمد في قرية ساحان التي هي قـريبة مـن المدينة ومعـه عسكر عظيم وأمرهم أن يحرسوا أبـواب المدينة ولا يتـركوا أحـدا يدخل أو يخرج منها،حينئذ جلب المأساة لسكانها من الجوع والمرض حـتى وصل قفيز الحنطة الى ستة وثلاثين دينار وأخيرا فني القوت كليا،وصار السكان يأكلون ورق الأشجار وقشور الشـجر الرطـب وأينما وجدوا قططا أو حميرا ميتـه كانوا يأكلونهـا ويلعقـون الدم ايضا،وكانوا يأكلون الجلود والأحذية وما شابه ذلك ، لقد تسلط على المدينة ثلاثة سيوف : سيف من الخارج كان يسقط على رقبة كل من يريد أن يهرب ، وسيف الجوع الذي لا يطاق،وسيف الحكام الأشرار داخل المدينة الذين ما فتئوا يعذبون الناس ويرمونهم بالسجون لأجل جمع الذهب،ومن هنا صارت تحدث مناظر بشـعة فقـد كان الأولاد يبادون أمام عيون أهلهم من الجوع وهم عاجـزون عن مسـاعدتهم سوى البكاء عليهم،ثم اخذهم للقبور،أما العجائز والمشـايخ فـكانوا مطروحين بالأسواق متورمين يئنون لأنهـم لا يسـتطيعون الصراخ،

حتى أن الناس لم يعودوا يتكلمون سوى بالبكاء،أما الحاكم فقد خرج بالليل ومضى فاستأجر الافرنج بثلاثين الف لكن بعد أن وافقوا معه لم يأتوا لأنهم كانوا متوجهين الى حلب . حينئذ جمعت أم السلطان ايزابيل الثانية كل الأحرار ومن كانت تظن أن لديه مالا والقت بهم بالسجن،وكانوا يعذبونهم بغير رحمة ويأخذون الذهب وقد استعدوا ليقتلوا بالسيف كل المسيحيين ويذهبون . لكن الرب لم يترك أهل المدينة في هذه الضيقة طويلا فارتحلت هذه الملعونة خاتون وابنها،وكان ذلك ليلة الاربعاء ١٠ كانون الأول سنة ١٤٣٦،ودخل الأمير غازي ولما نظر المدينة فارغة من السكان والذين بقيوا بدوا وكأنهم قائمين من القبور شجعهم،وأعتق الأسرى الموجودين والذين يجتمعون ويأتون.وأعطى قمحا للفلاحين يزرعوا،وأحضر البقر والثيران والأغنام،وأخذت المدينة تنتعش . وفي تلك السنة مات سليمان بميافارقين وملك عليها حسام الدين تمرتاش حاكم ماردين وهو أخوه،ولما كانت قلعة زياد لسليمان المكنى شمس الدولة ذهب الأمير غازي نحوها ايضا لكي يملكها،لكن الأمير داود من اسرة ارتق كان قد سبقه فقام الأمير وسبى اهالي بلاد هنزيط واحضرهم الى بلاد ملطية،ثم ذهب مرة ثانية وسبى كل مابقي،واخذ قلعة مسرا ، حينئذ أتى داوود ليتحارب مع الأمير غازي ، ولما عرف بأنه لن يستطيع أن يقاومه هرب وأخذ يحرق القرى التابعة له .

وفي تلك السنة (١٤٣٦) يونانية مات الخليفة المستظهر في بغداد(١٢) وقام ابنه المسترشد ، واتفق الأمير العربي المسمى صدقة(١٣)مع الأراتقة ، أما الخليفة في بغداد فقد دخل الى بيوت ابيه وطرد الاف المغنين ، وجمع كل أنواع الات الطرب واحرقها امام الباب ، واخرج ثلاثة آلاف امراة من المغنيات والزانيات وكان الناس يقولون لأن رؤوساء الدين يبدأوا ينحرفون عن طريق الايمان الصالح زالت السيطرة منهم ومن العرب .

ثم ان الأمير صدقة تمرد وأعلن العصيان على الخليفة .
أما الترك فكانوا يساعدون الخليفة ويطاردون دبيس ابن الأمير

صدقة ، فترك المسلمين والتجـأ الى الأفــرنج وقــادهم ضـد حلب ليأخذوها له ، اما البرسقي(١٤) حاكم حلب فجمع عســكرا ليهــاجم الأفرنج،حينئذ رجع الفرنجة الى بـلادهم ، فـدخل البـرسقي حلب واطمأن وظن انه كسر الأفرنج فسار ضد أعزاز ليأخـذها ، حينئذ اتى ملك القدس وجمع الأفرنج وشنوا حربا على البـرسقي فهـزمه وقتل عساكره ، وخلص هو مع قليلين ، وهرب لحلب وظهـر بهـذه السنة كوكب عظيم من اليمين الى الشمال طوله كثير وعرضه بعمـق بلاد الفرس ، وبقي يظهر مدة شهرين ، وفي سـنة ١٤٣٥ ظهـرت كواكب متناثرة من بداية الهزيع الثالث من الليل الى الصـباح ، وفي سنة ١٤٣٦ صار جوع عظيم في كل المشرق .

وخرج البنادقة الذين هزموا المصريين من عكا تحت لواء رئيسهم الدوقس،وتـــوجهوا بحـــرا الى مـــدينة صـــور المبنية في قلب البحر ، وشرعوا بحصارها ، وكان هؤلاء البنادقة يعملون لصـالح بطريرك القدس الفرنجي .

وبهذا الزمان خلص بلدوين الملك من أيادي الترك ، وقـد افتـك بمائة الف دينار .

وفي سنة ١٤٣٧ قتل الأفرنج حاكم حماه عند كفر طاب ، واحتل الأفرنج جبلة من ابن عمار ، ونزل ملك القـدس يسـاعد البنادقـة لاحتلال صور،لكن المصريين سلموا صور لحاكم دمشق ، ولما أتـى حاكم دمشق أي طغتكين ليتحارب مع الأفرنج لاقوه في مرج النحاس وقـاتلوه وكسروه وخلص قليل مــن عســاكره ، وذهبــوا الى دمشق ، بعد ذلك اخذ الأفرنج يضايقون صور بـكل أنواع الحـرب بالبر والبحر ، وأخيرا أخذوها في سنة ١٤٣٧ .

وفي تلك السنة صعد البرسقي مــرة ثــانية ضـــد الأفـــرنج فانكسر ، وهرب ثم أتى للمرة الثالثة فأتى عليه بلدوين ملك الرهــا فكسره وقتل اثني عشر الفا .

وبعـد ان اخـذ الامير غازي ملطية جمـــع الملك عرب ثـــلاثين الفا ، واتى ليحارب اخيه مسعود لكونه لم يمض يســاعد اخــاه في ملطية ، فتركها لغازي ، وهرب مسعود الى القسطنطينية والتجــأ الى يوحنا ملك الروم .

فأما الملك عرب فنزل على قونية مدينة مملكة الســلطان مســعود اخوه ، واما الملك يوحنا فتقبل مســعود بــالفرح ، واعطــاه ذهبــا كثيرا ، ولما خرج اتى الى عند الامير غازي ، وانطلقا معا ضد عرب فهرب الى طوروس الأرمني في قليقلة .

وفي سنة ١٤٣٨ بالصيف جمع عرب الترك والأرمن ووضع كمينا وامسك محمد بن غازي ، واتـــى الامير يونس على عرب ، وانتصر عرب وامسك يونس ، لكن غازي اتى سريعا ولما التقوا مع بعضـــهم انكسر غازي في البداية ، ثم صعد الى مكان مـــرتفع ونصـــب خيام معسكره وأمر أن يضرب بــالأبواق ان عرب قــد انكسر ، فــاجتمع عسكر عرب على اصوات الابواق وراوا خيام غازي ، وكان قد حـــل الظلام فتبددت عساكر عرب ، حينئذ طاردهم غازي ، واخذ خيامهم وخيولهم ووصل الى قومان وانقــرة وقــاتلها بشــدة حتـــى تملك عليها ، واخرج ابنه محمدا الذي كان معتقلا هناك ، وبعد هذا جمع عرب ايضا العساكر وبدأ يضطهد الناس ويحتل القرى ، وقد احتـــل قلعة وجد فيها ولد من أولاد غازي اسمه يمن فقتله ، فغضـــب غازي جدا ، وجمع جيشا ومضى ضد عرب ، فانكسر عرب وهـــرب،واخـــذ الأمير غازي يخرب القرى بغير رحمة،ثم جمع عرب عسكرا وزحـــف ايضا نحو الامير غازي فانكسر ثانية عرب وهـــرب ليمضي الى بـــلاد اليونان فهلك .

كل ذلك صار بين الترك الذين في غضـــبتهم على بعضـــهم بعضـــا كانوا يحتمون بالمسيحيين .

في سنة ١٤٣٨ خرج من رومية بوهيموند بن بوهيموند الذي كان ابوه اميرانطاكية وحمل الاسم نفسه وكان واحدا مـــن الأوائل الذين

خرجوا وملكوا ، فأتى هذا متكبرا متغطرسا ، فـأراد ان يسـتعبد الافرنج فانقسموا على بعضهم ، وحدثت بينهم حـروب ، فـاستغل ذلك جـوسلين ، وغزا ضـواحي انطـاكية وسـبى كل شيء وجده ، فغضب بطريركهم واغلق البيع وابطل القرابين والصـلوات والنواقيس ، وامر أن لايقبروا الأموات،ولما تضايقوا اصطلحوا ورد جوسلين كل ماسباه .

وفي سنة ١٤٣٩ اجتمـع التـرك والافـرنج في منطقـة حلب للقتال ، ولما خاف الترك تعهدوا ان يعطوا لجوسلين كل سـنة اثني عشر الف دينار ، وعقدوا صلحا معه ، وبعد ذلك دبر الترك مـؤامرة مع اناس من أعزاز فسقوا جوسلين سما هو وسـتة مـن فـرسانه فمات أولئك الستة ، أما جوسلين فبـوساطة الأطبـاء وبعناية الرب نجا فقتل الذين أعطوه السم هم وأولادهم .

ودخل في تلك السنة يوحنا ملك اليونانيين الى بـلاد الاونجـريين واستعبدهم .

وفي تلك السنة خرج السلطان الذي كان في ملطية،وسبى أطـراف البلاد البرانية،ومضى ولم يتراءى .

وايضا في شهر أب نهب الترك العصاة بـلاد ملطية،فلحقهـم داود من قلعة زياد وضربهم وخلص الأسرى وردهم .

وفي تلك السنة مات السلطان الكبير غياث الدين وكان هذا حسن السيرة عادلا وشريفا في انتصاراته ، وكان في أيامـه امـن دائم في بلاده ، ثم ملك أخوه سنجر بن ملك شاه وابنه محمود .

وفي سنة ١٤٤٠ دخل جوسلين الى بلاد آمد وقتل الترك والأكراد الذين في الجبل الأسود ، ونهب القرى حتى باب المدينة لانه لما دخـل الترك الى بلاد الرها كان جوسلين بانطاكية،دخلت مع الترك عساكر أمد الى بلاد الرها .

- ٢٠٧٥ -

وفي هذا الزمان كان عند حسام الدين حاكم ماردين فارسين افرنجيين : واحد اسمه بررنول ، والآخر جلارن ، ولم يرد أن يقتلهما لكن الزمه البرسقي واقسم ان لم يقتلهما فسوف يخرب بلاده،ولما قتلهما أتى خبر ان البرسقي ضربه بينما كان يصلي يوم الجمعة في المسجد اسماعيلي بسكين ، فما دخلت به لأنه كان لابس زردية ، فأمسك الاسماعيلي ، ولما تضايق صرخ لرفاقه الأثنين اللذين معه وقال : اضربوا من تحت فضربا البرسقي تحت بطنه فمات ، عند ذلك ندم حسام الدين على قتل الفرنجيين ٠

كمل هذا الخبر بعون الرب .

وفي سنة ١٤٣٨ كان الشتاء شديدا ، أفنى الحيوان والبهائم ، وحدثت ايضا زلازل في شباط .

وفي سنة ١٤٣٩ في تشرين الثاني حدث زلزال مرتين بالنهار ومرتين بالليل،وبقيت الأرض ترتج اربعين يوما واربعين ليلة ، وتراءى كوكب مضيء في ثامن ساعة من النهار ، وأخيرا انتفخ كالتنين وسقط .

في سنة ١٤٤٠ تراءت نار في ناحية الشمال في كانون الثاني ، وفي اذار ، وفي نيسان وكان يظهر على شكل أعمدة شبه منفصلة في ناحية الجنوب .

في سنة ١٤٤١ اجتمع الأفرنج وخيموا حول دمشق لأن حاكمها طغتكين المعروف بفضائله قد مات ، وملك ابنه تاج الملوك ، وأمسك اهل بانياس لكي لاتدخلها قوات الأفرنج،فأرسل الأفرنج الوفا من الفرسان والمشاة ليحضروا مايحتاجون من القوت ، والتموين ، فصنع الترك كمينا فتضايق الأفرنج واخذوا من حاكم دمشق عشرين الف دينار ، وعقدوا صلحا ، وعادوا الى بلادهم على أن يعطوا كل سنة للافرنج خراجا .

ثم مات طوروس الأرمني حاكم قليقلة في تلك السنة وقام بعده أخوه ليون فبدأ القتال معه بوهيموند حاكم انطاكية .

فـأما الأمير غازي لما كسر جميع التـرك الذين في كبـدوكية ملك وحده ، ووصـل الى سـاحل البحـر ، وكان هناك يوناني اسـمه قيسانس حاكم ذلك البلد ، فخرج هذا من تلقـاء نفسـه الى الأمير غازي وسلمه جميع القلاع التي في بحر بنطس ، واعطـاه مـكان في بلاده ، واعتبر نفسه من عداد جنوده ، فلمـا قـويت شـوكة الأمير غازي في ذلك الزمان سمع بأخبار طـوروس فـأرسل عسـاكره الى قليقلة،وكان بوهيموند ايضا والأفرنج قد وصلوا من الجانب الآخـر، لكن لا الفرنج كانوا عارفين بوصول الترك ولا التـرك كانوا عارفين بوصول الأفرنج ، ولما وصلوا الى منطقة عين زربة رأى التـرك انه مع بوهيموند قليل من الفرسان ، فاستغلوا هذه الفرصة وهـاجموه فصارت معركة حامية وطويلة انسحب على اثرها الافـرنج الى تـل عال ، فأحاط بهم الترك من كل جانب وقتلوهم جميعهم بمـا فيهـم بوهموند لأنهم لم يعرفوه أولا ، ثم أخذوا رأسه وأسـلحة الأفـرنج ايضا وخرجوا عائدين ، أما ليون فظل قابعا لم يتدخل لصـالح اي من الطرفين ، وقتل معظم الفرنجة ، وبعـد مـاتوقف القتـال امـر الأمير غازي بسلخ راس بوهيموند وارسله مـع كثير مـن الهـدايا والخيل الى الخليفة في بغداد فقابله الخليفة بالرضا ورفعه الى مكانة علية خاصة .

وفي تلك السنة اعطى سـلطان خـراسان الموصـل لابـن البرسقي ، وقد قيل عنه انه كان مـاهرا جـدا في الحـكمة والعلوم وعارف بتـركيب النسـج والبنيان،وكذلك شـجاع وجبـار في الحروب ، لكنه لم ينجح لأن النجاح والنصر هو من الله ، وقد عاش ثلاثة اشهر فقط في السلطة ، ولما وصل الى الرحبـة ادركه الأجـل ومات ، ويظن انه قتل بالسم .

وزحف بعده ضد الرحبة مسعود بن آق سنقر ، واقام وحـاربها حربا قاسية ، وهذا مات بالسم ايضا .

اما جوسلين فقـد هـاجم رأس العين ، وقتـل عددا كبيرا كان أغلبهم من العرب مات اكثرهم خنقا والباقي سباهم رجالا ونساء .

ولما مات مسعود بن البرسقي حاكم الموصل كان بها والي اسمه جاولي من غلمان السلطان الكبير ، فاشاروا عليه ان يأخذ مال من خزانة حاكم الموصل ، فأخذ مالا جزيلا وارسله الى السلطان مع القاضي بهاء الدين الشهرزوري ومعه الأمير صلاح الدين محمد بن ايوب،وارسل يقول للسلطان اني انا امير لكم ههنا لأني من عبيدكم ، ولما دخل الرسل الى بغداد وقبل ان يواجها السلطان التقى بهما رجل اسمه نصير الدين جقر بن يعقوب ، وكان من جنس صلاح الدين فأعلماه سبب مجيئهما،فاشار عليهما ان يطلبا عماد الدين اتابك زنكي قائلا : بهذا يرتضي السلطان لأن اتابك من جنسه ، وكان جبارا ومشهورا وتليق به السلطنة فقبلا مشورته ، واجتمعا أولا مع زنكي فحلف لهما اذا انتصب فسوف يلبي لهما كل مايطلبان ، فطلب ذلك القاضي ان يكون قضاء الموصل له ولنسله من بعده مادامت ثابتة في مملكة بيت اتابك ، وأن يكون كلهم قضاة ولكافة البلاد التي تحت حكمه فتأمر بأمره وأمر اولاده ، فحلف لهما على ذلك وثبته بكتاب .

وطلب صلاح الدين منه ان يكون حاجبه الخاص ونصير الدين نائبا عنه بالموصل،وأن يكون أمره على كل الرعية .

وعندما تقدما الى السلطان كانا قبلا قد غمرا كل الذين حوله بالهدايا ، فاعطى السلطان الولاية لزنكي،وكذلك فعل الخليفة،ثم خرج من بغداد ، وخرج معه عسكر ، ولما اقترب من الموصل سبقه القاضي بهاء الدين والأمير صلاح الدين ودخلا على جاولي وقالا له : لم نقدر ان نأخذ لك البلاد فأخذنا لك امرا ان تكون واليا بهذه القلعة ، وامرك في كل البلاد ، وامر السلطان أن يكون زنكي هذا هو واتباعه امامك رئيسا للعسكر ، ولما طاوعهم دخل زنكي الموصل (١٥) وقد فتحوا امامه ابواب المدينة والقلعة وملك في سنة ١٤٤٢ ، وحينئذ صعد واخذ الجزيرة ، وملك رويدا رويدا كما يقولون ، ويحكون أنه حفظ على تسلسل الزمان عهود بهاء الدين وصلاح الدين ونصير الدين وزين الدين بتمامها ولم ينقض منها شيء قط .

وفي تلك السنة قتل بوهيموند حاكم انطاكية فاتى الملك من القدس واتى جوسلين من الرها ليتملكا على انطاكية ، فاغلق اهـل المدينة الابواب وتـركوهما خـارجا ، وبعـد ان بقيا عدة ايام يتشـاوران واخيرا سلم الانطاكيون المدينة لجوسلين لكي يحفظها حتى تتـزوج ابنة بوهيموند فتعطيها الى زوجها ويصير حاكما لانطاكية .

عندما كان الأفرنج متوجهين الى باب انطاكية اتى زنكي حـاكم الموصل ونهب بلاد تل باشر وبلاد انطاكية ، وضرب الفرنجة وقتـل اتباعهم وبعد ذلك دخل الى بلادهم وقتـل منهـم أعداد كبيرة وأخـذ قلعتين .

وفي تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين ليتحـارب مـع التـرك وبنى مدينة على شاطىء البحر، ولما استعد ليلاقي الاتـراك غدر بـه اخوه وجماعة من عظمائه ، ولما ارادوا ان يحبسوه هرب الى الامير غازي ففرح به جـدا،واكرمـه كثيرا،وارسـله الى عند جيراس الى طرابزون .

لكن لما رجع الملك الى القسطنطينية أرسـل الذين غدروا بـه الى المنفى .

اما الأمير غازي فقد نزل على سـمندو التـي كانت مـع اختـه واخذها حـربا ، ومـن هناك دخـل الى بـلاد قليقلة على ليون الأرمني ، واخذ القلاع،اما ليون فقد اقسم انه لن يدخـل او يرسـل لصوصا الى بلاد الأمير غازي ، وكذلك ان يعـطي كل سـنة جـزية لغازي فصدق كلامه ، وتركه وخرج ، اما ليون فكذب ولم يعطه شيئا، ثم اتى الأمير غازي الى ملطية ، فاتى اليه السلطان مسـعود ختنة واسحق أخو ملك اليونانيين الذي رجع من عند جيراس ، وبقيوا كل فصل الشتاء،ثم مضى اسحق الى ليون فأعطى ليون ابنته لابن أخـي الملك مع مدينتي المصيصة واذنة ، لكن وقعـت بعـد ذلك مشـاجرة بينهما ، وأخذ ليون من اليونانيين كل متاعهم وهرب اسـحق وابنه الى عند السلطان مسعود .

وفي سنة ١٤٤١ ولد اربعة أطفال من بطن واحدة ، وبعـد عشرة أيام مات جميعهم فجأة في يوم واحد.

في سنة ١٤٤٢ في تشرين الثـاني تـراءت نار في ناحية الشـمال كانت تلتهب كالجبال ، واخيرا صارت كالأعمـدة ، وفي ذلك الوقـت سقط كوكب واحد عظيم ومخوف جدا ودوى أثناء سـقوطه كصـوت الرعود الشديدة.

في سنة ١٤٤٣ تراءى قوس كالغمام بـالليل ، وفي هـذه السـنة اصيبت الكلاب بداء الكلب في اكثـر البـلاد ، وقـد أصـابوا الناس والبهائم واحدثوا فيهم ضررا فادحا ، وقال المنجمون : إنه عندمـا يرى الكلاب الكوكب المدعو (كلب الجبار) سيكلبون .

وتجرا في هذا الوقت رجل فـارسي مـن أهـل ملطية ، وخـطف الصليب من يد أحد المسـيحيين ووضـعه على احليله ، حينئذ ثـار المسيحيون واجتمع أهل المدينة وذهبوا الى الوالى واخبروه ، فأمر الوالى باعتقال ذلك الفارسي وتسليمه للمسيحيين لينتقموا منه كمـا يريدون ، حينئذ شـحروا وجهـه واركبـوه حمـارا ودوروه بالأسواق ، وبعد هذا سمع غازي أيضا فضرب الفارسي وطرده مـن ولايته.

وفي سـنة ١٤٤٤ يونانية حـدثت زلزلة في ليلة الثـالث مـن شباط ، وفي اليوم الثاني من اب خسفت الشمس ، وفي ايلول حدث زلزال في وضح النهار ، وبعد هـذا تـراءت اية مخيفـة تشـبه النار ، وحدث بعد هذا لمدة سنتين قلة بالمطر وجوع في بـلاد كثيرة لا سيما في جزيرة قبرص ، ومن شدة الجوع اكل المسيحيون لحمـا في الصوم الكبير .

وفي الوقت الذي به خسفت فيه الشمس مات أربعون فارس مـن الأوبئة ومعهم اربعمائة رجل مسيحي وابن توما الشماس .

وفي تلك السنة أيضا ولد بملطية اربعة اطفال في بطن واحدة ثلاث ذكور وفتاة واحدة ، فمات الذكور وعاشت الفتاة .

وفي ذلك الشهر ولد خنزير له جثتين وراس واحد ومات للحال.

وفي هذا الزمان مات اربعمائة تاجر فارسي ، واربعة رجال مسيحيين كانوا قد خرجوا من القسطنطينية ، ماتوا كلهم بالثلج وحدث ذلك في عيد مارتا ودورس.

ومضى جوسلين الى القلعة التي بين حلب ومرعش ، وكان فيها عرب يغيرون في تلك البلاد ، وقد حفروا تحتها نفقا ، فدخل جوسلين ليراه فانهدم عليه للحال ودفن تحت التراب فأخرجوه وهو على أخر رمق ، ثم حملوه الى تل باشر ، ولما سمع الأمير غازي جمع الأتراك ليدخل لبلاده فأمر جوسلين أن يجتمع الأفرنج وحملوه على حماله وخرجوا ليقاتلوا الاتراك ، وفي الطريق مات جوسلين الثاني ، ولما سمع غازي أن جوسلين قد مات ابدى موقفا نبيلا ، فأوقف الحرب وأرسل وفدا للتعزية وكتب الى الافرنج قائلا :

اليوم لن احاربكم لئلا يقال إنني قد انتصرت عليكم بعد ان مات ملككم ، فالآن اذا تدبروا أموركم بكل هدوء،واقيموا لكم راس وفق نواميسكم،ودبروا بلادكم بالأمن،ولا يكون لكم فكر من ناحيتي ولا من ناحية عساكري.

أما ملك اليونانيين فقد خرج حانقا على الترك وعلى الأرمن ، وقتل عددا كبيرا من الترك على شاطىء البحر وأخذ قلعتين ، ثم مكر به ايضا عظماؤه وارسلوا ليأخذوا أخاه ويملكوه ، ولأجل ذلك رجع عاجلا. أما الأتراك فقد اجتمعوا ودخلوا الى زوسو بولس ولما نفد زادهم ، وعضهم الجوع ، ولم يستطيعوا أخذها نهبوا البلاد ورجعوا.

أما الأمير غازي فأخذ معه السلطان مسعود ودخل الى شاطىء

البحر فحلا على قلعة اسمها زينين فحارباها لكنهما لم يستطيعا ان يأخذاها،غير انهما اخذا مــن الروم الذين فيهــا أربعــة آلاف دينار واصطلحا معهم.

في هذا الزمان أرسل خليفة بغــداد وســلطان خــراسان رئاســة لغازي ليكون ملك الشمال ودعي الملك غازي.

فأما جوسلين الثاني فقد مــكر بـــه الأفـــرنج و اســـتعدوا ليمسكوه ، وصارت بينهم فتنة ، ثم اصطلحوا مده قليله ، لكنه مــا لبث أن انفجر بينهم خلاف لأن جــوسلين الثــاني اراد أن يملك على انطاكية مكان أبيه،لكن اهل المدينة وبطريركهم لم يسلموه بــل كانوا يحتفظون بها لابنة بوهيموند.

في سنة ١٤٤٤ يونانية (١١٣٣ م) صعدت عساكر زنكي حــاكم الموصل على الرها،فخرج الأفرنج فانكسروا وهربوا.

وايضا في هذا الزمان اتى امير يسمى محمــد شــمس الملوك كان يبغض المسيحيين،فطلب من حسام الدين حــاكم مــاردين مــوضعا فأعطاه بلد شبختان ليحارب الأفرنج،وكان دائمــا يدخــل الى بــلاد الرها ويسبي ، فصادفه ستوت فارسا من الافرنج وحــدثت معــركة قتل فيها الف تركي ثم امسكوه واحرقوه على باب الرها بعــد هـــذا أخذ جوسلين قلعة شبختان وهدمها كليا.

وكان الترك مجتمعون في بلاد حلب فدخل عليهم جوسلين ، أمــا هم فانسحبوا ودخلوا الى بلاد تل بــاشر فسـبوها فخــرج عليهــم سبعون فارسا كانوا يتولون حفظ البــلاد ، لكن التــرك كمنوا لهــم وامسكوا بهم كلهم.

وأيضا دخل بلاد الترك الافرنج وسبوا،ولم يوجــد احــد يقــف في وجوههم ، لأن الافرنج كانوا مختلفين مع بعضهم.

وأيضا خــرج يوحنا ملك اليونانيين واخــذ قســطمونه بــالصلح والقلعتين القريبتين اليها،اخذهما بالقتال ثم هدمهما. (١٦)

اما غازي الملك فقد اخذ قلعة اليونانيين المدعوه البــرا بالحرب واحرقها بالنار وجعل الشعب عبيدا.

وفي سنة ١٤٤٥ دخل الترك بلاد انطاكية فلاقاهم جوسلين وقتل اكثرهم،وحينئذ اصطلحوا.

وفي كانون خرج حاكم طرابلس نحو قلعة اسمها بارين فحاصرها الترك حالا واستطاع بصعوبة أن يعود الى القلعة ثـانية ، فـاجتاح الاتراك البلاد الى جبــل لبنان ، وشـــددوا الحصـــار على القلعـــة ثانية ، فتضايق الأفرنج الذين بداخلها من الجوع والعــطش ،حينئذ وصل ملك بيت المقدس فهرب الترك ، ونزل الملك على قلعة القصــير قرب انطاكية وأخذها بالحرب ، ومن هناك تــوجه الى عم واجتمــع هناك الترك كالجراد ففزع منهم الملك أول الأمر ، فــطلب جــوسلين فاتى وكان مبتعدا لانه كان يخاف من مــواجهه الملك ، فلمــا اتــى جوسلين أخــذ يشــجع الملك،واشــتعلت الحـــرب فنزل الاثنان عن فرسيهما وطلب الغفران الواحد مــن الآخــر على المشــاجرة التــي صارت بينهما ، وحينئذ حاربا التــرك وغلبــوهما وطــاردوهما الى القلعة،ولما رجع الملك من الحرب وصوتت الأبواق طلب جــوسلين فلم يجده فصرخ الملك وكل الشعب صرخة عظيمة،لكن جــوسلين اتــى في منتصف الليل.

اما الملك غازي فرجع الى قســطمونه وأخــذها بــالحرب وقتــل اليونانيين الذين وجــدوا بهــا ، فتــألم كثيرا يوحنا الملك وخـــرج بحدة ، ولكن حدته لم تغير شيئا لأنه ورد عليه خبــر مــوت امــراته وابنه الذي كان خليفة له ، وكان مريضا أيضا لذلك رجع سريعا الى مدينته.

في سنة ١٤٤٥ اتى جــراد مثير الى الرهــا وبــلادها فـــالتجأ المسيحيون بالمنتجب ماربرصوم ، وارسلوا واخذوا يمينه،وفي حــال وصولها صارت اعجوبة وارتحل الجراد ولم تتضرر البلاد أبدا.

فأما اليونانيون كعادتهم الرديئة فقد التهبوا حسدا ، فحرضوا بطريرك الافرنج ليفتح الصندوق لكي يروا اليمين ، فرفض الرهبان أن يفتحوا الصندوق وقالوا : إذا فعلنا فسوف يحل الغضب على هذه البلاد ، فصاروا يستهزئون بهم قائلين لايوجد شيئا في الصندوق ، عند ذلك اضطر الرهبان أن يفتحوه في بيعه الافرنج ، وللحال ارعد الجو وخيم على السماء سحاب مظلم ، ونزل برد هائل امتلأت منه الأسواق ، وصار الشعب كله يصرخ باكيا : يارب اشفق ، ايها القديس ماربرصوم تحنن •

اما الافرنج من الكهنة والشعب والبطريرك فقد خروا أمام الصندوق باكين،أما اليونانيون فقد هربوا واختفوا،ولما هدأ البرد اجتمع الشعب واقاموا الصلوات لمدة ثلاثة ايام.

اما اهل حران العرب فانهم لما سمعوا بهذا الأعجوبة أتوا وطلبوا من الرهبان ان يأتوا بالذخيرة الى عندهم فلم يفعلوا ، ولما رجعوا الى الدير مضى أهل ملطية وجلبوا رفات القديس ، وخرج كل الشعب بالدعوات والصلوات ، وفي ذلك الوقت لجم فم الجراد ولم يعد يؤذي الزروع قطعا،بل خرج الى الأراضي البور والمفلوحة والتهم القش فتعجبت كل الشعوب وكل لسان مجد الله حين رأوا هذه الأعجوبة، وازداد مجد الله بقديسيه ، فأما الشعب فبقي يصلي وكان يفرق الصدقات ، ورجع عدد كبير الى طريق البر ، وقد صنع الرب اعجوبة اخرى وهو انه كان يدخل الجراد الى حقل القطن ويأكل القش ، ولا يضر بالقطن ، وهكذا كان يفعل في حقول الحبوب والسمسم وغيرها.

في سنة ١٤٤٦ خرج من ايطاليا فرنجي اسمه دي فوتيرس وأخذ ابنة بوهيمند الذي قتل وملك على انطاكية.

وفي تلك السنة مات بلدوين ملك القدس.

وفي تلك السنة أتى زنكي حاكم الموصل الى سورية وحل على حلب،وكان بها والي عربي فأغلق الأبواب ، لكن اهل المدينة كانوا

يعرفون والد زنكي الأمير اقسـنقر ، وكان قـد ملك عليهـم وكانوا يشيدون باستقامته وعدله في احكامه ، وكانوا يعرفون زنكي ايضـا لانه ولد بالمدينة وتربى،فتوجه الشـعب بحمـاس وفتـح الأبـواب وادخلة.(١٧)

اما الوالي فقد هرب الى القلعـة فحـاربها واخـذها ، وامسـك بالوالي وقلع عينيه وارسله للموصل،وبالمقابل صنع مع اهـل المدينة خيرا ، واصطلح مع الأفرنج ، ثم رجع الى الموصل بسبب مشـاجرة بينه وبين الامراء.

وفي تلك السنة ارسل خليفه بغداد وسلطان خراسان للامير غازي حاكم ملطيه اربعة أعلام سوداء وطبولا تضرب امامه كالملك ، وطوق ايضا من ذهب يوضع في عنقه وصولجان من الذهب ليضرب به بين أيادي الرسل لكي تتثبت له المملكة ولذريته من بعده،فلما أتى الرسل وجدوه مريضا فمـكثوا ينتـظرون ، لكن مـا لبـث أن دنا موته ، واعطيت الرئاسه لابنه محمـد فـالبس الذين اتـوا الهـدايا محمدا ونادوا به ملكا.

وكان الأمير غازي هذا رجلا سفاكا قاتلا يقتني النسـاء ويحـب الجواري،وكان قبل موته بفترة وجيزة قد اتوا له بامراة ، فأمر اهل ملطية أن يزينوا لها الأسواق ، لكنه كان شجاعا جبـارا وصـاحب حيله وذكاء وفطنة ، وقد فتح بلاد الروم ، وقتل الاتـراك العصـاة الذين كانوا بها ، وقد نشر الأمن في بلاده ، وقد حـارب وقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وكان يحب الجنود،وكان في وقـت مـوته يزار كالاسد.

ولما ملك ابنه محمد بدأ يسلك ناموس العرب،فكان لا يشرب،وكان يكرم المسلمين ويحكم بالعدل والقسطاس،وكان متفهما جـدا ، لكنه كان يهدم البيع.وقد جدد بناء مدينة قيساريه كبدوكيه التي كانت قـد تهدمت من مدة طويلة ، وقد بناها بنيانا جميلا بحجر مـن الرخـام الأبيض كان يأخذه من الهياكل الجميلة التي كانوا يهدومونها ، وقد

اتخذها عاصــمة له ، ثــم انتقــل في تشرين الأول الى ملطية أي في السنة التى ملك بهاءوهي ســنة ١٤٤٦ وكان أهلهــا يتــوسلون أن يخفف عنهم المظالم التي وضعها أبوه .

لكنه ما لبــث ان مضى في تشرين الثــاني وقــد اســتعجله في ذلك السلطان مسعود ، وخـــاصة عندمـــا أخبـــره بـــأخبار ملك اليونانيين ، ولم يصنع خيرا لأهل ملطية،بل على العكس أخذ معــه أولاد الأحرار رهائن.

وفي هذه الســنة عصى ابــن داوود أرســـلان طغميش في قلعـــة زياد ، وامسكه ابــوه ووضــعه في الســجن ، كذلك عصى على الملك محمد أخواه : يجن ودولت،فقتل يجن،أما دولت فقد نهب بلاد ملطيه.

في هذه السنة أخــذ زنكي مــن الافــرنج دارا وزردنا بمعـــاهده سلام ، لكنه أخذ فيما بعد يضايقهم ليعلنوا اسلامهم ، وتزوج بابنة حاكم القلعة(١٨) ، ولما اتى الافرنج هرب زنكي.

وفي تلك السنة دخل اتراك ملطية الى بلاد الافرنج وسبوا ورجعوا

كان في دمشق بهذا الزمان حاكم يسمى تــاج الملوك بــوري بــن طغتكين وكان له وزير يسمى أبو علي (١٩) من طائفة الاســماعيلية وبسبب هذا صار للاسماعيلية دار في دمشق تدعى دار الدعوة ، وقد قووا بوســاطتها لأن كل من كان يدخل إليها ويتفق معهم كان لايدفع الجزية ، وكان فيها مدبر من القدموس ، وهذا ايضا كان اسمه ابو علي ، ويدعى الشيخ ، فعرض فجأة أن واحــدا مــن عظمــاء المدينة اسمه أبو الذواد ، أو ابن الصوفي أن قتل الوزير بالاتفاق مع الأمير، فغضب الاسماعيلية كثيرا ، واجتمعوا في دارهم واستلوا ســيوفهم وبدأوا يقتلون ويذبحون ، ثم اجتمع أهــل المدينة وكل الشــعب بــلا استثناء في ذلك اليوم وكان عددهم سبعين الفا مــن العــرب ، وقــد تمكنوا من إفناء سائر الاســماعيلية ، ثــم دخلوا سرا وقتلوا الأمير بوري،وأخيرا بقي رجلان من الاسماعيلية .

وفي سنة ١٤٤٦ سار من مصر بهذا الزمـــان ملك إلى دمشـــق ، وكان من العرب ، وكان يملك في مصر،لكن هذا مــكربه ابنه واراد أن يقتله ويملك مكانه ، ولكن لما وجد هذا الملك أن شعب العرب يتبع ابنه ويجله استنجد بالأرمن الموجودين في مصر وكانوا قد دخلوها منذ أن صعدوا لسورية ، وقد كثـروا وصــار لهـم في ارض مصر جــاثليق واساقفة،وكان اسم الجاثليق هذا بهــرام ، ولما اجتمعــوا عند الملك اشتبكوا بحرب مع التابعين لابن الملك ، وفي رشــق الســهام انكسر العرب وقتل منهــم الوف،وامســكوا ابـــن الملك وقتلوه بمـــوافقة والده . (٢٠)

وفي هذا الزمان ايضا تحارب زنكي عماد الدين حاكم الموصل مع امراء ماردين وحصن كيفا تمرتاش وداود ، ولما كان حســام الدين تمرتاش بين دارا ونصيبين في موضع يدعى سرجــه أتــى إليه ركن الدولة ابن عمه،فحاصروا زنكي بجيش عظيم،فخاف منهــم لأنه علم انه لن يقدر أن يقاومهم ، فأمر أن يلبس كل واحــد مــن عَســاكره درعه ، ويسل سيفه ويقف في باب خيمته،فوقفوا كلهــم مثــل ســور حديدي وبقوا من الصباح إلى الغروب ، حينئذ وفجأة حدث خــلاف بين حسام الدين وابن عمه،عند ذلك أخذ ابن عمه عساكره وصعد إلى ناحية الجبل فتبددت العساكر ، وقوي زنكي وطارد حســام الدين ، فهرب الفرسان الى ماردين وهلك من الرجال خلق كثير،وبعــد هــذا اصطلحوا بواسطة الرســل (٢١) ، لأن زنكي احتاج أن يمضي الى سورية ، لانه كان هناك الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة ، وكان هذا منذ زمن بعيد يريد زنكي أن يمسكه ، لان هو وحده فقط بقي من العرب ، ثم اعتقل هذا في أرض فلســطين ، فــأرسل زنكي وأحضره إلى الموصل واقام عليه حراس (٢٢) .

وفي هذا الزمان اختلف الخليفة المســترشد بــالله مــع زنكي لأنه رفض أن يرسل له دبيس بن صدقة ليقتله ، لأنه كان يبغضه ، فجمع عساكره والتقى الجانبان مع بعضهما فانكسر زنكي وهرب فطاردته عساكر الخليفة حتى سور تكريت ، لكنهم رفعوه من السور بالحبال

وخرج ليلا من تكريت ومعه فارسين فوصل الموصل ، وأخرج الأمير دبيس من الحبس واعطاه مالا وارسله ليجمع العــرب ، وكان زنكي يجمع الترك ويتأهب ليزحف نحو الخليفة ، ولما اجتمعــت العســاكر جمع الخليفةقواته ايضا ، وبعد حروب متفــرقة انكسر أيضـــا زنكي وهرب دبيس الى سلطان خراسان ، اما الخليفة فصعد الى الموصل ليخرج زنكي من المملكة ، اما زنكي فقد حصن المدينة وأقــام فيهــا نائبه نصير الدين جقر ، ولم يستطع الخليفة قهره فقفل راجعا (٢٣) .

وبعد هذا بينما كان الخليفة المسترشد راقدا بالخيمة وقت الظهر عند باب مدينة مراغة وسط معسكر مسعود سلطان خراسان ، دخل عليه عشرة رجال فقتلوه ، فقام الراشد بعده (٢٤) ٠

في سنة ١٤٤٦ صار زلزال عنيف في بداية تموز وايضا في نصف تموز ، وفي منتصف الليل شــوهد كوكب يمشي سريعــا فــوصل إلى القمر وبدا وكأنه قد شقه وجاز في وسطه .

وفي شهر اب ظهر أيضـــا كوكبــان مثــل هـــــذا النوع ، واخيرا سقطا ٠

وفي ٢٣ ايلول جاء مطر غزير وبرق فأحرق سبعة ثيران وصبي ، وقد أحرق هذا البرق في بلاد سمندو في تركيا واحدا ، فتركه الأتراك ولم يقبــروه ، إذ كانوا يعتقــدون أن الذي أحــرقه الله لايســـــتحق الدفن ٠

وفي تلك السنة صار زلزال في أرمينية الكبرى ، وخسفت بها مدينة اسمها دوكوف ٠

وفي تلك السنة حدث شتاء قاس ، ونزل في بلاد ملطية ثلج احمــر وكان عجيبة جديدة .

وفي أيار جاء جراد لكنه لم يفسد شيئا .

وفي ٢١ تموز نزل نور في منتصــف الليل كالقنديل وانتقــل مــن

- ٢٠٨٨ -

المشرق إلى المغرب واختفى ضياء القمـر والكواكب ، وبقـي إلى أن انبلج الصبح .

وفي هذا الشهر في بلاد خراسان كان المسلمون في مـدينة اسـمها كاشغر مجتمعون يوم الجمعة ليصلوا كعـادتهم في المسـجد الكبير ، فصارت فجـاة زلزلة ، وانفتحـت الأرض ، ونزل فيهـا كثير مـن الإحياء ، وقد هلك في هذه الحادثة اكثر من عشرة آلاف إنسان .

وفي سنة ١٤٤٧ كان الشتاء معتدلا ، وكان طير الحجل يدخل مع طيور اخرى إلى داخل البيوت ، وكان الناس يتعجبون من ذلك ، لكن بعد ٢٦ كانون الثاني أخذ الشتاء يشتد ، وتجمد الفـرات وبـاقي الأنهـار ، وأتـى ثلج كثير ، وفي أمـد دخلت الطيور والحيونات إلى داخل المدينة ، فأمر السلطان بأن لايؤذيها أحد وصـاروا يعـطونهم قوتا إلى نيسان ، ويقولون إن الطيور التي أكلت من المدينة والقـرى لما صعدت إلى الجبال اضمحلت في أوكارها .

بمثل هذا عرفنا بأن هذا قد حدث بأمر من عليين ، وذلك لتـأديب كل جنس حي،ولا أحد يستطيع أن يمنع ذلك .

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٣١ يونانية ، وفي ٢٦ نيسان منها توفي ديونوسيوس ابن المعترف ، وسجي جسده في بيعة ملطية الكبيرة ، وقد خدم رئاسة الكهنوت خمسين سنة منها اثنتين وثلاثين سنة اسقفا ، واثنتي عشرة سنة مطرانا في ملطية ، وست سنوات بعد أن أخذت منه

في هذه السنين عاشت بيعتنا المستقيمة المجد بهدوء وراحة لأن اليونانيين والخلقيدونيين كانوا محصورين داخل بحر بنطش وملك بني ماجوج ، ولم يعودوا يستطيعون أن يضايقوا المستقيمين المجد ، ولا أن يفسدوهم بهرطقتهم ، وعلى الرغم من كون اليونانيون القساة كما قلنا كانوا محصورين داخل البحر فقد كانوا يرسلون رجالا للأفرنج أي الرومانيين الذين كانوا مسيطرين على أنطاكية والقدس كما قلنا من قبل رؤساء كهنة في منطقة حكمهم ، وكان رعاتنا بينهم بغير اضطهاد،وبغير حذر لأن الأفرنج ، ولو أنهم متساوين مع اليونانيين بازدواجية الطبائع لكنهم متميزين عنهم بانواع كثيرة،وبعيدين عنهم كليا في الامانة وفي العادات ، وكان الأفرنج في هذا الزمان مسيطرين على بلاد فلسطين وسورية ، وكان لهم رؤساء كهنة في كنائسهم ، ولم يطلبوا من اي طائفة قط أن تلتزم بايمانهم لأنهم اعتبروا كل من يسجد للصليب مسيحيا.

وعد الاتراك،الذين كانوا ضابطين لأكثر البلاد ،المسيحية عقيدة ضلال ، ومع هذا لم يميزوا قط بين المذاهب ، ولم يكن شرعهم ينص على الاضطهاد بسبب الايمان كاليونانيين الشعب الشرير المهرطقين.

وعندما لم يعد أمام اليونانيين الاشرار فرصة ليضطهدوا

المستقيمي المجد كما كانوا يصنعون من قبل ، لم يتوقفوا مع هذا عن قساوتهم ، بل كانوا في انطاكية ومصر يقيمون لشعبهم بطريرك في اراضي المسلمين ، وكانوا يتحركون لكي يشقوا السريان والقبط والأرمن كالحية الرقطاء المضروب راسها ، لكنها تحرك ذنبها ، فلما كانوا بسورية وارمينية وفي فلسطين ومصر مع بطريركنا واساقفة شعبنا واخوتنا الأرمن والقبط كان أساقفتهم اليونانيين والخلقيدونيين يعملون بقدر استطاعتهم على تمزيق هذه الشعوب الثلاثة ، وكان اليونانيون الذين في القدس وأنطاكية يداومون على الشرور ، وكان رؤساء الكهنة الفرنج يميزون بين كهنة الطوائف الثلاث ويرعون المستقيمي المجد ، وكانوا يقومون ضد اليونانيين أيضا.

اما على حدود الاتراك فكان بهذه الأيام جميع المستقمي المجد مرتاحين من ضرر الخلقيدونيين ، وكانت البيعة هادئة.

اما عن فتنة البطريرك مع ابن صابوني ومع المطارنة الشيوخ الثلاثه وهم ابن المعترف الذي أخرجه من ملطية وأسقف قليسوره واسقف طور عبدين الذين حرمهم البطريرك ، ولم يكونوا من اصحاب البدع ، ولم يجاوزوا القانون وانما فعل ذلك لأنهم حقروه ، وكان قد توسط لهم اناس كثيرين ولم يقبل ، فقد مات أولئك المطارنة وهم محرومون ، ولهذا السبب ضعفت الأمانة بين كثيرين

وكان اثناسيوس السادس بطريرك السريان (١٠٩١ ـ ١١٢٩) وهو المعروف بأبي الفرج بن كامرا قد غضب على ابي غالب باسيل بن صابوني مطران الرها وحرمه وأبطل الصلوات والطقوس في كنائسه من نصف الصوم الكبير حتى أحد العنصرة ، واعاد جميع الرسامات التي اجراها المطران ، فحنق المطران باسيل على بطريركه وسار الى انطاكية ورفع الدعوى عليه الى بطريرك الفرنج واساقفتهم واربابهم فأوفدوا في طلبه من دير اللاقشر في كوره قاسيدنا ، وادخلوه الى كنيسة القسيان مرحبين به

وسألوه ان يغفر لمطرانه ويصلي عليه ، فـأبى ، فثقـل ذلك عليهـم واستوضحوه السبب بواسطة ترجمان فقال لهم ان المطـران مـذنب ومجرم ، غير ان الترجمان نقل اليهم كلام البطريرك على غير صحته فقال :لقد نعته بالمجرم لأنه مديونا له بذهب وافر ، فقال الفـرنج إن كانت المسألة مسألة مالية فتلك شيمة سيمون الساحر ولا يحـق للبطريرك أن يتشبث بها ، وبعد أخذ ورد طويل وعدهم البطريرك بأن يصليَ على مطرانه ويغفر له ، فألح عليه رؤساء الفرنج أن يكتـب له صكاً بذلك ويطلقه ، ودفعـوا اليه قـرطاسا ليكتبـه حـالا دون توقف ، فلما اخذ البطريرك القلم التفـت الى ابـن صـابوني وكان واقفا بـالقرب منه وقـال له : انظـر يا ابـا غالب الى أي ذل اوصلتني ، فقال له أبو غالب منتقما : إن كنت انا ابو غالب فـأنت ابو الفرج ، فما كان من البـطريرك إلا أن القـى القـرطاس ومـد عنقه ، وقال للحضور اقطعوا هـامتي فإني لن أحله ، فتـأثر احـد الاساقفة وقـال لأعضـاء المجلس : دعوا البـطريرك ومـطرانه وشأنهما ، فأرفض ذلك المجمـع دون جـدوى ، وخـرج البـطريرك اثناسيوس من الكنيسة وخـرج معـه جميع الملتـئمين وانطلق الى كنيسة والدة الرب ببيعه السريان في انطاكية.

أما رؤساء الفرنج فأرسلوا يحرجون عليه مغادره انطاكية قبل ان يعقدوا مجمعا ثانيا لاعادة النظر في تلك الدعوى ، فـظل البـطريرك محجورا مده خمسة ايام لا يسوغ لأحد أن يفاتحه في المسألة قـطعا. غير أن بعض الكهنة السريان قصـدوا عبـد المسـيح الفيلسـوف الرهاوى الملكي صديق البطريرك ، وسألوه أن يسعى في حسـم تلك المشكلة فسار اليه وتفاوضا مليا ، ثم ان البطريرك قصد الملك رجير صاحب انطاكية في تحـف وتقـادم واسـتأذنه في العـودة الى ديره ، فأطلق له الحرية في ذلك بموافقة البطريرك الأنطاكي.

لكن البطريرك اثناسيوس بعد أن خرج من انطـاكية بـالتهديد لم يعد يرضى أن يبقى تحت حكم الافرنج فترك بـلاد انطـاكية ، ومضى الى مدينة أمد التي بين النهرين التي كانت مرعية مخصصـة لكرسي

البطركية . ولما جلس في دير قنقرت(٢٥) زادت الضغوط على الرها فأغلقوا بيعتها ونزعوا ناقوسها بسبب ابن صابوني ، ولذلك صار فساد كثير بين الرعية في الرها وتمرد الكهنة وقاموا ضد بعضهم بعضا ، وصار الشعب يترك بيعهم ويمضي الى الكنائس المخالفة لنا في الايمان ، ومن هذا اعتاد الرهاويين أن يعمدوا أولادهم في كنائس الافرنج دون أن يتألموا أو حتى يهتزوا بل لم يخطر على بالهم هذا قط ، وقد تضررت كثيرا بيعة مستقيمي المجد بهذا الاضطراب الذي صار بين الرعاه..

اما مار اثناسيوس فقد ظهر له في آمد عدو شرس ،فقد كان في رعية آمد اناس معروفين يدعون بني قربا يسكنون في قرية قنقرت، وكان اباء هؤلاء في الماضي قد اختلفوا مع ابوي البطريرك ، وكانت عشيرتهم تدعي بني كامرا وكان لبيت قربا هؤلاء دور وحقول ، وكانوا متسلطين بالمكان ، ولما مضى البطريرك وجلس في دير قنقرت صار بينهم وبين البطريرك خلاف حول بعض الحقول وصاروا يذمون البطريرك امام الحاكم ، فطلب الحاكم من البطريرك ان يغفر له فرفض،فاستشاط الحاكم غضبا وامره ان يلزم دير قنقرت والا يخرج منه ، فما كان من البطريرك الا ان حرم الشماس ابن قربا الآمدي فاحتدم الشر ، وكثر الاضطراب بينهم ، وامتد ايضا الى آمد وباقي نواحي الأبرشية ، فتضايق كثيرا البطريرك كما سنوضح هذا فيما بعد،وفرض الحاكم على البطريرك اثناسيوس بسبب حرمانه لاسحاق ابن قربا ان لايخرج من آمد لانه طلب منه مرارا كثيرة ان يفك حرمانه ، ورفض كذلك عندما أتى ايضا الأمير بنفسه الى دير قنقرت وسأل البطريرك ان يفك حرمان اسحاق ، فلم يقبل لكنه أطفأ غضب الأمير بالذهب الذي أعطاه له ، وحينئذ أشار اسحق الشماس على الأمير أن لايترك البطريرك يخرج من آمد قائلا ان البطريرك رجل شيخ وسوف يموت قريبا هنا ، فتأخذ أنت متروكاته ، فبقي البطريرك مقيما في آمد كأنه مسجون ، لكن البطريرك اثناسيوس استغاث بجوسلين حاكم الرها وطلب منه ان يتوسط عند امير آمد ، فأرسل جوسلين عاجلا الى حاكم آمد يقول:

أن لم تطلق سراح البطريرك فإنني سوف اخرب بلادك ، فأذن للبطريرك ان يمضي فخرج من آمد ، وذهب مباشرة ليشكر جوسلين ، ومن هناك صعد الى دير مار برصوما ، وكان يوم احد الفنطيقوسي ، فابتدا بالقداس ولما وصل الى دعاء الروح القدس اضطرب ، وتغير وجهه ، وذهب عقله فأجلسوه على الكرسي ، واكمل مطران جرجر القداس،لكنه مالبث ان عاد الى وضعه الطبيعي ، فرسم مطرانا لشبختان ، غير أنه مالبث ان مرض فبقي سبعة أيام ثم دنا وقت انتقاله،وكان ذلك يوم السبت ٨ حزيران سنة ١٤٤٠ في الساعة الثالثة حيث توفي فجنز وسجي جسده في بيت خزانة الدير .

وفي السنة التي توفي فيها مار اثناسيوس البطريرك توفي ايضا مار قربوس بابا الاسكندرية .

ولما وصل خبر موت البطريرك اثناسيوس الى الرها اجتمع الكهنة بحسب القانون لجنازته ، وفيما كان يشارك ابن صابوني بالخدمة سقط وذهب عقله فحملوه لقلايته ، وبعد ذلك استعاد رشده، ولما اجتمع المجمع في كيسوم اتى ابن صابوني الى سميساط ليذهب الى المجمع فوقع هناك عن الفرس الذي كان يركب عليه ، فحملوه وأرجعوه الى الرها ومات وتوفي وهو محروم .

وكان رأس المجمع في ذلك الزمان ديونسيوس اسقف كيسوم،ولما اجتمع الأساقفة واقاموا قرعة وقعت القرعة على المعترف رئيس دير الدوائر الذي في نواحي انطاكية ، ثم مضى اسقفان ليأتيا بالمدعو، فتوفي خلال ذلك ديونسيوس اسقف كيسوم واتى بعده الشيخ ديو نسيوس المفريان ، فمضى كل الأساقفة مع المفريان الى تل باشر بعناية جوسلين الذي احاطهم بالخيالة ، ورسموا ماريوحنا المعترف راعي الدير بطريركا وذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني للصوم في ١٧ شباط ، ووضع عليه اليد ديونسيوس المفريان في بيعة الافرنج الكبيرة ، وكان جوسلين وعظمائه واقفين بالخدمة ، وبوساطة جوسلين صنع البطريرك والمجمع حلا لابن

صابوني وايضا لمطران شبختان الذي كان قد تـرك رعيتـه فحـرمه البطريرك بمرارة ، وأمر أن لاينقبل في البيعة ، وقد عاد وقبلوه بعـد توسط جوسلين ، وأعطوا له كرسي سمندو الذي كان راعيه قد توفي فانقبل هناك مدة قليلة ، لكنه مالبث ان طرد مـن هناك فمـكث بغير رعية كل زمان حياة ماريوحنا ، وبعد موت هـذا البـطريرك ايضـا اشفقوا عليه فأعطوه سميساط في رسامه البطريرك الذي صار بعـد ماريوحنا ، وهناك ايضا انقبل مـدة يسـيرة ، لكنهـم مـالبثوا ان طردوه تائها من مكان الى مكان ، ومضى الى القدس لكنه لم يستطع البقـاء في ديرنا هناك ، ثـم مضى الى عند الأفـرنج المدعويين داوية ، واخيرا سقط في تنور النار واحتـرق ، وصـار عبـرة كيف تكون اخرة الذين يدوسون قوانين البيعة المقدسة ، ويحرمون الرعية من الرعاية لأن البطريرك قال له ان تتـرك رعيتـك في شـبختان فلن تستحق الا المقبرة .

فصل أخر حول أخبار البيعة في هذا الزمان

بعد رسامة ماريوحنا البطريرك وقع شجار بين الأساقفة في المجمع لأن ديو نيسوس المفريان كان يريد زيادة على رعيته ، فقام كل الأساقفة في وجهه عند ذلك خرج غاضبا ، ووصل الى آمد وأراد ان يقيم بطريركا أخر ويعزل الذي قام ، لكن الرب المهتم ببيعته في كل وقت ومزيل الافكار الآثمة أوحى الى حاكم آمد في ديار بكر ان يطلب اعتقاله،وبصعوبة استطاع ان يفلت ، ولما رجع الى رعيته بقي صامتا لايأتي بأي حراك .

اما في كرسي الأسكندرية ومصر وبعد قسريوس قام مقاريوس ، وبعد ان توفي هذا في تلك السنة التي توفي بها ماراثناسيوس ارتسم تاودوروس ، لكن هذا وجد بعد مدة انه هرطقي تابع للشقي يولياني الخيالي ، ولأجل هذا نفي وصار ميخائيل بطريركا لكرسي القبط ، وبعد هذا اصبح جبرائيل بطريركا لكرسي الاسكندرية ، وكان هذا متعمقا بالعلوم وماهرا جدا في الخط واللغة العربية ، لكونه رأى ان كل الشعب القبطي يتكلم اللغة العربية ويكتب بالخط العربي ، لأن مملكة العرب تثبتت في الزمن الذي تقدم في كل تلك الأرض ، فاهتم وتعب ونسخ كتابي العهد القديم والجديد وباقي الكتب ، ورتب الخدمات الكهنوتية في الخط العربي لكي يفهم السامعون ، ويقرأ كل الشعب الكتب المقدسة .

واما البطريرك ماريوحنا فقد مضى الى دير مار برصوما وجمع الأساقفة وحرم المطران ماريوحنا بن اندراوس لأنه لم يقبل البطريرك لما مر في رعيته ، لكن كل الناس اجمعوا ان هذا السبب لايوجب الحرم الذي قطعه عليه .

ترك بهذا الزمان بسيليوس بن السمنة أسقف كيسوم رعيته ، بعدما ابدى شكوكه حول صحة حرمان ابن

اندراوس ، وامتنع من الرعاية ، كان ليس بالناموس واجب تدبر امور البيعة ، ومضى الى دير المتوحدين الذي على شاطئ الفرات المدعو دير القناة وجلس هناك بالخلوة،وعندئذ اشار اناس على البطريرك ان يجعل من كيسوم كرسي البطريركية عوضا عن آمد لكونها في حكم المسيحيين ، وبعد ان صارت كيسوم باسم البطريرك خمس سنين،وبعدما رسم البطريرك لآمد مطران هو بسيليوس ، رجع ابن اندراوس الى رعيته ، وبناء عليه رجع ايضا بسيليوس بن السمنة الى كيسوم،وفي هذا الزمان ارتسم للرها مطران اسمه باسيل ، وكان رئيسها وقد دعي باسم اثنا سيوس ، وبعدما استقام بها سبع سنين توفي في سنة ١٤٤٧ ، وفي تلك السنة توفي ايضا اياونيس مطران ملطية ، وهو المعروف باسم اليشع ، ووقع بعد موته خصام كبير بين جماعة الاكليروس حول انتخاب راع لها ، لأن باسيليوس اسقف جيحان ، الرجل الماكر الكثير الحيل ، والذي كان دائما من قلاية البطريرك جالس لاجل امور الكتابة وتدابير البيعة ، كان يمانعهم لئلا يرسموا مطرانا لملطية ، لانه كان مصاب بمرض الشراهة،وطمع ان يأخذها زيادة على رعيته ، وكان البطريرك القديس في وداعته ينجذب خلف باسيليوس وتدابيره ، وهكذا بقيت ملطية ثلاث سنين بلا راعي ، لان كل من رؤي اهلا للمنصب ورشح لكي يصير مطران ، كان ينقصه لسقف جيحان عند البطريرك ويسمه بكل نوع من انواع المذمة ، والبطريرك كان يصدق كلامه ، حينئذ اختار اهل ملطية ان يرعاهم المطران الربان يشوع الشماس المعروف بابن قطرة من المدينة، وارسلوا رسالة اتفاقهم وعمموها ، فلما نظرها اسقف جيحان كتب على لسان البطريرك حرمانا كبيرا على يشوع

مقتل دبيس بن صدقة

هرب الامير دبيس الى عند السلطان ، لكنه لما احس أنهم يريدون ان يقتلوه تحيل ليفلت ولم يقدر ، ثم قال كلمة محزنة الى

متى اتشرد واطارد ، ليس هناك افضل من الموت ، وذات يوم بعد ان اكل خبزا من مائدة السلطان ودخل السلطان للبيت الداخلي ، خرج أحد الخصيان وقال له ان السلطان يأمرك بان لاتمضي بل اجلس واقرا هذه الرسائل ، ولما بدا يقرا الرسائل قام احد الواقفين خلفه فضربه وقتله .

نهاية ميخائيل الارمني

في سنة ١٤٤٧ ابتدا الخصام بين الارمن والافرنج ، وكان ميخائيل الارمني قد خرج بأيام بلك من قلعة جرجر وتركها ، ثم عاد بعد مقتل بلك ايضا فسرقها وسكن بها ، وحينئذ وقفت بوجهه الطائفة المدعوة سيبرك وصار ينهب قراهم وهم ينهبون قراه ، وفي احد الاوقات ادركه الترك في كور زيزونا وهو على شاطئ الفرات فأحاطوا به من كل جانب،ولما لم يجد سبيلا للخلاص طرح نفسه من اعلى الصخور الى النهر ، وكان يلبس درعه ويمسك ترسه في يده فغرق بالماء ، لكن مالبث ان انقذه زورق كان حاضرا هناك ونجا ولم يمت ، حينئذ اعطى جرجر لجوسلين ، واخذ سفرس ، لكن جوسلين باع جرجر لباسيل اخي جاثليق الارمن بخمسمائة دينار ، ثم ندم ميخائيل وأراد ان يرجع اليها ، ولما رفض ان يعطيه اياها جوسلين جمع عسكرا ودخل ونهب بلاد كيسوم ، فخرج عليه الافرنج ، وقتل بغير قصد بل عرضا .

اما باسيل حاكم جرجر فإنه لما اخرجه الافرنج مضى الى لاون الارمني الذي في قليقيه وصار ختنه،وجمع رجال الأرمن واتى ليحارب الافرنج الذين في فرمازن (٢٦) لكن هناك قتل جملة من الأرمن ، ثم لما رأى الترك الحروب بين الأرمن والافرنج ارسلوا واحدا اسمه افشين كان قاسي القلب فنهب بلاد كيسوم ، ولما رأوا ان ليس من يردهم دخلوا ايضا ونهبوا البلاد الى انطاكية ، وبعد قليل ايضا دخلوا ووصلوا الى اللاذقية واخذوا غنائم كبيرة ، ورجعوا الى نهر

العاصي فصادوا سمكا واكلوا منه فمات في الحال اكثرهم وقد صارت هذه اما بفعل ما ، او بضربه مـن العلي ، امـا الذين بقيوا على قيد الحياة فأسرعوا بالهرب خوفا من الموت وتركوا المنهوبات .

مصرع الخليفة الراشد

بعد ان اتفق مسعود سلطان همذان مع داود السلطان ، ولما سمع الخليفة انهما اتفقا فزع ففرقهما بـالسر ، واتـى ليحـارب مـع مسعود ، ولما نظر ان داود ختنه لم يات ليسـاعده علم ان الخليفـة وعده ان يعطيه المملكة وحده ، فتحارب مسـعود مـع الخليفـة اولا وكسره وامسكه وربطه بالحديد ، ثم طارد داود وهنا صار كما هـو مكتوب ان الخليفة قتل في معسكر مسعود على باب مراغه وقام بعده الخليفة الراشد ، ثـم طـارد مسـعود داود لانه هـرب الى ارمينية وسبى ، وخـرج الى الموصـل الى عند زنكي ، امـا هـذا فلكونه ند لمسعود حمى داوود ، ونزل معه الى بغداد وارسل الخليفة ان تعطي السلطنة الى داود اما هو فكان يخاف من مسعود ، وظل يعدهم مـن وقت الى وقت مدة عشرة اشهر ، حينئذ امتلأوا غضبا ونهبوا بغداد الشمالية كلها ، وعند ذلك التزم الخليفة واوجـب السـلطنة لداود ، فسمع مسعود وصعد ، اما الخليفة فقد ترك بغداد واتـى مـع زنكي الى الموصل ، ولما وصلوا وسمعوا ان الوالي الذي في نصيبين تمـرد على زنكي وصار مع حسام الدين حاكم مـاردين ، اتـى زنكي على نصيبين وكان معه خليفة بغداد والسلطان داود ، فـأصلح نصـيبين ورجع الى الموصل ، اما الخليفـة فنزل الى بغـداد واصـطلح مـع مسعود بوساطة الرسائل ، ونزل الخليفـة الراشـد الى خـراسان وانتهت مملكة العرب كليا وصار الخليفة مستعبدا للاتراك .

اخبار البيعة لهذا الزمان

انتقل بهذا الزمان باسيليوس بن السمنة من كيسوم الى الرها وكان يلام لانه لم يكن مأمورا بذلك ، وقد كتب مقاله دافع فيها عن نفسه ، ونفى ان يكون قد صنع ذلك حتى كتب له البطريرك والمجمع ، وانه لم يفعل ذلك تنفيذا لامر السلطان او الرهاويين ـ كما قال ـ .والحقيقة ان الرهاويين كانوا ضد البطرك ومختلفين معه وكانوا يرفضون ان يعترفوا به او يرفعوا رئاسته في البيعة اذا لم يصبح باسيليوس مطرانا فاختار البطريرك اهون الشرين وثبت ابن السمنة مطرانا للرها ، فاسكتهم بذلك ، ولما رجع جوسلين من القدس بعد ان شارك في تتويج ملك جديد ، ذهب البطريرك وكل الاساقفة اليه وقابلوه فأعطاه انية الكنيسة وجرة الميرون وهي الذخائر التي كان قد خطفها من دير مار برصوم من قبل .

في سنة ١٤٤٨ هاجم يوحنا ملك اليونانيين بعنف قيليقيه غاضبا على لاون الارمني واخذ مدائن طرسوس واذنة والمصيصة وغيرهم وبعد ان اخضع كل البلاد امسك لاون وامرأته وبنيه وارسلهم الى القسطنطينية حيث مات لاون هناك ، اما امرأته وبنيه فقد خرجوا فيما بعد وملكوا ايضا على تلك البلاد.

اما ملك اليونانيين بعد أن ملك في قليقية وارسل لاون الى القسطنطينية ، زحف نحو انطاكية وهاجمها لكنه لم يقدر أن يأخذها لذلك اتى اليه جوسلين واصطلحا على شروط: ان أخذ الملك بلاد سورية ، اعني حلب وغيرها ، يعطيها للافرنج والافرنج يعطوه انطاكية ، كما سلف ووعدوا ابيه الكسيس ، وعلى هذا العهد خرج اليه ريمند حاكم المدينة ودخل الملك يوحنا الى انطاكية ، وفيما بعد لما نظر انهم يريدوا أن يضللوه رجع الى قليقية ، فمضى اليه الافرنج واتفقوا ايضا واتى الملك معهم ، ونزلوا الى حلب واخذوا قلعة بزاعا

ووضع المجانيق ضد شيزر ، حينئذ خرج السلطان مسعود من قونية ودخل الى قيليقية واستولى على اننة بالحرب ، وسبى كل سكان البلاد وكذلك الاسقف واحضرهم الى ملطية ، فلما سمع الملك احرق المنجنيقات ورجع الى قيليقية ، واصطلح مع السلطان ودخل القسطنطينية.

وفي تلك السنة هجم بدمشق رئيس العسكر البغش ايضا على سيده شهاب الدين وقتله (٢٧) . وجمع زنكي عسكرا ودخل ناحية طرابلس ، ولما خرج حاكمها ابن صنجيل نصب له الترك كمينا وقتلوا جميع الافرنج ، وقتلوا معهم ايضا ابن صنجيل واحرقوا طرابلس العالية بالنار ، وسبوا كل البلاد ، وحلوا على طبريه ونهبوها ووصلوا الى نابلس التي هي السامرة ونهبوها وخربوها ، فخرج ملك القدس على صوت الضجيج واتى الى رفنيه ليطرد منها الترك الذين كانوا يقاتلوها ، لكن هاجم زنكي معسكره بالليل وقتل اكثر رجاله،أما الذين نجوا فكانوا الملك وقلة من الفرسان ، وقد دام القتال اربعين يوما ، فأما الملكة فارسلت تتضرع الى ريمند حاكم انطاكية وجوسلين،ولما سمع زنكي انهما يستعدان لياتيا اليه اصطلح مع الملك ورجع .

بهذا الزمان طرد الملك محمد ايضا اخاه دولت واخذ منه ابلستين وبلاد جيحان ودخل دولت لهنزيط ، ومن هناك الى أمد الى عند جوسلين ، وبقي يجول من ناحية الى ناحية .

وفي سنة ١٤٤٩ كانت الرها سجينة الاتراك الذين كانوا يسبونها دائما ، وكانوا لايتركون سكانها يدخلون ويخرجون بسهولة ، فاجتمع في سميساط عدد كبير من الناس ليدخلوا اليها قوت وذخيرة، وكان معهم نحو ثلاثمائة فارس من الفرسان الافرنج المسلحين بالرماح ، وكانت جملتهم نحو اربعة الاف نفر ، وكان معهم ابو سعد الشماس الطبيب وفيلوس ، وبينما كانوا ماشين خرج عليهم الترك من كمين بالليل بقيادة حسام الدين حاكم ماردين ، فقتل اكثرهم

واخذ الباقي عبيدا ومعهم ابو سعد وميخائيل ابـن السـمنة وابنه ، ولم يقدر ابو سعد ان يدرك من خلال صناعة التنجيم البـاطلة مـاذا سيحدث في ذلك اليوم ، واخيرا اخـذ حسـام الدين تمـرتاش مـن الافرنج ايضا قلعة كسوس .

وفي هذا الزمان دخل السلطان مسعود الى بـلاد كيسـوم ونهـب وسبى وخرج ، وبعد قليل دخل ، ولما راى ان الجميع هاربون احرق القرى وتركها رمادا ، ومن هناك مضى الى مرعش .

في هذا الزمن تعرض للخـطر دير مـار ابحـاي الذي هـو دير السلالم ، فقد كان في قلعة سويرك اناس من الارمن مـالكين بهـا ، وكان جدهم بو غوص قد مضى في ابتداء خروج الترك الاول الى بغداد وخراسان واسلم ، واخذ رسائل من سلطان التـرك الكبير ، ومـن الخليفة ان يبقى ذلك الموضـع ميراثـا لاولاده ، وقـد صـارت كل اجيالهم بالتسلسل مسلمين .

وفي هذا الزمان كان هناك امير اسمه عيسى مـن بني بـوغوص ، وكان دجالا وشريرا ويبغض المسيحيين بغضا شديدا ، وكان يحقـد على ميخائيل وقسطنطين الأرمنيين اللذين في جرجر ، وكانا يسرقان ويخربان بلاده ، وهو كان بالمقابل يسبي وينهب بلاد جرجر.

ولما راى ان الافرنج قد ضعفوا جمع الاتراك ودخل ونهب كل بلاد جرجر،فلما لم يجد في كل البـلاد مـايكفي للاتـراك مـن العلف والذخائر ، لان البلاد كلها كانت خرابا توجه الى الكنائس والاديرة لكي يؤمن حاجته منها ، فاتى اولا على دير مار ابحاي ، ولما لم يقدر عليه من ناحية شـاطىء الفـرات اصـعد بعض الرجـال الى اعلى الصخور ، ومن هناك نزلوا بالحبال ، وكانوا يقذفون حجـارة كبيرة حتى كسروا جانب الهيكل ، وحينئذ خاف الرهبان فخـرجوا اليه ، ولما تسلط كليا على الدير نهب واستولى على كل مقتنيات الدير من كؤوس وصواني فضة وصلبان ، وباقي الاشياء الموجودة هناك مـن زمان مار يوحنا بن عبدون .

وكذلك استولى ايضا على دير القناة واجلي المتوحدين الذين بـه الى دير شيرو ، وهم الربان داود ورفاقه ، ولم يبق سوى ابـو غالب في دير مائده الملك .

لما مات محمود سلطان خـراسان ملك اخـوه مسـعود الدجـال القاسي ، وهذا حالما تملك خرج الى بلاد اثـور وجعـل طـريقه على اذربيجان ، ودخل الى مابين النهـرين،ولما وصـل الى دارا نصـب خيامه عند البصرة .

وفي سنة ١٤٥٠ ملك محمد وجمع عساكره ودخل الى بلاد قيليقية واخذ من اليونانيين قلعتين،قلعة هاجاني وقلعة جينو فيرت،ثم دخـل الى بلاد قاسينوس التي على شاطىء بحر بنطس ونهـب وسـبا كل الشعب وباعهم عبيدا،وفي تلك السنة صعد زنكي الى دمشق وضايقها جدا ، فالتجا الى ملك القدس ، وزاد له الخراج فجاء لمعونته فهـرب زنكي .

وفي سنة ١٤٥٢ في تشرين اول دخل اتراك ملطية الى اديرة زوبـر وهي اديرة بيت قصب ونهبوها وخرجوا ولم يوجد من يردهم .

وفي شهر أيار اتى الافرنج لينتقموا لنهب الاديرة من اهل ملطية ، فوصلوا الى زبطره وعرقه فنهبـوا ممتلكات المسـيحيين لانهـم لم يلتقوا بالترك ، وبعد ان مضى الافرنج دخل الترك في إثـرهم فنهبـوا وخرجوا ، وهكذا كان المسيحيون ينهبون من الطرفين .

ودخل الافرنج الى ابلستين ونهبوا ممتلكات المسيحيين ، وقتلوا كل من صدفوه من الترك ، او اخذوهم اسرى ، فخـرج التـرك مـن هنزيط الى بلاد الافرنج فالتقوا بعشرين مسـيحيا منهـم القـديس مطران قليسورا ، وكان يعبد في جبل ابدهور ، ولكثره حنقهـم على المسيحيين ضربوا المطران ومن معه وربطوهم ليقتلوهم ، لكن فجاة سقط عليهم الخوف فهربوا وتركوهم مربوطين ، لكن المطران ومـن معه استطاعوا ان يحلوا اربطتهم وهكذا نجوا ، امـا التـرك فلمـا

دخلوا الى تلك البلاد قتلهم الافرنج جميعهم بالسيف ، وكان الافرنج منتصرين في تلك الايام لانهم كانوا متفقين .

وفي سنة ١٤٥٢ ايضا خرج ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك ، فخرج للقائه الملك محمد وبقيت عساكرهم وجها لوجه ستة اشهر ، ثم ابتدأ الملك يتقدم نحو نوقيسارية ، عند ذلك غضب الاتراك على المسيحيين الذين في بلاد مملكتهم ، فكان كل من يتلفظ باسم الملك ، حتى ولو بدون قصد ، كان يقتل بالسيف هو وبنيه وبناته وكل اهل بيته ، وكانوا يمارسون ذلك في باقي البلاد في ملطية ، الى ان عاد الملك الى مكانه ، لكنه لم يصنع لا قتالا ولا صلحا ، اما الملك محمد فقد دخل الى مرعش ونهب .

وفي تلك السنة خرج زنكي حاكم الموصل وصنع صلحا مع حسام الدين حاكم ماردين ، وقد تلاقى زنكي وحسام الدين وهما يركبان فرسيهما فنزل زنكي اولا عن فرسه ، ثم نزل حسام الدين وتحالفا وثبتا الصلح واستعدا للحرب مع داود حاكم حصن كيفا وطارداه ، فوجداه متوجها الى آمد ، ولما احس بهما احتمى بسور المدينة ، فاتيا من جنوب المدينة اولا ثم هجما عليه ، ونشب القتال من الصباح الى الغروب ، وفي وقت المساء انكسر داود وهرب،اما عساكره فبعضهم قتل ، وبعضهم اسر ، وبعضهم هرب ، اما ابن داود سليمان فقد اعتقله زنكي واعطاه الى حسام الدين فارسله حالا الى ماردين ، ثم عادا من باب آمد ونزلا على قلعة الصور (٢٨) قرب ماردين تحت حكم داود ، فاستعملا المنجنيقات الثلاث وصنعا بها ثغرة ، وبدءا الحرب فضعف الذين في الداخل ، وطلبوا عهدا للسلام ، لكن الحاكمان رفضا حتى اخذوها حربا ، فقطع الوالي وعبيده كل واحد الى اربع اجزاء ، واعطى زنكي تلك القلعة لحسام الدين ، ثم زاد فاعطاه سيجا وذو القرنين وساكن ، ومن هناك توجها لبرعية،ولما علم بهما حاكم برعية خاف كثيرا وسلم القلعة الى حاكم آمد ، ولما اتيا ونظرا حصانه الموضع الذي اعتصم به ، وكان كثيرون قد هلكوا في تلك الحرب تركوه وحلوا على آمد واقسما ان

يخربا كل البلاد إن لم يسلموا القلعة،ولما تضايق حاكم آمد سلمه لحسام الدين ومضى كل واحد لمكانه (٢٩)-

في سنة ١٤٥٠ في تشرين اول تراءت آية حمراء في السماء ناحية الشمال ، وفي ذلك الشهر صار زلزال ضرب ابراج بزاعا وابراج حلب ، كذلك كان الشتاء قاسيا من كانون الاول الى شباط ، وتجلد الفرات وصار الناس يمشون عليه وماتت البهائم والطيور من البرد في المدن.وفي برية الرقة كان اربعون فارسا يمشون فانخسفت الارض وابتلعتهم وبقي واحد لانه كان قد خرج لقضاء حاجة التغوط ، فلم يهلك معهم وبقي صوت صراخهم يتعالى وقتا ، وبهذه الزلزلة انشقت بيعة حارم ايضا وقرية الاثارب التي في تخوم جبل قورس ، انشقت في وسطها فخرج سكانها ، ثم انهارت .

وفي تلك السنة لم يات المطر الى نصف ايار ، فصارت الغلة متاخرة ، وقد صار في يوم احد العنصرة برق شديد ، قتل امراتين في ملطية واحدة كانت على السطح والاخرى في وسط السوق وطائري حر وذلك في تسع ساعات ، وفي ليلة ٢٢ حزيران ظهرت نيازك حمر من الجانب الشمالي الى الجانب الغربي .

وفي سنة ١٤٥٢ في ٢٩ تشرين اول صارت زلزلة وكان في العاشر منه قد كسف القمر ، وحصل موت في ملطية ففني الدجاج اولا ، ثم الطيور ، واخيرا صار الاطفال يموتون بمرض الجدري .

وفي شهر ايار في عيد مار برصوم اتى برد صعب في هنزيط وفي قلعة زياد ، كسر الاشجار والكروم ، وفي ذلك اليوم احرق البرق صبي وبغل .

وفي حزيران من تلك السنة هبت ريح صرصر قلعت الاشجار ، وسقط في بلاد ملطية في ذلك الوقت برجان في قراها

وفي ذلك الشهر وقعت زلزلة في شاطىء البحيرة في مدينة فيليقية الصغيرة التي تدعى كالينج ، وفي باقي الاماكن من تلك البلاد ، وفي كل ساحل البحر ،

وفي سنة ١٤٥٢ يونانية منذ منتصف شهر اب الى بـــداية شـــهر ايلول كانت تتراءى اشعة نورانية من الناحية الشـــمالية ، وفي الليلة الثانية من ايلول خرج نور من الشمال الغربي ، وبرق كالشـــمس ، فظن الناس ان السماء قد انشقت ،

وفي سنة ١٤٥٤ حرق البرد سميساط كلها

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٤ يونانية اوفد البابا الروماني اونوريوس (٣٠)الثاني (١١٢٤ ـ ١١٣٠) احد كرادلته الاثني عشر الى بلاد المشرق للنظر في احوال الكنائس والاديرة في البيت المقدس وغيرهما ، غير ان ذلك الكردينال ما ان وصل الى القدس وباشر البحث والتفتيش حتى ادركته المنية ، وقيل انه قتل بالسم ، فغضب البابا واوفد بدلا منه احد مندوبيه الاربعة الكبار،فاصلح ما اصلح، وعزل البطريرك الانطاكي،واقام بطريركا اخر عوضا عنه وتوفق في الحصول على رغباته .

بيد ان الروم اللئام المعتادين على المساوىء والشرور قصدوا مندوب البابا المذكور ، واتهموا السريان شعبنا والارمن مدعين انهم هراطقة ، فارتحل المندوب البابوي الى دلوك وزار غريغور جاثليق الارمن واستحضره الى القدس ، وعقد مجمعا صباح الاثنين اليوم الثاني لعيد القيامة بحضور وليم بطريرك القدس واساقفه الفرنج والجاثليق واساقفة الارمن واغناطيوس مطران السريان وفئة من الرهبان ، وجوسلين وسائر الامراء والاعيان وارسلوا يستدعون اساقفة الروم ويقولون لهم انكم قد ادعيتم ان السريان والارمن هراطقة فهلموا اثبتوا لنا دعواكم ، فكتبوا لهم الجواب اننا لانحضر المجمع لان ملكنا غير موجود فيه ، لكن الفرنج ارسلوا ثانية وثالثة يطلبون حضورهم فابوا وبذلك ابدوا بطلان مزاعمهم .

ثم ان الارمن كتبوا دستور ايمانهم ، وكتب السريان ايضا دستور ايمانهم ، وعرضوهما كليهما على المفوض البابوي وعلى اباء المجمع فنقلوهما الى الايطالية وتلوهما على مسامع الحضور اجمع ، فاثنوا عليهما ، واعلنوا انهما يشتملان حقيقة على دستور الايمان الارثوذكسي، ولم يكتف الفرنج بذلك بل سالوا الارمن

والسريان ان يبرموا القسم بانهم لايعتقدون قلبا اعتقادا مخالفا لما ورد في ذيذك الدستورين ، فالسريان ابدوا ذلك اما الارمن فلامتزاجهم بالخياليين والسيموذيين رفضوه ، وهكذا ارفض المجمع .

في سنة ١٤٥٣ صعد البطريرك ليصلي بالقدس فقام الترك ونهبوا كل البلاد بشكل فظيع فخربوا واحرقوا قرية حارم .

وفي تلك السنة مات حاكم قونية وملك عليها الملك محمود وفي سنة ١٤٥٤ في كانون الأول مات الملك محمود في قيسارية وأمر ان يملك ابنه ذي النون ، فقامت امراته واحضرت اخاه يعقوب ارسلان وتزوجته وملك على سبسطيه،فهرب ذو النون إلى سمندو وصارت له قيساريه وملطيه،فأما دولت الاخ الأكبر فأتى واتفق مع يونس حاكم مسارا ، وهاجما ملطيه فلم يفتحوا لهما لكي يدخلا ، ولم يكن لهما القدرة على القتال فرجعا إلى عرقة ، وعند ذلك ارسلت الخاتون ارملة الملك محمود بالفي رجل لكي يحفظوا ملطيه ، ولما عرف الذين بها ان مع هؤلاء امر بأن يخرجوهم ويخرجوا أولادهم من بيوتهم ويجلوهم إلى سبسطيه ويستوطنوا موضعهم غضبوا وتسلحوا بالسيوف ، وبينما هم يتجمهرون في الأسواق خاف المسيحيون كثيرا ، واخذوا يختبئون في الآبار وتحت الأرض لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يجري ، وكان يوم الأربعاء الأولى للصوم في ١٧ شباط ، فاجتمع الاتراك الذين في المدينة أمام القلعة وطلبوا من الوالي مفاتيح الأبواب لكي يخرجوا ويحاربوا القادمين ، فرفض الوالي أن يعطيهم المفاتيح ، حينئذ هجموا وكسروا قفل الباب بالفؤوس وكان يسمى الباب بوريديه ، اما الذي كسر القفل فكان اسمه (بوري) ، وقد تزعم الذين ذهبوا ، اما الباقي فقد وقفوا يحرسون الباب ، فمضوا واحضروا دولت في اليوم عينه ، ولما نظر الذين في سبسطية هربوا ، وخرج الوالي وسجد لدولت الذي دخل وملك المدينة فاصطلحت واستراح الأهالي .

وبعد مدة مضى دولت إلى اخيه يعقوب ارسلان واتفقا ، واتى اخذ

ابلستين وملك ايضا على بلاد جيحان ، ولما سمع السلطان زحف غاضبا ضد يعقوب أرسلان ، فخاف ذاك وهرب إلى الجبل اما السلطان ، فخرب سبسطيه ، ورجع وارسل دولت لكي يأتي فيقدم طاعته فيعطيه بلادا اكثر ، لكن دولت لم يذهب وارسل زوجته التي هي بنت أخي السلطان ، وتضرعت إليه ، لكنه لم يقبل ونزل على ملطيه في ١٧ حزيران ، وبعد أن نصب عدة ابراج للحرب سقطت ، فتردد وفتر عزمه ولم يحارب بشدة ، وبقي ثلاثة اشهر ، كان دولت خلالها يصادر أهل المدينة وخاصة الرؤساء ويعطي جنوده ، وحدث فجأة في ليلة عيد الصليب في ١٤ ايلول أن احرق السلطان المنجنيقات ، وارتحل فشعر أهل المدينة بالراحة .

في نيسان من تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين إلى قليقية ليصطاد كالعادة واخذ سهما مسموما ليضرب به خنزيرا في الغابة فأخطأ في ضربته ، ودخل بيده فسار السم في جسمه ومات .

وبعد مدة خرج ايضا ملك الأفرنج الذي بالقدس ليصطاد فطارد ارنبا فسقط من عزم الضربة عن الفرس ، ومات،وعندما لحقوا به وجدوا راسه داخل جثته .

وفي هذه الأيام مات داود حاكم قلعة زياد ، فهؤلاء الأربعة ماتوا في تلك السنة : ملك اليونانيين ، وملك الأفرنج ، والملك محمود ، وداود .

لما توفي يوحنا ملك اليونانيين في قليقية كان ابنه الكبير بعيدا عنه في مدينة المملكة ، فأمر أن يملك ابنه الأصغر فملك منويل ، وكان ذلك في نيسان سنة ١٤٥٥ يونانية .

ولما دخل القسطنطينية قبله أخوه وسجد له وثبتت له المملكة ، وفي تلك السنة مات أيضا ملك القدس وملك ابنه بلدوين لكنه كان طفلا فأخذت أمه تدبر المملكة .

وفي هذا الزمان توفي داود الأمير حاكم قلعة زياد وقام بعده ابنه

الأصغر قرا ارسلان ، وكان ابنه الأكبر عند زنكي فلما سمع زنكي قدم ومعه ارسلان طغميش بن داود وقدم السلطان مسعود فأخذ حاني ، ثم تحرك فأخذ ابلستين وكل بلاد جيحان ، وبعد هذا حل على ملطيه ، وجاء معه يعقوب ارسلان ، ولما كان السلطان متوجها إلى ملطيه اتى إليه قرا ارسلان بن داود وطلب منه أن يساعده لمواجهة زنكي الذي توجه نحوه ، فأعطاه السلطان عشرين الف فارس ، فمضى للقاء زنكي ، ولما سمع زنكي أن عسكر السلطان متوجهين نحوه رجع إلى أرضه ، ورجع كذلك قرا أرسلان فاسترجع بلاده التي كانت انتزعت منه فجلس السلطان في ملطيه ثلاثة اشهر دون أي قتال .

وفي منتصف اب ليلة عيد انتقال والدة الرب أمر عساكره ان يستعدوا للرحيل ، فجهز كل واحد حاجاته ، ورحلوا صباحا بعد ان نهبوا البلاد بأسرها ، وخلال هذا الصيف ، عندما كان السلطان متوجها إلى ملطيه ، اتى جوسلين إلى دير مار برصوم ليصلي ، فراى شعب بلاد قلوذيه هاربين من امام جحافل السلطان ، فلما سمع بكثرة عساكره رجع مسرعا إلى أرضه .

وفي سنة ١٤٥٥ في ٢٦ من تشرين الأول ليلة الجمعة صار زلزال فتشققت البيوت في مدينة قونية القريبة من مملكة القسطنطينية ، وخاف السكان وجف النهر الداخل إلى المدينة ، وبعد ثلاثة أيام وبينما كان يجتمع ماتبقى من الشعب ليصلي صار زلزال وفاض النهر وعاد للجريان .

وفي تلك السنة في ٢٣ آذار ليلة خميس الأسرار تراءت اية مخيفة في الغرب بعد غروب الشمس شبه الرمح ، ومكثت نحو ثلاث ساعات وقد تراءت سبعة أيام ، وقيل إنها تدل على الدم .

انتزاع الرها من يد الافرنج

حول زمان المحنة الأليمة التي نزلت بالمدينة الواقعة بين النهرين ، مدينة المسيحيين المجيدة التي ضربها سيف الترك ، وقد سمحت العدالة بذلك لأجل خطايانا .

لما طرد زنكي حاكم قلعة زياد ذهب إلى جوسلين واعطاه قلعة بابولا (٣١) لكي يعينه على زنكي كما ساعده السلطان مسعود ، لكن جوسلين لم يحسب انه ليس من مصلحته أن يعادي الترك لأجل هذا ، وارسل عسكرا لمساندة قرا ارسلان فحقد عليه زنكي .

ولما مضى جوسلين إلى انطاكية وصار بعيدا ، أعلم اهل حران زنكي انه لايوجد عسكر في الرها ، فجمع زنكي جيشا عظيما ، واقبل سنة ١٤٥٦ يونانية يوم الثلاثاء في ٢٨ تشرين الثاني على الرها بالوف ، واقاموا معسكراتهم عند باب الساعات بجانب بيعة المعترفين ، وارسل إلى اهل المدينة قائلا : سلموا حتى لاتهلكوا لأنه ليس لكم مهرب،وكان بها رئيس من قبل بابا الفرنج فأجابه إننا لانسلم ، وقد قال ذلك لأنه كان قد ارسل رسلا إلى انطاكية والقدس ليأتوا ويخلصوا المدينة المحاصرة .

فأما زنكي فقد بدا حربه في اول كانون الأول بعد أن هيأ سبعة منجنيقات يلقون الحجارة والوف وربوات من العساكر يرمون السهام كسقوط حبات المطر ، وكان اهل المدينة والشيوخ والصبية والرجال والنساء ورهبان الجبل يقفون على السور ويقاتلون ، ولما راى زنكي أن الشعب يقاوم بكل جبروت امر أن يحفروا تحت الأرض نفقا يصلهم بالسور ، وحفر اهل المدينة نفقا مقابلا من الداخل واشتبكوا داخل النفق وتكومت جثث القتلى ، فعزف زنكي عن ذلك وعاد الرهاويون وبنوا سورا داخليا ثانيا وخاصة حول الحفرة التي حفروها ، اما الأتراك فقد حفروا حفرة تصل بين

البرجين وملؤوها بالخشب ثم ارسل الاتابك من يقول للرهاويين خذوا منا رجلين وارسلوا لنا رجلين ينظرا الحفرة تحت البرجين اللذان اخذا يتداعيان ، وانصحكم أن تسلموا المدينة قبل أن أخذها بالسيف .

اما هم فقد هزئوا وسخروا به لانهم كانوا مطمئنين إلى قدوم الفرنج لنجدتهم ، عند ذلك اشعل الاتراك النار بالأخشاب ، فتداعى البرجان ، وحدثت معركة طاحنة امتلأ فيها الجو بالدخان ، واختلط فيها صليل السيوف بصراخ الرجال والنساء والأطفال .

ولما اكتمل احتراق الخشب وسقط السور والبرجين وظهر السور الجديد اندهش الأتراك لكنهم وجدوا انه قد بقيت فجوة بين السور الجديد والسور العتيق ، فاجتمع عسكر الترك حول هذه الفجوة يريدون الدخول منها فتصدت لهم جموع المدينة مع الأسقف والمطارنة من الداخل وحدثت معركة طاحنة امتلأت فيها الثغرة بجثث القتلى المهاجمين من الخارج والمدافعين من الداخل ، وبينما كان الشعب كله مشغولا في الدفاع عن الثغرة بقي السور فارغا من المقاتلين ، فنصب الأتراك السلالم وصعدوا ، وكان أول المتسلقين مقاتلا كرديا ، ولم يشعر الناس إلا والأتراك في وسطهم فوهنت عزائمهم وولوا هاربين إلى القلعة الداخلية .

وهنا وقعت المجازر ، ولست ادري كيف يستطيع اليراع أن يصف هول وفظاعة ماجرى خلال ثلاث ساعات من يوم السبت ٣ كانون الاول ، لقد كانت مذبحة شرب فيها الأتراك دم الشيوخ والصبيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والأطفال والمرضعات والعرائس . ياللخطب المرعب لقد استولى الخنزير الأثوري على الرها وداس العذب الحلو ، يا للفاجعة الكبرى ويا للهول المؤلم ، لقد كانت فاجعة مروعة الت بمدينة ادجر خليل المسيح ، داسها العدو بسبب اثامنا ، فقتل الكهنة وذبح الشمامسة ، ولقد تهدمت الهياكل والبيع . وكانت بالحق فاجعة سي

فيها الآباء الأبناء ، والأمهات الأطفال أمام السيف الذي كان لايميز أحدا ، ولقد كانت الأمهات يجمعن اولادهن كما تجمع الدجاجة فراخها انتظارا للموت أو السبي ثم العبودية ، اما بعضهم الأخر فقد فر إلى رؤوس الجبال .

اما الكهنة فكانوا يتراكضون مرددين قول ميخا النبي إني احتمل غضب الرب لأني أخطأت اليه (ميخا ٧ : ٩) ولم يوقفوا صلواتهم وابتهالاتهم حتى اسكتهم السيف ، ومن ثم وجدوا وقد ضرج الدم ثيابهم وصناديق عظام القديسين بين ايديهم.

اما الذين هربوا الى القلعة فلم يستطيعوا الدخول لأن الحراس الافرنج اغلقوا أبوابها وقالوا لن نفتحها حتى نرى الأسقف لكن الأسقف لم يستطع تخطي الناس ، فمات عدد كبير من الناس بين الزحام وتحت الأقدام وتكومت جثث القتلى الذين قضوا بها تلالا عند باب القلعة ، وعندما وصل الأسقف أنفتح الباب لكنه لم يستطع الدخول بسبب الجثث المكومة امام الباب من كثرة الزحام فاصطاده احد الأتراك بسهم وقتله.

ولما راى زنكي تلك الفظائع امر أن يتوقف القتل ، حينئذ احضروا المطران باسيليوس وهو حاف وعار ، ويجره تركي بحبل ، ولما راى زنكي أنه شيخ وقور سأل : من هذا ؟ فأعلموه أنه مطران فأخذ يعنفة لأنهم لم يسلموا المدينة ، أما هو فأجاب بشجاعة. لقد كان لك شرف غلبتنا ، لكن يجب أن يكون لنا شرف عندك لأننا لم نغدر ولم نحنث بأيماننا ، وكما حفظنا عهدنا مع الأفرنج فإننا الآن سنحفظ عهدنا معك بعد أن صرنا عبيدك ، ولما راى جرائته وهو يتكلم باللغة العربية الفصحى أمر فألبسوه قميصه وادخلوه الخيمة وجعله مستشاره لاعادة بناء المدينة ، ثم أخرج مناديا يقول على كل من نجا من السيف أن يرجع الى بيته.

وبعد يومين طلب الأمان كل من كان بالقلعة فأعطى لهم الأمان ، لكن فقط لمن بقي على قيد الحياة من شعبنا ومن

الارمن ، اما الافرنج فقد قتلوهم كلهم ، اما ما تبقى من قصص تلك الكارثة فلن نرويه ، بل نترك لأرميا النبي ولامثاله الذين افاضوا في المراثي ان يعودوا وينوحوا على ذلك الشعب الذي يستحق كل شفقة ورحمة.

وفي الوقت الذي استولى فيه زنكي على الرها كان الوالي على نصيبين اسمه تمرتاش،فلما انتصر زنكي هذه الانتصارات وقوي كثيرا خاف هذا الوالي أن يهاجمه زنكي ، ويأخذ أراضيه ، فأمر بهدم كل قلعة لم يستطع أن يحميها ، فتهدمت في هذا الزمان قلعة جرجر وقلعة تلبسمه ، وقلعة تل شيخ والقلعة التي بقرب دير مار حنانيا ، والمدعوة قلعة المرأة.

وحاول أن يخرب سرجه عند نصيبين فلم يستطع ابدا وذلك لقوه ومتانه بنائها العتيق ، فهدم فقط البناء الجديد الذي كان قد بناه هو ثم تركها خاليه .

في هذا الزمان تمردت قلعة تدعى الهتاخ ، وهذه القلعة لم تكن بأيدي الترك بل كانت بيد واحد من سلالة بني مروان الذين كان لهم اسم مملكة ، وكرسي بميافارقين ، وقد حدث بين حكامها خلاف تلته حروب انشقوا فيها على بعضهم،فلما رأى حسام الدين أن ليس لديهم اكراد يحاربون في صفوفهم ، وهم في الوقت نفسه منقسمون على بعضهم بعضا حاصر قلعة الهتاخ لمدة سنة واربعة أشهر ، ثم طلب احمد بعض الأراضي ، فأعطاه تمرتاش ذهبا وقرى من اقطاعاته مع القلعة،لكن هذا الكردي مالبث أن ندم فالتجأ الى حاكم أمد لكي يعيد له القلعة ، لكنه لم يفلح.

وبعد أن سقطت الرها خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وحل على تل ارسانيوس طالبا أن يسلموه له ، لكنهم رفضوا لأن أولادهم كانوا رهائن في قلعة زياد ، وقد نسيوا ما حدث لأهل الرها عندما عاندوا الترك وجابهوهم دون أن يكون هناك من يساعدهم فصاروا جميعهم

عبيدا ، وهكذا حارب أهل أرسانيوس واستعبدهم وباعهم وكانوا نحو خمسةعشر الف،بعضهم اجتمع خارج البلدة وبعضهم الآخر مع اسقفهم،وكان اسمه طيمثاوس.

وفي تلك السنة عندما أخذ الافرنج يتجمعون لنجدة مدينة الرها ، وصل اليهم خبر خرابها ، فحزنوا جدا عليها ، لكنهم مضوا نحو تل أعذى (تلعدا)(٣٢)فاجتمع عليهم الترك هناك ومنعوا عنهم القوت ، فتضايقوا من الجوع وهربوا،وحينئذ ترك أهل سروج المدينة وهربوا فدخل اليها الترك.

اما زنكي فبعد أن احتل الرها توجه الى البيرة ، واما جوسلين فقد ذهب الى القدس ليجمع جيشا ، لكن فتنة اشتعلت بالموصل واخرجوا الصبي ابن السلطان الذي كان محبوسا وقتلوا نصير الدين نائب زنكي ، ولما سمع زنكي ترك البيرة ومضى الى حلب ، واصطلح مع الافرنج ، وبذلك نجت البيرة منه.وبعد هذا ارسل زنكي رئيس عسكره زين الدين واصلح الحالة بالموصل ، ووضع ابن السلطان بالسجن مره أخرى فعاد وتقوى مركز زنكي ثانية.

لما ظهرت صحيفة مطران ماردين لتوضح أن خراب الرها لم يكن بأمر الله ، قام اياونيس اسقف كيسوم وابن اندراوس وعدد كبير اخر كتب كل واحد كتابا رد فيه على كلام مطران ماردين ، ولما وصلت الصحيفة التي كتبها مطران ماردين الى ملطية تصدى لها القسيس صليبا ايضا ، وهو معروف بأدبه وطلاقته،، وكان علما في جيله ،وضع كتابا رد فيه على مطران ماردين ، وكان قد ورد في كلام مطران ماردين ، انه ليس كليا بإرادة الله تأتي القربات والألطاف فيلقي عنايته الكل ، واذا علينا أن نفهم أن الارادة لها انواع ، والأمر له انواع والسماح له أنواع ، وهذا كلام باطل يثبت بطلانه بشهادات الآباء الألهيين الذين يقتدي بهم.

إن السبيل المقصود لنا في هذا الكتاب ليس هذه الأمور بل لنوضح

فقط ماذا صار وماذا حدث في كل زمان حتى لا يكفر القارىء إن انتقل الضمير من خبر الى خبر ، وهذا ماقصد ايضاحه.

اما من يريد ان يفهم الصحيح حول هذا الخبر فليقرأ الكتاب الذي جمعه البار مار ديونسيوس مطران أمد ، أي يعقوب بن الصليبي ، لأن كل شيء مفصل فيه بشكل جيد وموضح بالتحقيق وفقا لرأي المعلمين الحقيقيين.

وكتب ديونسيوس المطران ، وكان بعد شماسا لملطية قصيدتين بلحن مار يعقوب حول سقوط الرها.

وكتب ايضا باسيلوس مطران الرها ثلاث قصائد عن الرها لأنه كان حاضرا بها في المحنتين ، وقد كتب بالتفصيل حول ذلك ، وكل من يريد أن يتعرف على ما حدث فليقرأ هذه الميامر الخمس.

ويوم الخميس في ١٣ كانون ١٤٥٦ أي في الشهر الذي سبيت فيه الرها وقعت نار في دير القراريط في بلاد خرشنة،واحترق بها شيخ راهب،أما البقية فقد نجوا من هذه النار .

وفي ذلك اليوم ايضا احترقت قرية في بلاد مرعش.

كذلك يوم الجمعة من الشهر عينه أيضا وقعت نار في دير مار برصوم فأحترقت فيه ثلاث غرف.

وفي أول أيار تراءى كوكب مذنب في الساعة الحادية عشر من الليل ، وكان ذنبه تجاه اليمين ، وبقي سبعة أيام ثم تراجع وعاد فتراءى في المغرب سبعة أيام أخرى ، وفي ٢٤ أيار يوم عيد الصعود وقع زلزال شديد.

وابتدأ في هذا الزمان بلدوين الفرنجي حاكم كيسوم ببناء سورها بحجر وكلس ، وكان من قبل مبنيا بالطوب المجفف والطين ، وقد أثقل نير الظلم على المسيحيين ، حتى انه حول الكهنة الى عبيد ، وقد بنى نصف السور فقط ، ثم قتل فأوقف البنيان.

مقتل زنكي

في سنة ١٤٥٧ لما رأى الفرنج انهم ضعفوا مضى ريمـوند حـاكم انطاكية القسطنطيني الى منويل ملك الروم اليونانيين وطلب الغفران عن الخطيئة التى أخطأها مع ابيه ، لأنه سمع أن أبـاه أمـره أن ينتقم من الأفرنج ، ولما أظهـر التـذلل والندم أكرمـه وأعطـاه ذهبا ، واغدق عليه الهدايا الكثيرة ، وارسله الى مدينته ، لكنه طلب من الملك أن يهب لمعونه المسيحيين.

اما زنكي فقد جاء الى الرها ومكث يومين أحتفى بالسريان الذين بها ، وعامل المسيحيين المجتمعين فيهـا بـكل محبـة ورحمـة وشفقة ، ثم مضى الى قلعة جعبر على شاطىء الفـرات ، لكن المولى العالي سخط عليه ، وحكم عليه بما لا يعـرف،فقـام أحـد عظمـاء عسكره مع اثنين من الخصيان المقربين اليه وقتلوه بعد أن اكثر من شرب الخمرة ونام ، وكان ذلك ليلة الأحـد في ١٥ ـ ايلول بعـد أن ملك في الموصل وفي البلاد الأخرى تسع عشرة سنة وملك على الرهـا سنة وعشرة أشهر ، فأما الذين قتلوه فدخل واحد منهـم الى قلعـة جعبر ، ونجا ، وهرب الآخـر الى قـاليـنيقوس ، أمـا العسـاكر فتفرقوا.

أما اولاد زنكي فقد تفرقوا وتولى كل واحـد منهـم ناحية :حيث ملك محمود المدعو نور الدين مدينة حلب ، وملك الآخر المسمى غازي سيف الدين مدينة الموصل.

وقد صارت فوضى في البلاد ، فخرج لصوص الاتراك في كل مملكة زنكي ونهبوا بغير شفقة كل ما وجدوه.

وبهذا الزمان سـبي دير قـرتمين (٣٣)وقتـل منه أربعـة رهبان ، ودخل بهذا الزمان قرا أرسلان صاحب قلعة حصـن كيفـا

- ٢١١٧ -
الى طور عبدين (٣٤) لانها كانت فيما مضى لأبيه ، ثـم انتـزعها منه زنكي ، فعاد وتسلط عليها بعد أن قتل بها خلق لا يحصى عددهم
وقام في الموصل اناس اجتهدوا أن يملكوا بها لأن ابن السـلطان كان محبوسا بها ، فقـام زين الدين بـكل عنف وكسرهـم وقتـل اكثرهم ، وعاد فحبس ابن السلطان ، وملك بعد وفـاة زنكي سـيف الدين غازي ابنه •

- ٢١١٨ -

واقعة الرها الثانية

لما عرف الافرنج بمقتل زنكي عام ١٤٥٨ اجتمع جوسلين وبلدوين حاكم كيسوم في تشرين الأول وارتحلا الى ناحية الرها ، فتلسق رجال الافرنج ليلا على سلالم كانت مع رجال من الارمن كانوا يحرسون السور ، ودخلوا المدينة فلما فوجىء الترك هربوا والتجأوا الى القلعة الداخلية ، وفي الصباح فتح الباب المسمى باب الماء ، ودخل منه جوسلين ، وكان ذلك يوم الاثنين في ٢٦ تشرين ، لكن الأتراك سرعان ما أرسلوا يطلبون النجدة من حلب والموصل ، ولم تمض ستة ايام كان الأفرنج فيها ما زالوا يفكرون كيف سيقتحمون القلعة الداخلية ، حتى أطبق عليهم الأتراك من كل ناحية وصوب كالجراد الذي لا عدد له ، فلما رأى الافرنج ذلك خافوا وارتعدوا ، لقد ابتعدوا عن طريق الرب واندفعوا في طريق الخطيئة ، فصار الله خصمهم ، فجمعوا كل شعب المدينة الشقي وساقوه امامهم ، وكان ظنهم أن يفلتوا من براثن الترك الذين كانوا يحيطون بهم في كل مكان ، ولقد كان شعبنا الذي لا يعد ولا يحصى يساق سوق الأغنام والدواب ، وفجأة لم يروا الا الأتراك حولهم ، فعندما كانوا وراء الاسوار وخلف المتاريس لم يستطيعوا أن يقاوموا الترك ، فكيف سيجابهونهم في وسط الصحراء؟ لقد قسيت قلوب الافرنج فجروا هذا الشعب المغلوب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل بعد أن أشعلوا النار في بيوتهم ومدينتهم ، وعندما شاهدوا ذلك اخذوا يصرخون ويبكون ويترحمون أو يحسدون الذين ماتوا في المرة الأولى ، لأنهم لم يروا تلك النار التى أشعلها الافرنج لتحرق أرزاقهم واموالهم والسيف المسلط فوق رؤوسهم ، ومات العديد منهم دهسا تحت خيول الافرنج في قلب الظلام ، أما الذين لم يخرجوا بسبب ضعفهم أو شيخوختهم ، وكذلك الذين اجتمعوا في البيع وفي الأقبية والدهاليز فقد انقض عليهم الأتراك الذين في القلعة الداخلية واخذوا يعملون السيف في رقابهم ، فلم يبق منهم أحد ، أما

الذين اخذهم الفرنج الى الخارج فقد تركوهم وهربوا ، فأحاط بهـم الاتراك ، وبالهول ما حدث وفظاعة ما جرى ، كانت الدمـاء تسـيل كالانهار والصراخ يعلو حتى يشق عنان السـماء ، ولقـد كانت ليلة ليلاء المت بالرهاويين ، لقد بقيت السهام تخرق اجسامهم وحـوافر الخيل تسحقهم ، والسيف يقص رقـابهم طـوال الليل ولمدة سـت ساعات.

اه يا اخوتي من لم يبك اذا سمع ، لقد هـرب فـرسان الافـرنج الاشقياء وتركوا هذا الشـعب الأعزل بعـد أن سـاقوه الى حتفـه ووضعوه في جحيم المعركة ، والتجأوا الى قلعة خربة مهجورة تدعى حصن كوكب ، واستطاع أن يهـرب معهـم الف رجـل مـن الذين استطاعوا الركض ، حينئذ وبعد أن تعب الأتراك مـن القتـل وملوا اوثقوا الباقين بـالحبال بعـد أن نزعوا عنهـم ثيابهـم واسلحتهم ، اوثقوهم حفـاة عراة رجـالا ونسـاء بـأذناب الخيل والعصي فوق رؤوسهم ليسرعوا مع الخيل ، اما مـن كان يقـع على الارض فكانوا يشقون بطنه بالسيف.

لقد قسا الزمان على المسيحيين فتكومت جثث الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والفقراء والأغنياء ، وعلى الرغم من أن موتهم كان مريرا لكنهم لم يتعذبوا كالذين بقوا على قيد الحياة ، لقد ملأت الجثث البراري حتى انتـن الجـو ، وصـارت مـأكلا للحيوانات المتوحشة وللطيور الجارحة ، وامتلأت بلاد آشور بالأسرى ، امـا بلدوين حاكم كيسوم فقد قتل ولم توجد جثته ، اما جـوسلين الأثيم فقد فر الى سميساط ، ونجا ، وكذلك هـرب المطـران بـاسيلوس ونجا ، أما مطران الارمن فقد قبض عليه مع عدد كبير من جماعته.

وكان الافرنج قد التجأوا الى قلعة كوكب كما قلنا ، فلحـق بهـم الأتراك لكن المساء كان قد أدركهم فتركهم الاتراك وتوجهوا للنهـب والسبي لأن هذه البقعة كانت مملوءه مـالا وذهبـا ، ومقتنيات منذ اجيال كثيرة ، حملها اصحابها مـن تلك المدينة المذكورة التـي كانت تتعرض باستمرار للغزو.

وعندما عاد الترك الى القلعة الخربة كان الافرنج قد خرجوا تحت جنح الليل في الليلة نفسها ، ووصلوا الى سميساط ونجوا.

وقد كان تعداد الذين قتلوا في المرة الأولى والثانية ثلاثين الفا تقريبا ، وكان تعداد الذين أسروا ستة عشر الفا ، والذين نجوا الف رجل وامرأة واحدة ولم ينج أي ولد،وقد تبدد اهل الرها في طول البلاد وعرضها ، وبقيت هذه المدينة خالية خاوية تروع الناظرين وتقص عليهم ما جرى لها ، ثم اصبحت مأوى للوحوش وباقي الحيوانات ، ولم يدخلها سوى الذين كانوا يأتون اليها من اهل حران بحثا عن الخزائن المطمورة والمتاع والمقتنيات التي كان لها اصحاب يوم ما.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع من في ايطاليا اخبار الفظائع التي وقعت بالرها أجتمع الافرنج وتوجهوا الى المشرق بأعداد كبيرة لا تحصى ، وكانوا بقيادة ملكين كبـرين وبعض القمـامصة ، فـأقبل ملك الألمان (٣٥) مـع تسعمائة الف فارس وملك فرنسا مع خمسـمائة الف فـارس مـع شعوب أخرى مختلفة الألسن.

فلما سمع بهذه الحملة الكبيرة ملك اليونان منويل خاف اذا دخلوا البحر وملكوا أن يطيحوا بمملكة اليونانيين ، فاتفق مع الاتراك على أن يعيق قدومهم ، واستطاع أن يؤخرهم سـنتين لكنهـم في سـنة ١٤٥٩ يونانية هاجموا القسطنطينية بعد ما عرفوا باتفاق اليونانيين مع الاتراك وحاولوا تخريبها غير أن ملك اليونانيين أعطاهم ذهبـا كثيرا ، وعاهدهم أن يرسل معهم مـرشدين يدلوهـم على الطـريق فكفوا عن قتالهم له ، بيد أن ملك اليونانيين غدر بهم فساقهم أدلاؤه في طرق جبلية وعرة قاحلة لا مـاء فيهـا ولا خضراء ، ثـم تـركهم اليونانيون وانسحبوا ، فتاه الافرنج وبقوا خمسـة أيام يسـيرون دون أن يعرفوا الى أين ، فهلك الوف منهـم عطشـا مـع خيلهـم ودوابهم ، ولما عرف الاتراك بهم وبحالتهم انقضوا على شـتاتهم في تلك المسالك الوعرة ، وأخذوا يفتكون بهم جمعا وفرادى حتى تعـب الاتراك من كثرة القتل ، وقد امتلات بلاد الأتراك من ثياب الافـرنج ومتاعهم ومقتنياتهم ، حتى بيعت الفضة بملطية بسعر الرصاص.

اما الفرنج الذين هربوا من المعركة فقد وصلوا الى شاطىء البحر منهكين جائعين ، فأخذ اليونانيون يخلطون القمح بالكلس ويطعموه لهم ، وسرعان ما كانوا يسقطون أمواتا ، وقد قتل اليونانيون الوفا منهم بهذه الطريقة.

وقد صار ما جرى حكاية للأجيال القادمة تحكي أن شعبا عظيما وكثير العدد قد غلبه شعب أقل منه عددا وعدة بواسطة الحيلة.

- ٢١٢٢ -

اما ملك رومية فقد مرض ومات ، ونجا ملك الألمان مع ثلاثة مـــن القمامصة فذهبوا الى القدس ، وبعد أن أقام هناك عدة أيام زحـف إلى دمشق فأرسل معين الدين أنر صاحب دمشق وأهل دمشـــق الى

ملك القدس سرا يقولون: أتظن أن هذا الملك الكبير اذا استولى على دمشق سوف يتركك في القدس ؟ نحن أخبر منك بهؤلاء ، خذ منا هذا الذهب وادفع بهؤلاء الى البحر لتتخلص منهـم ، وتصـــون نفســك ومملكتك ، ثم أعطوه مائتي الف دينار ، وكذلك اعطوا حاكم طبـــرية خمسين الفا ، فلما اخذوا الذهـــب ورجعـــوا الى القـــدس وجـــدوا الدنانير نحاسا مـــطليا بــــذهب مصري فحــــزنوا وندمــــوا على فعلتهم ، أما ملك الألمان لما نظر انه وقع ضحية حيلة فاضحة رجـــع الى بلاده يجر أذيال الخيبة والاخفاق ، وهكذا لحقتهـم لعنة نهـــاية الرها التي خربوها ضد ارادة الرب.

- ٢١٢٣ -

قصة دمار الرها حسبما كتبها البار دونسيوس مطران آمد

قال : لقد حل بهـــا الخـــراب والفناء بســـبب المســـيحيين انفسهم ، لأن الله أراد أن يؤدبهم ، لأن الأعداء لايمكن أن يقهـروا المسيحيين بدون سماح الرب وموافقته ، وقد يقول بعضهم إن هـذا تجديفا ، لأن الرب لا يسمح بهلاك جبلتـه ، ولا يســمح للأعداء أن يسبوا العذارى ويقتلوا الناس ، لكن الصحيح إن الرب أمـر بـذلك لاننا تركنا طريقه التي هـي تجلب لنا مـا نسـتحق ، فـــإن اردنا الخير يعيننا الله العلي العظيم ويمسك بيدنا على كماله ، وإن أردنا الشر فيقودنا الشيطان الى هلاكنا مثل اهل الرهـا الذين نكبـوا في المرة الثانية نكبة اشـد وافـظع مـن المرة الأولى ، فيا أيهـا البشر لاتظنوا أن هذا قد حدث بسبب خطيئة شعبها فقط ، وإنمـا بسـبب خطايا كل الناس في كل مكان،مثـل عكار الذي اخـطأ وحـده فـأتى العقاب على كل قبيلته،واولاد عيلي الذين قتل بخطاياهم أسباط بني اسرائيل ، فعندما يخطيء القليلون الحقيرون ينسحب عقـابهم على كل الشعب ، فكيف بالحري في هذا الزمـان الشرير الذي كل واحـد انحرف عن الحق ، وعمل الاثـم وابتعـد عن العفـة ، لذلك أدبـه الله ، ولذلك ياأخـوتي علينا أن نخـاف ونفـزع ونطـرح عنا الخطيئة ، ونفكر بالروح ، وليس بالجسد وإن ما حدث من الغضب يكفينا الآن.

قصة الرها من تاريخ باسيليوس مطرانها

بعـــد الطـــوفان الذي صـــار في أيام نوح بنى الرهـــا الملك نمرود ، وكان في بني كنعان ودعاهـــا « اور » اي القـــرية ثـــم زاد الكلدانيون بها اللاحقة ـ «ها» فصارت تعني قـــرية الكلدانيين مثـــل أورشليم التي تتألف من أور وشليم ، أي قرية شليم .

وقد ازدهرت الرها وأخصبت وبقيت زمانا طـويلا هـكذا ، ثـم خربت وانتهت ، يقول يعقوب الرهاوي عن خـرابها : على حسـب الظن ان الرها خربت في ايام صعود سنحاريب الى دمشـق ، وبقيت مهجورة الى أيام الاسكندر ، حيث أعاد بناءها العمال الذين صعدوا معه من مكدونيه وسموها « اديسا » اي المحبوبة على أسم مدينتهم التي في « مكدونيا » .

وبعد ثلاثمائة سنة ملك فيهـــا الملك ابجـــر بـــن معنو الذي آمـــن بالمسيح ، وبعد أبجر وأولاده حكمها ملوك رومـــانيا ، وكانوا بعـــد وثنيين يسجدون للأصنام ، وقد بقيت تحت حكم هؤلاء سبعين سنة أخرى وبهذا الزمان استشهد المعترفون المتشرفون شمونه وجـــوره وحبيب وقزمان ودميان .

ولما ملك الملك قسطنطين عظمت بـــالمسيحية ، وبنوا بهـــا هياكل عظيمة ، وحين ملك يوليان الوثني لم يستطع ان يستعبدها ، لاهـــو ولا أويس الهرطوقي ، وبعد هذا عاشت الرها في سلام أبان الفتـــرة المسيحية وحتى عهد مرقيان الهرطوقي .

وكثر الاضطهاد في ايام يوسطنيان والذين بعده .

وفي ايام هرقل صـــارت في أيدي العـــرب منذ أيام عمـــر بـــن الخطاب ، ثـــم انتقلت الى ايدي التـــرك وبقيت نحـــوا مـــن أربعين سنة .

وفي أيام العرب تهدم سورها الحصين الذي بناه سلوقس ، وقد وصفه مار افرام ،أما سبب هدمه فهو لما بنى المنصور الدوانيقي ، قصرا في الرقة ارسل فطلب من الرهاويين اعمدة صغيرة من الرخام من بيعة الخبيزة ، فرفضوا ان يعطوه فحقد عليهم ، لكن هؤلاء من خوفهم عصوا عليه ، فزحف ضدها وخرب هيكل مار سرجيس ، وحينئذ ذهب بعض أهاليها سرا اليه ، اما هو فأقسم أنه لن يقتل او يسبى او يغير اي شيء ، لكنه سوف يأخذ من المدينة حصانا ابيض ويذبحه علامة للانتقام فقط ، أما هم فلم يفهموا ماذا كان يقصد بكلمة حصان حتى دخل وتملك ، حينئذ اخبرهم أنه قصد بالحصان الحصن الذي اسمه حصان فهدمه ، وكان سورا عجيبا ، ولم يترك سوى نبعا واحدا تخرج منه مياه الطواحين .

وبعد اربعين سنة في ايام المأمون أعاد بناءه ابو شك الجوني الذي عصى على المأمون .

وبعد مدة ملكها اليونانيون بواسطة رجل اسمه سالمون ، خان الأمير وسلم القلعة العالية التي كان يناوب بها الحراس الى رجل يوناني اسمه مانيج ، ولما أخذ العرب الذين بها اولادهم وهربوا ، أخذ المسيحيون أولادهم وخرجوا معهم لأنهم كانوا معتادين على العيش معهم ، فهم يتكلمون لغتهم العربية ويكتبون بخطهم العربي ، وكان ينفرون من اليونانيين بل يخافون منهم لأجل هرطقتهم وشرهم ، وبعد ان خرج العرب والمسيحيون فرغت المدينة وبقيت خالية بيد اليونانيين تقريبا بعد ان رجعت اليها شرذمة قليلة من الشعب والباقي تبددوا الى حد تكريت ، وبعد فترة يسيرة قام فيها مدبر من مملكة اليونانيين كان شريفا ومؤمنا واسمه ابو كنعب ، وقد ارسل هذا الى مار دونسيوس البطرك ورسم مطرانا للرها هو اثناسيوس ، وهو يشوع راعي دير مارابحاي دير السلالم .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، وقد ازدهرت الرها في أيام هذا

المدير لانه كان يصغي دوما الى المطران ويسترشد بآرائه ، وقد جمع سكانها من كل الأمكنة التي تشتتوا بها ، كذلك مضى المطران الى ارمينية وحتى منبع نهر الفرات وجلب خشبا وبنى بيعة مريم والدة الاله وبيعة مارثاودروس الكريمتين .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، ولما قوي الأتراك في تلك الأيام مضى فيلاردوس الى سلطان خراسان واعلن اسلامه ، ولما سمع بنو هرون ان فيلاردوس قد اسلم عند سلطان خراسان قتلوا واليه وكان اسمه فارجيكاس ، وبعد هذا ملك بها بوزان ، ولما قتل تتش بوزان ضبط تادروس بن هاتيم الحكم فيها سنتين في أيام أثناسيوس المطران بن يسى .

ولما خرج الأفرنج ونظر ابن هاتيم انه لن يستطيع ان يحفظها سلمها للفرنج ، فملكها الأفرنج وكان اول من ملك بها الكونت بلدوين الذي قتل ابن هاتيم ، ولما مات أخوه غودفري ، عندها صار الكونت هذا ملك القدس وصار بلدوين بالرها ، ولما مات ملك القدس استلم مكانه بلدوين فأخذ الرها جوسلين ، وبعد موته ملك فيها ابنه جوسلين الثاني وفي ايام هذا اخذها زنكي ، وفي ايام زنكي خربت كليا سنة ١٤٥٨ يونانية

تملك توماس الأرمني

لما مات لاون الأرمني في القسطنطينية كما أوضحنا من قبل صار آنذاك قسم من بلاد قليقية مع اليونانيين ، وقسم مع الترك ، ولما مات الملك يوحنا ، هرب احد اولاده واسمه توماس مشيا على الاقدام لايحمل شيئا معه ، ومضى سرا الى مار اثناسيوس مطران البلاد ، لانه كان يؤمن ببركة هذا الشيخ الجليل منذ أيام أبيه ، فطلب صلواته ليرد له الله بلاد أبيه فمنحه بركته والدموع تتساقط من عينيه ، وأعطاه فرسا ، ولما اقتنى مركوبا تبعه اثنا عشر رجلا أرمنيا ، وتوجه الى القلعة المسماه قلعة عامودا ، ولما احس سكانها ان ابن سيدهم القديم قد اتى اعتقلوا اليونانيين الذي بداخلها ، وسلموا القلعة لتوماس هذا فذاع صيته وبدأ الجميع يحسبون له حسابا ، من اليونانيين ومن الأتراك معا ، وقد ملك بلادا كثيرة في مدة وجيزة ، وتبعه شعب عظيم من الأرمن والافرنج .

ثم ذهب توماس هذا الى رعبان عند سيمون الأفرنجي حاكمها ليتزوج ابنته ، فصدف ان هاجمه الأتراك لينهبوا البلاد ، فهاجمهم توماس وقتل نحوا من ثلاثة آلاف وخلص المسيحيين وأنقذ كل البلاد ، فعظم في ذلك وتشرف ، ولما رجع الى قليقية ترك اليونانيين والاتراك المدن والقلاع وهربوا من امامه ، وملك على عين زربة وباقي مدن قليقية .

وفي السنة التي تملك فيها توماس ١٤٥٩ يونانية غزا نور الدين ابن زنكي بلاد انطاكية ، وكان جوسلين حاقدا على ريموند حاكم انطاكية لانه لم يساعد الرها ،وكان فرحا بهلاكه وهلاك بلاده ولما عرف بذلك نور الدين حاكم حلب فرح كثيرا ، وأرسل رسلا وعقد صلحا وعهودا مع جوسلين ، والتقوا في البقعة التي بين حلب

وأعزاز واتفقا وثبتـا العهـود واختلط الأفـرنج والاتـراك وأكلوا وشربوا سوية بالفرح ، وقد صار هذا لسقوطهم ، فبهـذه السـنة حنق ملك جزيرة صـقلية على ملك اليونانيين لكونه خـدع الأفـرنج وأهلكهم بالحيلة فانتقم لشعبه ، فهـاجم مـدينة تـابيس وقتـل اليونانيين وهـدمها واحتـل أدرنة وفيلبـة ، وخـرج منويل ملك اليونانيين لينتقم من الرومان ، ولما نزل على إحدى القـلاع أرسـل ملك صقلية عساكر كثيرة من السفن في البحـر ، فنهبـوا وارتـكبوا كثيرا من الفظائع بـاليونانيين ، ووصـلوا حتـى القسـطنطينية وهاجموا القصر المبني على شـاطىء البحـر ، وأخـذوا يرشـقونه بسهامهم ، ولما سمع ملك اليونانيين ، ترك القلعـة ورجـع فـالتقى اليونانيون والأفرنج وجها لوجه ، وصارت حرب عظيمة في البحـر ، وقتل أناس كثير من الجانبين ، وأخيرا رجع الأفرنج إلى بـلادهم ، ورجع اليونانيون وملكهم إلى القسطنطينية .

كمل هذا الخبر وأرجو من كل من يقرأ في الكتـاب أن يدعو لي في صلاته لأني خاطىء وذليل وضعيف ، وله أجر من صاحب الجزاء .

في سنة ١٤٥٩ يونانية قـل المطـر في كل مـكان وشـحت مياه الينابيع ، ووقع الناس في شـدة عظيمـة وهجـرت أمـاكن كثيرة ، وفرغت من السكان الأماكن التي نضبت فيها الأنهار والعيون وفي السنة التي تلتها لم ينزل المطـر حتـى نصـف كانون الأول ، ومـر شتاءان كالصيف ، وقد وقع الناس في شدة عظيمة مـن العـطش ، حينئذ أشفق الرب ، وأرسل المطر فشبعت الأرض وارتوت ، وصـار شتاء طيب ورطب وخصب كالربيع .

في ٢٥ كانون الثاني تراءى كوكب مذنب في نصف السـماء قبـل المغرب ، وبقي مدة شهر ، وفي ١٦ شباط تـراءى آخـر غيره مـن الشرق وقت السحر ، وبقي خمسة أيام وصـار قلة في المطـر حتـى جفت أكثر الينابيع .

وفي تلك السنة ولد بالقسطنطينية ولد مـن جـارية ، له في مقعـده عيون وفم وأسنان وذنب .

وفي هذه السنة نبعت بالقسطنطينية بدعة رديئة جدا كانوا يسمونها فوجو ليموس ، وقد تبعها جملة رهبان وبعض الشعب حتى بطريركهم ، فنفي وصار غيره مكانه ، وكانوا يعتقدون أن المسيح إنسان ساذج توكل للعناية على هذا العالم ، ويقولون إن الشياطين يبنون لهم بيوتا ويعدوهم بمال وسلطان أيضا ، وكانوا ينفرون من السجود للصليب .

وقد انطبق على الخلقيدونين ماقاله الرسول الالهي : لما ظنوا أنفسهم انهم حكماء ، عندها جهلوا لأنهم مالوا عن الحق وسقطوا في وحل نسطور ، ومزجوا الحق بالاثم ليضللوا البسطاء ، فسمع الله بهم وسقطوا في أباطيلهم ، وصارت مدينة قسطنطين البار مقرا للشياطين ، واتسعت هذه الضلالة حتى أسقطتهم في وسط الحفرة ، وهكذا تمت عليهم كلمة صفنيا النبي القائل : من القدم إلى الرأس ليس فيهم موضعا صحيحا .

بعد مصرع الرها المروع ، هرب مطرانها باسيليوس إلى سميساط فأتى بعض من أهل الرها إلى جوسلين ، واتهموا المطران الشيخ قائلين: لقد طاب له حكم الترك ، وحالما سيشعر بالضيق عندك فانه سيمضي راجعا اليهم ، فأجاب جوسلين: من الخير أن يموت لئلا يعيد الذين بقيوا على قيد الحياة الى الترك ثانية ، عند ذلك امسكه جوسلين وحبسه في قلعة الروم مع الأسرى العرب وبقي هناك ثلاث سنوات ، وقد كتب فيها ميامره مع أمور أخرى ، كذلك كتب ضد الذين قالوا : من الآن انتهت البركه التي وهبها المسيح سيدنا للملك الأبجر ، وبعد أن خرج من الحبس كان يتجول ويجمع الصدقات ليفتدي أهله وقبيله في سجون الأتراك ووصل إلى أنطاكية والى القدس ، وقد استقبله بترحاب الملك والبطريرك الافرنجي ، ولما رجع ووصل الموصل وتواجه مع زين الدين الحاكم خليفة زنكي والذي كان يدبر الأمور مع ابن زنكي ، أيضا أكرمه ومنحه عطاء يكفيه لمعيشته ، وبعد أن بقي هناك مدة توجه نحو ماراثنا سيوس البطريرك الذي كان مقره في ذلك الزمان في آمد التي بين النهرين ،

- ٢١٣٠ -

وطلب منه أن يعطيه رئاسة مرعش وسيبارك (سويرك) والشمال وكانت منذ زمن تتبع لمطران الرها .

وفي سنة ١٤٥٨ يونانية نزل تمرتاش حاكم ماردين على دارا واخذها ، حينئذ صعد غازي بن زنكي ونهب كل ما بين النهرين ، وعندما تواجه الجيشان وشعر الجميع ان لابد من المواجهة اجتمع قضاتهم وتوسطوا بينهم ، فأرجع حاكم الموصل المنهوبات وآخذ المدينة .

وبعد ذلك قوي الاتراك كثيرا ، واخذوا يدخلون بلاد الافرنج من كل جانب ودخل قلج ارسلان بن السلطان مسعود الى بلاد جيحان ونهب مرعش ، ثم عبر الاتراك الى بلاد كيسوم فخرج الى لقائهم رنجر الذي حكم كيسوم بعد مقتل أخيه بلدوين .

وفي هذا الزمان خرج منويل ملك اليونانيين ليقابل السلطان مسعود ، فجمع السلطان أمراء الاتراك والعساكر من بغداد ومن خراسان ، وفي باقي البلاد ولما تدانى العسكران للحرب علا صوت الفرنج فجأة ففزع الجانبان وخافا فاصطلحا ، ورجع ملك اليونانيين ليحصن بلاده ورجع السلطان الى ارضه .

« نهب جوسلين دير سيدنا مار برصوم في سنة ١٤٥٩ يونانية »

دخل جوسلين الدير في يوم السبت ١٨ حزيران سنة ١٤٥٩ يونانية ، وأخرج منه الرهبان يوم الاثنين في العشرين من الشهر نفسه ، ووصلوا يوم الثلاثاء إلى حصن منصور وذاع الخبر ، وغضب الشعب وهاج ، ونصحه بعض المقربين أن لايترك الدير بدون رهبان لأن الشعب يهم بالدخول إليه ، فطلب أن يعطيه الرهبان عشرة آلاف دينار ليعيد لهم الدير ، ومضى أناس من جماعة جوسلين وأحضروا الصندوق الموضوع به يمين القديس وأثاث ومقتنيات الأديرة الأربع ، والذين كانوا مخزونين في الدير نفسه ، وهم دير مار أبحاي ودير سرجيسيه ، ودير مانيق ، ودير البارد ، وبقي في الدير بعض الرهبان والعمال ، وصار راعيا للدير شيخ راهب اسمه مودعل ، ووضع جوسلين بالحصن العالي عشرين جنديا أرمنيا ، ومعهم آخرين ، لكن أولئك استولوا على كل ماوجدوه بالدير من حنطة وخمر وزيت وعسل وثياب وأواني .

ولما أخذ جوسلين بدون رحمة أو شفقة القديس والرهبان إلى تل باشر كان ضمنهم هناك أناس من الافرنج ، ومن السريان ومن الأرمن وقد دفعوا ذهبا لخلاصهم ، وكان جوسلين قد أمسك أيضا مع الرهبان والقديس ثلاثة مشايخ هم : داوود ويعقوب وسرجس .

لكن في شهر آب رجع الباقي إلى الدير ، وغادره الأرمن الذين أتى بهم جوسلين وكان رئيس الذين رجعوا عازار الشيخ ، ومعه قسطنطين وأحضروا معهم مارايوانيس أسقف كيسوم ، ولما دخلوا الهيكل وجدوا أن المائدة المقدسة مقلوبة والدير كله مدنس ،فأجهش الجميع بالبكاء بأصوات شجية كل ذلك اليوم ، وبعد هذا طلب الجنود من الرهبان بأن يحلفوا لهم إذا جاء جوسلين مرة أخرى أو

ابنه أن لايغلقوا الباب في وجهه ، وكان عدد الجنود مائة وخمسين ، فرفض الرهبا ن أن يحلفوا لهم ، لذلك بقي الافرنج والأرمن سبعين يوما في الدير وأوقفوا الصلوات والخدمة وأطفأوا المصابيح ، ثم أرسلوا خبرا إلى البطريرك في آمد ، فأصدر أمرا إلى مطران كيسوم بأن يقوم هو بالصلاة في هذه الأماكن المقدسة ، ثم أكمل التطهير والتجديد حسب الناموس وأقاموا راعيا للدير اسمه عازر بأمر البطريرك ، ووضع صائغ ومدبر وأناس لباقي الخدمات كالعادة وبحسب ناموس الدير المتبع منذ الأجيال الأولى ، وأعطى كل واحد من الرهبان والعمال ماعنده من الذهب إلى جوسلين وذلك لافتداء هذا المكان المقدس .

وهكذا رجع دير سيدنا مار برصوم بقوة الله الذي سمح بأن يكون هذا تأديبا لنا ، وأمر بهلاك الطاغيه جوسلين الثاني بن جوسلين ، الكافر العاتي الذي احتقر الكنيسة المقدسة والمذبح والأواني القدسية ، فضرب الله جوسلين في ذلك الوقت وأهلكه عقابا عادلا له كما أوضحنا القول .

إن ماكتبناه كاف لأن يوضح كيف ومتى سبي دير القديس مار برصوم ، ويجب أيضا أن نوضح ماحدث في ملطيه .

كان بذلك الزمان يملك في ملطية دولت التركي ، وكان يضع خراجا على الدير يعطيه لملطيه ، وقد وضع هذا الخراج بالقوه الأمير غازي دولت ، لكن لما سمع دولت أن جوسلين دخل الدير ظن للوهلة الأولى أن الرهبان سلموا القلعة لضيقهم من الخراج الذي زاد عليهم ، وكان يعرف أنهم كانوا يتشكون ويتضجرون من ارتفاعه ، لذلك صب الأمير غضبه على المسيحيين الذين في ملطيه قائلا لهم : إن أهل إيمانكم سلموا القلعة إلى الفرنجة ، وأخذ ينتقم منهم ، وكان أهل ملطيه حزانى على سبي الدير من جوسلين ، فأتى الضيق والاضطهاد ليزيد عليهم فوق الحزن شدة ، فأبطلوا الصلوات وأوقفوا قرع النواقيس في البيع لمدة ثلاثة أيام إلى أن تحقق الأمير أن الرهبان لم يسلموا القلعة الى جوسلين ، لكنه دخلها بالحيلة

والخداع ، فأوقف اضطهاد أهل ملطية ، واستعد جمع من العسكر ليذهبوا ويخرجوا الافرنج في القلعة ، وفي تلك الفترة تدخل التدبير الالهي فتطوع إثنا عشر راهبا وخمسين متعبدا كانوا قد أتوا من بلاد قلونية إلى ملطيه ، ومعهم ثيران وأواني ومتاع ومقتنيات يستترو بها ، وقد أطفأ موقف الرهبان هذا غضب الأمير ، وكان معهم شيخ تقي يدعى ابراهيم ويكنى سورديم استطاع أن يدخل إلى عند الأمير ويقنعه قائلا : ربما لن تستطيع أن تأخذ القلعة بالحرب ، لكن أعطنا الفرصة ونحن نحتال ونأخذ الدير ، فحسن كلامه عند الأمير وأخذ يفرق الخيرات والعطايا على أولئك الرهبان الذين أتوا ليستقروا عنده ، وأخيرا ساعد الدير وكل من فيه ، وأعفاهم من خراج تلك السنة ، ثم طلب منهم عهدا فأقسموا له ، وبعد ذلك أرسلوا طلبا إلى البطريرك المقيم في آمد ليغفر لهم بالعهد الأول الذي أقسموه بالقوة والغضب لجوسلين ، وإثر هذا أرسل جوسلين يقول للأمير دولت : لقد أخذت أثيرة زوبر وهي لي وخربتها ، وأنا أخذت دير مار برصوم وهي قلعة تتميز عن كثير من القلاع عالية كعلو النسر عن بقية الطيور وها أنا أردها الآن لك وبهذا يكون قد بطل القسم الذي أعطاه للرهبان ، لأنه طلب الصلح من الأمير .

فرد عليه الأمير دولت بما يلي :

بما أنك طلبت الصلح فنحن نرضى به ، لكن قل لي : كيف ستحقق هذا الصلح وقد تبين لنا أنه ليس لك أمانة ، لأن المسلمين يحلفون بكتابهم والمسيحيون يحلفون بالصليب والانجيل ، فأما أنت فمزقت الانجيل وكسرت الصليب وبالتالي لم يعد لك أمانة كالمسيحيين ، فأوضح لي إيمانك هل أنت يهودي أم حنفي لكي نثبت معك القسم بحسب إيمانك ، وبهذا الكلام أفحم التركي ذلك المسيحي الكذاب وأخزاه ، وبعد ذلك سقط جوسلين ، وعاد الرهبان والقديس للدير المقدس وصارت استقامة الجانبين بالعناية الالهية .

لقد صنع جوسلين مثل سليمان بن داوود ،ترك إله آبائه المسيحيين(كذا) ، وسلم ذاته لخدمة الشياطين ، حين اجترأ على

القوة القادرة على كل شيء والمحلوله بـالقديس ، وحين دفعـه عقله المزنول ولم يحسب حسابا أن العظماء الذين معه هـم مسـيحيون ، وسوف يخبرون الرهبان بغشه ، فجمع عسكره وأظهـر وكأنه يريد أن يتوجه إلى بلاد الترك لينهب ، فأتى حـرتان ، وبعـد ثـلاثة أيام صعد هناك الجبل الأبيض وتوجه إلى العين المسـماة إيزا في رأسـه العالي في بلاد قلونيه ، وبقي هناك إلى أن سمع الشعب به فهـربوا خوفا منه ، فأخذ يتهم الرهبان بأنهم هم الذين خوفوا الشـعب ثـم قال لمن معه : إذا ضللنا طريقنا ندخل إلى الأديرة القريبة نصلي فيها ثم نرجع .

في صباح السبت ٨ حزيران سنة ١٤٥٩ دخـل جـوسلين الدير فجأة ، ففرح الرهبان لاعتقادهم أنه أتى للصـلاة ، لكن الأغبياء لم يعرفوا أنهم سقطوا في فخ محكم لأن جوسلين ظن أنه سيجد ذهبـا كثيرا ، والرهبان ظنوا أنه أتى يحمل ذهبـا ، فـاستقبلوه يحملون الصلبان والأناجيل ، وخرجوا لملاقاته عند الباب الرئيس ، ولما رأى الصليب نزل عن فرسه بكل غش وخداع وأظهـر خشـوعا ووداعه ، حتى دخل إلى داخل القلعـة حينئذ أرسـل بعض حـراسه وجنوده ليتفقدوا القلعة ، فشك بعض أهـل الدير بمـا يجـري ، لكنهـم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ، ثم صعد خمسة مـن رجـال جـوسلين فوجدوا راهبا شيخا واثنين من المتنسكين فأمسكوهم ، ثم جمعـوا كافة الرهبان وحبسوهم داخل الهيكل ، واستدعى جوسلين الشيوخ وأخذ يعنفهم ويلومهم قائلا : لقد أخبرتم عنا بـلاد ملطية ، فهـرب الأتراك ، فاندهشوا وقالوا : ليس لدينا علما بذلك فـأضاف إن كان حقا لاتعلمون ولم تساعدوا الترك ، فأعطوني كل ما يخص الترك في هذا الدير فقد سمعت أن مالا كثيرا من بلاد الترك ، ومن الترك مخبأ هنا ، ويجب أن يعطى هذا المال للمسيحيين ليتقووا به وينتقموا من الترك الذين نهبوا أديرة زوبر ، فأجابوه قـائلين : إن فعلنا مـاتريد كيف يمـكننا أن نسـكن في هـذا المكان ؟ حينئذ صرخ بـوحشية وأخـرجهم مـن الهيكل وحبسـهم في ذلك اليوم في بيت شـبا المدعو قاعدة ، وأرسل قساوسة الأفرنج فدخلوا إلى الهيكل وأخـرجوا كل

ماوجدوا به من صواني فضية وقوارير نحاسية وصلبان ومباخر وقناديل وإيقونات معدنية وأناجيل وكتب ، وبعد هذا توزع الجنود وأخذوا يفتشون بيوت الكهنة والرهبان وجمعوا كل ماوجدوه من ذهب وفضة ونحاس وحديد وثياب وأسترة ، حتى أنهم أخذوا من الهيكل أثاثه ، وكان معه أناس من الداوية الأفرنج ، فلما رأوا ذلك قالوا له : إننا أتينا معك لنحارب الترك ونساعد المسيحيين لالننهب البيع والأديرة ، فتركوه ومضوا ولم يأكلوا خبزا أو يشربوا شيئا ، أما الشقي واتباعه فقد مكثوا كل يوم السبت ينهبون ، وحملوا كل مايستطيعون حمله بعد أن فتشوا كل شيء تفتيشا دقيقا ، وفي المساء ، وكان اليوم التالي هو الأحد ، أخرجوا الرهبان وكافة الشعب وأنزلوهم وقضوا الليل عند الكرم المدعو الفيل عند شاطيء النهر ، ووضعوا في الدير جملة من الحراس الأفرنج والأرمن ، لكن الشيطان عاد فعلمه أن يرجع للدير المظلوم ، فعاد وعاد معه الرهبان ، وعادوا يفتشون علهم نسيوا شيئا لم يأخذوه ، ثم صعدوا إلى المعصرة ، ودخلوا إلى أكواخ النساك ونهبوا كل شيء وجدوه ، ثم حملوا كل شيء على الجمال والبغال وخاصة أثاث الهيكل ، وحلل النحاس ، ومتاع من كل جنس وكان بينهم صليب ذهبي فكسره جوسلين الطاغي داخل الدير ووزعه على الذين كانوا معه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ بغال الدير ، وكانوا إثني عشر بغلا ، وأخذ معه الرهبان الذين حضروا وكانوا نحو خمسين ، ويوم الاثنين وصلوا إلى جوتي .

فصل حول دير مار برصوم

صحيح ان القديس مار برصوم سمح بسبب خطايانا ان ينهب ديره ، لكنه لم يهملنا ولم يسمح ان نهلك كليا ، كذلك لم يسمح للطاغي أن يمر دون درس ، حتى إذا ما أراد أن يرجع للتوبة يستطيع أن يخلص ، فقد رأى ثلاثة من جنوده حلما في ليلة واحدة ، حسبما هو مكتوب عن رواية شاهدين او ثلاثة ، فقد رووا أن ثلاثتهم شاهدوا في الحلم أن دير القديس يبرق ، وأن القديس واقف على رأسه بمنجل لايوصف ، وقد دعاهم وقال لهم : امضوا وقولوا لملككم إن غضبت على رهباني لأنهم أخطأوا وأغضبوا مولاي فقد نجيتهم ، إنني نجيتهم من يديه حتى يندمو ويتوبوا ، وقد أمرت الآن ان تتركهم ليرجعوا إلى ديرهم .

واجتمع هذا الجندي مع زملائه الاثنين الاخرين اللذان شاهدا الرؤيا نفسها وقصوا على بعضهم بعضا رؤيتهم ، ثم تشجعوا ودخلوا الى جوسلين الشقي وقصوا عليه الحلم ، فوعدهم فرعون الثاني بعدما سمع هذا الحلم أن يعيد الرهبان ، لكنه مالبث أن غير رأيه وبدل أن يعيدهم أخذ يعذبهم ليأخذ منهم بقية الذهب ، فقد كان قد استولى من قبل على خمسة الاف ، لكن الله مالبث أن دعاه مرة اخرى الى التوبة ، وهذه المرة بوساطة أهل بيته ، فقد رأوا الصندوق الذي يضم يمين القديس برصوم يشع ويضيء كالشمس ويخرج من قلبه سيف نار ، ثم انبعث منه صوت يقول باجوسلين إن لم تتركني وتترك رهباني فإني سوف أهلكك انت وكل بلادك بهذا السيف ، فلما اخبره أهل بيته بهذه القصة ترك الرهبان والشيوخ ، وعاد داوود ويعقوب إلى الدير في ١٥ ايلول سنة ١٤٦٠ لكنه أخذ الصندوق الذي يحوي يمين القديس سيدنا مار برصوم ، وحجزه في بيعتهم في تل باشر حتى يحضر له الرهبان الآلاف الخمسة الاخرى كما طلب منهم ، وحينئذ سقط عليه سيف الغضب من عساكر

الترك ، أن ذلك عند الله فقط سهل ، وبقوته غير المحـــدودة القـــادرة على الكل يصنع من عظام وأوصال قديسيه وأحبائه متى يشاء وكما يليق قوة لأجل خلاص أنفسنا

مقتل ريموند أمير انطاكية ورنجر اخو بلدوين حاكم كيسوم

في كانون الثاني من سنة ١٤٦٠ دخل نور الدين حاكم حلب إلى بلاد انطاكية ونهب كل البلاد ونزل على الشغر. لكن ريموند حاكم انطاكية لم يكن موجودا فيها ، ولما سمع اتى مسرعا ولم يدخل لانطاكية بل جاز عليها ، وكان معه علي بن وفنام ، البدوي الذي انشق عن نور الدين ، وكان هذا مع عسكره قد ساعد الافرنج كثيرا حتى كسروا الاتراك وجعلوهم يهربون بحالة سيئة .

دخل في هذا الزمان قرا أرسلان حاكم قلعة زياد إلى بلاد آمد بوساطة الحيلة ، إذ اتفق سرا مع أناس من داخل القلعة على أن يسلموها له لكنه أخفق في ذلك ، وعندها أخذ يسبي أهل البلاد وقد ساقهم مسيرة يوم كامل ، لكنه عندما رأى حالتهم التعيسة على الطرقات المملوءة ثلجا وجليدا حزن عليهم ، وتساءل ماذا خطاهؤلاء فاعتقهم وردهم إلى ديارهم .

أما جوسلين فقد جمع عسكرا ودخل لينهب في بلاد الرها وحران ، ثم عاد الاتراك وأقاموا كمينا وقتلوا عددا كبيرا من جنوده

وعندما كان نور الدين حاكم حلب يتقد غيظا ويحتال ويجمع عسكرا ، كان الافرنج المتكبرون والمتغطرسون ، لايبالون بما حولهم ، وربما دفعهم الله الى هذا الموقف جزاء لأعمالهم الشريرة ، فاستهتروا باعدائهم الاتراك الذين اخذوا يتجمعون حولهم ، كما يتجمع الذباب حول الجثة ، فتركوا قراهم وكرومهم بغير سياج ، وكان شأنهم في ذلك كالذي يترك بيته بدون ابواب،ومضوا إلى بلاد العرب كما يمضي الغزال الى الذبح ، والأيل إلى السهم الذي سوف

ينفرس في كبده ، وكان معهم علي بن وفاء العربي ، ولما رأى انهم دخلوا الى اواسط اراضي اعدائهم قال البدوي : إلى أين أنت ماض ايها الملك واعداؤك يحيطون بك من كل جانب ، ابق في مكانك وتجمع أنت وعسكرك حتى يتفرقوا ويذهبون ، فإن أرادوا أن يدخلوا بلادك فحينئذ تلاقيهم ، اما هو فاحتقر كلامه ورفض نصيحته ومشورته ، ماكاد يهبط الليل حتى وجد نفسه في وسط الاتراك فأطبق الترك على الافرنج الاشقياء من كل جانب ، حينئذ قال له علي بن وفاء ثانية : إنك لم تسمع مني ، وهاهو نحن الان في الفخ ، لكن اسمع مني الآن وتعال نهرب ، فعسانا نستطيع انقاذ ما أمكن ، لأن الاتراك يحيطون بنا بعسكر عظيم ، واذا أشرق الصباح ونحن مازلنا هنا فسوف يهلكونا ، وعندما انبلج الصبح وقبل أن تشرق الشمس هجم الأتراك هجوما عنيفا ، وكأنهم جبل من الماء ، وأخذوا ينبحون الكبار والصغار وكانوا يتساقطون كالاشجار عندما تقطع من أسفلها ، وقتل ريموند حاكم انطاكية الأسد الشديد ، وسقط رنجر حاكم كيسوم شبل الاسد ، ولم ينج واحد منهم لينقل اخبار ماجرى ، وتحولت هذه العساكر الى اكوام من القتلى ، وفي ذلك اليوم نزلت ضربة قاصمة بالمسيحيين ، إذ لم يشعر اهل انطاكية الا والاتراك قد غنموا كل البلاد وسبوا اهلها ، وحل نور الدين على المدينة وارسل رأس ريموند إلى بغداد ، وهنا وقع انشقاق بين أهل انطاكية ، فقسم منهم كان يرضي بالاتراك ويتحمس لوجودهم ، وقسم هرع الى ملك القدس مستنجدا ، ولما أتى ملك القدس أبقى على الشرائع التي كانت سائدة وأقام بطريكهم رئيسا .

اما جوسلين فانه لما سمع بمقتل حاكم كيسوم أتى وملك عليها وعلى القلاع التي هناك ظنا من هذا الشقي أن كيسوم يجب أن تبقى لزوجة المقتول والتي هي ابنته ، وبهذا الزمان تحارب جوسلين بعقله المرذول مع قلج ارسلان بن مسعود حاكم أبلسيتن وبلادها ، وحل على مرعش ، وبعد أن نهب البلاد وقتل أهلها وعدوا قلج ارسلان بتلبية مايريده ثمنا لنجاتهم ، فملك السلطان على مرعش ، أما

الافرنج الذين كانوا بها والفرسان والاساقفة والقساوسة فقد تركهم يمضون الى أنطاكية حسب ما نصت الاتفاقية ، لكن الترك ارسلوا من يقتلهم في الطريق وفي نهبه لمرعش هذه المرة تبدد اثاث بيعتها : جرة الميرون ، والصواني والكاسات والمباخر الفضية ، واغطية المذبح والاستار ، اخذها العصاه على اسقفهم من ايادي القساوسة.

وفي هذه السنة لما رأى الأمير قرا أرسلان حاكم قلعة زياد أن الاتراك صاروا يدخلون من كل ناحية وتملكوا بلاد الافرنج الذين تخلى عنهم الرب لأنهم هجروه ارسل عساكره وأخذ الجبولة على شاطىء الفرات فخاف أهل بلاد جرجر وهربوا ليحتموا بجبل ماربرصوما وتحلقوا حول الدير رجالا ونساء مع أولادهم ومقتنياتهم ، وبدا عند ذلك عدد كبير من الرهبان المعتزلين والمتفرغين لعبادة الله يتضجرون ويدمدمون ، ولم يستطيعوا أن يطردوا هؤلاء اللاجئين لانه كان بينهم رهبان اقرباء لهؤلاء.

ولما دخل الترك لبلاد جرجر ونظروا ان القرى فارغة وسمعوا ان الشعب في جبل مار برصوم ، توجهوا الى ذلك المكان ، يوم الاحد في ١٥ اب وكمنوا في ثلاثة اماكن ، وفي الصباح هجموا وسرقوا الدواب والثيران وقتلوا ثلاثة من المتعبدين ، وقتل اثنان من الترك ، وحينئذ ارسل الاتراك رسلا يقولون اننا نكرم هذا القديس ونقدم له النذور ، وإننا لانضمر شرا لهذا الدير ، وإنما اتينا وراء الذين توجهوا الى هنا من بلاد جرجر ، فان تعطونا اياهم نرد لكم ما اخذناه ، وإننا نعد بان لانرسل الشعب الذي نأخذه الى العبودية ، بل ناخذه الى قراه ، حينئذ انقسم اهل الدير الى فرقتين : منهم من قال يجب ان نسلم هذا الشعب ، ومنهم من كان يصرخ رافضا تسليمه وكادت الحرب تقع فيما بينهم ، لولا حكمة احد المشايخ الذي اصلحهم بحكمته ، فقد اخذ مجموعة من الفريقين وخرج الى الاتراك وقال لهم : إن كنتم فعلا لاتريدون ان تسوقوا هذا الشعب الذي ستاخذوه للعبودية فلتأت معنا مجموعة من رؤسائكم ونمضي

سوية الى قلعة زياد ، ونثبت هذا العهد عند الامير ، لكن الترك كانوا في الحقيقة يريدون ان ياخذوا هذا الشعب الى العبودية ، ولما اتضح ذلك في ترددهم ، صرخ الجميع بفم واحد : كلنا شخص واحد ولن نسلم ولو متنا كلنا ، وعند ذلك احرق الترك كل ما هو موجود خارج الدير من بيوت ومعاصر واسيجة للكروم ، واخذوا الغنم والثيران ، ومضوا ، اما الرهبان فقد مضوا الى قلعة زياد ، وبوساطة المؤمنين الذين هناك استطاعوا ان يواجهوا الامير قرا ارسلان ، فاعاد كل شيء للناس حتى الثيران والغنم ، وصار فرح عظيم في كل مكان ، ومجدوا الله كثيرا .

كمل هذا ايضا على يد عبد عبيد الله ، وخادم الخدام ابراهيم الاخرس من قرية صدد ـ حمص سنة ٢٠٧٥ يونانية (١٧٦٤ م) في شهر حزيران المبارك .

سقوط جوسلين

في هذا الزمان نبهت العدالة السلطان مسعود فجمـع عددا كبيرا من الجنود الاتراك واستعدوا لإقتحام بلاد الافرنج الاشقياء ، فـدب الخوف والهلع في قلوب الافرنج الذين يدعون ان الواحد منهم يهـزم الفا ، فصاروا يرتاعون من صورة على الورق ، لانه حلت عليهم لعنة الكتاب ، وصارت كل الشعوب تصرخ بفم واحد : بامر من الله تجمع الاتراك ليبيدوا هؤلاء المسيحيين الذين تجاسروا على مار بـرصوم ، ولما راى جوسلين ان الترك قد حاصروه واصبح سجينا في تل بـاشر احس بذنبه واعترف ان هذه ضربة من الله ، فوعد بـالتوبة والتجـا الى سيدنا مـار بـرصوم ، حينئذ تعـطف عليه الرب الذي بعـث السلطان ، فحلف جوسلين للسلطان بانه سيصير تحـت طـاعته ، وجاء هذا التدبير كله من عليين ، فـارتحل السـلطان الى بـلاده ، وارسل جوسلين القديس مار برصوما (اي يمينه) الى الدير ، لكن ما لبث جوسلين هذا ان رجع الى اعمـاله الرديئة مثـل الكلب الذي يرجع إلى قيئه ، فلم تهمله العدالة ولم تحتمله ايضـا ، لانه نافـق ، فصارت نهايته على أيادي الترك الذين تبعهم ، لان جـوسلين الذي كان قد تعاهد مع نور الدين حاكم حلب دخل الى بلاده وقتل وسـبى عددا كبيرا ، وأخذ قلعتين

وفي سنة ١٤٦١ ارسل قرا ارسلان حاكم قلعة زياد واحـدا مـن قادته واسمه الضياء فنزل الى بلاد جرجر ، وفي احدى الليالي هجم فجاة على القلعة التي بقرب الدير والمدعوه تجنكر واخذها بالقتال ، واخذ منها خمسمائة شخص كعبيد ، ووجـد هناك اواني ومـلابس كان قد سرقها جوسلين من الدير الذي سباه ، ومن هنا كشـف لكل منهم انه بامر الله صار الغضب ، وكل موضع دخل به مسروقات من الدير جرفه طوفان الغضب ، ثم احتال اليونانيون والافرنج ليدعمـوا الذين في جرجر فاجتمع مع باسيل حاكم (حصن منصور) وكيسوم

ومع جوتاي وغيرهم نحو خمسمائة فارس وكثيرا من المشاة ومعهم الوف من احمال الحنطة يريدون الدخول لقلعة جـرجر، ولما وصـلوا لقرب القلعة اكتشفوا ان الترك لم يعلموا بقدومهم ، فتركوا احمالهم خارج القلعة ونزلوا ليهاجموا معسكر الترك ظنا منهم انهـم سـوف يهزمون الترك ، لكن الله كسرهم ونصر الترك عليهم ، وكان التـرك يفوقونهم عددا فقتلوهم وبـددوهم،واسر بـاسيل حـاكم جـرجر وكيريكور حاكم جوتاي ، وما هي الفرنجي حاكم كيسوم ، ولم ينج من الفرسان احد واستولى التـرك على الحنطـة ، وعندمـا انتصر الاتراك هذا الانتصار العظيم قام الامير قرا ارسلان بعمل يدل على عظمة نفسه ، وكرم اخلاقه ، فاعتق كل الاسرى وارسـل كل واحـد الى بيته ، واعطى حكام القلاع اماكن في بلاده ، فاخذ مـن بـاسيل جوتاي واعطاه سجمان .

وهكذا ملك الاتراك جرجر وجوتاي وحصن منصور، اما جوسلين فخرج الى انطاكية ومعه مائتي فارس ، كان يظـن انهـم يقـاومون الوفا،وبينما كانوا سائرين عند اعزاز بالليل التقـى بهـم قليل مـن التركمان فهرب هؤلاء الفرنج من الصوت فقـط ، لانه قـد ابتعـدت عنهم القوة ، اما جوسلين فقد هرب واحتمى بشجرة فالتقى به رجل تركماني ، لكنه لم يعـرف انه جـوسلين ، وقـال له إنه يريد بيعـه للمسيحيين ، ولكن التقى بهم رجل يهودي في احدى قرى المسلمين ، فاخبرهم ان هذا جوسلين ، فاخذوه بفرح الى حلب فاشتراه الوالي من التركماني بالف دينار ورمـاه بـالسجن وهناك اكمـل حياتـه بالعذاب .

وعندمـا دخـل الى حلب مقيدا صـار فـرح عظيم وسرور لكل المسلمين ، وبقي في السجن تسع سـنين ، وكانوا دائمـا يرغبـونه ويهددونه بكافة الوسائل ويقطعون عنه الطعام لكي يعلن اسـلامه ، لكنه كان دائما يرفض ، فحكموا عليه بالعذاب وكان دائمـا يجـاهر بإيمانه وكان يعترف قائلا : لاجل خطاياي اذلني الله ، وارسل الى الدير والى باقي كنائس المسيحيين طالبا ان يصلوا لاجله ، ليقبل مع

التائبين ، ولما قرب موته وهو داخل البئر الذي كان مــرميا فيه طلب ان يجلبوا له اسقف المدينة ، فجاء الاسقف وقبل اعترافه وشــاركه الاسرار المقدسة ، ولما توفي اعطــوه للمــؤمنين فجنزوه وقبــروه في البيعة ، واجتمع على دفنه اكثر اهل المدينة من المسلمين والمسيحيين وكانوا يتعجبون مما حدث له .

تم هذا الخبر ايضا .

كيف رجعت يمين سيدنا مار برصوم الى الدير

بعد ان ترك جوسلين الرهبان يعودون الى الدير ، ولم يرســل يمين مار برصوم زاد عليه غضب العدالة ، فارسل الرب من الشمال شعب ياجوج (الاتراك) واحــاطوا بتــل بــاشر ، حينئذ صرخ الافــرنج والسريان والارمن بصوت واحد ، فخاف جــوسلين الاثيم ، وامــر فاخرجوا القديس ، واخذوه للجبل وكانت رؤوس كل الناس مكشوفة وهم يبكون ، ثم احتفوا به امام معســكر الاعداء ، ومضى الرهبــان والمشايخ واتوا بالقديس مع تبجيل عظيم ، وكانت جمــوع الناس في كل مدينة وبلدة تسعى امــامه وهــم فــرحين مسرورين ، ومجــدين ومنشدين بالالحان والشمع المضاء ، وعطر البخور ، وانتهى طريقه كله بالتبجيل العظيم ، ثم وصل الى الدير في راس كانون الاخير يوم عيد المعلمين القديسين

استيلاء الترك على البلاد بعد سقوط جوسلين

في ٢٩ كانون الاول سنة ١٤٦١ يونانية وقع زلزال جعل الارض تهتز ، وفي ١٥ اذار كسف القمر من منتصف الليل وحتى الفجـر ، وفي ٢٣ اب صار مطر وسـيول جـارفة اخـذت امـاكن كثيرة ، وخصوصا في قلعة زياد حيث اختنق صبي في وسطهم وكذلك بغـلان وحمار .

في هذا الزمان ارتسم للخلقيدونيين بطريرك شـيخ كان في صـباه اسقفا لكن حب الرئاسة اغراه فاخفى ذلك وارتسم ثانية ، لكن بعـد قليل انفضح وخزي ونفي هو والذين رسموه .

في سنة ١٤٦٢ يونانية صار شتاء قاس وثلج كثير ، وكأن ابواب السماء انفتحت ونزل كل ما فيها من ثلج حتى في الاماكن التـي نزل فيها ثلج قليل جدا صار نحو ذراعين .

وفي اذار ايضا اتى ثلج احمر ، وقد قـال الطبيعيون : إن الرياح تحمل الغبار الاحمر الناشيء عن التربة الحمراء الى الغمام فيتراءى كلون الدم ، وعندما يسقط الثلج يختلط معه وكل هذا يصـير لاجـل تأديبنا .

وفي اذار صار بملطية ثلج كثير لم يسمع وينظر مثله قط .

وفي ٢٣ اذار ايضا ظهرت اية ، وهي عبارة عن شـعاع ناري في الناحية الشمالية وفي تلك السنة في قليسورا (٣٧) كان جبل تحت قرية فسقطت فجاة منه صخرة عظيمة ، وسحقت القـرية مـع سـكانها وبهائمها .

وفي تلك السنة كثرت الامطار في كل الاماكن وافسدت الزروع وكل الغلال ، وخصوصا في شواطيء الانهار ، ومات الزرع كله ، ولم يبق شيء .

ولما سمع السلطان مسعود بسقوط جوسلين دخل يوم احد العنصرة وحل على كيسوم ، وكان بها افرنجيا اسمه رنجر ، وفي تل باشر اقاموا ابن جوسلين حاكما ، وكان بعد صبيا وكان ايضا يدعى جوسلين ، ولما راى الذين في كيسوم كثرة عساكر السلطان مسعود ذهلوا فارسلوا مطرانهم ايونيس الى القلعة ، واخذوا تعهدا من السلطان بشان الافرنج ، سمح بموجبه لهم ان يصلوا الى عينتاب وهكذا صار ، وتملك السلطان على كيسوم وعلى القلاع ، وعلى رعبان وفرزمان ، وحل على تل باشر ، فقدم عليه نور الدين حاكم حلب ، فاعطاه السلطان ابنته التي كانت مخطوبة لابن اخي ملك اليونانيين ، واعطاها تل باشر، ولما ترك السلطان تل باشر ورجع الى بلاده ، اتى ملك القدس واخرج من تل باشر امراة جوسلين واولاده وجميع الافرنج وحملهم معه الى القدس ، واقام في البلدة اناس من مملكة اليونانيين، وقد استطاع هؤلاء ان يضبطوا تل باشر وعينتاب واعزاز ، ثم حل عليها الاتراك واضطهدوا سكانها كثيرا ــ اعتقد كان ذلك بشكل نوع من انواع العذاب ــ ولما لم يستطيعوا المقاومة سلموا كل هذه الاماكن صلحا الى نور الدين ، وملك حاكم حلب هذا على تل باشر وعلى عينتاب واعزاز والبلاد التي بينها ، وبقي مع السلطان مرعش وقلاع فرزمان ورعبان وكيسوم ، وبقي مع قرا ارسلان ببولا وجرجر وجوتاي وحصن منصور.

اما تمرتاش حاكم ماردين فقد اخذ البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وهكذا تملك الاتراك على هذه البلاد ، اما قلعة الروم ، فقد كان جوسلين قد وضع فيها ارمنيا اسمه ميخائيل ، لكن هذا لما سمع ان جوسلين قد سقط ارسل امراة جوسلين وابنه ، لانهما كانا في تل باشر ، وذلك ليقولا لكريكور جاثليق الارمن الموجود بهوزب ، اي البخيرة ، لياتي الى القلعة ويساعد ميخائيل ، لكن كريكور هذا لما اتى احتال وامسك بمخائيل وعذبه ، واخذ مقتناه وطرده ، وجلس كريكور الجاثليق في قلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية دخل يعقوب ارسلان الى بلدة اليونانيين المسماة فابرا وسباها وخرج .

وفي هذا الزمان هزم منويل ملك اليونانيين وانكسر من قبل الافرنج وهرب واستطاع ان يصل الى القسطنطينية بصعوبة بالغة .

وفي تلك السنة خنق حاكم ايزنجي بلد الارمن من قبل ابنته(٣٨) بوتر القوس ، واتت بأخيه مخديباريجي فتزوجها وتملك .

وفي تلك السنة كان في دير اليونانيين المدعو سيريكا في بلاد بنطس ، صليب ذهبي كبير ، وكان فيه جزء من خشبة الصليب ، وكان يفعل عجائب في تلك البلاد ، فوضع الحاكم في ضميره ان ياخذ الصليب ، فتهيا له واحد اثيم من اليونانيين ، ودبر حيلة عصى فيها بالبلد ، فأتى الامير واخذ الصليب وكل شيء وجده ، واخرج الرهبان ووضع فيه الاتراك ، واخيرا ذكره بعض عظمائه ان اباءه كانوا يكرمون هذا الدير ، فقام بعدة وساطات كثيرة وبعدما اخذ من الرهبان ذهبا ضمانا بانهم سوف يعطوه خراجا ، فسمح لهم ان يرجعوا الى ديرهم ، وقيل لنا ان اليونانيين المجدفين لما سبى جوسلين دير سيدنا مار برصوم ، كانوا يصهلون كالخيل او كما صهل اليهود على مولانا عندما كانوا يستهزئون به ويجدفون عليه ، ولما تشرف خبر مار برصوما عند كل الشعب ورجع منتصرا على الذين سبوه فرح المؤمنون في كل مكان ، كما فرح الرسل بقيامة سيدنا ،ولذلك يجب ان يقال لهم : ياهؤلاء كفوا السنتكم عن التجديف على القديسين واذعنوا للحق فلولا اننا اخطأنا وارادت العدالة ان تضربنا لم يستطع جوسلين ان يسبيه من دير مار برصوما ، كذلك لم يستطع أحد ان يسرق الصليب المكرم من دير سيريكا ، ويهزا به .

وفاة دولت حاكم ملطية

في سنة ١٤٦٣ يونانية خرج الافرنج من رومية غاضبين على اليونانيين يريدون الانتقام منهم لاجل ما صنعوه بأخوتهم ، فنهبوا وخربوا ووصلوا حتى باب القسطنطينية واحرقوا ثم خربوا كثيرا في مملكة اليونانيين ورجعوا .

ووصلت فرق منهم إلى فلسطين لينتقموا من العرب أيضا لكنهم لم يتفقوا لعدم وجود قائد لهم ، فقتلوا الذين وجدوه في قرى عسقلان من العرب بالسيف وأحرقوا القرى ، ثم عبروا في البحر وخرجوا إلى ارض القبط ، وهناك في نواحي مصر الغربية أحرقوا المدن والقرى والسكان بالنار ، ثم رجعوا الى بلادهم .

وفي تلك السنة في ١٢ حزيران يوم الخميس مات دولت حاكم ملطية وملك ابنه ذو القرنين ، وفي ذلك اليوم خاف المسيحيون جدا وكثرت عليهم الشدائد ربما ليعودوا الى توبتهم ، اما اخو دولت يعقوب ارسلان فارسل يعزي ابن أخيه ووالدته طالبا ان يحتفظا بالمدينة ولايعطوها للسلطان فاعتمدا عليه وارسلا مواشيهما الى بلاده لتكون في امان .

لكن لما سمع السلطان انهم اتفقوا ان لايعطوه المدينة ، اتى غاضبا على يعقوب اولا فلما راى ذاك كثرة العساكر استسلم سريعا ووعد ان لايساعد ابن اخيه فتوجه السلطان ضده ، لكن نزلت صاعقة في ٢٤ تموز احرقت الالوف من الاتراك ومن باقي الشعوب ، واحترقت القرى الجميلة وحقولها البهية بالنار ، وكانت عساكر السلطان تخرب البلاد من الخارج ، ومن الداخل كان الحكام والجنود يعذبون بغير شفقة سكانها بكل الانواع ، وكان المؤمنون محصورين بين هذين الوحشين ، ولما نظروا أن الكأس قد مزج

بالعلقم ، والسيف قد استل تذكروا خطاياهم وبداوا بالادعية الدائمة فاتى خلاص الرب المتعطش للرحمة ، وهكذا بشفاعة والدة الاله في عيد انتقالها صار الصلح ، عندما خرجت ام الصبي وهي ابنة اخي السلطان وتوسلت اليه وركعت عند اقدامه ، فقال لها السلطان · ان ياتي الصبي إلي خاضعا اترك له المدينة ، عند ذلك خرج الصبي فقبله وثبت له الرئاسة .

وعندما كان السلطان نازلا على ملطية ، دخل الترك الذين معه ليسبوا بلاد قلونية ، فوجدوا الرهبان والمتبرئين الذين في دير بيت حنيش فاخذوهم اسرى ، حينئذ مضى الرهبان الى السلطان فاعادهم ، ولما رجعوا لياتوا الى جبل التفاح التقى بهم لصوص ، وتحاربوا معهم ، فقتل ثلاثة من اللصوص ، وقتل من المتبرئين طفل ومضى الباقي الى الدير .

ولما تثبت الرئاسة لذي القرنين بن دولت ، ملكت ام الصبي المدينة وكانت تعذب المسيحيين ، الاغنياء منهم والفقراء بغير رحمة بالخراج والضرائب المتنوعة ، ولم يستطع احد ان يتوسط عندها ، وكانت تقول ان المدينة لها ليس لان السلطان قد قبل تضرعها فقط ، بل لانها حفظت المدينة بوساطة السحرة والعرافين ، ثم اجتمع اليها جملة من النساء العرافات الفاحشات تنبأن لها بطول العمر مثل ولينيوس في زمانه ، وانها سوف تملك ، ولذلك حاولت ان تقتل ابنها وتملك هي لتتبع هواها ، حينئذ اشفق الرب على صراخ المساكين ، وقام غضب العدالة على ايزابيل الثانية ، فظهر مكرها وانكشفت لزعماء المدينة ، فطردوها ، وخرجت ماشية هي والنساء الفاحشات اللواتي كن يخدرنها بالسحر والشعوذة ، وقد انطبقت عليها اية النبي« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، وقد اعييت من كثرة مشوراتك .(اشعيا ٤٧ : ١٢ و ١٣).

ولقد لبثت عدة ايام على باب المدينة ثم طردت اخيرا من هناك حافية عارية وثبتت الرئاسة لابنها الذي سارع وقتل كل السحرة

والعرافين الذين جمعتهم امه ، ونهب بيوتهم ، ووضع قانونا يحرق بموجبه كل من يتعاطى السحر ، فهرب اكثرهم .

ثم نادى بالصلح والسلام لاهل المدينة ، وابطل الضمانات والجوائز ، وصار فرج للمتضايقيين ، وفرح لكل المسيحيين ، واكتشف أن بعض افراد حاشيته كانوا متفقين مع امه على هلاكه فطردهم رويدا رويدا ، ونهب بيوتهم حتى لم يعد احد منهم في مملكته .

انتهت هذه المقالة حول نحو من عشر سنين ، واربعة عشر فصلا ، وقام بها ملكين لليونانيين والافرنج وملكين للترك ، وخليفة واحد للعرب .

في تشرين الاول سنة ١٤٦٣ يونانية صار مطر كثير بالليل واتلف كل الغلال التي كانت على البيادر واختنق كثير من الناس والبهائم في ذلك السيل لاسيما في بلاد قلعة زياد وبلاد سميساط ، وقد جرف السيل كثيراً من التراب والصخور العظيمة حتى انه سحب احجار الطواحين وانزلها الى الوادي ، اي الغدير الذي بين قرية ابدهار وبين قرية خرشنة ، وامتلا نهر الفرات مما نزل به من الجبل وتوقف مجراه ثلاث ساعات ، وقد نظرت الموضوع بنفسي ورايت الناس الذين سعوا ليأخذوا السمك من ذلك المكان الى ان امتلأ بالماء ففتح مكانها في طرف جبل قلونية وجري.

في هذا الزمان بنى قسيس ارمني اسمه يوسف من بلاد هنزيط في قرية برغيش بيعه ، وزينها وصنعها وجعلها مشعشعة من الخارج بالبياض ، وذات يوم خرج الامير قرا ارسلان ليتنزه كعادة الملوك فرأى هذه البيعة تبرق ، فغضب وكان بعض الاتراك يبغضون ذلك القسيس ، فاغروا صدر الامير وقالوا له : كلما بنيت بيعة جديدة في بلدة يموت حاكم تلك البلدة ، عند ذلك امر فقلعوا هذه البيعة من اساسها بغير شفقة ، وحبسوا القسيس المظلوم في السجن ،

فاجتمع مسيحيو اهل قلعة زياد ليتشـفعوا له ، لكنه كان قـد امـر بصلبه قبل ان يواجهوه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول .

وبسبب هذا ومنذ ذلك الزمان صدر امر في كل بلاد مابين النهرين بأن لاتبنى بيعة جديدة ، وان لاتتجدد بيعه عتيقة ، وصار حـزن بين المسيحيين لهذا السبب ، لكن بعد موت الامير اجتمـع المسـيحيون وذهبوا الى ابنه وقدموا له ذهبا كثيرا ، وأخذوا امـرا ليجـددوا كل جزء وبيعة عتيقة محتاجة الى تجديد ، وقد اثلج صدر المسـيحيين في كل مكان لهذا الامر .

كل من نظر وقرا وتأمل يرسل لي قليل من صـلاته ، لعلي اجـد فرحا وسرورا امام الديان العادل ، واجره على المسيح .

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) صار في ايلول برد ومطر وثلج فافسد الكروم والزيتون والقطن والسمسم ، وبدوا وكأنهم احترقوا بالنار ، وصاروا كالشحار الأسود ، ولم تكن هـذه النازلة فقـط في اثور وبين النهرين وإنما في بلاد فارس وارمينية وفلسطين وملطية ، وصارت كل المسكونة كالقش الذي اكلتـه النار ، حيث تحـولت الى رماد ، لقد كان منظرا مخيفا ، ويجب ان يلقن اصحاب هـذا الجيل الفاسد درسا لانه اصبح لايحس ولايشعر بالخطايا والآثـام التـي يقترفها ، ولاجل ذلك صار هذا الغضب.

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٥ سرق اسقف مرعش في كورة ملطية بيعة جـرجر فطرده البطريك وحرمه . ورسم المرعيث اسقفا لجرجر .

وبعد مدة يسيرة تقدم الاسقف الذي كان قد خرم بطلب استرحام وشفاعة وكان اسمه باسيليوس فـأعطاه البـطريرك اديرة زوبـر ، فبقي هناك زمانا قليلا ثم طرد من هناك لاجل علة السرقة نفسـها ، ثم اشفق عليه البطريرك فأعطاه مرعش سيبابرك ، وبعـد ان بقـي هناك ثلاث سنوات عاد فطرد من هناك لأجل علة السرقة ، وقد قـال البطريرك وبعض الناس انه مظلوم اما الصحيح فهو عند الله .

اما باسيليوس الذي انتقل الى الرها لما هاجمها زنكي واخـذها بالسيف ، فقد خلص هذا المطران من القتل عندما تقابل مـع زنكي ، ولأنه وجده حكيما وشجاعا ويتكلم اللغة العـربية الفصـحى كرمـه وسلمه المدينة لكي يعيد بناءها وادارتها ، وترتيبها وقـد خلص عددا كبيرا ، وبقي المطران بهذا المنصب الى ان قتل زنكي ، وقـد نجـح كثيرا بهذا المنصب .

وفي محنة الرها الاولى قتل العديد ، وكان منهم البار باسيليوس ابن عباس الذي كان اسقف ماردين ، ثم ترك الرعية وذهب ليسكن في جبل الرها حيث توفي هناك .

وصار في ماردين مطرانا ماريوحنا ، الذي هو ايضـا ارتسـم في ايام مار اثنا سيوس ابو الفرج سنة ١٤٧٦ ، وكان هـذا شريفـا ومستقيما ومتعلما يقرأ كثيرا في الكتب ، اختص بالمعرفة الطبيعية ، وكان يكشف الاسرار ويعرف الخفايا ، وكانت هـذه المهنة مـرغوبة ومطلوبة جدا ولاسيما عند الملوك ، وقد اشتهر عند الملوك ، وتـكرم من كل الحكام ، ولاسيما حكام ما بين النهرين واثور ، وكانت له يد عظيمة تفيض بالرحمة على المساكين والمحتـاجين ، فبعـدما اخـذ

زنكي حاكم الموصل الرها ، وصار اهلها عبيدا ، ظهرت حـركة بين الناس فأخذوا يشترون اهل الرها ويعتقـونهم كل واحـد قـدر مـا يستطيع ، وكان هذا يتجـول ويشـجع افـراد الرعيه على تخليص المسيحيين من العبودية،وبهذه الاعمـال اشـتهر عند الجميع ، وذاع صيته في بلاد كثيرة ، وخاصة عند المسلمين .

ذكرى الربان توما المتوحد والمطران عبدو

الربان القديس توما المتوحد ، ومعلمه المطـران السـعيد عبـدو اللذان كانا في هذا الزمان في جبل زوبر .

لقد ذاع صيت الربان توما هـذا بين رؤسـاء الكهنة ، واشـتهر فلنعرف من هو هذا الربان ، انه من قلعة تدعى سامره في بلاد سـود المجاورة لملطية ، ولما اشتد الجوع في ايام بوزان التركي ، خرج هذا الصبي المسمى توما واتى الى دير زوبر عند خاله الراهـب ولما راى عيشه الرهبنه المقدسة احبها وانخرط فيها ونسي اهل جنسه .

وكان بهذا الزمان رجالا فاضلين بـالدير ، احـدهم البـار مـار ياونيس اسقف خرشنة ، وهو عبدو هذا ، وكان هذا شيخا فـاضلا سلك من طفولته طريق الصلاح وتتلمذ وتـأدب عند الرجـال المؤمنين وامتد وبقي يعيش وحيدا حتى بلغ سن الشيخوخة ، ثـم تقـدم الى درجة الاسقفيه بالتزام عظيم وبمبـاركة الروح القـدس ، وكان ذلك على يدي ماريوحنا ابن عبدون البطريرك ، وبعد مـده سـلمه الرعية على الرغم من ارادته ، وبعد ان تضرع كثيرا أعفوه منها ورسـموا غيره ، اما هو فرجع الى خلوتـه ، ولما راى هـذا الصـبي تـوما ، وتوسم فيه ملامح الروح القدس ، كان دائما يتفقده بعـد ان اصـبح راهبا متوحدا متبتلا يسكن خصا بعيدا ، وكان يعلمه المزامير وطرق وقواعد الرهبنه ، فبدأ يصارع الشياطين ، وكان هذا البار يقويه في صراعه مع الشياطين ، وقد قبل تـوما كل النصـائح والتـوجيهات

كالارض الجيدة القابلة للزرع الصالح التي تعطي الاثمار مضاعفة ، اعني التدابير الصالحة له .

وبعد ان خدم هذا الشيخ مع الربان تـوما انتقـل الى الحياة غير الزائلة ، فبقي توما يعيش وحيدا في مكانه مدة اربع وستين عامـا ، في الصـيف كان يصـعد الجبـل حيث زرع دالية له ، فيعتني بهـا ، ويقطف ثمرها ويصنعه زبيبا ، وكان يقايض الزبيب بالحنطة حتـى لاياخذ شيئا من احد ، اما في الشتاء فقـد صـنع له في قلب الجبـل مغارة بعيدة كان يعتزل فيها ، وقد وصل هذا الشيخ الى درجة عالية من القداسة حتى صار يشفي المرض ، ويكشف اسرار الناس ، وقد سمعت انا الضعيف ميخائيل من عمي مار اثناسيوس مـطران عين زربه ومن مار ايوانيس مطران كيسوم بانهما شاهدا وسمعا لما جاء زنكي الى الزها ، وقبل ان ياخذها ، ان الربان توما قـال . ان الله قد اعطى الزها الى الترك ، فقال له المطارنة اشفق علينا ولاتقـل هذا . لكنه عاد وكرر القول وزاد : نعم نعم ايها المطارنة ان الله قـد سلم الرها ، وان عددا كبيرا من المسيحيين يقتلون بهـا ، وبعـد ان سبيت في المرة الاولى ، انا سمعت من فم عمي المطران يقول للجمع : ان الربان توما قال لي بعد سنتين من الان ستشرب الرها كاسا مرا امر من الكاس الاول ، وكذلك قال لي : ان دير مار بـرصوم سـوف يسبى مع اديرة زوبر ، فقال الحاضرون وماذا بقي من الرها ؟ فقال للحاضرين : انا لااعرف ، الربان توما قال لي هذا .

كل هذا سمعته بنفسي من ذاك البار ، وقبل زمن من حدوثه ، لكن بعد ان صار ذلك ، تحقق كثيرون ان الاكتشافات والتنبـؤات التـي صارت على يدي الربان توما هي من عند الله ، ولما دخل التـرك الى دير زوبر استشهد ذلك الشيخ بـالسيف يوم الاربعـاء ٢٧ تشرين الثاني ، في يوم عيد مار يعقوب سـنة ١٤٥٨ يونانية ، لتـكن ذكراه وصلاته وبركاته دوما معنا آمين .

في سنة ١٤٥٩ مضى ايضا مار اثناسيوس البـطريرك الى آمـد

وجلس هناك ، ويوحنا اسقف منبج بن اندراوس ايضا غير رعيتـه بدون اذن ، فعندما كان البطريرك في تل باشر مـع الاسـاقفة وقـع خلاف بين اندراوس وطيموثاوس أسقف خرشنة ، وبعد جـدل كثير انتقل ابن اندراوس الى خرشنة ، واتى ذلك الى تل باشر ، ولما مضى البطريرك الى أمد وابتعد ، رجع ابن اندراوس لعادته وتخاصم مـع فيلاردوس حاكم تلك البلاد.. وكان هذا ارمنيا في الجنس وا فـرنجيا في التدابير ويونانيا هرطوقيا في الايمـان ، لكن ابـن اندرا وس عاد فترك ايضا مرعش وخرشنة ومضى الى دير المتوحدين على شـاطىء الفرات لكي يتوحد ، فرجع مطران خرشنة الى موضعه.

في هذا الزمان اسلم اهرون الشبختاني اسقف الحـديثة ، وكان هذا قد خرج من بلده وسكن في دير مـار متـى ورسـمه اغناطيوس المفريان اسقفا لتلك الرعية ، ثم اسلم ، لكنه مالبث ان رجع ، ولما لم تقبله الرعيه ولم تعط له درجة الاسقفية ، ذهب الى القسـطنطينية ، وصار خلقيدونيا ، لكنه رجع ايضـا واتـى يطلب التـوبة فقـال له بطريركنا مار اثاناسيوس : نحن لانرد التوبة على طالبها ، فأذن له حينئذ تشاجر البطريرك مع المفريان ، فصار المفريان يلوم البطريرك لانه قبله قبل ان يكمل قانون التوبة ، وبالمقابل كان البطريرك يتهـم المفريان لانه كان قد رسمه دون ان يفحصه .

لكن مالبث ان رجع الى المسلمين بغير سبب ، وبقي مع الفقهـاء عدة اشهر ثم عاد فندم ايضا ومضى الى ابناء طـائفتنا في القـدس ، لكن ابناء طائفتنا لم يقبلوه هناك ، فمضى الى الموارنة في جبـل لبنان وبقي هناك حتى مات .

في شهر ايار سنة ١٤٦٠ يونانية تراءت في السماء حربة طويلة في ناحية الشمال ، وبعد ساعتين في حلول الليل اختفت ، وبعـد وقـت قليل ايضا تراءت في ناحية المغرب سيميون اي أية شبه الصـليب ، وبعد وقت قليل اختفت ، وفي يوم الاربعاء قبـل عيد الصـعود نزل في القدس ونواحيها مطر غزير ممزوج بقطرات مـن الدم ، وكانوا قـد

اخبروا عن الدم الذي صار في البلاد الافرنجية بهذا الزمان ، وحدث هذا في شهر ايار وقد صار ايضا عوض الفلك المرســوم على الارض دما ، وهذا يؤشر على كثرة القتل وسفك الدم .

بهذا الزمان سقط اساقفة في بيعتنا وكان واحــد منهــم اهــرون الشبختاني الذي ذكرناه من قبل اذ كان قد رسمه المفريان اســقفا للحديثة فأسلم ثم صار يونانيا ثم مارونيا ، والآخر من قلعــة زياد ، المتكني ابن الترك ، وهذا كان قد رسمه مار يوحنا البطريرك اسقفا لرعية تل باشر ، لما خرج منها ابن اندراوس ، لكن لما عاد فقبل ابن اندراوس ، ارسلوا ابن الترك هذا الى سمندو ، لكنه مالبث ان طرد من هناك فأرسلوه الى بلاد خابوراء ، لكنه ايضا اخــطأ هناك وزنى فطردوه فمضى لبلاد ارمينية الكبيرة ، حيث خلع ثوب الكهنة وارتدى ثياب الجندية ، وصار يخدم عند واحد من الاكابــر ، وعشــق هناك امراة زانية ، ولما نظر انه لن يستطيع ان يطعم نفسه والزانية التــي تبعته من خدمته في الجندية ، وكقول الكتاب الالهي ، كان مشتاقا ان يملأ بطنه من الخروب الذي كانت الخنازير تأكله ، ولما تعــرقل مــن شر الى شر ، عاد فلبس ثــوب الرهبنه المقــدس ، واخـــذ يدور في الاماكن التي لايعرفه احد ويجمع صدقة باسم الاديرة والقــديسين ، وكان يأكل كل مايجمعه مع زانيته ، وكان يعيش عيشه بزخ وفســق وفجور ، فقام ضده اناس من المؤمنين وفضحوه ، كذلك كان رجــل اسمه جبرائيل من مــرعش ، يكنى غامــاكير ، ومعناه في اللســان الارمني « مبتدىء بالصلاة » كان قد رسمه مار اثناسيوس اســقفا على سروج ، ثــم قيل عنه انه ســقط في دنس الزنا ، فــأشفق عليه البــطريرك ، وتعــامل معــه بــطول الروح ، لكن انغمس في الشرور وارتكب الاثام الفظيعة كما سنوضح القول فيما بعد .

فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو كالفردوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه الاطباء كثيرا ، لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهما من شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقا عليه ذهبا كثيرا ، وتعبا من كثرة التجول به على الاطباء ، لكنهما لم ينتفعا شيئا في هذا ، وبعد حوادث جوسلين اشتهر الطوبائي مار برصوم باعتباره قديسا يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي تقضي كل وقتها بالصلاة والنذور، وتسأل الطوبائي شفاءا لابنها فحضر راهب من الدير يحمل ايقونة القديس كالعادة ، فأدخلته الى البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس للمرأة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسألت في حلمها . من هذا الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوبائي يقول هذا اريد ان تبني لي بيعه،وكذلك كان الراهب قد رأى القديس يقول له : قم امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بستانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى ثلاثة مذابح ، ثم عاد فرأى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده ، حينئذ خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما رأى وبما قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن سرعان ما اتى والدا الصبي ، واعلمنا بما رات الام ، حينئذ اخذ الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بغتة صرخ بصــوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفــزع الابــوان وكل اهــل البيت ، ونظروا فرأوا يد الصبي منبسطة وكأن واحد قد امسك بها ، فعلموا انه رأى رؤيا ، وعند ذلك ســألوه فلم يجــب لكن مضى وقــت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهيئا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوبائي مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتــلا كل البيت نورا منه ، ومعه جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقــامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهمــا ، هــاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وهــاانذا كســيح؟عند ذلك مس مــكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولايقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسيدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفــظ وصــاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قــد حــل بقديسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهمــا ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبــلاء الافــرنج وبــاقي الجموع من أرمن وسريان وافرنج ، واتوا الى المكان الذي صــارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القــديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصــارت الجمــوع تتبــارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التــراب بــركة الى كل الامــاكن ، ثــم ابتدأوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجــائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا،ثم مضينا لتــكريسها مــــع رهبــــان الدير ، وكان هــــذا يوم الاحـــد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومــار اثنا ســيوس بــطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامرأته ديما يزيل ، اعني اليصابات ، وباقي نبــلاء الافــرنج وشــعوب الأرمــن

والسريان ، وعدد كبير من كهنتنا وشمامستنا ، وكهنه الأرمن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ،وبحمد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشبت بين اغناطيوس المفريان وبين رعيته

خرج من امد البطريرك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مكث البطريرك في ذلك الموضع ثلاث سنوات ، ورسم بها اسقفا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدها .

ولما كان البطريرك في قلعة زياد اتى اليه اغناطيوس المفريان رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضت شريعة المشارقة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تكريت – اي المفريان – مطرانا لنينوى والموصل ، لكن ماان يرتسم هذا وينتخب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضوع للمفريان كباقي رؤوساء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصير معه بالمرتبة نفسها ، ولهذا السبب كانت تحدث دائما خصومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسسوس التلمحري ان هذه العادة بدات منذ عهد قرياقس البطريرك ، ولما ضعفت في هذا الزمان تكريت ، وازدادت رعية نينوي وقويت اراد هذا المفريان ان يوحد رعية نينوي وتكريت ، وان لايضع مطرانا لنينوى ، فوقع خلاف بين المفريان وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفريان الى اثناسيوس البطريرك في قلعة زياد ، لكنه وجد ان البطريرك لم يرض بهذا الاقتراح ، فتركه وانتقل الى ملطية ، ومن هناك ذهب الى دير سرجيسيه ولما صعد البطريرك من قلعة زياد الى دير مار برصوم ، اتى ايضا المفريان وحاول ان يقنع البطريرك ان يصنع اتحادا بين الموصل وتكريت ويصير المفريان راعيا للاثنين ، وبقي المفريان

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق مايريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فأمضى في ديرنا – اي دير سيدنا مار برصوم – بقية حياته .

تنصيب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية،واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فأما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير القرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المفريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريدهم ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في أمد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربارة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشمامسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تخاصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج باسيليوس من أمد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسيا للبطريرك كما كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الرديء الى بيعة الله فقام باسيليوس ومطران جيجان وقالا للبطريرك : انك لم تصبح بطريركا بانتخاب صادق بل بالحزن والالم ، وقالا : ان مطران جرجر غش ، لانه قال له بانه لن يخرجه من ملطية ، ولأجل هذا كتب ثلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فاستعدوا ليقيموا اخر غيره ، وكان اخرون يقولون لانه طرد باسيليوس مطران جيجان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها . اما هو فتوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب واظهر لهم الاوراق التي كتبها ومضى الى جيجان .

ثم خرج البطريرك من امد واتى دير مار برصوم ورسم مطرانا لملطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احد العنصرة في تلك السنة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقدس روانوس الذي من بين القدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع ابني إندراوس وابن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القوانين وارسلوها الى البطريرك قائلين : ان تحفظ هذه القوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مار برصوم ووضعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التي صنعها مطران جيحان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربان يشوع الشماس العنيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطريرك فرح لاتضاعه

وذكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات الجنازة ، وبقي أمر ملطية حتى توفي يوحنا البطريرك ، وكانت وفاته في ايلول سنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقدس . اما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال ضد النامـوس ، وكتب دستورا ثبته وختمه بختم البطريرك المتوفى ، موضحا انه بصفته البطريرك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيليوس مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسيسين وشمامسة ولم يكن للبيعة بطريرك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطرانا كانت معه مرعيث جيحان ايضا فصار جميع مسيحيي بيعتنا واكثر الاساقفة متشككين بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف زوروا ختم البطريرك ، فكانوا يلومون البطريرك، امـا الذين كانوا يدركون ويفهمون مـاذا جـرى ، كانوا يعذرون البطريك المتوفى ، لكن آخرون كانوا يسوغون فعل مطران جيحان قائلين انه صنع ذلك بالغيرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كبرئيل بطريرك مصر ، وارتسم مـار اياونيس ، وجلس البطريرك مار اثناسيوس فقصد اتـى الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعة مـار مـاماس واقام مراسيم الصلاة في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مـار اهرون (دير البطم) واعطى النخس لمطران ميافارقين ليدبـر آمد ، ولمطران طرسوس ليدير انطاكية.

وفي تلك السنة نزل ديونوسيوس المفريان الى بغداد يتداوى مـن مرض المّ به ، وتوفي هناك، وقد احضر اهل تكريت جسده المقدس وسجي في بيعه تكريت.

وفي تلك السنة خنق العرب أسقف حمص وطردت الرعية اسـقف عبدين ، وأما أسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

اهل دمشق ورعيتها مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريرك فأصلح بين الجميع.

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الأول ارتسم مفريان لتكريت هو عازر من دير سرجيسيه ، وكان اصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية وارتسم في دير مار أهرون ، ودعي اغناطيوس، وقد اشتهر هذا في البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريرك الى ملطية ، وكان فيها لما ملكها دولت بن غازي ، وحين زحف ضدها سلطان مسعود ، وبعد هذا مضى أناس الى جوسلين الوالي وقالوا له: إن هذا البطريرك صار بغير حق ، وأما جوسلين فلأن البطريرك لم يأت اليه فقد اصدر امرا أن لا يذكر اسمه في الكنائس في كل الأراضي التي يحكمها قطعا ، وأحضر طيمثاوس مطران جرجر الى سميساط وسأله كيف صارت القرعه في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هو أو غيره من الذين تكلموا .

وخرج البطريرك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع أن جوسلين قد نقل باسيليوس اي أبو الفرج بن السمنة الى الرها ، ورسم لكيسوم أيليا الراهب المعلم الكفؤ في جبلة ، والذي دعي أياونيس ، وهو مشهور في البيعة.

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان اصدر الأمير حاكم قيسارية الكبدوكية امرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت امه تحكم بالوصاية عنه وكانها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد واراد ان يملك فعلا تمردت امه وتحصنت في برج داود ، فتوسط اعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما اعطوها القدس فقط.

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، واقام المنجنيقات واحدث فجوه دخل منها أربعمائة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين الفا وقتلوهم عن بكره ابيهم.

فيئس الملك واراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر الفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهزموا الى مصر.

....(٣٩)قد صف المنجنيقات ونصب برجا من الخشب وصفحه بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوديع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه وذكائه

ان يتغلب على الجيش الجرار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستميتوا بمحاربة الأعداء وكان يضع من الداخل جنودا أقوياء يلقون بالمقاليع والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة.

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات أعظم منها واقوى واضخم ، وقد أرسل ليلا ثلاث مرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، أما الابراج فكانوا يهدموها بضربها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الأسوار من الداخل بالأعمدة الرخامية الكبيرة والمدعومة بالكلس.

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت رسله تقابل كل واحد من الأمراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصالات السرية أن يؤجج نار العداء بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، وأخيرا استطاع أن يكسب واحدا منهم الى صفه وهو يعقوب أرسلان حاكم كبدوكية ، وكان حمو قرا أرسلان ، ولكن لما وصلته الرسل والرسائل من أمد ، ورأى التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقدمونها له ، ثقل على قرا أرسلان ، واراد ان يخلص أمد من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل الى بلاده اخذ يسبي وينهب ، وترك قرا أرسلان الأمير وانتقل كسير القلب بعد ان تعذب خمسة أشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل الى بلاده وقلعته دعاه يعقوب ارسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورس وتل بطريق ، واخذ قلعة شنوموشكي بالحرب ، وسبى مبانه الف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة واخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس اسقف تل ارسيانوس فأعاده من قماح الى ملطية ، كذلك اخذ ايضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

في نواحي انطاكية وقيليقيه ، وصار نصف الكيل من الحنطـة يبـاع بدينار ، واخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد ذكرنا انفـا انه أرسـل المفـريان الى ملك الكرج ، لكنه كان فارسيا ، وكان قد أقامه أتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه من كل دخوله ، وقد غذي جدا وعظم كثيرا.

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي تلك السـنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان أمير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانيه ساحرة ، وكانت هذه تدفعه مستعمله كل شرورها ليضطهد أهل المدينة ، وجنده الأتراك ، لذلك أخذ العظماء يتململون ويدمدمون قائلين الى متى نحتمل مثـل هـذه الأمور.

اما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجده في خزائن ابويه ملكا له ، فأخذه واخذ معه تلك الزانية وأتباعه وخـرج مـن المدينة ، وأما رؤساء العساكر والجنود وأهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي،أسرعوا فأقاموا أخاه أبا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على أيامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، أما أخرته فسوف نوضحها فيما بعد.

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما أخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم أتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع أن يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضـطهاد مليح الأرمني للمسـيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحـا الارمني حـاكم قليقية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحـق بهـم الشرور في كل مـكان ، خـرج ملك القدس ضده ، وزحف نحـوه فـاحتمى ذاك بـالترك الذين أتـوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته أعان الملك وكسرهم ،وهرب الاتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك على القلعة ، وبدأ يقاتل تضايق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد انه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة أكل(٤١) ، وقام ابنه اسد الدين ، ونشب بينه وبين عمه حاكم أمد خصام ، وصارا يسبيان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزله قوية ، وكانت الأرض تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغته صوت رعد قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشبثنا بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مده طويلة أفقنا كمن يفيق من القبر، وتنبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا أن ما حدث لم يكن في الدير فقط وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى،وعندما علمنا ذلك أطلقنا الالسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا بأعيننا الظلم الفظيع الذي كان يحل فيها على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيها الوف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم واعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

- ٢١٦٩ -

اللسان أن يتكلم عن الآلام التـي كانوا يقـاسونها ، وإذا أردنا أن نروي عن ذلك فاننا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقـد جـدف كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عمـا يحـدث ، وقـد تهـدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوثت المياه من الجثث ، وتشـققت المدينة وصارت شقوق وسراديب سراديب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هـذه الفـظائع ، كذلك سـقط سـور انطاكية على شاطىء البحر وبيعه اليونانيين الكبيرة كلهـا سـقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سـقط مـذبحها وبعض البيوت وسـقطت بعض البيع في عدة اماكن ، ومـات نحـو خمسـين مـن الناس في انطاكية،أما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسـم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ،واحدثت الزلزلة أضرارا في باقي مـدن ساحل البحـر وفي دمشـق وفي حمص وحمـاة ، وفي القـرى ، لكن الشيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيها قط ، ولم نسمع بـه في اي مكان •

وفاة أمير ملطية

وفي هـذا الشـهر كان عمـر امير ملطية خمس عشرة سـنة فقط ـ هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كمـا اشرنا من قبل ـ فأحضروا له ابنة قـرا ارسـلان حـاكم قلعـة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسـب عاده الاتـراك ، لكن الحصـان قفـز عاليا فجأة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير أرضا ومات للحـال ، فـانقلب العرس الى مأتم ، وفكر الناس أن يعيدوا أخاه الأكبـر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا ذلك ، كذلك أجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فأقاموا عند ذلك الأخ الأصـغر رئيسـا وكان اسـمه فـريدون وزوجوه امراه اخيه بدون رضاها.

• • (٤٢) أما حاكمها فرينز فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطريركهم ، وتوسل إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخل حتى يخرج البطريرك اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان به بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق،حينئذ دخل همفري إلى انطاكية وبنى اسوارها وبيعها ، وكذلك بنى نور الدين حاكم حلب أسوارها ،وحاكم سميساط بنى اسوارها ، وكل واحد من الحكام الأتراك والافرنج بنى أماكنه ، وقد اشفق الرب على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه ٠

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجر واحد ، وهكذا ايضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفظت بيعتنا ، وفي انطاكية حفظت بيعتنا الثلاث ، وهن بيعة والدة الرب ، وبيعة مار جرجس ،وبيعة ماربرصوما،وفي طرابلس وفي اللاذقية ، وذلك حفاظا على شعبنا المستقيم المجد ٠

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها أولاد اخوته الخمسة،وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، اصله اسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد ابناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

اما نور الدين فقد قال : لأجل هذا اتيت الى الموصل ، أما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد ان العرب بأجمعهم يحبذون نور الدين ويريدونه خرج اليه واخذ عهدا منه أن لا يأخذ المدينة من ابن اخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر امورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن اخيه • أما الذهب والمقتنى الذي وجده في خزائن اخيه فقد وزعه على جميع ابنائه ، كذلك وزع البلاد على الأخوه.

أما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

واثقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه أن يربطوا احزمه في وسطهم ، أو أن يسدلوا شعر رؤوسهم ليهزأ بهم العرب ، كذلك امر أن يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانين فأعطاه ذهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسيحيين ،ولما ارتحل ناحية حلب نشب صراع بين المسيحيين الموجودين في أثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية ٠

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد أسكره المجد والقوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين انه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد استطاع أن يملك بلاد اشور بالاضافة الى سورية ومصر ، فأسكره الغرور ، واعتقد ان باستطاعته أن يتسلط على كل المسكونة ، فحاول أن يمحي المسيحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفة ، وارسل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القران: أن النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سيملكون خمسمائة سنة لا يؤذون المسيحيين بها ، اما الأن وقد كملت هذه السنين فيجب ان يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقد كتب في إحدى رسائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فارتاب الخليفة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعه كما خلع خليفة مصر وجلس مكانه ، أضف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسمي نفسه نبي.(٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر أب توفي اتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل اثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حاكم حلب عسكرا ونهض بسرعة ، وأخذ نصيبين بغير قتال ، ففرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متدينا لا يشرب خمرا ، ويؤدي كل فروض الصلوات ، وكان المسلمون يسمونه « نبيا » ، وقد احسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ،وأمر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والأديره ، فهدموا أساسا عظيما كان قد بني في بيعه مار يعقوب الكبيرة في نصيبين التي كان يتولاها النساطره من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا اوانيها ، وكان بها

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في أمـاكن كثيره ، وقـد اقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالته يدعى ابن عصرون ، ووكله أن يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام أبيه واخيه ، لكن نلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشـونه ، فـكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد مـن يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، الى أن سـمع بهـذا نور الدين فأقاله.

وبعد نلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل الى جبل سـنجار واحتله بغير حـرب ثـم حـل على الموصـل في كانون الأول سنة ١٤٨٢ يونانية.

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة توفي الخليفة المستنجد ، وخلفه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما:

كان المسلمون الترك والأكراد وشعوب من أهل السنة اخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القديس مار برصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقد كثيرين بنعمته ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمع الناس اليه من بعيد ، وكانوا يبقون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغال ، لكن مطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هذا المطران أن يصنع خزانا بهذا الموضع المقدس ، ويجر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا: لا يمكننا ونحن محاصرين بالأتراك من كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصدقوا أنه يمكن أن تمر اقنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بالصخور والأحجار ، وقد قالوا له:إن الأولين كانوا احكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدروا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحن إذا؟! وبعد فتره دعيت انا الحقير ميخائيل ، وأقاموا راعيا للدير فدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء أكثر من الأقوياء أن أكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر انه يمكن أن يدخل الماء للدير ، حينئذ بدأنا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم أتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان.

وفي هذه الفترة بدا الأخوه الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الحسد قائلين: لقـد خـرب هـذ الدير وضـاعت امواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مـار بـرصوم ، حتـى دنا الربيع ، واتى المطران كمـا وعد ، حينئذ عوض الحسـد الذي كنا نلقاه من المحيطين بنا صار معـونات ومـديحا مـن المسـيحيين والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتـداوا بـرضاهم يعملون بقوة سيدنا مار بـرصوم ، فـكانوا يتسـابقون ليكون كل واحـد اولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير ان القديس يريد ان يتم هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبـان والمبتـداين الذين كانوا ضد اكمال هذ العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا: الى هنا اريد ان اتي بالماء ، وهذا ما صـار فعـلا لانهـم بينمـا كانوا يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجـل ، وكان اسمه برصوم فبدل ان تسحقه عاد واقفـا ، وهـذه كلنا نظـرناها بعيوننا ولمسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى ايضا صارت عند انتهـاء العمـل ينبغـي لي أن اكتبها، عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصـخر عاليا وقفنا في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القـديس لراهـب غريب ، وقـال له:امض وقل للفعله ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا للماء ، فلما قال هذا لم يصدقه أحد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان كله صخر صلب ، فـأخذ الراهـب وحـده يحفـر حيث دله القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن أخرون قالوا:إن الرب شقه من جديد ، فأما أنا أقول : إن كان في الأصل هو مشقوق أو أنه انشق الآن فقوة الله الحـالة بسـيدنا مـار بـرصوم أوضحت لنا أنه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، امـا انا الشـقي الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لاأحد يظن بـي أني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تـركت أشـياء كثيرة لئلا تـطول الرواية ، فليعلم القارىء أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل هذا العمل •

تمت هذه القصة .

• • • • (٤٤)وبــلادها ، وأخـذ الدار التـي لبيعتنا في مــاردين واعطاها للعرب ، فاضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكفوفين يجدفون على القـديسيين بدل أن يوبخوا أنفسهم •

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ،وصـار الشـعب يعيرنا نحـن الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بـل مـن الواجـب أن يقـول القديسون لنا :إن الشعوب تفتري على اسم الله لاجلكم.

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعـد ذلك سـقط ذلك الخصي عن حصـانه وندم ، لكنه لم يسـتطع أن يرد الدار لأنه خاف من العرب.

وفي السنة التي مات بها مطران سميساط مـات ايضـا يوسـف الذي كان موضوعا بغير شريعـة في تـل ارسـانيوس وانعتـق منه المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا.

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة حفرنا في دير مـاربرصوما وبنينا مسـاكن للبـطاركة ولراحـة القـاصدين ، وفي تلك السـنة تجـددت بيعـة ملطية الكبيرة المدعوه الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمـن ، وشـارفت على السـقوط ، وقـد حـاول المؤمنون أن يرممـوها ، لكن الرعاة لم يسمحوا لهم مدعين الخـوف مـن الحـكام ، لكن الصـحيح كانوا يخافون اذا بدأوا بالاصلاح أن لايستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود اليهم ، وليس للحـكام كمـا يدعون ، لذلك اهملت الى الآن ، وقـد اخبــر بعض المؤمنين بـــطريرك انطــاكية بتشـــقق بنيان الكنيسة ، فأرسل الينا اسقف طرسوس وقسيسا مـن عنده وطلبـا مني أن أمضي معهما الى الكنيسة لأجل هـذا الأمـر ، ولما مضـينا وشاهدا الجدران المتـداعية أعطـوني خمسـين دينارا لأبـدأ العمل ، فأحضرت العمـال حيث هـدموا القبـة والبــابين القبلي

والشمالي ، وابتداو بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي هما ابو الحسن الارشيد ياقون(٤٥) ، وورومانوس الوكيل المتكني كوجان بهدم البنيان كله ثم اعادة بنائه ، وهكذا كان ، فهدمت الكنيسة ، ثم أعيد بناؤها رويدا رويدا ، وقد اشتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تاتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهذه الكنيسة عام ١٤٨٠ يونانية برعاية ماراغناطيوس المطران المدعو الساعي .

أما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه الفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط اناس من الافرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتاثير الشياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لايمكن للخبز والنبيذ ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وانه لافضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم أساقفة وولاة ، واتحد معهم حكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كريه من الدعارة اذ اشاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امراة واحدة ، ولا للمراة رجل واحد ، ولماانتشر هذا النفاق قام بابا رومية فجمع مجمعا مسكونيا ، وامر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس،واما نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لامكان لنا في هذا المجمع ولانريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة واوضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بـالله وقتل هذا الخليفة الوزير لأنه لم يرض به مـكان ابيه ، وكان هـذا الوزير القتيل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك اخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقـده على الوزير ، فـأخرج رؤسـاءهم المؤمنين أولاد توما من السـجن ، وأعاد لهـم بيوتهـم وبيعهـم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسـل نور الدين لأنه اكتشف حيلتـه ، وانه ارسـل له تـأنيبا يعنفـه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمي نفسـك نبيا ، وتضـع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمـر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعـد أن تـولى الخليفـة الجـديد طلب نور الدين الأذن للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجـديد أن نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتـي بحجتهـا الى بغـداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا أن نفهم أن الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في أي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعتـه من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٣ يونانية سمع السلطان قليج ارسلان بـالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعـة زياد مستنجدين ، فأتى الخصي سعد الدين ، وهـو رجـل مـدبر حـكيم وشجاع ، فوحد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سمية على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولى على المدينة ، لكنه أخذ اثني عشر الفا مـن شـعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الأحرار ليذهبوا مع عساكره وعسكر الموصل وماردين وقلعة زياد وعسكر الأرمني وغيرهم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعدهم بالغزو ، ثم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفوا انه كان يخادعهم توجهوا الى الباب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبوا منه ان يعطيهم مقتنياتهم وأموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم اخذوا يجمعون اسلحتهم وثيابهم .

اما الشرذمة التي كانت مع صلاح الدين فقد وصلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم أن حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجأ الى الأفرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعل نفسه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج اخلفوا عهودهم ومواثيقهم معه ، وداسوا على اليمين الذي اقسموه له ، فأتوا من القدس ومن كل ساحل البحر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلظ ، ومضوا مع فرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهاجموا حارم وحاصروها أربعة أشهر ، وأخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد أوقعوا خسائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق،لقد حلفوا بالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا أن الغلبة تكون بقوة البشر ، ثم اخذوا يهاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف الترك الذين كانوا يدافعون عن القلعة وأرسلوا يستنجدون بحاكم حلب ، وأعطوه عهدا أن يسلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهم ، فأعطى حاكم حلب عشرين الف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

...(٤٦) وقد جمع البلاد التي اخذها من اخيه شاهنشاه والذي كان قد اخذها من ذي النون ، وكذلك اخذ أولاد اخيه الذين كانوا في السجن اما هو فـأرجع شعب ملطية واعطى لأخيه كل سنة عشرة الاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعا .

اما عن اخباره مع أولاد اخيه فقد كان معهم متوحشا الى ابعد الحدود ، فذبح واحدا منهم وشواه بالنار ، ووضعه على طبق وارسله لأبيه وأرسل معه خبزا وارفقه برسالة تقول :إن كنت تريد ثلاثة اخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن ارسلهم فورا لك ، فلما راى الترك هذا المنظر هلعوا وارتاعوا وتصالحوا ، وعاد كل واحد الى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بلادهم خالية من العساكر .

ولما انيع خبر موت نور الدين بين العرب والترك ثاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة اقتتلوا فيها كثيرا ، وسقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون ان يفنوا بعضهم بعضا ، وقد خلت القرى من الرجال والطرقات من المارة في سورية ومابين النهرين وأشور .

وفي تشرين رجع الامراء والعساكر من كبدوكية الى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر أمام الناس فعرفت الشعوب انه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحو من الف شخص ، وقد اشتراهم اهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا أموالا طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبدوكية ، فالجوع الذي طال امره في كل البلاد ، والشتاء الصعب الذي أتلف كل شيء ضايق الناس كثيرا ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتا بعد أن علموا أنه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم اعطاهم قليلا وطردهم بل وأخذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حاولوا ان يقتلوه ويأخذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع أولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامراته أخت السلطان مع خمسمائة من انسبائه ، ورموهم على الثلج دون أن يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، أما أخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لأن الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ماندم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه أحد انسبائه ، فاتصلوا بعمه ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، أما ذي النون فقد اتى سيرا على الأقدام لأن الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج أهل الديروكسحوا الثلج أمامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى ان وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نورالدين بعد ان ظن الجميع انه قد مات وخرج لملاقاة السلطان ، وكذلك الأمير قلج ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مغتاظ منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية وأسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، واخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي اخذها من السلطان ، وبالمقابل تسمح السلطان ان يملك ذي النون على كبدوكية ، وأن يطيع نور الدين ، واصطلحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده ٠

وأباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول وتشرين واتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لأنهـا اتـت في غير أوانهـا ، وقـد التجـأ الناس الى التنجيم والضرب بـالفال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشـمس يظهر كنور القمر ، أمـا الثلج فـكان يتسـاقط بغـزارة عظيمة ، فامتلأت الجبال والبقاع حتى أن الاقـوياء مـن الشـباب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمـة ، بـل ومـن بيت الى بيت ، وهكذا امتلأت الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكأنهم في قبور ، وقد تجمـدت الأنهـار والعيون وكل الينابيع حتى أن الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجىء الى البيوت ؟ أمـا الثيران والحمير والخيل فقـد مـاتت داخـل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجو مـن رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقـط بـل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط أربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتـادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود السـكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الأخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيسـان وبصـعوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطـرقات فـطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته،أما الملوك والرؤساء فقد التجـأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشـدة سـوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفسـه ، وامتـد مـن آذار الى نصـف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقرأون في عدد الكواكب ان

- ٢١٨٣ -
كل مايشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعــظ الناس ويعتصــموا بالايمان .

وفي هذا الزمان ســبى العــرب بيعــة الأربعين شــهيدا في ماردين ، وقد سمح الله تعالى ان نعتبر بهذا ، لكن رجعــت البيعــة بعناية الله فيما بعد .

- ٢١٨٤ -

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل أمراء الامارات التي بها تخضع لأمره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعة واحدة ، مملكة الافرنج في القدس وانطاكية ، ومملكة الأتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وارمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصور، وعم الخوف والفزع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وافكاره ، فعم الفرح ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم أن يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القرآن والحديث ، لأنه كان يعتبر نفسه نبيا،وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا أن مايدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير ان بعض المرائين والمنتفعين كانوا يقولون له · لقد رايناك في مكة أو في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصالح فقام الملك عموري ودخل الى بلاد دمشق وسباها ودخل على بانياس ، وخاف المسلمون كثيرا خصوصا انهم كانوا يستعدون ليطردوا الافرنج ، واذا بالافرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك أرسل أهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية،كما كانوا فيما سلف،لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قط ، بل تهيأ ليشن الحرب عليهم لكنه مالبث ان مرض ، ولما علم ان اجله قد دنا أسرع واخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا،ورجع الى عكا ومات هناك في أول تموز سنة ١٤٨٦ يونانية،اي بعد أربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد أحدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا افضل بعد موت نور الدين ، فخاب املهم بالموت الأليم لهذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفه ابنه المسمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة،ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السنة اي ١٤٨٦ يونانية لما سمع قلج ارسلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمدنيين فخافوا كثيرا وتم فيهم قول ارميا النبي :« ملعون هو كل من اتكل على الانسان وصنع ابن اللحم ساعده،ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجذر الذي ليس له ماء»، واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم واخذ سبسطية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقد عظم السلطان قلج ارسلان هذا فهرب كل الأمراء من وجهه

واختبأوا ، امـــا رئيســـهم ذو النون فقـــد التجـــأ الى القسطنطينية ، واســـتنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهـت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدات مع بداية خروج الأتراك لهـذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنتين وعشرين سنة قام خـلالها سـتة رؤسـاء مـن سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدأ ينبت العشب وحسنت الغلات بعـد أن صـار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثـور وارمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وايضا وصـل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصـار شـبع لاسيما في أرض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصـار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل،واخذ نصيبين،ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجـر التـي كان قد كتب عليهـا النواميس ، وكانت مـوضوعة بـالمسجد وامـر بشرب الخمر علانية ، وأتى اليه أمراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها واخذ سروج وقالينيقوس ، وخضـع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر ايضا على بلاد العرب الداخلية وعلى أماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجـاحا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن اصـحاب جبـل سـاسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعه الى شاه ارمـن صـاحب اخلاط،وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضـايقات مـن أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة آني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة ماردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، واخذ راسه بيده ، ودخل على أبيه الشيخ وقال · لقد اراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ ابوه فقد أصيب بصدمة شلت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قيليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى احدى القلاع،لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فأمسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، وأعطوه للكلاب فأكلته ثم احضروا روفين ابن أخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكوه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا،فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره واخذ يصرخ باعلى صوته باكيا متضرعا مستنهضا همة الشعب الموجود داخل المدينة ليجتمعوا وينجوه من أيادي هذا المتمرد ، فاجتمع اليه الاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فساروا خمسة أيام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش،فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الأمر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل ادركتهم ريح حارة ومحرقة ، فيبسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تاكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الأطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا احدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الأحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية أخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثــم تــرك الملك والمدينة وهــرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سـنوات يعيش عيشـة بـذخ وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبسه لكنه ما لبـث أن هــرب واتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هــرقلية ، وكان يريد ملطيه ، وعندما أصر على ذلك عاد فــأخذ هــرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجــه بالسجن في مدينة البيرة على شاطىء الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مــار بــرصوم وارسلوا له صدقة مع رسل من الرهبــان انفســهم،لأنه عندمــا كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد اســتفاد الدير مــن هــذا كمــا سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع أن امرأة أخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعلها ، ورجعت إلى قلعــة زياد عند أبــويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فأخذ سرا مــاخف حمله وتــوجه إلى دير مــار بــرصوم ونذر له نذورا كبيره إذا رجــع وملك ملطيه ، واقسم ايضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعــد ذلك تــوجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم بــه إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى أحد الأتراك وكان يحبه منذ زمــن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مــع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصــلوا إلى الدار ودخلوا البســتان دون أن يعلم بهم الحــراس ، فــوجدوا هناك ســلما مــطروحا على الأرض فوضعوه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشــقي مع المرأة العجوز مربيته ، وفجــأة اســتيقظ الصــبي والعجــوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبــادره بضربــة على رأســه قتله على الفور ، واخذ مفاتيح ابواب المدينة والقلعة ، وحمــل رأس أخيه بيده واخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف انهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون رأس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم اخذ مائة رجــل تقــريبا وصــعد عند

انبلاج الفجر إلى القلعة ونصب أميرا جديدا ، وقد خـــاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهـــم وامتشقوا سيوفهم وتجمهروا أمام باب القلعة وأخـــذوا يخــاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي راسه مـــن أعلى الســـور وتدحرج بينهم تأكدوا انه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم ايضا ، ولما تنصب وملك الغى الخراج عن دير ســـيدنا مـــار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم ســـيعطوه بـــاختيارهم كل سنة ثلاثمائة دينار، على أن يلغي مازاده عليهم الأمير غازي لأنه قبل الأمير غازي لم يكن يثقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة،لكن الامير عاد فألغى الخراج عن الدير وذلك وفاءا لنذره،أمـــا الرهبـــان فلم يرضـــوا واصروا أن يدفعوا الخراج وذلك حتى لايستعدوا المسلمين عليهم،فمـــا كان مـــن الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا ٠

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الأحد الثاني للفصح في ١١ نيســـان عند الصباح،وبعد قراءة الأنجيل،أي عند انتهاء الخدمة تقريبا أظلمت الشمس كليا وصار ليل،وظهرت الكواكب في السماء وبدا القمر بقرب الشمس وكان مشهدا محزنا ومفـــزعا لكثير مـــن الناس فـــأجهشوا بالبكاء،أما الغنم والبقر والخيل فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضاء،وبعد ١٥ يوما في نيسان ليلة الاثنين مساءا انكسف القمر في الموضع الذي به أظلمت به الشمس ٠

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حـــر شـــديد فيبس الزرع وبـــاقي الحبوب،وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كليا مـــن الســـكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة،وبلاد نصيبين،وفي طور عبدين وفي بلاد الموصل،ولم يحصدوا الزرع أبدا وقد فقد الماء تمـــاما حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سـنة ١٤٨٧ يونانية خـرج صـلاح الذي كان يملك في مصر واتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخـذ مـن ابـن نور الدين حران والرها،فاتى بحجة ابن سـيده،وبهـذه الحيلة تملك على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وامـه ومـربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه،لكنه أرسل رسلا يقول لهم بأنه مـاهو إلا عبد وقد جاء ليخدم الصبي ويصـير له مـربيا ويحـارب أعداءه ويطردهم،فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب،ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماه حربا وأحضر من مصر ذهبا كثيرا وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، واخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حـكم نور الدين وصـنع صـلحا مـع الافرنج .

أما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسل عساكره ليطردوه،فعندمـا وصلوا أخـذوا يهـزؤون بـه ويحقـروه ويدعونه الكلب المكشر على سيده ، أما هو فكان متواضعا جدا فأرسل لهم رسلا يقول لايجـوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم،لكنهم شـتموا رسـله وهجمـوا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين اضعفهم ورمـى في نفـوسهم الخـوف والهلع فهـربت العساكر على كثرتها ، فأمسك أكثـرهم واخـذ فيلهـم وجمـالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفا يستحق الذكر إذ لما رآهم أنهم بـدأوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته أرضا وقـال :لاتقتلوا أحـدا فهم أخوتنا ، واخيرا حتى الذين كانوا أسرى أعطـاهم زادا وخيلا وأرسلهم بسلام .

وقد كان لسلوكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

اما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جدا وأرسـلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب ليبـاع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمـن طـويل ، وقـطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين الف،وجوسلين بن جوسلين بخمسين ألف،ورنجر فرينز بمائة وعشرين الف،وكانوا قـد أرسلوا عدة مرات ذهبا من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمنا لغيره ويبقى هو ،أما الآن فقد خرج مع كل الباقيين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عسـاكره،فجمـع عسكرا اضعافا مضاعفة،ومضى معه حاكم ماردين وحـاكم حصـن كيفا وكان مجموع الجيش ستين الفا،وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر الفا فقط،فأرسل إليه قائلا : لاتـطلب حـربا لأني إن انكسرت فأنا عبد لا اتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه،ولما اشتعلت الحرب رشا صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فـانسحبوا وتـركوه وحيدا على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعـار ، أمـا صـلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العـرب الذين بهـا واعتقـل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكما للرها واسـمه قـطب الدين ينال بن حسان ، اخذوا مقتناه ظلما ، لكن بعد خمسة أشـهر اخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا اتى إلى طـاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سـورية ، ثـم مضى نحـو اعزاز فهناك هجـم عليه المدعوين بـالحشيشية وضربـوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وارسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب ايضا فـالتجأ أهل حلب الى الافرنج فأرسل اولئك الى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عددا كبيرا من العساكر ، ثم دخل الافـرنج الى بلاد دمشق ايضا وقتلوا هناك شعبا كثيرا وسبوا ، ثم أرسلوا ايضا عساكر الى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صـلاح الدين مـن الافرنج رد أعزاز الى حاكم حلب وصنع معهم صـلحا ، ورجـع الى مصر مسرعا.

« حرب بين الأمير منويل وقلج ارسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن أخته قتل على باب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان امر عساكره أن لايحاربوا ، بل أن يمضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل أنواع القوت للبشر والبهائم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والآبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل أنواع النتانة والنجاسة .

وامر ايضا الذين في القلاع أن لايحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، اما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة ايام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، واخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبيء فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة الاف عربة تحمل المؤن والسلاح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات أخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين الف رجل فسبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعسكره أن متاعهم ومؤنهم وأسلحتهم قد سبيت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم أخذوا يدحرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقاة الترك ، وقد وصل

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان طالبا الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفا ، لذلك قبل سريعا ، وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ، فتحلق الترك حول السلطان واخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل الصلح،واضطر الملك ان يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء السلطان حتى لايتجاسر عليه التركمان ، اما الترك فلم يلتزموا إذ عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده:لماذا يحدث هذا بعد توكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ، عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين الفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهبا كثيرا إلى السلطان ، واخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك ارسل السلطان إلى الخليفة في بغداد وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عددا كبيرا جدا من العبيد والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم،محمولة على رؤوس الرماح، او مربوطة في اذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن لايستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والاديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضطهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا أيام ابيه ، ثم اتى اثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالحوا ، وبعد هذا أذيع خبر انه مات وأن الخراب عم بلاده ، لكن تبين انه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفا واخذ من جمالهم إثني عشر الفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالحوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر انه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعافى اكتشف ان السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد دانشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي سارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير أمامه أولاد دانشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الاتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد أولاد دانشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد اخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ،لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ،ووضع بهما عسكرا اخذ يهاجم الاتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفا،وحينئذ توجه

التـركمان الى ناحية الشـمال ودخلوا إلى بـلاد اليونانيين دون أن يعلموا اين هم فسـبوا مـائة الف مـن الناس ، وقتلوا الرجـال والنساء ، اما الاولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب مـن وجهـه واخذ ينتقل من جبل إلى جبل ،.والملك يطـارده ، وكان في الحقيقـة لايريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين الفا من العساكر ليملك نوقيسارية،فحاصروها وعندما ارادوا أن يقتحموها احتال الأتـراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسـائل على لسـان المسـيحيين الذين في داخلها إلى رئيس عسكر اليونانيين يقـولون فيهـا : إن الأمير ذي النون الذي وضعت ثقتـك فيه مـاهو إلا إنسـان مـكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلدته وعشـيرته ، ويسـتعد لاهلاككم ،ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسـكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، واخذوا يهـربون وحينئذ خـرج عليهـم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخـون : لقـد مـات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن أخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عادت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهائم مـن العطش ، لكن الأرض لم تنتج غلالها

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجدبت الأرض وعم الجـوع وصـار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصـار بـالقدس ودمشـق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثـةذهبيات ، وبعد مـدة فقـد لم يعـد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخـذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الأحمر في بـلاد سـورية بنصـف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السـماء في ناحية المغـرب شيء يشـبه

- ٢١٩٦ -
نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصـعد كان يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مـرات ، ثـم اسـتقر في وسـط السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهـر أبـدا ، ولما انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معـه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفـرسان مـاعدا المشـاة وغيرهـــم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والذخيره لبلاد القـدس ، وقـد قتل بيده أول افرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الأفـرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفـخ الشـجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حـوله وحينئذ تـرجل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصـليب وأجهش بـالبكاء وأخـذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود وأقسموا على الصليب أن يحـاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الأتراك فكل من يهـرب قبـل أن يمـوت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بـانهيار حالتهم المعنوية ، لكن الأفرنج لما رأوا الأتـراك بـأعدادهم الهـائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحـر نزلوا مـن مـراكبهم ، وجـــذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبـدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الأفرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الأفـرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الأفـرنج وكانوا يقتلونهـم ويذبحـونهم طـوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمـالهم ، وأخيرا تبـددت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسـكر الأفرنج يلاحقونهم بعـد أن تحـولوا إلى شرانم أنهـكها الجـــوع والعطش والاعياء فقتلوهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلة من حـرسه يجـرون أذيال الخيبـة والحزن ، وأما الأفرنج فقد وصلوا إلى أنطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في أنطاكية وقت ذاك .

وفي هذه الأيام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حـاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فـالتجأ إلى الافـرنج فـاقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الافرنج صـار حينئذ عدوا للأتـراك ، لكن الافـرنج سرعان مـاتخلوا عن عهودهم وداسوا قسمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العـديد مـن الشـعب الأعزل ، وقـد انتصروا على الرغم من أنهم تجـاوزوا يمينهـم ، وحلفـوا كذبـا بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى أنطاكية خـائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق مايريد .

- ٢١٩٩ -

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدما صنع السلطان قلج أرسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج أكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الأمان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وبنوها بسرعة من اللبن إتقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الا له هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان أدب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فيبست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين وأثور ، وبين النهرين وأرمينيه وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت الى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريرك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا أخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهـــج الجـــو وصـــار البشر يسبحون الله ، وصار خير ورفاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الأول اجتمع مع بدوين الملك جميع الافرنج على شاطىء الاردن في الموضع المدعو مخاضه يعقوب وابتدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر وأتى إلى دمشق لانه تمرد عليه الأمير شحنه مدينة بعبلك ـ هيلوبولوس أي مدينة الشمس ـ ولما حاصرها وأخذ يهاجمها بدأ أميرها يراسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهدا انه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجع الى صلاح الدين وأخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صلاح الدين الى أرض فلسطين لكن عادوا فجمعوا قواتهم ، وعندها انسحب صلاح الدين الى دمشق فما كان من الافرنج الا ان سبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبث ان ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضهم الاخر القى نفسه في الاردن ومات غرقا خوفا ان يقعوا في أيدي العرب ، اما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطىء الفرات أمرهم الأمراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لانه لايوجد طعام يكفي لهم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفا،وعندئذ عبر ماتبقى منهم الفرات ، ولما دخلت جمالهم ونساؤهم ورجالهم وأولادهم الماء جرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في انطاكية فنزل مطر شديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيراً لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد دب الزعر والهلع في قلوب الناس ٠

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضا ، كان الشتاء لطيفا مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتا ودوراً كثيرة قرب بيعه مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلا للبطريرك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريرك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لايمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصدق على المحتاجين والرحمه بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، واباحوا نساءهم،عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني،اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، وذكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا ٠(٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولاجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانشمند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مار يوحنا المفريان مشاجرة بسبب الحصيصيين في بلاد تكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام قوريا قوس البطريرك (٤٩) وقد انشقوا عن البيعة لاجل لفظه : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعودوا الينا ولما جاؤوا الي وارادوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منشقين عن اخوتنا الذين هناك ، فأماهم فاعتبروا ان هذا اهانة لهم ، فطلبوا منا ان نرسم أسقفا وهم يقبلون بعد ذلك ان يكونوا تحت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاتشاور مع المفريان وذلك حتى لايقع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصيصيين قد أتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحرمان الحصيصيين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبانا ليشرحوا له الوضع ، وانه كم عانى الاباء القديسين امثال قريا قوس وديو فنوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونيه بقبول عودتهم والاذن لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، اما انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجب بحثه في المجمع فرجع الى رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتى هو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصار الصلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلدوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما رآه معنا فرح جداً واكرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الى القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريرك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حاذقا جداً بالكلام ، فبدأ يسحر الناس بكلامه

- ٢٢٠٤ -

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقص لنفـــاقه ، وكتبنا صحيفه مستفيضة للشعب ، بعـــد هـــذا تبـــع الخلقيدونيين واخيرا انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في سـنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مـرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بدنو اجله فـالتجأ الى احـد الاديرة ، وتـرهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعـا مـن عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصـبي راهبـه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليدبروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجـح كثيراً في حكمه ، لكن بعد مـوته عم الفسـاد المملكة لان ام الصـبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحـد عشر الاخـرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعـوا ابنهـا ، ويقيمـوا ابنة منويل الملك مـن المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هـذا المسـعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجـاؤا الى البيعـة الكبيرة ، ثـم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقـات نحـو كنيسـة أيا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسـيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا إلى البيعة بعد اخذ عهداً مـن الملك وامه ، فخـرج الجميع الى السراي لكن الملك وامـه داسـا يمينهـا والعهد الذي قطعاه للبطريرك وامرا باعتقال الزعمـاء الاحـد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم,وحينئذ اندلع القتال مـن جـديد ، فقـام بطركهم وحرم المدينة كلها ، واوقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاديرة من اول شـباط الى تشرين الاول حتـى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثـم اعتصـم في دير قـريب مـن المدينة .

هجوم السلطان قلج ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلج ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رأته عساكر كبدوكية هربت وعادت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج٠

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسي الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالي الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لنبني هيكلا بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عدد كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدات الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون(٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتمى بالحاكم لينتقل الى طور عبدين ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد إلى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لانه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا

واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان وراس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجا إليّ فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الأربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعيتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم امد ، ووعدوه بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطريرك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه ان يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف امد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجاة ، اما هم فلكونهم قد

دفعوا الذهب تقدموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واظهروا له كتاب ابيه ، فاذن لهم ان يصنعوا مـايريدون ، لكن هـذا الخبـر سرعان ما انكشف في آمد ، فهـاج الشـعب ومـاج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهـدم ايمـاننا ، فقـال السـلطان للشعب ، اذا اتى بطريركم الينا سـنطرد هـذا ، فقـال الشـعب : سنحضر بطريركنا ، وحينئذ امر ان لايرسم ذاك وللحـال اتـى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم مـن دير مار بـرصوم ، لكن اولئك الاشـقياء احتلوا ليلا البيعـة واغلقـوا الابواب ورسموا تـادروس المنافـق بـطريركا ، في الصـباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا مـن بـاب المدينة وتـوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعـة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل مـن الخدمة التي ربما لااكون اهلا لها ، فلمـا عرف المجتمعـون بـذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبـت معهـم الى آمـد ، فابتهج الحاكم جدا وفـرح ووعدنا خيرا ، فـاعتز كل شـعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا مـن كل مـكان اسـاقفة وقسس ورهبـان وعلمـانيون ، حيث تـوجهنا الى دير مـــار حنينا، (٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفـق معهـم ، وخصوصا بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبـل مـدة ، فلمـا نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخذوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مـدينة دارا امسـكهم زعمـاء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واسـاقفة وجملة رهبان واتوابهم مـوثوقين ، حينئذ اقـروا امـام المجمـع باخطائهم وحرموا افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعا لنمضي الى دير مار بـرصوم ونعقـد هناك مجمعا مسكونيا ، عاد فدخل الشيطان بهم وهـم في الطـريق فـكفر

تادروس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهبا لاناس ذهبوا واتوا بالاكراد ليلا فاخذهم الاكراد واخفوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا علي قائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثم خرج كل واحد الى ناحية ، فوجدوه متخفيا ، فامسكوا به ثانية وساقناه معنا الى دير مار برصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، واقر الجميع ان يخلع لباسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقي الامور ، ورجع كل واحد من الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبون الذي مكث عندنا في الدير واعلن ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كما امرني الانجيل والبسته اسكيم الرهبنية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلاية لسكناه ، وقلت ان تبت فان المجمع الذي حرمك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته في دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنينا ، لكنه كعادته كفر بوعده وتبع الاشرار مثله فهرب ليلا من اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشق مع رفاقه وكتبوا كتابا باللغة العربية وقدموه الى صلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهبا ان وجه كتابا يقبل بموجبه هذا بطريرك في كل الاراضي التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صلاح الدين امرا بقتلي بعد تلفيق كثير من التهم ضدي ، فلما قرىء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتابا عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبون ، فمضى الى القدس ، واخذ يخرب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بطريرك الافرنجة الذي هناك عليه أن يعطيه الف دينار ، ويأخذ دير مريم المجدلية الذي كان لنا في القدس ، ورفض فكان أن ابتلينا مع البيعة بكثير من التعب والمشقة ، وخاصة رعيتنا التي كانت تسكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضطهاد علينا وعلى بيعتنا حتى دخل العرب الى القدس.

وبعد نلك توجه هــذا الى الشرق لانه ســمع بمــوت مــار يوحنا المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخـل على الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبنلك اعتـاد الحـكام الاتــراك ان يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا واوقع اخوتنا جميعا في المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من فلسطين واتــى الى قلعــة الروم الى عند جــاثليق الارمــن ، ووعده كعادته الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريركا فانه يجعل كل الشــعب يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفســه لبــطريرك الافــرنج في القــدس وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمــن ، فقــد صــدقه هــذا في البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بـل ارســل ذهبـا كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ، واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء نلك ان يحــرمني ويقيم مكاني ابن وهبون بطركا على شرذمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة الجاثليق ، كما كان قد وعده, كذلك حاول كثيرا مع الحكام العــرب ، لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعــة الروم بــرفقه ابــن وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الإرمني حــاكم تلك البــلاد ، وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريركا في بلاده ، ثم اعطى ابن وهبون كتابا من الحاكم ومــن الجــاثليق ، فخــرج هــذا يتجول في البلاد ، وكان كل راهــب اوقســيس او أســقف لايقبله او يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطــرده مــن بيعتــه ، وقــد اذاق المسيحيين عذابا يفوق العذاب والاضطهاد الذي شــنه الوثنيون ولم ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبــان الموجــودين في تلك الناحية ، وعندما وصلت الامورالى نلك المدى ، جمعت مجمعا عامــا وطلبت منهم اعفائي من الخــدمة ، لكن المطــارنة كلهــم رفضــوا ، واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حداً لتجاوزاته علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ، ولما رأيت اجماعهم علي قلت : ياأخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجــأ الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انســـان ويجعـل

- ٢٢١١ -

ابن اللحم نراعه » بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مـــار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طفنا بيمين القــديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار بــرصوم اشــفق على بيعتــك ، واجعــل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحــن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وماكانت صــلاتنا تنتهــي في دير مــار برصوم حتى سمعنا ان الجاثليق قد سقط عن حصـــانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفا أرمنيا كانوا اتفقوا مع ابن وهبــون ، كل منهــم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبـــان سريان كانوا يتبعـــون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوما تـــاودورس بـــن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ،وخصوصا للشعب الذي في تلك البلاد ،حتى أن ليون الحـــاكم خاف أيضا وأرسل نذرا وهدايا لسيدنا مار بــرصوم ، ولي ايضـــا وصار صـــلح جميل في بيعـــة الله ، وفي كل مــكان ، ولاأدعي لنفسي شيئا . وانما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لأجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مارمتي في كورة الموصل ونينوى ، وذلك عندما توفي الاتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمس نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلا يجب ان اتولى تدبير ابناء اخي ، فغادر حلب وأخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا واخذوا يعيروا المسيحيين ، ثم قرروا أن يخربوا الدير ، وأخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متأهبين لذلك ، وقد كسروا سلالمهم مرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا وأتوا غاضبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعوا عاجلا وصعدوا واسعفوا الرهبان ، وكسروا الأكراد ، فاحتال الأكراد وصنعوا صلحا كذبا مع الرهبان وأعطوهم ثلاثين دينارا عربون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفوا أهل القرى الى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا وأتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في رأس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربت السور واحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان واحضروا كلسا وحجرا ليسدوا الموضع ففاجأهم الأكراد وأخذوا يرمونهم ، ثم استلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحدة على الرهبان ، فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم الآخر الى قلعة الدير العالية فنجوا ، وقد قتل في هذه الموقعة متى الراهب ودنحا الحبيس ، وكان الأكراد الف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل مانهبوه لأن الدير كان مخزنا يحفظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعد ان مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ماوجد في القلعة العالية ، ونزلوا الى الموصل وبقي الدير خاليا من السكان والخدمة ، وكان منظرا حزينا كئيبا يعيرنا ، وأما اهل البلاد فقد استأجروا جنودا

ليحرسوا الدير ، لكي لايهدم الأعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين دينارا .

اما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الأكراد بالدير أرسلوا عسكرا ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وحينئذ خرج الأكراد وخربوا في بلاد النساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات واحرقوا البيوت

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين اخوته الرهبان ، وقد اخذ العرب ديرهم المدعو دير الأبكار في جبل ماردين وصنعوه مسجدا للأكراد .

وفي تلك السنة ابتدأ المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدة الرب في آمد ، واقام بها شماسا اسمه ابراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبيانا كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو ايضا جدد ارض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير ابي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجمعا في دير مار حنانيا ، وارتسم من الاساقفة اغناطيوس لتل ارسانيوس وايوانيس لسيبا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

يا ايها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي ايلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرائيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاقه ، واتى الى عندنا الى دير حنانيا ، فجئنا الى الدير لأجله ، وجاء معنا البار ايا ونيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعـاليم الكهنوتية ومتـكلما مـاهرا ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، أي في تشرين الثـاني سـنة ١٤٨٢ يونانية تـزايد الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحـن المسـتقيمين المجـد ديونسيوس ابن الصليبي مطران أمد ، أي يعقوب المعلم المنطقـي وكوكب عصره هـذا الذي يليق له ان يكنى بـالمجاهد مثـل يعقـوب الرهاوي ، لأنه جـاهد كثيرا في التعليم ، وجمـع وكتـب تـواريخ صـحيحة ومعتمـدة ، وفسر كل كتـب الأنبياء اي كل العهـد القديم ، وصنع ايضا تفسيرا جـديدا للانجيل والرسـل والرسـائل والرؤيا ، وكذلك لكتـب تعـاليم غريغـوريوس النوسي وكتـب سويريوس ، وكتاب بـطرس القلونيقـي وحياة ابـو جـريس المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضـد كل المذاهـب والعقـائد التـي تخالف ايماننا المستقيم المجد ، وصنع ايضا كتـاب تفسـير لمنطـق براهين ارسـطاطالوس وغيره ، وصـنع كتـاب منطـق اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب ايضا ميامـر وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا،وقد اغنى البيعـة بكل هذه المؤلفات واغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقـد كتبنا مقالة على كل تدابيره ومحاسنه وشرفه كلها تفي بـالغرض وتفهـم القارىء مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدة الرب في أمد في الجانب القبلي عند قبر البـطريرك ابـن عبـدون وابـن شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل مـن يقـرأ ويصـلي ايضـا على خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز أخذ العرب بيعة مارتوما في ماردين ، أما السبب فهو ان شخصا اسمه بـرصوم مـن مـاردين ضبط يزني مع امراة مسلمة ، فـأمسكوه وعذبـوه لكن نجـا مـن الموت ، فحكم عليه الوالي حسـام الدين ان يأخـذ أمـواله ومقتناه ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجددون بنيان بيعـة مـار برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : ان برصوم هذا قـد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فـأصدر الوالي أمـرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسـجدا وقـد عم الحـزن القـوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعـة مـن الهـدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهـر الشـعب واشـتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امـامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الأصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميب الذي ذكرناه من قبـل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخـوان مـن رهبـان الافـرنج ، فاختاف معهما ، فالتجأ الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبث أن هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم.

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار بـرصوم فجددنا الكتب العتيقـة بمعـونة الله ، وهيأنا ورقـا وكتبنا فنقيثين (٥٣) للدير لتذكار المطران اثناسيوس اي زكي عمي ، والربان ايليا ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصـلحنا عين الماء التـي للدير ، وفي هـذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليسـت صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى أهل رعيته الى بغداد وافتـدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من أرمن الرها مـع قسـيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بـروك واوسـيج يشـتمون جـاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بـأنه يبيع الكهنوت ، فـأمسكهم غاضـبا وحلق نقونهم وعند نلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هـرطقة فتبعهـم نحـو اربعمائة بيت مـن الأرمـن وكانوا يدعون اوسـيجونيين فـاغتاظ الجاثليق جدا ، وأرسل رسـلا وهـدايا الى الحـاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، واذن للأرمن ان يضـايقوهم فتوالت عليهم الضربات،عندئذ قدم الاوسـيجونيون هـدايا للأمير

فاعطاهم أمرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين،وكان الارمن كلهم وجماعتنا ايضا يبغضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا رجلا اسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما فمضى الى نور الدين واتهم الجاثليق وبطريركنا والرهاويين بتهم شتى ، وقال لقد اتى رسل مع رسائل من ملك اليونان الى الأرمن والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران أثناسيوس الى حلب ومعه الأرمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما انفضح الأمر ، ووجد أن الاسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب الى بلاده ، ورجع أهل الرها بسلام.

زيارتنا لآمد وموت الجاثليق نرسيس

بعد هذا أتى الينا قسيسان من الأوسيجونيين ، ومعهم راهب من اتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا انهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والآخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسيس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان اتوا وسكنوا في اديرتنا،أما أوسيج رئيسهم فمضى الى انطاكية وصار خليقيدونيا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونسيوس ارتسم لآمد ابراهيم تلميذه ، لكنه مالبث ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، وأما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم ابو سعد العاصي، وكتب الينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش وأكرمنا كثيرا ، وادخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر)البطريرك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا أموالا وأموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في دير قنقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلس.

اما أولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الفي دينار فتوسطنا لهم فبـاعنا اياهـم بثـلاثمائة دينار ، فـأطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصـل الشتـاء ، ولما انتهـت الأعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الأسبوع الثـاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جـاثليق الارمـن يوم الخميس في اب كان احـد أولاد اخيه راهبا ، والآخر اسـقفا ، وعندمـا تـوفي لم يكن الكبير حاضرا فأعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الأخ الأكبـر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخـل فـالتجأ الى ختنه مليح حـاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى ومعه أمر من الأتراك فخاف الارمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الأرمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضعه في السجن وارتسـم هـو جـاثليقا ، وكان ذلك يوم الاحـد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضـح أمـر هؤلاء المسـيحيين لأن رئاسة كهنوتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الالهية ، وانما هي كالملوك الطغاة ، وأما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فـدعا الى رسامته اثنان من مـطارنتنا القـريبين منه وهـم غريغـوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبـان ، وقـام فـأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قـال فيهـا : كنت ارغب وأتمنى أن تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبهج الأرمن لأنها هي تمنحهم رسـامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة مـن أمرنا لأن الخطر كان يحيطنا مـن عسـاكر التـرك فـأكملنا لذلك الخدمة .

وأما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصـلوات ، لكني لم أنس ان أتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القـائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التـي تنشـأ مـن ابتياع الكهنوت ، الأمر الذي هو عند الأرمن ناموسي ، ثـم أوردت الكلمـة التي قالها بطرس العظيم لسـيمون السـاحر ، فـأعجبت جمـاعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثرت الامطار في كل مكان وافسدت الاراضي وصارت سيول جارفة اتلفت اثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطة وباقي الحبوب فأعطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان ـ سنة ١٤٨٦ ـ حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لأنني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بالقوانين المقدسة ، وحاولت ان أعيد كل شيء الى نصابه ، وأطبق شريعة الآباء ، واتمسك بالنواميس الكنسية التي تحللوا منها في هذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسموا كاهنا من اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فالغيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد أن يخطف رعية أو بيعة ، ليست له أصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى اخرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومطران طور عبدين ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قالاينقوس ، دنحا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمرد عليه منذ زمن البطريرك مار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك اتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون على البطريرك السالف ، بل وزيادة ، وقد حاولت أن أعالج الأمر معه بالحسنى ضمن نطاق العلاقة الأخوية الكهنوتية ، وكنت أحضه على ترك العادات غير الناموسية ، وكان قد أتى الشعب الي مرارا خلال ثماني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمع مجمع في دير مارحنينا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم امر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبـل بهذا القرار أمام المجمع ، لكنه مالبث أن داس النامـوس ومضى الى جماعة من النسـاطرة كانوا رؤسـاء ومـدبرين في بـلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهـم حتـى فهمـوا الحقيقة ، واكتشفوا أعمـاله،عندئذ طـردوه ، فسـعى الى الوالي وعرض عليه رشـوى كبيرة ان قتلني لكن الرب اشـفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم أرسل الوالي جنودا فأخذوني الى الموت ، وعندما اوقفوني أمامه تكلم معي بكثير من الفظاظة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين انه يعطي في تلك الساعة مـايتكلمون بـه ، وهبني انا الخـاطىء وغير المسـتحق القـدرة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقـة فـطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربـان ابـو خير أرشـيد ياقـون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله ومـلأه حنقـا علي ، فمضى الى ملك الموصـل ، واوغر صـدره علي بـكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ أرسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معـي مـار اثناسـيوس مـطران الرها ، ومـار يوحنا وعدد كبير مـن الرهبـان ، ولما وصـلنا الى المعسـكر اخـذوني الى نائب الأمير سـيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بـأمر الله ، ولايحق لكم أن ترفضوا أمرا ملكيا ، لكن قبل أن تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبـل ، فـأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحـت سـلطته والواقعة مابين النهرين : قالينيقوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب أن تنفـذ هـذا وتعـود بسـلام ، وإلا فستحدث أمور سيئة جدا.

لكن الرب سـاعدني وعاضـدني فهيأت نفسي للمـوت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراه العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقرآن المسـلمين ، فـأرجو أن تفحصـوا فيهـا جيدا ، وخاصة في القرآن فستجدوا أن الله لم يأمر الملوك أن يدبروا

امور الايمان بـالسيف ، لأن الايمـان يصـير طـواعيه وليس بالغصب ، ولاجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعـدهم مـن الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقـع اضـطهاد على المسـيحيين خـلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل أو يتسـلط على إيمـاننا ، ولم يطلب منا تغيير او تعديل شرائعنا ، او قوانيننا الدينية ، والآن انتـم إذا كنتم تريدون ان تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفـاء قبلكم أو تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم سـوف تصـيرون أعداء ليس لي ، بـل لموسى ، وعيسى ومحمد(ص) لانكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم اوامر الله ، والأدهى من ذلك إنكم تـريدوا أن تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مـارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسالوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شـاكيا عليه ، لقـد اتـى يحتمي بالسيف الملكي لأنه صنع الأثم ، وطرد من قبلنا ولم يعـد له حق عندنا.

إن امرك لي أن أعيده الى شعبه الذي لفـظه طلب مني أن ادوس وانقض وابطل امر الله ، وإنه لاسهل علي ان يقـطع رأسي مـن ان افعل ذلك ، ثم مددت عنقـي طـالبا قـطعه ، حينئذ قـام رئيس العسكر ، ودخل الى خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خـرج وامسـك بيدي وأدخلني وحدي ، ولم يسمح أن يدخل معي أحد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلتي معه وكنت أناديه بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر): قل الملك سيف الدين ، ثم خـاطبني الملك قائلا : أيها البطريرك لقد أمرنا ان تطبق ناموسك ، ولن نسمح لأحد أن يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخـرجت وانا اشـكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهـي ، وعندمـا أخبـرت المطـارنة والرهبان ابتهجوا ، أما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلا : يامسلمين اعلموا ان هذا الشيخ أثيم ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب ليجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاسا كنت قد كتبته منذ زمن لأجل ابن كميب ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا واخذوا حجارة ليرجموننى فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كميب ، وهيأ الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهبا ، ولم يكن مسلما ، حينئذ أعطاني الملك سيف الدين كتابا ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى الى بغداد ليشتكي علي للخليفه ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من انطاكيه وطلب الغفران فصلينا عليه وارسلناه الى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكانا في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب أمين.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتما يجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شرا على شر ، واعتمد على العصاة ليساعدوه في جمع الذهب ، وذات ليله من ليالي الآحاد ترك كنيسته ومضى الى السلطان ليشي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقا أسبابا واسبابا ، فالتقى به الاكراد ليلا ، وعندما فاجأوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، واخيرا دقوا اسفينا من الخشب في اسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن راه بعض عابري الطريق ، فلما أخرجوا الاسفين من اسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس وأخيه برصوما واولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو ايضا عاد فخمن الناس أن أهل اولئك ارسلوا القتله طلبا للثأر ، وأن ذلك لم يحدث صدفه.

- ٢٢٢٣ -
وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير مـاربرصوم ، وسـوف أوضح السبب فيما بعد.

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشـقاق بعـد مـوت مـاريوحنا البطريرك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الأسـاقفة اسـتقلالية الدير ، وعدم جعله تابعا للبطريرك ،والسبب في ذلك أنه فيمـا مضى ، عندمـا كان بعض الملوك يتضايقون من البطاركة كانوا يضعون أثقـالا واعبـاء ماليه على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البـطاركة يأخـذون مـن خزانة الدير اواني من الفضة ، وفي أوقات أخرى اقتـرضوا ذهبـا لكنهم لم يردوه ، فلما اخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقعا مـن المطارنه الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البـطاركة الذين أتـوا فيما بعد ، وقـال اثناسـيوس ويوحنا الذي بعـده واثناسـيوس الثاني :إن هذا القرار يجب أن يكون موقعا من بطريرك ذلك الزمان لأن المطارنة ليس لهم الحق ان يتخـذوا مثـل هـذا القـرار ، لذلك اعتبروا هذا القرار لاغيا وباطلا لأنه سيكون سـببا للفتنة ، ومـن شأنه احداث شرخ بين كل بطريرك يقوم وبين رهبان الدير ، أما انا فلأني نشأت وعشت في الدير ، فقد أردت أن أمنح الدير معونة فثبت قرار استقلاليته والزمت المطارنة أن يضعوا تـواقيعهم ظنا مني أن هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطاركه الذين يقـومون في البيعه وبين الرهبـان الذين يسـتلمون الدير ، لكن الانشـقاق زاد وصارت فتنه بالدير وانشق الطرفان الى فريقين متخاصمين.

وعندما بدأ الشغب في الدير اخذنا نعالج الأمـور بـالمشوره مـع الأساقفه والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون الى التوبه ، وأرسل الجميع الي في دير مارحنينا طـالبين مني الرجـوع للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فأتيت معهـم الى آمـد حيث خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التـي بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بـربارة أي يوم الرابع من كانون الأول ، ثـم وصـلنا الى الدير وكنا بحـاله تعـب

واعياء شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام مجاملة مع المطارنة ومع الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل انشقاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل اهل الدير راضين.

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا منذ فتره طويله عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله امور رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه أنا وكل الأساقفة الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة حمص ، ودعي ديونسيوس.

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعدذلك فأتى الينا زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى الخدمه.

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب المتوحد ، والذي ارتسم بجيحان ، وقد توفي في ديره في بلاد جرجر المدعو دير ابي غالب.

وفي هذه السنة توفي يوحنا أسقف سميساط في دير مار حنينا ، وكذلك توفي أغناطيوس ايضا مطران جرجر والذي هو رومانوس مطران تل ارسانيوس بملطيه في بيعه أبويه ، وصارت رسامة مار اثناسيوس اي الربان صليبا اخانا في دير مار حنينا في ٩ تشرين الأول يوم الأحد.

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلج أرسلان وبين ختنه نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه لزانية شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسبي سكانها ، اما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر كوسكو ، وكادت ان تخرب البلاد لولا أن الرب قد أشفق فأرسل

السلطان رجلا حكيما الى صلاح الدين ، ثم تم الصلح وتوقفت الحرب.

اما السلطان فقد اتى الى ملطيه وجدد سوريها ، وأما صلاح الدين فقد رجع الى مصر.

زواج البرنس حاكم أنطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم انطاكيه امـراته اليونانية التـي تزوجها بحسب الناموس في القسـطنطينية ايام الملك منويل وتـزوج امرأة زانية ، ولم يأبه لقرار بطريرك روميه ، اما بـطريركهم الذي بأنطاكيه فقد حرمه وحـرم القسـيس الذي عقـد زواجـه على تلك الزانية ، وحرم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، واوقـف تناول القرابين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، امـا البـرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الأفرنج والأديرة ، وبعد مـدة اجتمـع القضاة وجملة من النبلاء برئاسه بطريرك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فـأعاد البـرنس كل مـاخطفه وثبتـوا له تلك المرأة واصطلحوا .

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصـل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صـلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وامـا حـاكم الموصـل وحكام ماردين وآمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهـم انهزموا بدون حـرب أمـام صـلاح الدين ، فـدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب اخر ورجع.

اما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضـعا للسـلطان المصري لكن حاكم آمد رفض ، فتـوجه صـلاح الدين اليه بعـد أن وعد نور الدين انه سوف يأخذ آمد ويوليه عليها ، ووصـل اليهـا يوم أحـد الشعانين فحـاصرها ، وبعـد عده أيام اسـتولى على السـور الخارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخـرج منهـا بطريقة مذله ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفـا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية.

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل وأتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يونانية توفي الصالح حاكم حلب ، واعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصل الذي ملك بعد أخيه سيف الدين ، لكن ذاك مالبث أن اعطاها لأخيه وأخذ منه سنجار ليبعدها عنه.

في السنة ١٤٩٢ يونانية اتى السلطان قلج أرسلان الى ملطيه ، وسأل عني وارسل لي رساله محبة وود وارفقها بهدية كانت عباره عن عكاز (عصا) الرعاية الخاصة بالكهنوت ، وعشرين دينارا من الذهب الأحمر ، وقد أدهشت هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية اتى ايضاً وقبل أن يدخل ملطيه سمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تادروس ، فأرسل إلي رسلا ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لأني رأيت هذا التصرف غريبا عن العاده فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوه وهذا الاكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني توكلت على الله وتوجهت الى ملطية ، ووصلت الى مشارفها يوم الخميس ٨ تموز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البكور ، وكانت مفاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خرج مع ثله من العسكر للقائنا ، وكان وراءه كل اهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلينا رسلا تقول: إن السلطان قد أمر أن يكون دخول البطريرك الى المدينة بحسب تقاليد المسيحيين أي محاطا بالصلبان والأناجيل ، أما المؤمنون فقد حملوا المصابيح التي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح وأخذوا يرتلون ويسبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السلطان لم يدعني اترجل عن ظهر مركوبي لآخذ يمينه ، بل عانقني بذراعيه ، ثم بدات أتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يستمع الي باهتمام ووجه باش ، ولما رايته انه يحب أن يسمع اطلت الكلام كثيرا وكنت أستشهد دائما من الكتاب ، ثم مزجنا الكلام بالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت أن تجري الدموع من عينيه فشكرنا الرب العالي ، كذلك كل المسيحيين شكروا ومجدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا انه قد الغى الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى أمرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد علبه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطيه خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطيقي ، فمدح حكمه السريان ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد اراد الله أن يعز هذهالاقليه الصغيره والبيعه التي ضعفت بتطاول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب احد الرهبان،فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الأبنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراهة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل مابها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول بالاختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والباب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ماتبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قــد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثــلاث عجــائب أولهــا بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير ســواء كان مــن الرهبـــان أو مـــن المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئا من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي ســأل الله أن ينزل البــرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخــزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتــب التــي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم مــن النار ، وهــذه الكتــب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقــد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شــهر حتى هدأ الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثــلاث ســنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقــد اســتغرق بناؤها اثني عشر عاما ، شكرا للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلج أرســلان إلى بــلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلج أرسلان العظيم سلطان كبدوكية وسورية وأرمينية .

إلى فلان البطريرك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في ديره دير مــار بــرصوم والمطمــئن في شرف مملكتنا نعلمـــه أنه بصلواته وهب الله العظمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكومــاك الرومــي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرســلنا معــه أربعين

الفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة ألوفا وعشرات ألوف وأتوا الينا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقد استولى عسكرنا على قلعة ديابيف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتى ساحل البحر ، وقد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك أعطانا الله تعالى هذا الانتصار ، وإننا نطلب أن تتابع صلاتك لأجل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سـنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبث أن رمى امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم،ثم تزوج هذا الشيخ الدنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الأفرنج من العاصمة لأنهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن أفرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من ديره وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الأفرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوها وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم أندرونيقوس الطاغي فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الأفرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الأفرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الأفرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الأفرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القدس فأعطى المملكة لابن أخته وكان صبيا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السنة مضى صلاح الدين ايضا إلى الموصل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميافارقين ، وبعد حروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحت طاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات أيضا نور الدين حاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيا يدعى حسام الدين واثنان هما من أبناء الجواري ، فأما أخو الأمير نور الدين المدعو عماد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت أخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات أيضا حاكم الأرمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحد عبيده واسمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعرض له ابن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا واقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان ـ ١٤٨٧ ـ ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنيقوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بالرها ، فقد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشش الحمام في سقوفها العالية ، وفي إحدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل وأحرق الطوابق العليا ثم أتت

النار على كل شيء وحتى الاحجار وقد سقط منهـا اثنان وثـلاثون عمودا من الرخام وأصبحت خرابا .

أما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعـة الكبيرة هـذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعـة مـار توما أي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (أبجر) وبيعـة والدة الرب المعلمـة ، وبيعتين أيضـا لوالده الرب ، وبيعـة الأربعين شهيد ، وبيعـة أخـرى للأربعين شـهيد كبيرة ، وبيعـة المعترفين التي في باب السـاعات ، وبيعـة اسـطفانوس ، وبيعـة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطـاكية مـع صـلاح الدين وتعاهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضعه بالسجن بعد أن كبله بـالحديد ، ودخـل الى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر أن يملك على اي موضع قـط ، لأنه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فـرجع بـالخزي أخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصـيصة وأذنة وأماكن أخرى أيضا ، وخرج روفين مـن الحبس ، وبعـد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وأفسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مـار حنينا الى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مـار بـرصوم رممنا الخراب الذي حل بأساساتها التـي كنا قـد بنيناهـا منذ سـبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بـأمر حـاكم مصر بـلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شـعب الرهـا وانكسر ، وبعد هذا أتى صـلاح الدين ليملك على مـاردين ، ولما لم يقدروا أن يأخذوه بالخديعة جعلهـم تحـت طـاعته ، كمـا كانوا في عبوديتهم .

- ٢٢٣٤ -

وبعد هذا ايضـا نزل صـلاح الدين على الموصـل واسـتولى عليها ، لكنه مرض مـرضا صـعبا حيث قضى كل فتـرة الشـتاء في الخيام مع عساكره الذين هم أيضا أصيبوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد تـوفي ، غير أنه لما تعـافى أمسـك بحـاكم الرها ، لكنه مالبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

في أيلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفز اندرونيقس ملك اليونانيين ليقتل ايسيقيوس (اسحق) لأنه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بكل سلالته ، فعلم ايسيقيوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل اندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره آتيا بحنق ، وعلم أنه سيموت لامحالة تشجع واستل سيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهرب للبيعة الكبيرة وسيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف من الناس ، ولما وصل الى البيعة سلم كل الرؤوساء الذين كانوا يشكون بالمنافق وينبذون فعلته الشنيعة التي قتل فيها كل سلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقيوس سليل الملوك ، وألزموا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع اندرونيقوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تولى هذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران أثناسيوس أخي مطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تداروس بن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجاهد ضدهم حتى هلك ابن وهبون .

وفرح بهذا الزمان ـ ١٤٩٦ يونانية ـ كريكور جاثليق الأرمن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سمع تفاصيل أخبار احتراق دير مار برصوم ، وأخذ يشيع أن القديس مار برصوم قد

- ٢٢٣٦ -

طار من الدير وأتى اليه معتقدا أنه بمثل هذا الهذيان يشهر نفسه ، لكن الله مالبث أن انتقم منه لأنه حالما خرج من قلعة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شاهنشاه ، واتفق مع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقع العديد من القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أذيال الخيبة والاخفاق الى دير تويش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أبيه ، ثم عاد ووعد أمام البار وايوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أما ابن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخر وأخيرا اقسم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمون بأنه سيصير طوفان مثل طوفان نوح لكنهم كذبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ أيلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفظ بذاكرة الاجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلها في برج الميزان ، وهذه الكواكب هي الشمس ، والقمر ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمع سبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطوفان الذي حدث ايام نوح ، أما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ستحدث ريح صرصر تهلك الناس والبهائم والطير ، وقد قال بهذه النبوءة الكاذبة ألوف من الناس وربما اكثر ، وقد ذاع هذا الخبر بالمشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طالبين الصلاةلأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ستكسف في هذا اليوم ، وسوف ترتج الأرض ويظهر كوكبان مذنبان ، وقد صدق العديد من الملوك والرؤساء هذه الادعاءات فخزنوا القوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصيام ، أما الحنفاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الأبراج فكانوا يسخرون من المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهم يصلون ، وكانوا يجدفون قائلين حتى الله لايستطيع أن يغير أو يبطل هذا الأمر الذي سيصير ، أما الذين كانوا يأتون إلي مستفسرين فكنت

اجيبهم « لاتسقط شعرة من راسك الا بأذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مكتوب ، وإن المنجمين يكذبون حتى لو كانوا يقرأون في الكتب » وكان بعض الناس يقول لي : ان المنجمين يستقرئون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طوفان نوح قد حدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كما يدعي المنجمون ، فلماذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في ذلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشون بشكل عام في حالة هلع وخوف ، وعندما دنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح يأتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في ذلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطردوهم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية ابتدأت الحرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيها ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكبدوكية .

أما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانية الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى لدوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتلىء الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الاكراد يمتهنون السرقة في كل مكان ، فاخذوا يسرقون أغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الأوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن أمسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الاكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة آلاف من الجانبين ، لكن الحرب عادت فاشتعلت على شكل أقوى عندما اجتمع ثلاثون ألفا من الأكراد من بلاد نصيبين وطور عبدين ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ماانكسروا وامتد قتلاهم من شاطىء نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الأرمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان أتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا ونساء

وأطفالا ، وأخذوا أموالهم ، وأبادوا الأكراد من كل سورية وبين النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع والجبال ، وحيث ماوجدوا الأكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤذون المسيحيين ، لكن أخيرا بدأ التركمان يقتلون المسيحيين لسببين :أولهما أن الأكراد عندما كانوا يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكتشف التركمان ذلك .

ثانيا لما كان الأكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام الارمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينة الكبيرة ، وسبوا الأرمن ، وأخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم عبيدا ، واحرقوا القرى ودير كرابيد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربا قلعة تل عرب (٥٧)في بلاد شبختان واستعبدوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسما (٥٨) مائة وسبعين رجلا سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلونية ، فقاتلهم الحاكم وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وان اللسان لايستطيع ان يصف ماصار في تلك السنوات الثماني ، اذ من شرارة صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطريركا ، فصنعوا كما أمرهم ، ثم قام هذا البطريرك فنصب قومنه هذا ملكا ، وكانوا ينادون به في قبرص ملكا ، وصار هو والبطريرك اضدادا للذين في القسطنطينية الى فترة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبرص وحبسه بقلعة قرب انطاكية ، اما البطريرك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جزيرة قبرص للرهبان الداوية ، لكن لما ارتحل الملك الفرنجي عاد اليونانيون الى الظهور فاجتمعوا بعشرات الالوف على الحامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا أن يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافرنج بعد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكا ، وكان هذا من قبل ملكا للقدس.

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية أتى إليّ مار يوحنا المفريان ، وطلب أن يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث أن ندم وعاد إلي فأخذ مني تفويضا وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوقع ومات ودفن في دير مار متى ، ثم كتب إليّ أهل تكريت لأرسم لهم رئيسا للأساقفة وأعلموني أن عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل ليأخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فاسدون مثله ، وطلبوا منا ألا نقبل قط ابن تمسح صاحب الأفعال النجسة المنتنه ، ثم ارتسم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريقة ناموسية ، وكان ذلك في دير مار ديميط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقص بطريرك الاسكندرية ومصر ، وقد خدم البطركية ثلاثا وعشرون سنة ، وكان ذلك في كانون الثاني وارتسم مكانه البابا مار ايواينس .

فتح بيت المقدس

في سنة ١٤٩٨ يونانية (١١٨٧ م) جمع السلطان صلاح الدين جيشا من مصر وبلاد العرب وسورية واثور واستعد ليقابل الأفرنج ، وفي يوم السبت ٤ تموز أعتقل ملك القدس وكل قواده وحاشيته بعد معركة طاحنة حدثت عند طبرية ، اما قمص طرابلس فقد رفض الاشتراك في المعركة ، وهرب إلى بلده ، وقد قال بعضهم : إنه كان يرغب أن يكون ملكا ، لكن الافرنج رفضوا ذلك .
اما أنا فأقول إن انكسارهم صار بارادة الله لأنه لايسقط عصفور في الفخ بدون ارادته .

اما صلاح الدين فقد قتل بيده ارناط الشيخ ومائة من الرهبان الداوية ، واستحم بدمائهم ، ثم خرب طبرية وقتل كل ما بها ، ومضى إلى عكا فهرب الزعماء كافة باتجاه البحر وبقي فيها الشعب المسكين فسلموها لصلاح الدين ، وطلبوا الأمان ، ثم توجه إلى قيسارية ويافا والسامرة والناصرة ، وامتلأت الدنيا بالأسرى ، ومن الصعب أن يصف الانسان ما احتمله النصارى من الهزء والسخرية والازدراء في دمشق وحلب والرها وأمد وماردين والموصل وبقية أصقاع بلاد العرب .

وفي تشرين الأول عام ١٤٩٩ أعطى صلاح الدين الفرنج الذين في عسقلان عهدا واعتق الملك الذي كان معتقلا عنده فسلموه المدينة ، ثم صعد إلى القدس وحاصرها وخرب جزءا في سورها في ناحية الشمال الشرقي ، فأرسل الافرنج يطلبون الصلح ، وتم الاتفاق أن يعطوه عن كل شخص عشرة دنانير يخرج سالما ، فخرج منها من استطاع أن يدفع وكانوا الوفا وعشرات الألوف يبكون وينوحون ، أما الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فسيقوا عبيدا ، وقد أعتق صلاح الدين عشرين الفا من الرجال والنساء ، واربعة الاف من الشيوخ

والعجائز ووزع ستة الاف على عساكره ليكونوا عبيدا لهم ، وارسل خمسة الاف إلى مصر ليعملوا ببناء الأسوار ، وترك خمسة الاف في القدس ، لأجل بناء السور والمسجد الاقصى الذي يدعونه قبة الصخرة ، وكان قد بناه العرب حين قدومهم إلى القدس ، واقروا ان لا يدوسه مسيحي ، كذلك اعطوا كنيسة القيامة للمسيحيين ، وكان يلتئم إليها المسيحيون الذين بقوا عبيدا ويصلون ويبكون .

وحينئذ صعد صلاح الدين إلى مدينة صور الداخلة إلى قلب البحر ، وصدف في تلك الأيام ان اتى من رومية كونت اسمه كونراد ليصلي في القدس ولم يكن يعلم بما جرى ، وقد قام بتقوية الشعب ، وببث الروح المعنوية ، فتبعه الشعب واحتفظ بالمدينة ، ولم يستطع صلاح الدين ان يقهرها ، فتركها ومضى قاصدا صيدا وبيروت وجبيل وتبنين .

وفي سنة ١٥٠٠ اخذ صلاح الدين قلعتي الكرك والشوبك على ساحل البحر الأحمر ، والذي لأجلها صار حربه مع الافرنج .

وفي هذه السنة دخل صلاح الدين إلى ناحية انطاكية واخذ بالحرب اللاذقية وجبلة وقلعة صهيون وشغر بكاس ودربسال وبغراس .

وفي هذه السنة ايضا صار نزاع في بلاد كبدوكيه بين الابن الأكبر للسلطان قلج ارسلان امير سبسطيه وبين اختيار الدين الحسن حاجب والده والذي استطاع ان يقلب السلطان على ابنه ، وقد احتشدوا للقتال في بلاد قيسارية ، وصارت معركة قتل فيها اربعة الاف من التركمان الذين ناصروا الابن ، فتفرق الذين اجتمعوا مع ابنه ورجع هو ايضا إلى سبسطيه ،وبعد ذلك اخذ الأمير بهر شاه امرا من السلطان فأمسك وزيره اختيار الدين الحسن ، وصادر كل مقتناه وارسله مع ابنه وعبيده إلى سبسطيه ، لكن في الطريق هجم عليه التركمان وكان قد ارسلهم ابن السلطان ، فقتلوا اختيار الدين الحسن ، وقتلوا أولاده وعبيده وقطعوه قطعا قطعا ، وعلقوه على

رؤوس الرماح وادخلوه إلى سبسطيه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب .

في سنة ١٥٠٠ يونانية سمع هؤلاء الأشقياء أهل شيعة المنافق ابن تمسح فقدموا للحاكم مائة قطعة من الذهب الأحمر ، واخذوا أمرا منه بأن يفرض بحد السيف ابن تمسح ، لكن الشعب المؤمن رفضه لأنه وضع خلافا لنواميسنا وشرائعنا ، ثم اخذ يرتكب المعاصي والفواحش التي يجب أن لا نكتبها هنا ، لكن علينا أن نشير أن ابن تمسح هذا اتفق مع ابن وهبون ، وأتى كلاهما إلى ماردين فكرزوا ابن وهبون بطريركا وابن تمسح مفريانا (رئيس إساقفة) واعطيا السلطان الفي دينار ، واخذا أمرا من الحاكم وصارا يدوران مع الجنود على القرى ويأخذان الأرزاق من الشعب ، حينئذ ثار أهل رعية ماردين واخذوا أمرا بطردهما من البلاد ، فعادا إلى الموصل لكن أهل البلاد هناك ما لبثوا أن طردوا ابن وهبون أولا ، ثم امسكوا المنافق ابن تمسح وخلعوا عنه ثياب الكهنوت ، ونزعوا عنه كل رتبه ، ثم أرسلوا إساقفة وقسسا ورهبانا رجالا أشرافا اخذوا مار غريغوريوس المفريان القديس من نصيبين ، ودخلوا معه إلى الموصل ، فقبله الحاكم وعامة الشعب بنعمة الله الذي أصلح بيته ورتبه .

في سنة ١٥٠١ يونانية وقع كثير من الظلم على إساقفتنا فأرسلنا إلى السلطان صلاح الدين جبرائيل رئيس الدير ، وإلى أسقف الافرنج بشأن تمرد ابن تمسح ، ولما وصلوا إلى دمشق وقبل أن يصلوا إلى السلطان في عكا امسكهم بعض الجواسيس ووضعوهم في السجن وأخذوا كل ما معهم ، لكن الرب أشفق عليهم فنجوا بواسطة مظفر الدين بن زين الدين أمير الرها ، وأحضروا من السلطان كتابا قويا واضحا ، ورجعوا فرحين بصلوات سيدنا مار برصوم .

في سنة ١٥٠٢ يونانية مات حاكم إربيل ابن زين الدين فترك اخوه حاكم الرها ، الرها وحران وسميساط ومضى وملك إربيل ونجح هناك وملك .

اما صلاح الدين فقد اعطى هذه البلاد لابـن اخيه تقـي الدين ، وكانوا يسموه سلطانا ايضـا ، وكان رجـلا قـاسيا شريرا يبغض المسيحيين والعرب سويه ، وقـد زاد ثقـل الخـراج والضرائب على المسيحيين وعلى المسلمين ، واحتال على الأمـراء أولاد بـوغوساج الذين في سيبابرك(٥٩) واخرجهم من قلاعهم ، ومـن هناك مضى إلى ميافارقين التي كانت له من قبل ، ثم تابع فأخذ خلاط ومـلازكرد ، ومن هناك ارتحل ودخل إلى بلاد غلاطيه .

وبقي في بلاد ارمينية خمسة أشهر يسبي وينهب ، وبغير رحمة او شفقة كان يقتل المسيحيين خاصة ، لكن الرب ضربـه هناك فمـات فجاة ، وقد عم الارتياح كافة الشعوب ، وكمـا صـار مـن زمـان يوليانوس المنافق ، حينئذ خرج ابنه وعساكره من البلاد واتـوا إلى ميافارقين ، ولما تمرد ابنه على صـلاح الدين عم أبيه ، أرسـل ذاك اخاه المدعو الملك العادل وأخرجه من الرهـا ومـن حـران ومـن سميساط واخذهم لنفسه مع ميافارقين ، واعطى ذاك حماه وحمص ورد بلاد سيبابرك لأهل بوغوساج وصاروا كما كانوا من قبل تحـت حكم قطب الدين حاكم أمد .

وفي سنة ١٥٠٢ يونانية في حزيران انكسفت الشمس واظلم اكثر من نصف قرصها ، وظهرت الكواكب والقمر حولها .وفي سنة ١٥٠٠ يونانية ملك على ملطية أحد أولاد السلطان قيصر شاه معز الدين.

الحملة الثالثة

في سنة ١٥٠٠ يونانية خرج ملوك مع عساكر الافرنج وكانوا قـد ارسلوا امامهم في البحر شعوب من السن مختلفة ، يفـوق عددهـم عدد رمل البحـر ، وحلوا على عكا ، ولم يكن معهـم ملوكهـم بـل رؤسـاء كهنتهم وكهنتهم ، وبيعهم التى كانت في خيامهم.

كذلك اجتمع ايضا مـع صـلاح الدين شـعوب كثيرة مـن

المسلمين ، وقد عسكر الجيشان بالقرب من بعضهما بعضا ، حتى انهم كانوا يرون بعضهم ، ولم يستطع الافرنج أن يستولوا على المدينة لأن مقابلهم كان ستون الف مقاتل ، كذلك لم يستطع السلطان أن يدمر الافرنج الذين بداوا يبنون البيوت والبيع للسبب نفسه ، وبلغ صلاح الدين أن ملك الألمان (فريدريك الأول قادم عن طريق القسطنطينية في مائتي الف فارس وراجل ، لكن اليونان لم يدعوه يغادر القسطنطينية ، فحاربهم واخضعهم له فاجتازوا الى نواحي قونيه ، فجمع ابن السلطان جيوش التركمان واخذ يناوشهم لكنه انكسر وهرب ، ثم وصل الافرنج ودخلوا المدينة وقتلوا اعداد كبيرة ، وكان بين القتلى ميخائيل حاكم ملطية الكنى بابا ، واخيرا عقد معهم السلطان صلحا ، وفتحوا له باب القصب فمضى الى قيلقيه ، وهناك اراد ملك الألمان أن يسبح في النهر ، وكان شيخا متقدما في السن فاختنق ومات ، ونقل ابنه جثته الى انطاكية وتابعوا سيرهم الى عكا .

في تلك الفترة خرج ملكان من ارض الافرنج ، فأخذوا قبرص من اليونانيين واتيا الى عكا وشنا عليها حربا ، قتل فيها العديد من الناس حتى امتلات الاسواق من الجثث ، واخيرا استولى عليها الافرنج وكان ذلك في أول تموز عام ١٥٠٢ يونانية (١١٩١ م) وأراد الافرنج أن يعطوا الأتراك الذين بقوا في داخلها لصلاح الدين ، ويأخذوا مكانهم كل أسرى الافرنج الذين كانوا في دمشق ، لكن صلاح الدين رفض ذلك ، فغضب الملوك غضبا شديدا ، وأحرقوا كل الأسرى العرب ، فلما راى صلاح الدين ذلك هدم يافا وأسوار عسقلان ، أما الافرنج فقد ملكوا قيسارية ، وقوي مركزهم وبنوا يافا ، ووضعوا فيها محارس ، ثم صعدوا وبنوا أسوار عسقلان ايضا ، ووضعوا فيها سكانا من شعبهم ، حينئذ جمع صلاح الدين جيشا وقرر أن يحارب الافرنج ، وكذلك خرج الافرنج من عكا ليواجهوا الاتراك فتقابل الجانبان استعدادا للمعركة ، لكنهم مالبثوا أن عقدوا صلحا في تشرين الأول سنة ١٥٠٤ يونانية ، لمدة ثلاث سنوات حيث أعطى

صلاح الدين الافرنج ذهبا عوضا عن بناء سور عسقلان الجديد ، ثم عاد فهدم أسوارها كليا ، واصبحت عسقلان مهجورة أما ملوك الافرنج فقد اقاموا في عكا واليا اسمه هنري ، وهو ابن أخت ملك الانكليز ورجعوا الى بلادهم ، وبنى صلاح الدين أسوار القدس بشكل قوي جدا اشد مما كان من قبل.

في هذا الزمان صار مجمع في دير مار برصوم قرر حرمان ابن تمسح وقد تعمم هذا القرار في كل البيع.

ولهذا الزمان لم يقبل احد الكهنة أن يصير راعيا لرعية ماردين خوفا من الحاكم الذي كان يضطهدها ، فرسمت لها المعترف الرهاوي ، وكان حاضرا مار اثناسيوس مطران القدس ، لكنه هرب الى دير سيدنا مار برصوم ولم يشترك معي في سيامه هذا الشقي ، وقد قبلته الرعية برحابة صدر في البداية ، لكنه سرعان ما افتضح امره بعد أن قام بأعمال مشينة لامجال لذكرها هنا ، فطردوه ، فقرر أن يعلن اسلامه فعرف الخلقيدونيون من أهل ملطية بذلك ، فأخذوه الى القسطنطينية وخلع ثياب الكهنوت وصار خلقيدونيا ، ثم عادوا فأرسلوه الى رعية الخلقيدونيين في ميافارقين ليكون لهم راعيا هناك ، أما نحن فقد أنهينا الهيكل الذي بدأنا في بنائه في دير سيدنا مار برصوم ، وقد استغرق معنا ذلك أربعة عشر عاما ، فقد بدأنا فيه كما ذكرنا سنة ١٤٩١ يونانية وانتهينا منه في هذه السنة أي عام ١٥٠٤ يونانية بنعمة الله ومعونة سيدنا القديس مار برصوم ، وجمعنا اساقفتنا يوم الأحد في ١٥ أيار ، وافتتحناه بنعمة الروح القدس ، وكان الجمع الذي أتى الى دير القديس أيضا هو الجمع الذي ذكرناه أنفا في قصة ابن وهبون الذي مات في هذا الزمان ، هو وجاثليق الأرض وعدد كبير معهم.

في سنة ١٥٠٤ يونانية مات ـ كما ذكرنا من قبل ـ جاثليق الأرمن غريغوريوس في قيلقية ، وكان ذلك في شهر تموز ، فرسم الأرمن ابن أخي الذي توفي جاثليقا ، وكان صبيا ودعي أيضا غريغوريوس وتكنى ديراسو.

وفي هذه السنة مات ايضا بطريرك انطاكية الافرنجي هنري وقد مات في قلعته القصير ، واحضروا جثمانه وقبروه في بيعة انطاكية الكبيرة ، وقد وجد عنده أثاث فاخر ومقتنيات كثيرة جدا ، وقد اقاموا موضعه أحد القسوس الشيوخ واسمه رنقل .

وبهذا الزمان ارسل إليّ ايوانيس بطريرك الاسكندرية ومصر رسولا أسقفا شيخا اسمه بطرس ، واحضر لنا رسالة بالخط العربي واللغة العربية الفصحى ، يثبت اعتقاده بالأمانة المستقيمة المجد وتتضمن محبة وصداقة.

في سنة ١٥٠٦ يونانية حين ابتدات حروب الترك ، انتشرت المجاعة حتى اكل الناس جثث الأموات من البشر والحيوانات ، وقد باع عدد كبير من الناس أولادهم ، وفي بلاد شبختان فقط ناهيك عن البلاد الأخرى بيع الاف من الصبيان والصبايا ، وفي دانيث بيع اثنان وعشرين الفا وكلهم مضوا عبيدا الى بابل ، وحتى هذه السنة التي هي سنة ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) بقي الجراد يأكل في كل سنة الزرع والكروم من حدود مصر الى بلاد الترك ، ومن فارس الى بحر بنطس ، وصار سعر الكيل الكبير من الحنطة في ملطية بستة عشر دينارا سلطانيا.

وفي هذه السنة اي سنة ١٥٠٦ يونانية امر حاكم الرها الملك العادل بابطال الناقوس في بيع الرها ، وقد اغتم المسيحيون جدا ، الله يرحم.

- ٢٢٤٩ -

وفاة السلطان قلج أرسلان

اما السلطان قلج ارسلان فعندما بلغ الشيخوخة وزع بلاده على اولاده لكنهم كانوا اولادا عاقين ، فبقي عاجزا يتنقل من مكان الى مكان فأشفق عليه أهل قونيه ، فأحضروه الى كرسيه السالف فيها ، لكن ابنه قطب الدين ، وكان حاكمها رفض استقبال ابيه ،فقام غياث الدين اخوه وصاحب مدينة بروغلو بانتزاع هذه المدينة ، ثم زحف الوالد والابن الى أقصرا ، فمرض الأب قلج ارسلان فنقله ابنه غياث الدين الى قونيه ، فتوفي ودفن هناك ، ودام ملك قلج أرسلان ثمان وثلاثين سنة ، وخلف من سلالته اثني عشر ملكا.

وفاة صلاح الدين وماتلاه من أحداث

وفي سنة ١٥٠٤ يونانية مات أيضا السلطان صلاح الدين في دمشق ، وكان له ثلاثة وعشرون ابنا ، وقد وضع قبل موته ابنه الكبير بدمشق وسماه رئيسا على الجميع ، والثاني ملكه على مصر والثالث على حلب ، وهؤلاء الثلاثة كل واحد منهم كان يدعي سلطانا ، ثم وزع على الآخرين بقية مملكته ، ومضى كل واحد الى بلده ، كذلك أعطى أخاه الملك العادل ـ وكان يسمى ايضا سلطانا ـ حران والرها وميافارقين ،وسميساط وقلعة جعبر والكرك والشوبك .

ثم خرج حاكم الموصل واتفق معه اخوته حكام سنجار والجزيرة وحاكم ماردين ايضا وأتوا الى قرب حران ليحاربوا الملك العادل ويأخذوا منه بلادهم ، فجمع هو جيشا وأتى للقائهم ، لكن حاكم الموصل مرض فجأة وحل على نصيبين ، وعند ذلك خافوا فعادوا تحت طاعته كما كانوا مع أخيه ، فرد لهم الخابور ، واصطلحوا ومضى هو ليملك على الأرمن ، لكنه لم يستطع فرجع خائبا.

أما عز الدين حاكم الموصل فقد مات وملك بعده ابنه نور الدين أما لاون حاكم قليقية فقد أمسك البرنس بوهيموند حاكم أنطاكية وعذبه كثيرا ، وجازاه كما كان قد وضع بروفين أخي لاون ، حينئذ اتى الوالي هنري من عكا واعتقه ورجع لأنطاكية.

أما لاون فقد قوي بعد موت السلطان قلج ارسلان ، فاحتل في بلاد الروم اثنتان وسبعين قلعه ، أخذها من الاتراك واليونانيين ، وكان دائما منتصرا ، فأخذ أولاد السلطان يحتمون به.

عندما خرج أخي المطران مار اثناسيوس من القدس بعد خرابها اتى الى دير سيدنا مار برصوم ، فأرسلته عوضا عني وبسبب شيخوختي الى انطاكية ، فاستقبلوه كالملك واحبه الجميع ، وبقي هناك سنتين ، ثم توفي وكان ذلك يوم الخميس ٢١ تشرين الأول عام ١٥٠٤ يونانية وسجي جسده في دير داوود عند قبر ماريوحنا البطريرك ، ليرحمه الله ، اما القدس فارتسم عليها اغناطيوس ، اي الشهيد رئيس ديرها.

وفي كانون توفي ديونوسيوس مطران ملطية وقام مكانه اياونيس مطران قيسارية اي ابن قنون.

وفي تشرين سنة ١٥٠٥ يونانية اتى الينا في دير ماربرصوم غريغوريوس المفريان ومعه الاساقفة الأربعة الذين في ابرشيته ، ثبتوا عهدهم الناموسي مع ابيهم الروحاني ، ولما رجعوا الى كراسيهم حرموا الشيطان ابن تمسح ، وكان هذا قد قال للحاكم :إن المفريان هرب ولن يأتي بعد ، لذلك عندما رجع الأساقفة حرموه ونبذوه ، وكذلك نبذه الشعب المؤمن ، ولما وصل المفريان استقبله الحاكم بترحاب ، وكل واحد فرح به.

وفي هذه السنة ارسل لاون حاكم قيليقية وسرق قلعة الروم وأخذ الجاثليق الصبي ، ولما انكشفت أفعاله حرمه اساقفة الأرمن ، وقد وضع لاون الجاثليق في السجن في قلعه تدعى غوبيدره وقد حاول ذلك الشقي أن يهرب فسقطت عليه صخرة ومات ، وقد خزي الأرمن بهذا العمل.

بعد ذلك رسموا لهم جاثليقا هو ابن عم الشيخ المسمى أبيررد ودعي ريخوروس .

كمل‌هذا على يد الخاطىء الشقي العاجز الكسلان العبد المظلوم ، وارجوا منكم العفو يا اخوتي وابائي عن كل نقص صنعته يداي.

- ٢٢٥٢ -

انتهــى تــاريخ ميخـــائيل السرياني في كانون الأول (١٥٠٦) يونانية (١١٩٥ م) بــالخبر التـــالي في كانون الأول عام ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) مضى حــاكم أبلسـتين الى لاون ، وقـــدم له الطاعه ، ثم مضى لاون الى حاكم قيسارية وانتصر عليه واغتصــب منه قلعة قرب قيسارية .

روايات ابن العبري

غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي

(أبـــو العبـــاس المســـتظهر بـــالله

(٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م)

مدة خلافته خمسة وعشرين عاما وخمسة اشهر ، وفي هذا العام ماتت تركان خاتون أم السلطان محمود ، ويقال إنها كانت جـريئة حكيمة يتصل نسبها بافر سياب رأس ملوك الهون ، واما أبـوها فهو طغراج ملك الخزر ، ولم يبـق تحـت سـلطة ابنهـا الا اصفهان ، ومع ذلك طمع فيه أخوه السلطان بركياروق فـزحف على أصفهان بشرذمة من جنوده ، فاغلق أتباع السلطان محمود أبوابها في وجهه ووجـه جنده ، ولكن أتبـاع بـركياروق أصروا على فتـح أصفهان ، ففتحوها وادخلوا فيها سلطانهم بركياروق ، فمكث بهـا يوما واحدا ألمت خلاله باخيه محمود حمى شديدة توفي بسببها وهـو في السابعة من عمره ، فانضوى زعماء أصفهان تحت لواء بركياروق وملكوه إياها .

وفي عام ٤٨٨ هـ / ١٤٠٦ لليونان ، (١٠٩٥ م)قدم سـلطان قونية قلج أرسلان بن سليمان الى ملطية وحاصرها ، وأرسل أحـد الزعماء سفيرا له ليفاوض مطران المدينة المسمى سعيد بن صابوني الذي دعي صاحب السدرات ، وكان رجـلا قـديسا وخبيرا حنكتـه تجارب الحياة ، فكلمه السـفير بـاللغة اليونانية وبحضـور الزعيم جبرائيل اليوناني صاحب المدينة قائلا :يريد السـلطان أن تسـلموه المدينة ويعد أنه سوف يعامل سكانها معاملة طيبة ، والا فسيفتحها بحد السيف عنوة ، ومن ثم تكون دماء المقتولين في رقبتكم ، فأجاب المطران السفير قائلا لاتهرف بما لاتعرف ، فليس بمقدور أحـد ان يأخذ مدينتنا لان خيراتها كثيرة ففيهـا خبـز لأكثـر مـن عشرة أعوام ، ومياهها تنبع من داخلها ، وفيهـا الكثير مـن المحـاربين الشجعان كما ترون ، وعندما كان المطران يتحادث مع السـفير كان

جبرائيل اللعين واقفا خلفه يتسمع ساكتا وعندما انصرف السفير ، قال المطران لجبرائيل الخبيث : لقد كنت يامولاي أصغي لما قلته والحري بنا أن نبعد السلطان عنا بمعسول الكلام ونفيس الهدايا وانت على علم بما يعانيه الاغنياء والفقراء من الضيق ، فحقد هذا الخبيث على المطران ، وأوعز بقتل أحد الضباط في اليوم التالي ، وعندما علم المطران بذلك راح يتضرع الى جبرائيل ليكف عما بيته لذلك الضابط فغضب هذا اللعين على المطران وأخذ يوسعه شتما ، وبينما كان جبرائيل يسير على حصانه بين سوري المدينة عاد فرأى المطران فهوى بسيفه على رقبته ، فأرداه قتيلا ، ولم يتسن للمؤمنين أن يشيعوه ويواروا جثمانه في الكنيسة الا بعد يومين ، وأما السلطان ، فعندما علم بقدوم الفرنج ترك ملطية وقفل راجعا ٠

وفي عام ٤٨٩ هـ وهو عام ١٤٠٧ لليونان(١٠٩٦)م، تكهن المنجمون بأن طوفانا كطوفان نوح سيحدث ، فاستقدم الخليفة المستظهر المنجم ابن عيسون ، وسأله عن صحة ذلك ، فأجاب ابن عيسون : تجمعت في عهد نوح الكواكب السبعة السيارة ببرج الحوت ، ولهذا وقع ذلك الطوفان العظيم ، وأما هذا العام فلا أثر لزحل في برج الحوت فلو كان مع سائر الكواكب لكان من المرجح أن يقع طوفان كطوفان نوح لكنه ستحتشد جماعات كثيرة من الناس في أحد الأمكنة ، وسوف يأتي سيل عرم ويجرفهم فيغرقون كلهم ، وللحال وصلت أخبار مفادها ان الحجاج في مكة فاجأهم سيل عرم فأغرقهم كلهم .

وفي هذا العام أجهز جبرائيل اليوناني حاكم ملطية على أبي سالم الرئيس الصادق الايمان ، صهر آل عمران اذ دس له سما فقتله كذلك أجهز هذا اللعين على التجار المؤمنين الورعين الآتية أسماؤهم :

برصوما ابن الراهبة ، وابنته وباسيل حوا ، وسهدو شماس

- ٢٢٥٥ -

طانطيني ، ونهب من بيت ابي منصور بن ملكا ذهبا وفضة وبضائع مختلفة ، كما سلب من كنسية المطـران قنينة ميرون ، والكثير مـن الصلبان والمباخر وغير ذلك من الذخائر ، وخـرب البيوت ، وعمـر السور والقلعة بأحجارها •

بداية الحروب الصليبية ١٠٩٧

زحف الفرنجة الى المشرق

وفي عام ١٤٠٨ لليونان ـ (١٠٩٧ م)قـدم ملكان فـرنجيان وسبعة قمامصة الى انطاكية واستولوا عليها من الاتراك ، أما السبب المعلن لقدومهم فهو أن التركمان بعدما استولوا على فلسطين وسورية وغيرهما من الاصقاع شرعوا يعاملون الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس معاملة سيئة ، ولاسيما الحجاج القادمين من ايطاليا ونواحيها ، ولهذا تحمسوا وجهزوا جيشا حاشدا وقصدوا بادىء ذي بدىء الى اسبانيا ، فدخلوا مدنها ، وقتلوا الكثير من العرب ، ومثلوا بهم ففقؤوا أعينهم ، وقطعوا آذانهم وجدعوا أنوفهم ، ثم واصلوا مسيرهم الى القسطنطينية ، فمنعهم ألكيس ملك اليونان أن يعبروا من هناك ، وظلوا يحاصرون العاصمة سبعة أعوام ، ولكن دون جدوى فقرر الافرنج أن يتحولوا الى انطاكية فحاصروها مدة تسعة أشهر ، لم يتمكنوا من احتلالها ، ولهذا تآمروا سرا مع الفارسي روزبه حارس البرج الذي كان بجانب مخاضة كشكروف وأغروه بذهب كثير ، وكان ذلك البرج مقاما على دعائم حديدية فدخلوه ليلاً وتسلقت جماعة منهم السور بالحبال ولما ازداد عددهم فوقه ، شرعوا ينفخون بأبواقهم في آخر الليل ، فظن الحاكم التركي يغسيان أن الفرنجة دخلوا القلعة فداخله خوف شديد ، فما كان منه إلا أن توجه نحو باب المدينة وفتحه وهرب مع ثلاثين رجلا باتجاه طريق حلب ، وما إن انبلج الصباح حتى شرع يصرخ ويقول : كيف تخليت عن المدينة وتركت أموالي وأهلي وأولادي ؟ ثم أخذ ينظر نحو انطاكية ويبكيها ، ولشدة حزنه هوى عن فرسه فأركبه أصحابه غيره الى أن سئموا فتركوه مطروحا

على الارض وانصرفوا فلقيه حطاب ارمني ، وعندما عرفه قطع رأسه وذهب به الى الفرنجة .

على هذا النحو سقطت أنطاكية بيد الفرنجة فبطشوا بمن فيها من العرب والأتراك ، وسلبوا خيراتها وولوا عليها أحد القمامصة واسمه بوهيموند ، وقد بقي الافرنج في انطاكية مدة خمسة عشر يوما لايجدون شيئا ياكلون حتى اضطروا ان ياكلوا لحوم خيولهم ، ولما علم السلطان بركياروق باحتلال الفرنجة لأنطاكية ، جهز جيشا عظيما قوامه مائة ألف فارس وسيره الى انطاكية ، وعندما بلغ الجيش بغراس خيم هناك ، وشاهد احد ملوك الفرنج في نومه حلما ، فحفر مكانا في بيعة القسيان ، فوجدوا فيه مسامير صليب الرب يسوع فصاغوا منها سنان رمح وصليبا وجعلوه لواء زحفوا تحته نحو الأتراك ، فنصرهم الرب على الأتراك وقتلوا منهم اناسا كثر ضاقت بجثثهم الأرض على سعتها .

وبعد ذلك قصد الفرنجة المعرة ، فدخلوها وبطشوا بنحو مائة ألف نسمة من سكانها وعاثوا فيها فسادا مدة أربعين يوما يسرقون ، وينهبون ومن ثم قصدوا الجبال فبطشوا بالكثيرين من النصيرية ، ثم اتجهوا نحو لبنان فحصروا عرقة قرب طرابلس مدة أربعة أشهر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فتركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فانصاع صاحبها ابن منقذ العربي لهم ، وقدم لهم الجزية ، فتحولوا عنه الى حمص فأذعن لهم صاحبها جناح الدولة ، فتحولوا عنها ايضا الى طرسوس والمصيصة وأذنه (١) ٠

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حران والرها وكان الأرمن يتولون على بلاد زغما غربي الفرات قرب البيرة ، وكان باسيل كبيرهم متوليا رعبان وكيسوم بين حلب والرها ، وكان ايلغازي ابن ارتق في سميساط على شاطىء الفرات الغربي ، أما مرعش والجبل الاسود فكانتا بيد ابناء فلرطس الأرمني . وكانت قيليقية وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الأرمن أما

طنكريد ملك انطاكية فانه حشد الجيوش وزحف الى بلاد الترك واستولى على قلاع وحصون كثيرة ، ثم توجه الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطعم الخيل العشب .

لكنه لما استفحل أمر الفرنج لم ير الترك بدا من مراضاتهم فبعث رضوان صاحب حلب إلى طنكر يد باثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصانا أصيلا ، واربعين قطعة من القماش الفاخر ، وأرسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب عسقلان أربعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وعلي الكردي صاحب حماة ألفي دينار ، وأبرموا جميعا الهدنة الى زمن الحصاد ليعطوا الغلال للفرنج .

الاستيلاء على بيت المقدس

قوي أمر الافرنج في الشرق فوجهوا جيوشا ضخمة الى فلسطين برا وبحرا وحاصروا في طريقهم يافا واحتلوها في عدة ايام ، ثم بلغوا بيت المقدس فاحدقوا بالمدينة من كل صوب وبنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المنجنيقات والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوما .

وكان بيت المقدس يغص يومئذ بالناس والعسكر المصري والعدد الحربية وكان صاحبها افتخار الدولة الأفضلي قد أبعد عنها المسيحيين فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند الجهة الجنوبية من باب صهيون ، والآخر عند باب مار اسطفانس في الجهة الشرقية فصار العرب يرمون برج صهيون بالقذائف المحرقة ، لكن سرعان مادوت صيحة بين العرب تقول ان الفرنجة دخلوا من الجهة الشرقية ، ومن ثم أعملوا السيف في رقاب أهل المدينة اسبوعا كاملا وقد قتلوا اكثر من سبعين ألف عربي في المسجد الأقصى وسلبوا من عند الصخرة أربعين قنديلا فضيا زنة كل منها

ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، كما نهبوا من قبة الصخرة مائة وأربعين قنديلا فضيا وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وسبعمائة درهم ، واخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة بينها عشرين قنديلا من الذهب المصري ، وكان بين مانهبوه ايضا منارة فضية تزن أربعين رطلا سوريا ، علما أن الرطل السوري يساوي ستة أرطال بغدادية ، أضف الى ذلك الكثير الكثير من الأواني والذخائر الفاخرة ، وكان أول من ملك من الفرنجة في بيت المقدس غودفري الذي تسلم حكمها سنة ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨) م تولي سنتين وتوفي ، فخلفه في حكم بيت المقدس بلدوين وقد تولى امر هذه المدينة مدة سبعة عشر عاما

ولما علم المصريون بما جرى في بيت المقدس زحف الافضل ابن أمير الجيوش بجيش عظيم عام ١٠٩٩ فالتقى مع الفرنجة قرب عسقلان ، فتغلب عليه الفرنجة وبطشوا بالكثير من جنوده ، ومن ثم واصلوا مسيرهم الى عسقلان ، فقدم سكانها اثني عشر ألف دينارا للفرنجة فقنعوا بذلك وغادروا عسقلان راجعين الى القدس .

صراع السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثار أقطاب الاتراك على السلطان بركيارق انتقاما من الوزير مجد الدولة الذي كان يسيء معاملتهم ، ففتكوا بهذا الوزير لكنهم لم ينصبوا بركيارق بل توجهوا الى اخيه محمد وبايعوه بالسلطنة ، ورضي السلطان عن ذلك وأصدر فرمانا رسميا سمي (فرمان الرضا) وتسمى محمد « غياث الدنيا والدين أبا شجاعَ محمد » فزحف بركيارق الى بغداد متتبعا أخاه محمدا ، فالتقى جيشاهما ودارت بينهما حرب سجال ، ينتصران وينكسران .

وفي عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م توفي الطبيب البغدادي يحيى بن جزلة واضع كتاب المنهاج الشهير الذي يتحدث عن الأدوية والأغذية

البسيطة والمركبة ، والذي لايزال متداولا بين أيدي اطباء هذا العصر ، ومما ينكر ، أن يحيى هذا كان نصرانيا ، قرأ المنطق على يدي ابي علي بن الوليد ، وقد اقنعه أبو علي السفسطي « أن الاتحاد الحبي والاقنومي على زعم النساطرة لايمكن تصوره في الطبع الألهي » وبذلك حسن له الاسلام فأسلم ، والجدير بالذكر ان يحيى هذا كان غنيا لكنه لم يعالج مريضا قط بدون أجره ، الا أصدقائه فقط •

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة •

وفي عام ١٤١٤ يونانية (١١٠٣) م بلغ العرب أنه ليس مع صنجيل في طرطوس الا ثلاثمائة فارس فاتفقوا على أن يغيروا عليه من طرابلس ودمشق وحمص ، فوجه مائة من فرسانه نحو الطرابلسيين ومائة نحو الدمشقيين ، وخمسين نحو الحماصنة ، أما الخمسون الباقية فأبقاها بقيادته ، وعندما التقى الجمعان فر الحماصنة والدمشقيون الى الجبال ، علما أنهم كانوا يزيدون على خمسة آلاف محارب ، وأغار صنجيل على الطرابلسيين الذين كانوا يقدرون بثلاثة آلاف محارب ، فدحرهم وتتبع العرب المهزومين هو وفرسانه الخمسون ، فأهلك من العرب زهاء سبعة آلاف ، ومن ثم ترك قيليقية قاصدا طرابلس فأغار عليها ، ولكنه لم يتمكن منها فحاصرها سبع سنوات واحتلها عام• •(٢) وبسط سلطانه على طرطوس،وبطش بسكانها من العرب واقتحم قلاعا عدة .

وفي تلك الفترة قدم عن طريق البحر قمص آخر ، فحاصر عكا وضايق سكانها ، واحتل الفرنجة الرها ، ومن ثم راحوا يغزون ويسبون البلاد السورية من العرب البلد تلو الآخر •

- ٢٢٦١ -

احتلال الأتراك لمدينة ملطية

كان الأمير ابن دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يثقل في مطالبة صاحب ملطية جبرائيل اليوناني ، وكان ابن دانشمند هذا يأتي الى ملطية صيفا فيعيث فيها فسادا .

ويأكل غلالها ثم يغادرها شتاء ، ولهذا اغرى جبرائيل اليوناني الفرنجة باحتلال مدينته ملطية ، وأقسم لهم ثلاثا انه سيسلمهم المدينة ، فصدقوه وسار الملك بوهيموند الى ملطية وهو مطمئن ليأخذها ، على أن جماعة من الأرمن كانوا منذ ايام فيلردين يتولون بعض المناطق منهم كوغ باسيل اي اللص صاحب كيسوم ورعبان وأبناء روبين حكام بعض نواحي من أرمينية خافوا ان يستولي الفرنج على ممالكهم ويطردونهم منها ، فكتبوا سرا الى اسماعيل بن دانشمند واتفقوا على أن يكمن لهؤلاء الفرنجة ، ولما وصل بوهيموند قرية حفنة قرب ملطية أخذ ذلك الخبيث جبرائيل اليوناني يماطله ويسوفه ويؤجله من يوم الى آخر حتى وصل اسماعيل بن دانشمند وكمن للفرنجة فأسر بوهيموند وأرسله الى سبسطية وتوجه إلى ملطية وطوقها ، ومن ثم أخذ جبرائيل يتمادى في ظلمه للأهالي الى أن تذمر منه ضابطان استقدما الأتراك إلى المدينة ، فدخلوها وكان ذلك يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان ،(١١٠٢) م وفي النسخ العربية عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١) م فسلب الأتراك مافي ملطية المنكودة الحظ من الثروات ، كذلك أباح ابن دانشمند لجنده ان يستولوا على أموال هذه المدينة لكنه لم يسمح لهم بأسر اهاليها ، فقد احسن ابن دانشمند معاملتهم ولم يؤذوا أحدا منهم وردهم الى بيوتهم ، بل أحضر من بلاده المزيد من الثيران والقمح والحاجيات ، وغير ذلك من المؤن ووزعها عليهم ، ولهذا نعم الملطيون في عهده ببحبوحة من العيش ، ثم ولي عليهم حاكما تقيا ورعا يدعى باسيل ورحل .

وأما جبرائيل الخبيث ، فقد أنزل الله غضبه عليه ، فصار

الاتراك يسومونه سوء العذاب ، ولطالما ذكره النصارى بما كان منه من المظالم ، والتعدي على حياة الآخرين وخاصة على المطران الورع ، والزعماء المضطهدين الذين بطش بهم ، وبعد أن بالغ الأتراك في سبه وأشبعوه شتما توجهوا به الى قلعة قطيعة حيث كانت تسكن زوجته ، وطلبوا اليه ان يأمر زوجته بأن تسلمهم القلعة ولكنه راوغهم وخاتلهم ، وقال لزوجته سلمي القلعة وهذه اشارة مني · اني بعثت اليك قبل ايام فتى اسمه ميداس ـ علما أن ميداس لفظة أرمنية معناها لاتسلمي ـ ولما اكتشف الأتراك مكره فتكوا به ورموا جثته الى الكلاب واستقدم ابن دانشمند ملك الفرنجة بوهيمند الى ملطية ثم باعه بمائة الف دينار ، فعاد هذا الى انطاكية وتنازل عنها لابن اخته ورجع الى بلاده.

وفاة السلطان ركن الدين بركيارق

وفي عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ابتلى السلطان ركن الدين بركيارق بأمراض عدة ومختلفة كالبواسير والسل وغيرها من الآفات ، فأدرك أن منيته قد دنت ، فاستخلف الاقطاب بأمر ابنه ملكشاه الصغير ، وبعث به الى بغداد ونودي به وبلقب جلال الدين ملكشاه ، علما أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر ، وتوفي والده بركيارق فدفن في اصفهان ، وعندما كان في بغداد قدم اليها عمه السلطان محمد فخاف البغداديون ان يختلف السلطانان ، فيكونوا هم مرتعا للسلب والنهب ، ولما كان الأمير اياز وصي الملك ملكشاه يحظى بقسط محمود من الذكاء والدهاء ، وقائدا لجيوش بركيارق وبالتالي فهي تأتمر بأمره ، ذهب الى السلطان محمد واستحلفه قائلا ان هذا الفتى ، هو ابن أخيك وينبغي أن تحوطه برعايتك وأن تعمل على توطيد حكمه ، فأجابه السلطان محمد قائلا ان ملكشاه هو ابني ، ووعده خيرا ، فتركه الأمير اياز الذي زار السلطان ملكشاه وحظي بحسن ضيافته ، وفي اليوم التالي أقام الأمير مأدبة دعا اليها السلطان فلبى الدعوة ، ولسوء الحظ حضر كاتب متدرع

بدرع تحت ثيابه وكان واقفا يخدم ولايتحرك الا بصعوبة وبطء فأثار شكوك السلطان ، فأوحى إلى أحد عبيده ان يستطلع أمر تعثره في ذهابه وايابه فذهب العبد وتلمس الكاتب بحجة مداعبته ، فأحس أن تحت ثيابه درع ، فأخبر السلطان بذلك ، فقال السلطان لنفسه اذا كان الكتاب يتدرعون ، فما هو شأن الفرسان الأتراك ؟ ورجح أن أياز يبطن له المكر والغدر ، فأشار إلى مرافق له أن يضر به ويقتله ففعل ، وعندما علم الأتراك حلفاء اياز بذلك حملوا ماأمكنهم من أموالهم وأموال غيرهم وفروا الى سورية .

وفي آذار ٤٤٩ هـ ـ ١٤١٧ م لليونان (١١٠٥ م) فاضت الأنهار ولاسيما الفرات فخرب الكثير من دور بغداد ، وقد بلغت المياه دار رجل غني ، فكادت تغمرها ، فوضع أهله وامواله في سفينتين وقصد مكانا عاليا ، وبعد ان عبرت السفينتان قليلا غرقت احداهما ، وقد كان على متنها فتاة مع امها وتسع جوار غاليات الثمن فغرقن جميعا وغرق مامعهن من متاع ، وعندما رأى ركاب السفينة الثانية ذلك ، عادوا الى دارهم ، وقد تضاءلت المياه في اليوم التالي ، فحمد الناس الله وامتدحوا أحكامه التي لاتدرك ، وأتقنوا ان نجاة الناس بأمر الله .

وفاة دانشمند

وفي هذه السنة عينها توفي في سبسطية دانشمند بعد ان تولى مدينة ملطية عامين ، فقدم قلج ارسلان لمحاصرتها في ٢٨ حزيران ، ونصب المنجنيقات على برج مستدير في الشمال الشرقي من المدينة التي احتلها باليمين بعد معارك وليس بالسيف ، وذلك في الثاني من ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) وقد احسن معاملة الأهالي .

وفي سنة ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦ م) كان الأمير التركي جكرميش واليا على الموصل فعزم ان يتمرد على السلطان محمد فخلع السلطان الأمير جكرميش التركي هذا ونصب مكانه الامير جاولي وزوده بجيش جرار ، وعندما التقى بجيش جكرميش عند اربيل هزم جكرميش واسر لكن أهل الموصل تحالفوا مع زنكي بن جكرميش واحتشدوا استعدادا لمقاتلة جاولي ، واستنجدوا بقلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش ، سلطان قونيه ،أما جاولي فقد دخل الموصل منتصرا ومعه جكرميش أسيرا وحفر بئرا عميقا ورمى جكرميش فيه مخافه أن يخطفه الأهالي ، ولم يلبث جكرميش أن لفظ أنفاسه في هذا البئر المظلم.

وكان في وقعه جكرميش ، أبوطالب بن كسيرات الموصلي لكنه هرب والتجأ الى صاحب اربيل ابن موسك ، فبعث جاولي الى ابن موسك هذا طالبا منه أن يرسل له أبا طالب هذا فلبى طلبه ، وقام بالمقابل وأفرج عن واحد من أبناء صاحب اربيل كان جاولي قد أسره ، وعندما قدم ابن كسيرات لزيارة جاولي ، وعده بأن يعطيه الموصل وتعهد بأن يجمع له مقدارا من الذهب من معارفه واصدقائه ، ولكن العدو اللدود لابن كسيرات قاضي الموصل ابن ودعان ، اتفق مع جاولي ووعده أن يسلمه الموصل شريطة أن يبطش بابن كسيرات ، فنفذ جاولي ذلك وأرسل له رأس خصمه فغضب أتراك الموصل على ابن ودعان وهجموا عليه وقتلوه ولم تكن قد مضت على فعلته هذه أيام معدودات.

وفاة السلطان قلج ارسلان

وفي ذلك الحين قصد قلج ارسلان جزيرة قردو قادما من بلاد الروم ، فهرب جاولي الى مدينة بلد وغزاها ، ثم تحول عنها الى سورية ، فدخل قلج أرسلان الموصل واحتلها دون قتال ، وصفح عن زنكي بن جكرميش وأصحابه ولم يؤذ أحدا منهم ، وأعاد القاضي

عبيد الله بن القاسم الشهرزوري الى مكانته ومنصبه ، ومنع الخطبة باسم السلطان محمد في الموصل ، وجعلوا يخطبون فيها باسم قلج أرسلان بعد الخليفة ، ونصب في القلعة شحنة اسمه بزميش ، وجعل ينادي باسم ابن ملكشاه ملكا ، وهو لا يزال في الحادية عشرة العمر ، وأسكنه مع أمه هناك في البلاط وزحف الى الخابور برفقة خمسة آلاف فارس ، وأما الأمير جاولي ، فقد تحالف مع صاحب حلب رضوان ، وقصد الخابور بأربعة آلاف من الفرسان الشجعان والمدربين حيث وقعت معركة طاحنة تعد بحق ملحمة بينه وبين قلج أرسلان ، وقد أظهر شجاعة نادره ومنقطعه النظير ، فقد استطاع أن يخترق صفوف جيش خصمه وضرب يد حامل رايته وبترها ، ثم هجم بنفسه على جاولي وطعنه بالسيف ولو لم يكن جاولي يلبس درعا حديديا لكانت ضربة قلج ارسلان الجريئة هذه قد مزقت قلبه ، وعندما لاحظ أصحاب جاولي ورضوان شجاعه قلج أرسلان واستبساله بينما كان أصحابه متلكئين انقضوا على أصحابه ، وبطشوا بهم ، فخاف عندئذ قلج أرسلان وأيقن انه بقي وحيدا كما أيقن انه سيموت لأنه إن عفا عنه رضوان وجاولي فإن السلطان سوف يقتله لأنه كان قد منع الخطبة باسمه في الموصل ، لهذا كله ألقى بنفسه وهو على حصانه في نهر الخابور ، وظل يقاتل ويطعن كل من تبعه ، ولكن درعه الحديدي كان أثقل من حجمه وشجاعته ، و سرعان ماهوى حصانه في مجرى النهر العميق فغرق ومات ، وبعد عدة أيام لفظته مياه الخابور الى الشاطيء ، فرآه بعض المارة فنقلوه ودفنوه في مقبرة الشمسانية (٣) ، واما رضوان ، فقد قصد أطراف الرقة بينما رجع جاولي الى الموصل ، حيث فتح له أهلوها الأبواب فدخلها دون قتال ، وألقى القبض على أحد حجاب جكرميش وصادر منه اربعين ألف دينار من الذهب ، ثم طلب من بزميش أن يتخلى له عن القلعة وعن كل ما سلبه من أهالي الموصل مقابل أن يغادر بسلام الى بلده ، فانصاع بزميش لأوامر جاولي حالا لأن حاميه ومولاه قلج أرسلان كان قد مات ، فغادر القلعة ومعه أهله وزوجة قلج ارسلان

واهلها وقصد ملطية ، وأما ابن قلج ارسلان ملكشاه الفتى ، فقد كان جاولي أرسله الى السلطان.

بعد ذلك قصد جاولي الجزيرة واضطهد سكانها فاضطر حباشي ابن جكرميش أن يقدم له ستة آلاف دينار وحصانا عربي الأصل ، فتركها وتحول عنها ميمما شطر الموصل حيث عزل القاضي ابن الشهرزوري ونصب مكانه أبا بكر الاربلي ، لكن هذا الانتصار قد غره فتغطرس وتمرد وخلع طاعه السلطان غياث الدين محمد ، ولم يعد يبعث اليه كعادته شيئا مما كان يغنمه ، فارتاب السلطان وتشكك في نوايا جاولي ، فسير اليه عدة أمراء بقيادة الامير مودود على رأس جيش عرمرم ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ ـ (١١٠٨ م) ، وعندما علم بذلك جاولي حصن مدينته ، وترك فيها زوجته ـ وهي أخت برسق أحد أمراء الموصل ، ونشر المدافعين فوق السور وطلب منهم أن يدافعوا عنه وأن يحموا المدينة ، ثم غادرها خيفة أن يحاصر وهو فيها ، وخرج وكأنه يبحث عن رجال ينجدوه في صد الغزاة القادمين ، واصطحب معه قمص فرنجي يدعى بلدوين ، كان قد أسره من قبل ، ووعده بالافراج عنه إن هو قدم له سبعين ألف دينار ، وأفرج عمن لديه من الأسرى الغرب ، وأن يخدمه مع سائر الفرنجة كلما احتاج الأمر ذلك ، ثم طلب اليه أم يقيم في قلعة جعبر الى أن ينفذ هذا الاتفاق ، فاستقدم القمص بلدوين ابن اخت له يدعى جوسلين وأودعه لدى الأمير رهينة مكانه وذهب هو ليعد الذهب الذي تم الاتفاق عليه.

وأما أهالي الموصل ، فقد أثقلت كواهلهم الضرائب التي فرضتها عليهم زوجة جاولي التي بقيت في الموصل فصعد جماعة من عملة الجص الى برج من أبراج المدينة وأطلقوا صيحات مدوية بشعار السلطان الكبير غياث الدين محمد ، ثم دخل الأمير مودود وصحبه الموصل واحتلوها فلاذت زوجة جاولي بأخيها الأمير برسق ، وأما جاولي نفسه فقد قصد إيلغازي والي نصيبين وماردين الذي كان في

رعبان قرب الخابور في تلك الايام ، وقد حـاول جـاولي جـاهدا أن يقنع ايلغازي بالتحالف معه ،ولكن إيلغازي تركه فسـار الى قلعـة ماردين ، وبعد ذلك قصد جاولي الى الرحبه وحاصرها مدة سـبعين يوما ثم بعث يطلب من جوسلين أن يأتي من قلعة جعبـر ، فـأعطاه حصانه ، ووشحه بحلة ملكية ، وأرسله الى خاله بلدوين يسـتعجله في جمع الذهب والافراج عن الأسرى العرب ، وعندما بلغ جـوسلين انطاكية أعطى الى طنكريد صاحبها ثلاثين الف دينار أرسلها هـذا بدوره الى جاولي مع مئة أسير وأسيرة من العرب من مدينة حلب.

وغادر جاولي متوجها الى الرقة فحاصرها مدة طـويلة ، فبعـث اليه السلطان غياث الدين الأمير حسين بن أتابك يدعوه للعـودة الى خدمته وطاعته ، والعودة كما سلف إلى الموصل ، فرفض جـاولي هذا العرض ، وزحف الى بـالس فحـاصرها ودمـرها وبـطش بأهلها ، ولما علم رضوان صاحب سورية وحلب بمـا فعله جـاولي ببلاده استنجد بملك انطـاكية طنكريد ، فبـادر لنجـدته على رأس جيش مؤلف من ألف وخمسمائة فارس افرنجي وسـتمائة فـارس تركي من أصحاب رضوان نفسه ، كما استنجد جـاولي بجـوسلين وبلدوين فأتيا لنجدته أيضا ، ونشبت معركة عند تل باشر أسـفرت عن تغلب فرنجة وأتراك رضوان على فرنجة وأتراك جـاولي ، وقـد قتل في هذه الوقعة كثير مـن الأتـراك ، وأمـا الفـرنجة فلم يقتلوا بعضهم بعضا ، بل كانوا يكتفون بأن يلقي احدهم الآخر عن صهوة جواده ، وإثر ذلك انهزم جوسلين وبلدوين الى تل باشر في مجموعة من جند جاولي ، فعالجوا جراحهم ثم ردوهم اليه .

ولما أيقن جاولي أنه قـد خسر وهنت عزائمـه وخـارت ، فلم ير وسيلة إلا الاستعانة ثانية بالسلطان فبدل اسمه وهيئته وسـارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان قـاطعا ثـلاثمائه وسـتين فرسخا في سبعة عشر يوما ، وعندما بلغ المعسـكر ، قـال لدليله في الطريق : أنا جاولي نفسه أريد خيمة الأمير حسين وكان سلف ورآه من قبل في الرحبة فاصطحبه هذا الى السـلطان وهـو يحمـل كفنه فعطف عليه السلطان وجعله من بطانته ، أما بزميش فـأخذ زوجـة

قلج أرسلان من الموصل الى ملطية ، ونادى بطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الفتـى سـلطانا ، وصـدف أن كان هناك أمير ثـان يدعى أرسلان ، فطلبت أمه أن يبطش بابنها هذا ويتزوجها ، ثم اتفقت أم الفتى مع بعضهم فقبضوا على أرسلان وسجنوه فاعتقد الناس انهم قتلوه لكنهم ما لبثوا ان ارسلوه بعد سـنه حيا الى السـلطان غياث الدين بخراسان ، فبعث هذا الى ملطية السلطان ملكشـاه بـن قلج أرسلان فنادوا به ملكا وخلع طغرل أخاه الصـغير وسـجن أخـويه عربا ومسعودا ، وأما ملكشاه فقد بقـي في ملطية عدة أيام يضـايقه ويشدد عليه ابن دانشمند ، فقصد ملك الروم ألكسس يسـتنجد بـه فاستقبله وأكرمه وأجزل له العطاء ، وفي طريق عودته نصب له ابـن دانشمند كمينا فـاعتقلوه وأحضروه فسـمل عينيه ،عند ذلك أفـرج زعماء ملطية عن أخيه مسعودا ونادوا بـه سـلطانا عليهـا ، ولكنه سرعان ما غادر ملطية تاركا فيها أخويه عربا وطغرل أرسلان وقصد قونيه واستقر فيها وجعلها عاصمته ٠

غارات الفرنجة في سورية

وفي عام ١٤٢١ لليونان(١١١٠ م) انتزع الفرنجة طرابلس من العرب بعد أن حاصروها مدة سبعة أعوام ، وفي العام الثاني زحـف طنكريد ملك أنطاكية في جيش عظيم من الافرنج ، وانتـزع حصـونا كثيرة من العرب ، وبطش بكل من فيها ، ومن ثم قصـد منبـج فلم يجد فيها أحدا ، كما قصد بالس فلم يجد بها أحدا فأحرقها ، ورجع الى طرابلس لترعى مواشيه الكلأ ثم يعود ثانية ، وبـات العـرب في سورية بخطر داهم فقد تعذر عليهم مهادنة الفرنجة إلا بالمزيد والمزيد من الذهب ، فقام والي حلب رضوان باهداء طنكريد اثنين وثـلاثين ألف دينار ، وأربعين قطعه من أنفس الاقمشـة ، وعشرين جـوادا عربيا أصيلا ، في حين قدم له حـاكم مـدينة صـور سـبعة آلاف دينار ، وصاحب حماة علي الكردي ألفي دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وكذلك صاحب عسقلان أربعة آلاف دينار

أيضا وعقدوا معه هدنة الى موسم الحصاد فقط وعلى شرط أن يقدموا الغلال الى الفرنجة أيضا.

وفي هذا العام اعترض الفرنجة آلافا مؤلفة من التجار العرب القادمين من دمياط وتنيس ، وأسروا سبعين تاجرا منهم وباعوهم بأغلى الأثمان بعد أن سلبوا منهم خمسين حملا من الاقمشة الدمياطية واربعمائه صندوق من السكر المصري الى غير ذلك من البضائع والامتعة.

وفي هذه الآونة زار بغداد فقيه كبير قدم من حلب فأخذ يبكي ويندب حال عرب بلاد الشام بسبب ظلم الفرنجة وبطشهم بهم ، فاجتمع أهالي بغداد يوم الجمعة في المسجد الكبير وألغوا الصلاة ، وكسروا المحراب ، احتجاجا على الخليفة والسلطان لسائل تقاعسهما عن محاربة الفرنج.وعندما علم السلطان بذلك أرسل ابنه أبا الفتح مسعودا والأمير مودود على راس جيش كبير الى الموصل لمقاتلة الفرنجة.

وفي عام ١٤٢٢ لليونان(١٩١١ م) انتزع أتابك سلطان ملطية من الفرنجة بلدة جيحان وحل محلهم فيها ، كما زحف في هذا العام ، وانتزع في طريقه بعض الحصون في شبختان وفتك بمن كان فيها من الفرنجة ثم توجه الى الرها ، فحاصرها مدة طويلة ، ولكن لم يتمكن من دخولها ، فتحول عنها الى تل باشر التي كانت للفرنجة ، فلم يتسن له دخولها ، فتحول عنها الى حلب ، لكن صاحبها رضوان أوصد الأبواب في وجهه ، فواصل زحفه الى دمشق ، فبادر إليه أميرها طغتكين وعرض اخلاصه وولاءه في البداية ولكنه خشي أن يغدر به ويحتل المدينة ، فراسل الفرنجة وهادنهم ضاربا عرض الحائط به وبتعهداته.

وفاة الغزالي

وفي هذا العام توفي العلامة العربي الغزالي ووري جثمانه في طرسوس قيليقية ، ولطالما قرع العرب في مؤلفاته ، لاهتمامه بطهارة الجسد وغسله متغاضين عن طهارة النفس والقلب ، وكذلك حضهم على الزهد والعفاف موردا لهم الأدلة الكثيرة والبراهين القوية عن قصص الآباء السياح في كتابه الجليل الضخم ، وهذا ما حملني على ذكره.

وفي عام ١٤٢٤ لليونان ـ ١١١٣ م غادرت الخاتون زوجة السلطان قلج ارسلان مدينة ملطية الى قلعة بولا . لتتزوج من صاحب هذه القلعة (بلك) لما سمعته من ثناء السلطان عليه ، وقالت له : لقد سمعت السلطان يثني دائما عليك ويقول ليس بين الأمراء الاتراك أشجع وابرع وأحكم منك لذلك آثرت أن آتي اليك لتحميني وتحفظني أنا وأولادي فتزوجها وعلت مكانته لاقترانه بامرأة السلطان.

لكن عندما رجعت الخاتون الى ملطية بادرت فطردت منها الأتابك وانفردت هي وابنها بالقلعة ، ويقال إن أحد الاتراك كان مستوليا على حصن زياد ، فظل بلك يضايقه الى أن اشترى سلطان ملطية ذلك الحصن من هذا التركي ، ثم ما لبث أن قدم ابن السلطان محمود سلطان خراسان فاستلبه منه ، وخلال هذه الأثناء أبدى أهالي ملطية عطفا كثيرا فاشتروا كثيرا من أهالي حصن زياد ممن كانوا مأسورين لدى الأتراك واعتقوهم.

وفاة طنكريد

وفي عام ٥٠٧ هـ ـ ١٤٢٥ لليونان(١١١٤ م) مات صاحب أنطاكية طنكريد فخلفه عليها رجير ، وفي هذا العام أيضا اشتبك عند

طبرية جيش بقيادة بلدوين وجوسلين يتألف من ألفي فارس وراجل مع جيش بقيادة الامير مودود كان يتألف من سبعة آلاف فارس ، فانهزم الفرنجة شر هزيمة، وقتل منهم الف وثلاثمئة راجل فهرع صنجيل من طرابلس ، ورجير من أنطاكية لنجدتهم وخيمت جيوش الفرنجة هذه على جبل يشرف على الغرب ومكث الجيشان مدة ستة وعشرين يوما ، دون ان يتعرض أحدهما للاخر، فتوجه الفرنجة الى نهر الاردن، ورحلت جموع العرب ، بعدما أنهكهم الجوع بسبب بعدهم عن مدنهم ومراكز امدادهم الى ضواحي دمشق ، وذهب مودود الى المسجد لصلاة الجمعة ، وعندما فرغ من ذلك أمسك بيد طغتكين وأخذ كل منهما يسرح أنظاره في عماراته المدهشة، وبينما هما كذلك هجم رجل اسماعيلي على الامير مودود وبادره بأربع طعنات بسكينة فنقلوه للحال إلى دار طغتكين حيث مات هناك،وفي الحال هجم عبيد مودود على القاتل الاسماعيلي فجعلوه أشلاء مبعثرة ، وخيل لبعضهم أن صاحب حلب رضوان هو الذي دبر عملية اغتيال مودود ، في حين ذهب آخرون الى أن طغتكين نفسه هو الذي يقف وراء هذه العملية ، لأنه كان يخشى أن يطمع مودود بمدينته ، ولهذا أغرى هذا الاسماعيلي الذي كان مسجونا لديه بسبب جرائمه ووعده بجائزة ثمينة إن خلصه من مودودوأن يخلي سبيله ويكافيه .
وخلف مودود في القيادة الأمير آق سنقر البرسقي،وسرعان ما توجه آق سنقر هذا على رأس خمسة عشر الف جندي الى الرها وحاصرها لمدة شهرين .

وفي عام ٥٠٨ هـ (١١١٥) م كان الفرنجة يخرجون من الرها باستمرار ويهاجمون العرب وفي إحدى الغارات ساقوا الى مدينتهم أحد عشر عربيا ،وبتروا ارجلهم وأيديهم وعلقوا جثثهم قبالة الاتراك على السور ، وقد أغضب هذا آق سنقر فقتل خمسين أسيرا من الفرنجة حالا،ولما أنهك الجوع الأتراك تحولوا عن الرها الى سميساط التي كانت ترعى أمرها زوجة كوغ باسيل الأرمني ، كما كانت ترعى أيضا أمر مرعش وكيسوم ورعبان ، وقد كانت هذه المرأة تحسن معاملة رعيتها بعد أن مات زوجها ، وقد أعدت جيشا

- ٢٢٧٢ -
كبيرا من فرسان ورجالة ، وقد كانت تدفع للفارس اثني عشر دينارا ذهبا ، وأما للراجل فقد كانت تدفع ثلاثة دنانير.

أحوال الأرمن

وأمـا الحـكومة الأرمنية ، فلم يكن حـالها يختلف عن تلك الصورة ، فقد استعاد اليونان بعد أن تحسنت أحوالهم بعض بلادهم من العرب ، على أن هذا التحسن لم يمكنهم من مقارعة الأتراك ، فقد بقي هؤلاء في بلادهم متخذين الأرمن الذين اعتصموا

بالأماكن الجبلية والجزيرة عملاء لهم ، فقد كان ميخائيل واوهنس في جرجر ، وبيت بولا ، وكان كوغ باسيل (اي اللص) في كيسوم ورعبان وبيت حسنة وقلعة الروم ، وأما الأخوان ابنا قسطنطين بن روبين ففي قيليقية ، أما نبتوغ وبيستفور وقسطنطين أبناء سنبل فكانوا في كورة سميساط ، وهؤلاء قوم سريان تبعوا كوغ باسيل ، وباسيل الفتى الذي نشأ في رعاية زوجة كوغ التي كان يرعى شؤونها كرديك اللعين ، الذي كان يعرف بكرهه الشديد للسريان ، لذلك احتل ديرهم المعروف بالدير الأحمر الواقع قرب كيسوم ومنحه لغريغوريوس جاثليق الأرمن ، وجعل خمسة من ديرتهم الكائنة في بيت قنايا بجبل زوبر ، قرى ، وأخلى دير عرنيش من رهبانه ، وأسكن فيه حراسا وجنودا ، واضطهد هؤلاء الرهبان وسلبهم الفي دينار .

واما ملك انطاكية تنكرد ، فقدحاصر كيسوم مدة سنتين ثم احتلها ، وأما كرديك السالف الذكر ، فقد عرف بمكره ودهائه ، ولهذا لم يستطع الفرنجة أن يتغلبوا عليه الا بالمكر والخداع فقد زفوا اليه فتاة فرنجية تدعى كلامارى شأنه في ذلك شأن شمشون ، فدست له السم فمات .

ولما رأت زوجة كوغ باسيل الجيش التركي يبطش ببلدها ويعيث فيها فسادا استنجدت بآق سنقر امير الخابور ، فلاطفته وأخذته

بالكلام المعسول واعدة اياه بالمساعدة فبعث اليها سفيرا يدعى سنقر دراز الطويل وقبل ان يصل اليها هـذا السـفير ارتقـت عرشـهـا الملكي ، وجعلت جـوار مـن حـولها يدخلن بنفيس الحلي والثياب ، وبعد أن دخـل مجلسـهـا هـذا جلس قبـالها على كرسي فراحت تخدعه بحلو الكلام ولطيفه قائلة : مر جيوشك المعسكرين في الخيام ان يدخلوا المدينة لأن جـواسيس أخبـروني أن الفـرنجة يتأهبون للهجوم ، ولكن سـنقر لم يأخـذ بـكلامها ولم يتخـل عن غطرسته الى أن هجم سـبعمائة فـارس مـن الفـرنجة على جنوده الاتراك فلم ينج منهم الا القليل ، وبعد ذلك ردت امرأة كوغ بـاسيل سنقر الى سيده آق سنقر محملا بأنفس الهبات ، فرجع الى سروج وحاصرها خمسة أيام عاث فيها جنده خلالها فسـادا في مـزروعات هذه البلدة وغلالها ، ومن ثم سـار الى شـبكتان حيث أقـام هناك وليمة فاخرة حضر اليها الملك مسعود بن السلطان الذي لم يذهب مع مودود ، بل بقي في هذه البلدة ، وبعد ذلك قبض سنقر على اياز بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وبطش به ، وغزا بلده .

وضربـت مـرعش في ٢٩ تشرين الثـاني مـن عام ١٤٢٦ لليونان (١١١٥) م و ٢٩ مـن الشـهر السـادس العربي هزة ارضية جعلتها قاعا صفصفا ودفنت اهلهـا في ركامهـا كما تخربت دور عدة في سميساط ، ومات فيها خلق كثير ، ومنهـم قسطنطين صاحب جرجر ، كذلك وانهار ثلاثة عشر برجا من سـور الرها ، كما انهار جزء من سور حران ، ومائة دار في بالس ونصف قلعتها وانهارت كنيسة ماريوحنا في كيسوم وكنيسة الأربعين شهيدا فيها ، ولكن هاتين الكنيستين أعيد بناؤها بفضل مساعي اسـقفها ديونيسوس .

وفي سـنة ٥٠٩ للعـرب أي سنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦ م) هـاجم رجير صـاحب انطـاكية بخمسمائة من الفرسان الأمير آق سـنقر في منطقـة تقـع بين حلب والمعرة فالتجأ هذا الأمير مع أخيه زنكي الى احدى التلال ، ولكن

- ٢٢٧٥ -
الفرنجة استمروا في قتلهم لأفراد الجيش التـركي ومـن معـه مـن التجار وفر آق سنقر وأخوه مع عدد قليل وطـاردهم الأفـرنج نحـو فرسخ ولكنهم لم يمسـكوا بهـم ، فعـادوا واسروا ثـلاثة آلاف تركي ، وحطموا مامعهم مـن متـاع واضرمـوا في خيامهـم النار واحرقوا جميع الشـيوخ والصـبيان الصـغار غير القـادرين على العمل ، وساقوا البقية الى انطاكية .

وفاة الخليفة المستظهر

وفي عام (١١١٧) م أي سنة .٥١ هـ تـوفي السـطان غياث الدين محمد بن ملكشـاه في أصـفهان وخلفـه ابنه السـلطان محمود ، كما توفي في هذا العام الخليفة المستظهر في بغداد ، وخلفـه ابنه المسترشد الصغير ، كما مات في شهر آب من هـذا العـام ملك اليونان ألكس الذي اشتهر بـالشجاعة والحـكمة والاقـدام فقـد استطاع ان يحافظ على عاصمته ولم يمكن الفرنجة من دخولها وقد اضطرب وضع المملكة بعده ، ذلك أن ابنه يوحنا الذي خلفـه في الملك اختلف مع أخيه وأخته وامه ، فحاولوا أن يغدروا به لكنه كان أقوى منهم ، فنفى اخته وأخيه ، وقص شعر أمه وأودعهـا في الدير ، وفي هذا العام توفي ايضا صاحب غزنة ، وملك مصر ، وبعـد ذلك بقليل قتل صاحب أنطاكية رجير ففي هـاتين السنتين مات ثلاثة عشر ملكا قبل ان تحصل الهزة الأرضية المدمرة التي ذكرناها من قبل .

أبـو منصـور المسـترشد بـالله
فضل ـ ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

دام حكم المسترشد بالله سبع عشرة سنة وثمانة اشهر ، وقـام بتـكسير خـوابي ابيه الكثيرة والممتلئة بـالخمر وطـرد المغنيين والمغنيات من أرض البلاد في بـداية تـولية الخـلافة ، وأخـذ يميل

للتصوف ، فقد سيطر عليه الاضطراب عندما رأى ابيه في حلم ، يقول له : خذني من عندك حتى لاآخذك الي فقام المسترشد وقبره في منطقة اخرى.ثم امر بتفتيش دار الكاتب ابي طاهر بن أحمد فوجد فيها بيعة وآنية المذبح ، فقال له : ماهذا الشيء ؟ فأجابه كانت لي زوجة نصرانية فصنعت كل ذلك دون معرفتي .

حرب الأمير ايلغازي بن أرتق

احتل الأمير ايلغازي بن أرتق حران في عام ٥١٢ هـ (١١١٨) واعتقل قاضيها وشيوخها الثقاة ، وكان والي حلب قد دفع الى رجير صاحب انطاكية ذهبا كثيرا ، لكنه لم يستطع ان يتوصل الى مهادنته الا أربعة اشهر فقط ريثما يحصد الفلاحون أراضيهم وجمع القمح عن البيادر ، لأن رجير سرعان ماعاد وحاصر حلب فاستنجد الحلبيون بالأمير ايلغازي بن ارتق أمير ماردين فلبى نداءهم بجيش قوامه سبعة آلاف تركي ، وشرع يهاجم الفرنج حتى كسرهم وقتل اميرهم رجير ، فانهزم الأفرنج الى انطاكية ، لكن الاتراك لحقوا بهم واحتلوا ضواحي انطاكية ، وقتلوا كثيرا من الرهبان في الجبل الاسود ، ولما علم بذلك ملك القدس بلدوين الثاني لحق بالاتراك ، كما لهم ثم فاجأهم وقتل منهم الكثير ، وعاد ادراجه يريد ايلغازي حيث استولى على كل ما غنمه وسلبه ، وأعاده الى انطاكية وقد ذكر البطريرك ميخائيل السرياني أن غازي بن دانشمند هو الذي كسر الافرنج ، وقتل رجيز ولعل تشابه الاسمين هو الذي أوقعه في هذا الخطأ .

وقعت في سنة ٥١٢ للعرب احداثا كثيرة فقد احتل أمير ملطية جيحان وابلستين وقلعة قطيعة ، وكذلك غزا الفرنج في شهر شباط بلدة ملطية وغزا الأتراك بلد جرجر ، كذلك غزا أمير ملطية بلدة قماح ، فتوجه صاحبها الى طرابزون واستنجد باليونان ، فأرسلوا

معه قائدا واسمه جيراس ، لكنه سرعان ماعتقل بعد مـا هـاجمه امير ملطية وبلك ، فدفع لهما ثلاثين الف دينار وعاد الى بلاده .

واستولى يوحنا ملك القسطنطينية على ثلاثة حصون من التـرك وغزا ايلغازي ضواحي أنطاكية وأشعل النار في غلال بلدة الرهـا ، وتولى الحكم ابن طغتكين صـاحب دمشـق بعـد مـوت أبيه إلا أنه سرعان مابطش به ألتنطاش التركي وتولى مكانه .

وفي عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) انقض دون موافقة الأمير زنكي الملك مسعود في الموصل على أخيه السلطان محمود فحشـد جيشـا وهـاجم أخاه ، إلا أن السلطان تمكن من القبض عليه وكبله بـالقيود وولى بدلا عنه بلاد الموصـل والجـزيرة وسـنجار ونصـيبين الأمير البرسقي .

وفي تلك الأيام أرسل ملك القسطنطينية اليوناني إلى ايلغازي بن أرتق قائلا : إن أعداد كبيرة من الفرنج تـوجهوا إلى سـورية عبـر البحر ، وعلينا أن نستعد لمقـاتلتهم وإذا احتجـت فإنني أسـتطيع إرسال ثلاثين ألف مقاتل نجدة لك ، فسارع ايلغازي وسـد الموانىء وسدد إلى الفرنجة ضربات شديدة فقتل معظمهم وهرب من تبقى إلى فروجية ، وكان ذلك مؤامرة من اليونان المراوغين .

وفي أطراف حصن زياد وبولا وملطيه كان أرمـن جـرجر يغيرون وينهبون ، فبعث بلك الأمير التركي إلى ميخـائيل الارمني صـاحب جرجر طالبا بأن يوقف أتباعه عن السلب ، مقابل تقديم كل عام ألف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه ، فأقسم له ميخائيل صاحب جرجر على الوفاء غير مرة لكنه كان يحنث بقسـمه دائمـا وبقـي أتبـاعه يسرقون ويحرقون القـرى في هنزيط،ممـا اضـطر بلك للعبـور إلى جوباس في شهر شباط على جليد الفرات،فقد كانت الثلوج متـراكمة في ذلك الشتاء القاسي،وعلى الرغم مـن ذلك اجتـاز جبـل قـــريونا الشاهق فقد أرسل ألفا من الخيول شقت الثلوج وسـارت وراءهـا الجيوش التركية .

ووصلت إلى دير برصوم خلال يوم واحد وقد شقت قوات بلك في جرجر جبل الجدار خلال الليل وهجموا على ملطيه في يوم الاثنين أول كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) وأسروا السكان واستولوا على الحيوانات،لكن بلك عاد فأشفق على الفلاحين المسيحيين فأعاد لهم أموالهم كلها ، ونقلهم إلى هنزيط وأصدر لهم أمرا أن لايعودوا ثانية إلى جرجر ، وأنه إذا وجدهم ثانية في تلك المناطق فإن عقابهم سيكون شديدا .

وفي عام ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢ م) أرسلت إلى بلدة الكرج جيوش تركية ضخمة من قبل السلطان محمود فأغلقت الثغور وأهلكت الكثير ، ثم غزا بلده جوباس الفرنجي.وفي هذا العام توفي الملك ايلغازي بن أرتق.وتزوج ابنة جوسلين رجير صاحب أنطاكية بعد وفاة زوجته ، وأراد أن يصطحبها معه إلى الرها ، لكن بلك نصب كمينا لها وقبضوا عليها وأخذوها إلى بولا.كذلك تنازل عن جرجر للملك بغدوين ميخائيل الأرمني بعدما تغلب عليه الأتراك واستولى على مكان آخر .

وفي العام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أتى إلى بغداد قاضي الموصل ابن الشهرزوري ودفع للخليفة خمسة آلاف دينار واحتل غربي دجلة كلها من حدود الموصل حتى البصرة .

« أسر بلك لملك بيت المقدس بلدوين »

بينما كان الافرنج مخيمين عند شواطيء نهر سنجة في عام ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) فاجأهم الأمير التركي بلك وتمكن من القبض على الملك بلدوين وكان ذلك يوم الأربعاء من أسبوع البياض ، واستعد القمصان جوسلين وغالران كل الصيف لمحاربة الاتراك وفي أيلول تلاقى الجيشان ، وأثناء الحرب تمكن بلك من الانتصار على الفرنج.وكان ذلك ليلة عيد الصليب واستطاع أن يأسر القمصان جوسلين وغالران حيث ألقى بهما في بئر مهجور مع الملك

- ٢٢٧٩ -

بقلعة خرتبرت ، وهي حصن زياد ولكن العمال الأرمن تمكنوا من دخول القلعة حينما تأكدوا بأنه لايوجد هناك إلا عدد قليل من الأتراك ، فقد تجمهروا أمام الباب محتجين على الأجرة التي يأخذونها ثم هجموا على الحراس وأخذوا السيوف وقتلوا الأتراك الذين في القلعة ، وانتشلوا الملك بلدوين وجوسلين وغالران من البئر ، وقضوا على العرب واحتلوا القلعة ، ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلا متنكرا بصحبة رجل أرمني ليأتي بجيش ويحتل القلعة لينقذ الملك بلدوين ، غير أنه ماكاد يخرج جوسلين حتى وصل بلك فضرب القلعة بالمنجنيقات واحتلها ، وقتل سبعين من الأرمن والفرنج ، وقاد بلدوين وابن أخته غالران إلى منبج وحاصرها إلا أن سهما أصابه من أعلى السور فقتله فهربت جيوشه إلى حلب وتولى ابن عمه تمرتاش بعده فباع الأسيرين بمائة الف دينار ، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد ذلك تولى حصن زياد سليمان نسيب بلك ، وتولى أميرملطية مسارا وجرجر ، وفي تلك الأيام ظهر في السماء شهاب امتد من الجنوب إلى الشمال ، وكان عرضه بعرض رقبة الحصان وقد ظل في السماء لمدة شهرين .

وقائع

١٤٣٥ ـ ١٤٤٦ يونانية / ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م

هجم الأمير غازي بن دانشمند صاحب سبسطية على ملطية في يوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤ م) فتمكن من اجتياح ضواحيها كلها ، ثم حاصرها لمدة شهر لكنه لم يستطع اخذها فترك حولها ، في قرية سامان ابنه محمدا مع جيش كبير ، وامره بمداومة حصارها وأن لايدع أحدا يدخل إليها أو يخرج منها ، وفي هذا الوقت كان أميرها المدعو عرب يغير على بلد دانشمند ويسرق وينهب .

وأدى حصار ملطية إلى تفاقم الجوع بين أهلها حتى وصل سعر قفيز الحنطة ، أي حمل الجحش إلى ستة وثلاثين دينارا ذهبا وانتهى القوت من المدينة فأخذ أهل ملطية يسلقون الجلود اللينة والأحذية وأغلفة الكتب ويأكلونها ، كذلك انقرضت من المدينة الحمير ، والقطط والكلاب وهكذا يكون قد نزل بملطية ثلاث نوازل أليمة نتيجة الحصار الذي وقع عليها . الجوع الذي يفتك بأهلها والسيف الذي يتسلط على رقبة كل من يخرج منها ، وايزابيل الثانية ، أم السلطان التي كانت قد أتت من الموصل لتسلب الناس مامعهم من ذهب ومقتنيات وتمضي ، لكن الرب لم يطل محنة المسيحيين وآلامهم ، فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها وكان ذلك في ليلة الأربعاء العاشر من كانون الأول ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ، وفي ذلك اليوم تساقطت نجوم من السماء ، و عندما دخل الأمير غازي ملطية ارتاع لما رأى الناس كأنهم خارجين من القبور لكثرة ما أصابهم من الجوع وأشفق عليهم ، ومنحهم الحبوب والحنطة ليزرعوها ، كذلك استحضر لهم البقر والأغنام والثيران ليعتاشوا منها وانتعشت أحوال السكان وعادت فازدهرت المدينة.

ذكر البطريرك ميخائيل السرياني : أن الخليفة المستظهر توفي هذا العام وخلفه المسترشد ابنه ، ولعله أخطأ في روايته بسبب الاختلاف بين السنين العربية القمرية والسنين اليونانية الشمية .

في سنة ١٤٣٧ يونانية (١١٢٦ م) قتل الافرنج صاحب حماة في كفرطاب ، واحتلوا جبله وضيقوا الخناق على صور بوساطة مراكب الفرنج القادمين من مدينة البندقية ، أضف إلى ذلك فقد أتى ملك بيت المقدس لمساندتهم فاستطاعوا أن يحتلوا صور بعد معارك طاحنة .

وفي هذا الوقت حشد الملك عرب جيشا وهاجم أخاه مسعود سلطان قونية لتحالفه مع ابن دانشمند فهرب السلطان مسعود إلى ملك اليونان يوحنا في القسطنطينية ، فرحب به يوحنا وزوده بجيش كبير ، ومال وذهب وقصد غازي ، ثم سار الجيشان إلى عرب ، وحدثت معركة انهزم فيها عرب وهرب إلى بلد قورس الأرمني أمير قيليقية ، وفي عام ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) هجم على أق سنقر البرسقي أمير الموصل عشرة من الاسماعيلية وطعنوه وهو يصلي في مسجد الموصل القديم لكنه نهض وتمكن من قتل ثلاثة منهم قبل أن يموت ، وخلفه ابنه عز الدين مسعود على الموصل وجزيرة قردو والجزيرة وحلب وحماة وغيرها ودامت ولايته سنة واحدة ثم توفي ، فخلفه أخوه الصغير ، وكان يساعده الأمير جاولي ، وكان من غلمان أبيه البرسقي ، وبعد ذلك أرسل جاولي قاضي الموصل أبا الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين الياغسياني بمثابة رسولين إلى السلطان في بغداد ليؤيد ابن البرسقي الصغير في الولاية،غير أنهما قالا للسلطان : إن الموصل تحتاج إلى رجل قوي يستطيع مقارعة الأفرنج الذين هزموا العرب جميعا.

وقصدا بالقول : أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، الذي كان شحنه في واسط وبغداد فوافق السلطان وحمله فرمانا بذلك وأرسله إلى تلك المدينة ، وحين مروره في بيت وازيق احتلها ، وعند بلوغه الموصل ولى صلاح الدين الياغسياني أمر حراسة القلعة .

وأرسل جاولي إلى الرحبة،وكلف ابـن شـهرزوري قـاضيا على الموصل وماتلاها يرثه في القضاء نسله من بعده على طول الزمـن . وتولى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص ، وانهزم عرب ولحق به غازي واستولى على خيامـه ، ثـم انطلق إلى قومانة وانقرة وحاصرها شـديدا في عام ١٤٣٨ يونانية (١١٢٧ م) واحتلها واستطاع أن ينقذ محمـد ابنه الذي كان قـد حبسه عرب هناك . ثم حشد عرب جيشا للمرة الثانية وزحـف يريد غازي فانكسر وفر هاربا إلى بلاد اليونان ، ثم ضاعت أخبـاره ولم نعد نسمع عنه شيئا . ثم أتى من رومية بـوهيموند بـن بـوهيموند الفرنجي إلى انطاكية عام ١٤٣٨ يونانية وتولى مقاليد الأمور فيها، ثم نشب خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضـواحي أنطـاكية ممـا سبب غضـب بـطريركهم عليه ، وأغلق الكنائس وأمـر بإيقـاف الصلوات وقرع النواقيس حتى يرد جوسلين جميع الغنائم .

وفي عام ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨ م) صمم الحلبيون أن يدفعوا لجوسلين كل عام إثني عشر ألف دينار شرط أن لايضـيق عليهـم ، واتفق بعض أتراك حلب مع فريق من طباخي الفرنج بـأن يعـطوهم ذهبا مقابل أن يسقوا جوسلين وستة من فرسانه سما مما أدى إلى القضاء على حياة الستة إلا جوسلين فقد تمكن الأطباء من معالجته حتى شفي وبعدها قضى على الذين سقوه السـم وفتـك بعـائلاتهم وأولادهم جميعا.

في تلك السـنة غزا طغـرل أرسـلان أطـرا فـ ملطية الخارجية وكانت قد انتزعت مـن يده . لكن بعـد ذلك عاد أدراجـه وضاعت أخباره ولم نعد نسـمع عنه شـيئا ، ثـم غزا جـوسلين التركمان والأكراد عام ١٤٤٠ لليونان ووصل إلى آمد ، وفي السـنة نفسها علم زنكي أن السلطان يريد أن ينصب دبيس زعيم المعـديين أميرا عوضا عنه في الموصل،فذهب زنكي إلى بغداد وأخذ يتـودد إلى السلطان و قدم له مائة ألف دينار وكذلك قدم للخليفـة هـدايا ثمينة جدا ليبقيه في مكانه ، وكانت قد جرت بين الخليفة ودبيس خـلافات

كثيرة ووقائع كبيرة ، فقد انضم دبيس إلى السلطان منذ البداية ، وأخذ بازدراء الخليفة فتسرع يركب إلى بغداد مطمئنا محتقرا الخليفة ، كذلك ولما مرض السلطان مزق دبيس ابنه الصغير وانهزم ، ثم توجه وغزا الكوفة والبصرة والحلة ، وجمع ذهبا كثيرا وضم إليه عشرة آلاف فارس ، ولذلك كون جيشا خاصا به ، وهناك أمثلة كثيرة على مكر دبيس لايسع هذا المؤلف السرد فيها ، وقيل إنه خلال عراك جرى بين الخليفة ودبيس انكسر دبيس مع أصحابه إلا أنه استطاع أن ينجو على حصانه وعبر الفرات،فرأته عجوز وقالت له : هل حضرت يادبير ؟ أعني ياتاعس الحظ ، وما كان منه إلا أن تبسم ، ولم يصرخ في وجهها وقال لها : إن التاعس الحظ هو من يتغيب ولايحضر.

وفي هذه السنة اندلعت حرب طاحنة بين الفرنج والاسماعيلية فاجتاح عشرة آلاف من الفرنج الحصون الكثيرة التي كانت بيد الاسماعيلية في فينيقية .

وأصبحت قلوب عرب سورية مليئة بالرعب من الفرنج الذين سيطروا على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. واستخدموا سياسته التضييق على دمشق وارغموا الأهالي على دفع جزية في السنة قدرها عشرين ألف دينار ، ثم أحصوا كل مافي دمشق من العبيد النصارى ونقلوا كل من رفض الاقامة مع العرب دون ان يعطوا اثمانهم لمواليهم ، وكانوا يأخذون نصف الغلات من حلب حتى من الرحى التي على باب الجنان ، ووصلت جيوش الفرنج الى نصيبين ورأس العين،وصارت حياة أهالي الرقة وحران شاقة للغاية، وأصبح من الصعب على العرب السفر من المشرق الى دمشق الا عن طريق البادية .

وفي عام ١٤٤١ لليونان (١١٣٠م) تولى لاون أمر قيليقية بعد وفاة أخوه تورس ، وزاحمه بوهيموند صاحب انطاكية ، وفي هذه

السنة عينها وهي ٥٢٤ هـ ، في الثامن من آذار حـدث زلزال قـوي وعنيف في بغداد فهدم كثيرا من المساكن والبيوت كذلك غطت الموصل سحابة كثيفة ، وهطل مطر غزير ، ثم بدأت تتساقط جمـرات نارية هائلة من السماء ، فأحرقت وخـربت بيوتـا كثيرة مـع أثـاثها ومحتوياتها .

وفي هذا العام تـوجه الزعيم اليوناني قسـيانس يريد غازي بـن دانشمند فسلمه كثيرا مـن الحصـون في بـلاد البنطس ، وتـولى كبدوكية بأجمعها ، ثم حشـد غازي جيوشـا كبيرة وزحـف لغـزو قيليقية ، وصدف أن دخلها بوهيموند أمير انطاكية من ناحية أخرى دون أن يعلم أحدهما بالآخر، وأمام هذا حدثت معـركة طـاحنة بين الأتراك والأفرنج ، بينما ظل لاون الأرمني قابعا ينتظر نتيجة صراع الخصـمين ، وكانت نتيجـة المعـركة أن انتصر الأتـراك وقتلوا بوهيموند ، دون أن يعرفوا أنه الملك ، وللحـال تحـرك لاون فسـد الثغور في وجه الأتراك ، وهاجمهم وقتل كثيرا منهم .

وفي عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠) م هـاجم صـاحب دمشـق دبيس المعـدي واسره ، وأرسـله الى زنكي أمير الموصـل ، فقـام زنكي بالمقابل بإرسال ابن دبيس الذي كان أسيرا لديه .

وفي عام ١٤٤٢ لليونان (١١٣١ م) قدم ملك بيت المقـدس الى أنطاكية ، وكذلك اتاها جوسلين مـن الرهـا ، فمـا كان مـن الأنطاكيين الا ان اغلقوا الأبواب في وجههما حتى أبرما قسما أن تبقى مدينة أنطاكية لابنة بوهيموند حتى تكبر وتتزوج فيصبح زوجها خلفا لوالدها .

ثم استطاع غازي بن دانشمند أن يدخـل قيليقية ويسـتولي على بعض الحصون ، عندئذ اقسم له لاون الأرمني أن يمنع لصوصه مـن الاغارة والسطو على بلده ، وكذلك أن يؤدي له الجزية كل سنة لكنه أخلف في قسمه ثانية ، ولم يدفع شيئا ، ثم توجه اسحق أخـو ملك

اليونان الى قيليقية وزف ابنته الى لاون وأعطـاه المصـيصة واذنه عوضا عن مهرها ، لكن مالبث أن نشب خلاف بينهما فهرب اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية .

وفي هذه السنة توفي جـوسلين ؛ وخلفـه على الرهـا جـوسلين الثاني ، وكذلك رحل السلطان يريد الصلح ، فشرع يستعطفه حتـى حمل له السرج ، عندئذ تعانقا فولاه شؤون البلاد والعسـاكر ، ثـم توجه الى همذان وتـوفي هناك عن عمـر يقـارب الثـامنة والعشرين ، فحدث خلاف بين داود ابـن السـلطان محمـود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرك ، وكان طغرك مع عمهم الملك سـنجر فأرسل الثـلاثة الى الخليفـة كل منهـم يطلب ان يكون هـو السلطان ، فاختار الخليفـة في البـداية سـنجر لأن طغـرل كان معه ، وأرسل يقول للبقية من يقبل به ويقدم له كتاب الطاعة فسوف استقبله أنا ، ثم كتب الى سنجر يقـول : أننا لن نقبـل بغيرك ولن نسمح لأحد غيرك ، وحين وصلت الى مسعود رسالة الخليفة توجه الى زنكي في الموصل يطلب منه مالا ليبعثه للخليفـة مـع دبيس زعيم المعديين، وبذلك يكون قد اسدى جميلا له،فوافق زنكي وقال : أعطيك خمسين ألف دينار ذهبا ، وكل ماتريد من جوار وخيل ، لكنه رفض ان يسلم دبيس قائلا : ان السـلطان سـنجر نهـاني عن ذلك وأنا لاأستطيع مخالفته ، فخامر الشك مسـعود وخـرج فسـكن غربـي الموصل ، فأغلق زنكي أبواب المدينة لكن الناس لم يعودوا يستطيعوا العيش ضمن هذا الحصار خاصة بعد أن تحصن هو في القلعة ، أما مسعود فقد ذهب الى بغداد ولم يهاجم الموصل وأرسل الى الخليفـة يقول : ان خطبتم بـاسمي فسـأكون لكم طـائعا وصـديقا ، وان رفضتم ذلك فليس لكم عندي الا السيف ، فـاشتبك للحـال عسـكر بغداد مع عسكر مسعود ، وفي معمعان المعركة وصلت أخبـار بـأن سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة ، فانتشر الرعب في نفوسهم وفي نفوس البغداديين ، ورأى الخليفة بـأن مسـعود أقـوى مـن سنجر ، فتحالف الخليفـة معـه وأسـكنه في القصر الملكي واتفـق

الجميع على محاربة سنجر ، فتوجه سنجر الى همذان واحتلها ونادى باسم طغرل بن محمود .

وفي عام ٥٢٦ هـ (١١٣١م) توجه كذلك مسعود قائد جيوش الخليفة الى همذان مطاردا سنجر وبعث الى الخليفة ليشارك في المعركة بنفسه ، وماأن استعد الخليفة للرحيل حتى وصل خبر أن زنكي ودبيس المعدي قد اتفقا أن يذهبا الى بغداد فرجع الخليفة وتصدى لهما في ألفي رجل ، وهزمهما ففر زنكي الى تكريت ودبيس الى الفرات ، وماكان من زنكي الا أن بعث بالقاضي ابن الشهرزوري الى الخليفة طالبا منه المغفرة وينتظر أمره ليذهب اليه ويتولى بغداد قبل سنجر ، فرد عليه الخليفة قائلا : إن سنجر ليس له سلطنة عندنا ، واذا أراد زنكي ان يصالحنا فعليه ان يسلمنا دبيس ويبقى هو في الموصل ، والا فنحن زاحفون اليه .

وفي بداية سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢م) دخل السلطان مسعود الى بغداد فنودي باسمه واسم سنجر واسم داود معا سلاطين بعد الخليفة وابنه ، ثم زحف الخليفة المسترشد وحاصر الموصل ثمانين يوما ، فأبت عليه فبلغه خبر بأن السلطان مسعود قادم اليه ، فترك الموصل وفر هاربا الى بغداد ، واحتل جوسلين الثاني قلعة شبكتان وهدمها الى الأرض ، وتوجه يوحنا ملك اليونان واحتل حصن قسطمونة منتزعا اياه من الأتراك صلحا ، ثم أنه احتل حصنين أخرين عنوة ، كذلك ملك ملك بيت المقدس الفرنجي قلعة القصير قرب انطاكية بالقوة ، وزحف الى عم (٤) ، فاحتشد الاتراك هناك بالالاف كالجراد ليقاتلوا الفرنج ، وفي البداية انهزم الفرنج لكنهم استدرجوا الأتراك الى البقاع وهناك التقى الجيشان وحدثت معركة تلقى فيها الاتراك ضربة قاضية حتى المساء ، وكان هذا عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤)م ، وفي تلك السنة زحف على الرها الجراد فاستنجد المسيحيون بالصفي برصوم (٥) فأحضروا صندوق رفاته ، فارتحل الجراد عنهم ولم يؤذ البلد مما ادى الى سخط الروم فحرضوا بيبوس مطران الفرنج أن يأمر بفتح صندوق رفاته ، لكن

الرهبان رفضوا طلب مطران الفرنج أول الأمر،إلا أنهم رضخوا في النهاية واضطروا أن يفتحوه في بيعة الفرنج لأن الفرنج سخروا منهم وقالوا: إن هذا الصندوق فارغ ولايحتوي شيئا ، وعند فتحه حدثت تبدلات في الجو فتلبدت السماء بغيوم سوداء ، وسقط برد قتال ملأ الشوارع فتصاعدت الأصوات من كل جهة تطلب النجدة وتقول ارحمنا يا صفي الله ، اما اليونان فقد انهزموا،وبعد أن انقطع البرد اجتمع الأهالي ودامت صلاتهم ثلاثة أيام ، وحين شاهد العرب الحرانيون هذه الأعجوبة طالبوا بنقل الرفاة ليكون في عهدتهم ، لكن الفرنج رفضوا وروده الى الدير بكل احترام وتقدير ،-ثم نقله الملطيون اليهم بالصلوات والتراتيل ، أما الجراد فلم يستطع أن يأكل الزرع ، وكأن يدا قد لجمت فمه ، وفي ٢٣ ايلول سقطت صاعقه من السماء فاحرقت سبعة ثيران وولدا ، كذلك أحرقت صبيا آخر في سمندو ،وحدثت زلزلة عنيفه في ملطيه وسقط ثلج أحمر،وبعدها في عام ١٤٤٦ لليونان زفت بنت بوهيموند صاحب أنطاكية الى ريموند دي فوترس الذي قدم من أنطاكية وتولى أمارتها،وفي السنة نفسها توفي بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وزفت ابنته الى فلك ، فخلفه في مكانه ، وأيضا أرسل في هذا العام زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغداد وأعطاه مفاتيح المدينة وبعض نسائه كودائع ، وأقسم أن يكون طائعا ، فنال بذلك الرضى ، وبعدها اصطلح الخليفة والسلطان سنجر ، فبعث الخليفة له تاجا وطوقا وحصانا بنعلين ذهبيين،فما كان من سنجر إلا أن نهض وقبل حوافر الحصان ، وقدم الطاعة للخليفة وفي السنة عينها خرج ابن جبارا جاثليق النساطرة (١١٣٣ ـ ١١٣٥ م) الى الحديقة اثناء الليل فوطيء على حيه لدغته فمات ، وقيل أنه مات رعبا وأن الحية لم تلدغه ، وفي السنة ذاتها أطلق الخليفة على الأمير غازي بن دانشمند اسم الملك غازي حيث أرسل له طوقا ذهبيا للدلالة على العبودية ، وصولجانا وأربعه بنود سوداء وطبولا تدق امامه ، وحين وصول السفراء كان الملك غازي مريضا وما لبث أن توفي،فعينوا ابنه محمدا خليفة له ورجعوا.

الأحداث التى جرت في عهد محمد بـــن الأمير غازي ابن دانشمند

وفي عهد محمد هذا قامت أحداث كثيرة حيث أعاد بناء قيســاريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت وجعلها عاصـــمة له ، ثــم تــوجه الى ملطيه حيث كان خائفا من اتفاق الزعماء مع أخيه بياجان فحمل معه الهدايا لكنه ما لبث أن غدر بأخيه وقتله،كذلك غزا أخوه الثاني دولت بلدة ملطيه ، وحدث في الشهر السابع أن ألغى الخليفــة المســترشد الخطبة باسم السلطان مسعود ، وأرسل جيشا يتألف مــن ســبعة آلاف جندي لمقاتلته ، وكان قد بلغه أن جيش السلطان يتــألف مــن ألف وخمسمائة عسكري فقط ، لكن ما لبث أن أصبح جيش الخليفه خمســة آلاف عســكري ، وغدا جيش الســـلطان خمســـة عشر ألفا ، فانهزم الخليفه واعتقل هو ذاته ونهب ما كان معه من أعتــدة ومتاع وثروات ، لقد نهب منه ســـبعون حمـــل بغـــل ذهبـــا وفضه ، وخمسة آلاف حمل جمل وأربعمائه حمل بغل أقمشة وثيابا مفصله ومخاطه وغير ذلك،وأمر بعد ذلك مسعود المنادي أن ينادي في صفوف الجيش بأن الأموال والأمتعة لكم والدماء لي ، وأن من قتل رجلا قتلت عوضا عنه ولذلك لم يقتــل ســوى خمســة اشـــخاص فقط ، كذلك نادى المنادي أن من يبقــى هنا مــن حــزب الخليفــة يقتل ، فما كان من البغداديين إلا أن فروا وهربوا عراة حفــاة هنا وهناك ، وأرغم السلطان مسعود الخليفه بأن يكتب كتابا يقــول فيه للبغداديين بأنه في أمان وأنه ســوف يعــود اليهـــم قـــريبا ، لكن البغداديين لم يصدقوا وأيقنوا أن الخليفة كتب هذا خوفا ، فما كان منهم إلا أن ثاروا وأثناء ذلك قتل نحو مائه وخمسين من العامة،ثــم هدأت فورة غضبهم تلقائيا .

وفي هذه الأحداث أخذت الزلازل تهز أرض بغداد تكرارا وكل يوم خمس أو ست مرات ، فأرسل السلطان سنجر الى السلطان مسعود

سفيرا يحمل رسالتين الأولى سريه مضمونها كان سبا وشــتما لأنه لم يقتل الخليفه أثناء المعركة ، أما الثانية مفتوحه وتقــول اذا رأيت هذه السطور يا بني غياث الدنيا والدين مســعود فــاذهب الى أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه ، واطلب منه المغفره على ذنبك ، وأنا لا يسعني الصبر على ما تراه عيني مما يحدثه الله ســبحانه وتعــالى بسبب ذلك من رياح وصواعق وبروق وغير ذلك ، وقد حزن العــرب قاطبه وأغلقت المســاجد والغيت الصــلوات في بــلاد العجــم وشنعار ، فأرجع الخليفه الى ما كان عليه والى مكانه بــاكرام دون تعلل ، وسلمه دبيس ليفعل بــه مــا يشــاء لأنه ســبب كل تلك الفتن ، ولما رأى مسعود ذلك أصــدر أمــرا فنصــبوا خيامــا كبرى ، وأقاموا الخليفه هناك وحملوا أمامه الأغطيه نحــو نصــف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى ، وطلب المغفــرة منه على ذنبه ، واعطاه دبيس مربوطا ، وقدم معه سيف وكفن قائلا إن هذا سبب كل المصائب فافعل بــه مــا شــئت عقــابا على جرائمه ، لكن الخليفة أدرك أن هذه الكلمات نابعة من الفــم لا مــن القلب ، فعفا عن دبيس ، فأمر السلطان مسعود الخليفة بأن يذهــب إلى بغداد ، لكن الخليفــة رفض وقــال له : لن أذهــب إن لم تــأت معي ، فقال مسعود : سأرسل معك امراء يحيطون بك فتدخل بــكل احترام واجلال الى دارك ، لكن الخليفه خاف أن يضعوا له كمينا في الطريق ويتخلصوا منه إذ لايسعهم أن يصنعوا هــذا علانية بإمــام دينهم ، وقدر مسعود أن يتــوجه الى اذربيجــان ليقــاتل ابــن اخيه داود ، وذهب معه الخليفة ، لكن سنجر بعث وفودا الى مسعود الى مراغه وهو عند بابها ، وبعــث له بــأن يرد الخليفــه الى بغــداد بسرعه ، وكان من جملة هــذه الوفــود ســبعة عشر مــن الاسماعيليه ، وفي يوم الخميس عام ٥٢٩ هـ (١٣٣٤ م) هــاجم الاسماعيلية خيمه الخليفه ، وكان يقــرأ في القــرآن وأجهــزوا عليه وعلى ثلاثة من خدمه بالسكاكين ، فما كان من مسعود إلا أن أحاط بالخيام وفتك بالقتله ، وقيل في هذه الواقعه إن ســنجر لم يكن لديه علم بالاسماعيلية ، لكن الحقيقة هو الذي أرسلهم دون علم مسعود.

- ٢٢٩٠ -

الخليفة الراشد

كانت مدة حكمه سنة فقط ، فبعد مقتل أبيه الخليفه المسترشد ، أمر السلطان سنجر قضاة بغداد وأقطابها أن يبايعوه بالخلافه مكان ابيه ، فأنصاعوا للأمر.

مقتل دبيس بن صدقة

في هذا الوقت تآمر دبيس بن صدقة وغدر بالسلطان مسعود ، حيث كتب الى زنكي قائلا : انني أتلهف لآتي اليك وأحشد جيشا ضخما من المعديين عدد بعدد رمال شاطىء البحر ، ثم نتحد سويا ونعمل ضد مسعود عملا تذكره الأجيال القادمه ، وقد شاءت الاقدار أن يعتقل الرسول حامل الرسالة ، فوقعت الرسالة بيد مسعود دون أن يعلم دبيس بذلك.

ولما اجتمع الاقطاب مع مسعود ، سقاهم كعادته ماء السكر ، ثم اشار على دبيس أن يبقى بعد ذهاب الجماعه قائلا : هناك موضوع خاص وسري أريد أن نتحادث فيه ، فذهب مسعود الى الخيمة الداخلية وأعطى الرساله الى عبد أرمني يحمل سيفا قائلا :أعطها لدبيس ، وعندما يبدأ بقراءتها اضربه من ورائه واقطع رأسه ، فلما ذهب العبد شاهد دبيس يضرب الأرض باصبعه ويقول : إن الموت خير من حياة بهذه الحالة من الاضطراب ، فأعطاه الرسالة ، وعندما بدأ يقرأها ، فاجأه العبد بضربة فلقت رأسه عن هامته ، وهكذا انتهت حياة هذا المراوغ ، وقد تم قتله بعد مضي خمسة وثلاثين يوما على قتل خصمه الخليفة المسترشد.

نهاية ميخائيل الأرمني

في السنة ١٤٤٧ يونانية (١١٣٦ م) و ٥٣٠ هـ نكث ميخائيل الأرمني بوعده للفرنج ، فقد كان قد باعهم منذ أيام بلك قلعة جرجر ، لكنه عاد الآن وشرع يغزو مناطقهم ، فأدركه الأتراك يوما على ساحل الفرات عند قرية كور زيزونا ، فحاصروه من جميع الجهات ، ولم يستطع الخلاص فألقى بنفسه في النهر ، وكان يلبس درعا حديديا ، فغرق في الماء ، لكنه ما لبث أن عاد فطفا وهرب الى الضفه الثانية ، واستطاع أن يفلت من الأتراك ، وقيل أنه لم يلق من يده المجن أثناء ذلك ، بعد هذا تخلى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر ، وأخذ عوضا عنها مكانا يسمى سفرس ، ثم قام باسيل أخو جاثليق الأرمن فاشتراها من جوسلين ، لكن ميخائيل عاد فحشد عسكره وزحف إلى كيسوم ونهب ضواحيها ، فنصب الفرنج له كمينا فأسروه وقتلوه ، وبعد ذلك توجه باسيل إلى قيليقية فتزوج أخت لاون ، ثم جمع عددا من الأرمن وأسرع يتحرش بالفرنج في منطقة فرزمان ، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئا ، بل بالعكس قتل العديد من جماعته .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اجتاحت آمد موجة من البرد القارس فالتجأت إلى المدن الطيور الجبلية كالحجل وغيره ، وكذلك حيوانات البراري كالغزال ، فأصدر الحاكم أمرا أن لايتعرض لها أحد من الأهالي ، فأخذوا يقدمون لها الطعام حتى حلول شهر نيسان ، ثم أطلقوها ، وقد قيل إن هذه الطيور والحيوانات شرعت منذ بداية الخريف تلتجيء إلى الكهوف والمغاور وكأنها شعرت مسبقا بقدوم البرد مما يدل أن الله تعالى قد علم الحيوانات التنبؤ بالحوادث الطبيعية قبل وقوعها .

نهاية الخليفة الراشد بالله

وفي هذا العام أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة الراشد رسولا يطالبه بمبلغ قدره ثلاثمائة ألف دينار كان قد سلف ووعده بها والده المسترشد يوم كان عنده ، وثــلاثمائة ألف دينار غيرهــا يجــب أن يجبيها من البغداديين مساعدة له ويضم إليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة .

فتنادى الخليفة للاجتماع بمستشاريه وبعد تداول طويل قرروا أن يجهز الخليفة جيشا ويتوجه لمحاربة مسعود ، ففتح الخليفة خزائنه واستخدم مافيها من الذهب وشرع في تجهيز الجيش ، ثم اســتدعى الرسول وعنفه قائلا : كان وعد أبي بالذهب لأجــل نجــاته ، لكنكم قتلتموه ، وأما الآن فيتوجب علي الانتقام ، ومن الآن فصاعدا ليس لكم عندي إلا السيف ، فرجع الرسول مسرعا ، وبدأ الخليفة في بناء الأسوار ، وترميم الأبراج ، وعندما انتشر الخبر بــدأت النجــدات تأتي إلى الخليفة ، فأقبل زنكي أمير الموصــل ، وداود ابــن أخــي السلطان مسعود .

وحاول الخليفة أن يلغي الخطبة بــاسم الســلطان مســعود وأن يخــطب بــاسم داود ، لكن زنكي رفض ذلك وقــال : لاتتحــــرشوا بمسعود ، بل قولوا لداود أن يذهب ويستشر عمه فإن وافق خــطبنا باسمه ، لكن الخليفة رفض اقتراح زنكي ، وألغــى الخــطبة بــاسم مسعود ، وخطب باسم داود سلطانا ، فبادره مسعود بالقول : لقــد أصبحنا بغنى عنك وقد أقمنا خليفة مــوافقا لنا مــن ســلالة علي ، فابحث لك عن مكان آخر وارحل إلى حيث شئت ، فــأرسل الخليفــة إلى بهروز أمير تكريت قائلا إنني قادم إليك لأتحصــن في قلعتــك ، فأجابه بهروز : أنا عبد مسعود ولا أستطيع أن أقول له لا إذا طلبــك مني ، حينئذ لم يعد أمام الخليفة سوى محاربة مســعود ، فنصــب

خيامه عند مشارف بغداد ، وأبقى عنده زنكي وبقية الأقطاب ، لكن سرعان ما ورد خبر يقول : إن مسعود قادم في جيوش كثيرة ، عندئذ قال زنكي لمستشاري الخليفة وأقطابه : هذا ماجرى بسبب مشورتكم فلم يستفد لاهو ولا أنتم شيئا ، قولوا الآن هل أنتم مستعدون لمحاربة مسعود ؟ أريد أن أعرف وإلا فليعد كل منا من حيث أتى ،ولنكف عن هذه الحرب ، وليكتف كل منا بما لديه ، وعندئذ شرع كل واحد يحملق في وجه زميله ، فتحقق زنكي من خداعهم وأخبر الخليفة بذلك ، ثم تركهم زنكي وعاد إلى الموصل ، فنهضوا جميعا ودخلوا المدينة ، ونصبوا خيامهم داخل سورها ، ورأى الخليفة أن يذهب بصحبة زنكي إلى الموصل ، فدخل مسعود بغداد وأحسن إلى أهلها ، وصان بيوتها من أي ابتزاز أو نهب ، ثم جمع الأقطاب ، وعرض عليهم كتابا مكتوبا بخط الراشد يقول فيه : يوم أحشد الجيوش لمحاربة أمير من أمراء السلطان مسعود أصبح مخلوعا من الخلافة ، وكان موجودا بين الحاضرين ثلاثة شهود ممن وقعوا على تلك الوثيقة ، لذلك خلعوا الخليفة الراشد شرعا ، ثم بدأوا يذيعون التهم ضده ، وكان من جملة ماقالوه ، إنه خرق حرمة جواري أبيه ، وعاقر الخمرة ، وأعرض عن الصلوات وسفك دماء بريئة ، وتمادى في الظلم الخ .

أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

دام حكمه أربعا وعشرين سنة وشهرين،فبعد أن تم خلع الراشد استدعى السلطان الوزير شرف الدين الزينبي وأمره أن يعمل على اختيار خليفة جديد ، فاختار المقتفي ، وهم عم الخليفة المعزول ، وقد اختاره الوزير لأنه صهره ، أي زوج ابنته ، وأحضر المقتفي إلى بلاط السلطان مسعود وثبتوا خلافته بعدما تعهد أن يدفع إلى السلطان مائة وعشرين ألف دينار ، وكانت خزانة الخليفة عند مبايعته فارغة تماما ، لكن كان المقتفي يملك شخصيا قبل خلافته عشرة آلاف دينار غير أنه انفقها كلها في حفلة مبايعته ، وقد ألغيت بعد استلام المقتفي الخطبة للراشد وللسلطان داود معا ، وصارت

للمقتفي وللسلطان مسعود ، وقيل إن السلطان مسعود حين غادر البلاط استدعى الوزير الزينبي وقال له معاتبا :

لقد أسأت بانتخابك رجلا كامل السن عاقلا ، فلو انتخبت فتى وربيته لبقي ينظر إليك نظرة امتنان وشكر ، بالتالي سيصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك فترةِ طويلة ريثما يبلغ الرشد ، والآن كن على ثقة أن عهد وزارتك لن يطول مع من اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

وفي عام ٥٣١ للعرب (١١٣٦ م) أرسل ابن دانشمند صاحب ملطية رسولا إلى السلطان مسعود في بغداد متوسلا ليعيده إلى منصبه ، ولما رافقوا الرسول ليقبل الاعتاب كالعادة رفض قائلا ، لن اقبل أعتاب دار طرد منها صاحبها .

بين زنكي والخليفة المقتفي

في هذه الفترة حشد زنكي جيشا ، وزحف إلى تكريت وبدأ يناوش السلطان مسعود،ثم انقلب إلى الموصل فأرسل إليه المقتفي يعده بعشرة مدن مشهورة إذا ماكف عن مساندة الراشد ، فقال زنكي : لقد حلفت أن لاأسلمه إليكم ، ولكن إذا أعطيتموني تلك الأماكن أعلنت الخطبة باسمكم وتوقفت عن مساندته ، إنما سوف أبقيه في عهدتي ، فأعطاه الخليفة عشرة أماكن وكان منها حربي وحاصيره وصاريفين والحلة وغيرها ، وخطب زنكي للمقتفي وللسلطان مسعود وأبقى الراشد عنده قابعا في دار الذهب بمدينة الموصل.

وفي تلك الأثناء كانت عجوز تخدم بيت تاجر قرب باب الأزج ببغداد ، وسافر التاجر لعمل وظلت امرأته وابنته والعجوز برفقتهما في البيت ، فاتفقت هذه العجوز الشمطاء مع ابنها وبعض اللصوص ، فأقبلوا ليلا وسرقوا كل مافي الدار ، ولما خرجوا قالت زوجة التاجر : للعجوز نشكر الله الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا

الصندوق ، فسمع اللصوص فرجعوا وفتحـوه فـوجدوا فيه أربعـة آلاف دينار ، وأحجار كريمة ولآلىء ، فأخذوها وانصرفوا .

وفي هذه السنة اشتبك مسعود وداود فهزم مسعود وقتـل العـديد من رجاله .

وفي عام ١٤٤٨ يونانية (١١٣٧ م) زحـف يوحنا ملك اليونان إلى قليقية غاضبا على لاون الارمني فاستولى على طـرسوس وأذنة والمصيصة وقبض على لاون وعلى زوجته وأولادهمـا ونفـاهم إلى القسطنطينية ، ثم زحف بعد ذلك إلى انطاكية فلم يستطع الاستيلاء عليها ثم أتى إليه جوسلين واتفقا على أن يعطيه الافـرنج انطـاكية ويجتاح هو حلب وسورية ، ثم يعطيها إلى الافرنج ، ثم زحفا معـا إلى حلب واحتلا بزاعا ثم تركا جيشا يحاصر شيزر .

وفي هذا الوقت زحف مسعود سلطان قونية إلى قيليقية فـاجتاح أذنة وساق أهلها جميعا مع أسقفهم إلى ملطيه ، وعندما علم يوحنا بذلك أحرق المنجنيقات وارتد إلى قيليقيه حيث عقد هدنة مع مسـعود ورجع إلى عاصمته .

أما محمود صاحب ملطيه فقد طـرد أخـاه دولت ونزع منه ولاية ابلستين وجيحان ، وسـار دولت الى هنزيط ، ثـم الى آمـد وزار جوسلين ، ثم أخذ يطوف بالبيوت واحدا واحدا .

وفي هذا الوقت ظهـر الأمير عيسى صـاحب سـويرك (٦) وكان متفاهما مع بوغوص الأرمني الذي سـار إلى بغـداد ودخـل في دين الاسلام ، فحشد الجند وانطلق إلى جرجر ليسـتولي عليهـا ، لكنه وجدها خرابا فزحف إلى الأديرة والصوامع فـانقض على دير مـار ابحاي المعروف بدير السلالم (٧) فلم يتمكن من الوصول إليه من ناحية شاطىء الفرات فتسلقوا الجبل الصخري حيث هبط رجاله من هناك،فهرب الرهبان فاستولى على الدير وعلى مـافيه مـن أمتعـة وكؤوس وأطباق فضـية وصـلبان ، ونزع قناة الماء التـي كان قـد

وضعها البطريرك يوحنا بن عبدون (١٠٠٤ ـ ١٠٣٠ م) ، وارسل الربان داوود الناسك إلى دير شيرا،ولم ينج من شره سوى دير ابي غالب المعروف بدير مائدة الملوك،الواقع في أحواز مدينة آمد .

وفاة الراشد الخليفة المعزول

وفي عام ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة المعزول من الموصل إلى خراسان للاجتماع بالسلطان داود ، فاتفق الاثنان ثم زحفا بجيشهما إلى همذان وانتزعاها من سيطرة السلطان مسعود ، ثم توجه الراشد بعد ذلك إلى أصفهان لكن سرعان ماألم به داء ألزمه فراشه ، وانقض عليه وهو طريح الفراش أربعة خراسانيين وقتلوه ، وقد قيل لولم يقتله هؤلاء الخراسانيون لعاجلته المنية بسبب الداء الذي أصابه ، وقد قيل إنه سقي السم ثلاث مرات ، وقد دفن بباب أصفهان حيث صرع ، وكان والده قد قتل كذلك عند باب مراغه .

وعندما كان الاتراك يحاصرون الرها ١٤٤٩ يونانية (١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وتوجهوا من سميساط لنقل المؤونة إلى الرهاويين ، فكمن لهم تمرتاش صاحب ماردين وقتل العديد من المسيحيين وأسر البقية وساقهم عبيدا ، وكان بين الأسرى الشماس أبو سعد الطبيب الفيلسوف ، وميخائيل ابن شومنا وابنه واستولى تمرتاش كذلك على قلعة كسوس من الفرنج كذلك دخل مسعود سلطان قونية بلد كيسوم وغزاها وأحرق القرى المحيطة بها .

وفي الشهر الثاني من سنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدث زلزال عنيف في غزنة ببلاد العجم فقتل مائتين وثلاثين ألف نسمة ، وهدم المدينة برمتها ، ونبعت من أرضها مياه سوداء وخرج الذين نجوا من الكارثة إلى المقابر حيث اقاموا فيها يندبون أهاليهم .

وفي سنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطيه إلى قليقية واحتل حصن هاجاي وحصن جينوفرت وسار إلى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطش فغزاها وباع أهلها جميعا عبيدا . وفي السنة التالية انشقت أرض الرقة وابتلعت أربعين فارسا مع خيولهم ، ولم ينج سوى واحد منهم كان يتغوط ، وقد ظل الناس يسمعون أصواتا بشرية وزمجرة خيول في ذلك المكان فترة طويلة.وفي سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٠ م) صح ماتوقعه السلطان مسعود عندما قال للوزير شرف الدين إنك أخطأت في اختيار رجل كامل متمرس مثل المقتفي ، لأنه بدأ يتصرف في شؤون السياسة دون استشارة الوزير ، وكان أن انزوى الوزير في بيته ، فأرسل الخليفة في طلبه وكف يده عن ممارسة أعماله ، ثم مالبث أن عزله نهائيا ، وفي تشرين أول من عام ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) سار أتراك ملطيه إلى أديرة زوبر وقنايا ونهبوها ، فأقبل الفرنج في أيار بحجة طلب الثأر فوصلوا إلى زبطرة وعرقة لكنهم نهبوا أموال المسيحيين كما كان قد نهبها الأتراك ، ثم زحفوا إلى أبلستين ونهبوا المسيحيين هناك وفتكوا بعدد كبير من الأتراك واعتقلوا أولادهم ونساءهم فغضب الأتراك وزحفوا من هنزيط فصادفوا مطران قليسورا (٨) القديس في جبل أبدهور ، فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه ، وحاولوا اغتيالهم،لكن الأفرنج باغتوهم وهزموهم فهربوا تاركين أسراهم مقيدين فأطلقهم الأفرنج .

وزحف يوحنا ملك اليونان إلى نوقيساريه وخيم أمام الأتراك وجها لوجه لكن ظل عسكره وعسكر الأتراك ستة أشهر دون قتال وأخيرا افترقوا دون حرب ، وقد كان الأتراك في ذلك الحين يقتلون بالسيف كل مسيحي يتلفظ باسم ملك اليونان أو الفرنج لأي سبب ، وقد قتلوا عددا كبيرا من الملطيين لهذا السبب .

وفي سنة ٥٣٦ هـ ــ ١١٤١ م أرسل خوارزم شاه إلى ملك الهون ليعد جيشا من الذين لم يعلنوا إسلامهم ــ وكان العرب يسمونهم « كافر ترك » ــ لمحاربة السلطان سنجر قاتل أخيه ،

فتأهب أولئك الهون وكانوا ثلاثمائة ألف ،وقاتلوا مائة ألف من أصحاب سنجر عند نهر جيحون وقتلوهم قاطبة ولم ينج من سيوف الهون إلا سنجر وستة من رجاله فقط كما قيل . فهرب الى بلخ ، وقد أسر الهون امرأته وابنة بنته مع أربعة آلاف امرأة ، وهكذا أهلكوا المائة ألف قتلا وسبيا .

موت الملك محمود

وفي سنة ١٤٥٤ يونانية (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية فأوصى بالملكة لابنه ذي النون ، لكن زوجته خاتون استدعت أخاه يعقوب أرسلان واقترنت به وولته سبسطية ، ففر ذو النون الى سينادو وتولى قيسارية ، أما الأخ الآخر دولت فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا ، وزحفا معا الى ملطية وحاصراها ، لكنهما لم يستطيعا الاستيلاء عليها ، فغادراها الى عرقة وأرسلت الخاتون ألفي جندي الى ملطية ليحرسوها ويستخرجوا من فيها من الأتراك ويبعدوهم الى سبسطية ، فثارت ثائرة الأتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوريدية ، وذلك رغما عن الحاكم وهزموا الزاحفين وأرسلوا فأحضروا دولت في اليوم ذاته وسلموه ولاية المدينة ، وعندها زحف مسعود سلطان قونية الى سبسطية وأخضعها ، ثم انقلب الى ملطية فحاصرها في السابع عشر من نيسان ، أما دولت فأخذ ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالأموال لدفع أجرة المحاربين ، لكن بعد ثلاثة أشهر احرق السلطان المنجنيقات وارتحل ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب ١٤ ايلول فاستراح برحيله الأهالي.

وفي أحد أيام نيسان في تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونان للصيد فهاجمه خنزير بري وقتله ، وكان قد أوصى بالملكة لابنه الصغير منويل لأن ابنه الكبير كان غائبا ، فتولى منويل الملكة في نيسان

عام ١٤٥٥ يونانية (١١٤٤ م)ولما دخل العاصمة رحب به أخـوه واعترف به ملكا وأيده .

وكذلك مات ملك بيت المقدس الفرنجي أثناء الصيد فقد سقط عن حصانه ومات فخلفه ابنه الصـغير بلدوين الثـالث ، وتـولت امـه الوصاية عليه فأخذت تسوس المملكة بسبب حداثته .

وفي السنة ذاتها مات داود صاحب حضن زياد وخلفه ابنه الصغير قرا أرسلان ، لأن ابنه الكبير « أرسلان طغميش » كان بـالموصل عند زنكي فأراد أن يبعد قرا أرسلان ويقيم مـكانه أخـاه وحليفـه أرسلان طغميش،فاستنجد قرا أرسلان بالسلطان مسعود في قـونية، فأرسل له عشرين ألف فارس لمقاتلة خصمه فهرب الى الموصل ، ثم اقبل السلطان مسعود الى ملطية وحـاصرها ثـلاثة أشـهر دون أن يحقق هدفه ورحل .

انتزاع الرها من الأفرنج

في سنة ١٤٥٦ يونانية (١١٤٤ م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية ، فـأرسل الحـرانيون الى زنكي أن المدينة خـالية مـن العسكر ، فتوجه زنكي اليها في جيش جرار يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني ، وخيم في ضواحيها عند بـاب السـاعات قـرب كنيسـة المعترفين ، وأقام هذا الجيش سـبعة منجنيقـات ضـخمة وصـعد رهبان الجبل أعلى السور وأخذوا يحـاربون لعـدم وجـود عسـكر فيها ، وكانت النساء يقدمن لهم الحجارة والماء والطعـام ، وحفـر الأتراك نفقا حتى بلغوا السور ، فقـام الرهـاويون بحفـر نفـق مقابل ، وبرزوا لقتالهم وأهلكوا كل من صادفوه في الحفرة ، وعادوا فأقاموا سورا ثانيا مقابل النفق فتحول الأتراك وأخـذوا يحفـرون تحت ابراج السور ، فتخلخلت وشارفت على السقوط فأرسل زنكي الى الرهـاويين يقول : خذوا منا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشاهدوا الأبراج كيف تداعت ، وسلموا المدينة قبل ان تؤخذ بالسيف .

غير ان المطران ببيوس رئيس الفرنج في الرها لم يكترث لمقولة زنكي ، لأنه كان واثقا من مساعدة جوسلين وملك بيت المقدس ، وعند ذلك أضرم الأتراك النيران بالأخشاب تحت الأبراج فسقطت وأخذوا يدخلون في النفق على الرغم من ان ببيوس والأساقفة كانوا على رأس المدافعين عن النفق وقد اشتد فيه القتال حتى امتلأ بجثث القتلى من الأتراك والرهاويين معه ، وتجمهر الرهاويون عند فم النفق ورأى الأتراك أن المحاربين قد تركوا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا السور ، وعندما شاهد الرهاويون ذلك انهارت عزائمهم وشرعوا بالالتجاء الى القلعة .

وفي الساعة الثالثة من يوم السبت الثالث من كانون الثاني دخل الأتراك مدينة أبجر خليل السيد المسيح بسيوفهم المسلولة المتعطشه للدماء يقتلون الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنساك والراهبات والعذارى وحتى الأطفال والرضع،وان القلم ليعجز عن وصف ماحدث ، وان اليراع ليتجمد بين الأصابع ان اراد ان يكتب عن الفظائع ، لقد أصبحت هذه المدينة موطئا للأقدام وربما بسبب آثامنا ، او بسبب كفر الابناء بآبائهم ، والآباء بأبنائهم ، فنسيت الأم رضيعها وفر كل واحد يطلب الخلاص لنفسه الى قمة الجبل .

أما الشيوخ من الكهنة فكانوا يرددون وهم يحملون صناديق الشهداء قول النبي ميخا ·اني احتمل غضب الرب لأني أخطأت اليه.(ميخا ٧ : ٩) وأخذوا يبتهلون الى الله حتى اسكتهم السيف التركي ، وشوهدوا بعد ذلك وقد تضرجت ثيابهم بالدماء ، وبقي عدد كبير من النساء مع أولادهن ينتظرن الموت بالسيف والأسر والعبودية ، أما الحراس فقد اقفلوا الابواب بوجه الجحافل التي لجأت الى القلعة قائلين:لن نفتح الأبواب حتى يتقدم الينا ببيوس ، ولكن ببيوس لم يستطع الخروج مع الأوائل بسبب الازدحام الشديد الذي أهلك العديد وجعل جثثهم تتراكم اكواما عند باب القلعة ، ولما وصل ببيوس اليهم اصيب بسهم أرداه قتيلا .

ولما شاهد زنكي تلك الأهوال أمـر بـايقاف القتـال ، وشـوهد المطران باسيليوس عريانا حافيا يجره تركي بـالحبل ، ومـاأن رآه زنكي حتى لمح النعمة التي على وجهه فسأله من أنت ؟ ولما عرف أنه المطران أمر رجاله فألبسوه ثوبا ومضى به الى خيمته ، واخذ يعنفـه ويوبخه لأن الرهـاويين لم يشـفقوا على أنفسـهم ، ويسـلموه المدينة ، فقال له المطران :إن العناية الربـانية شـاءت ان تمنحـك الغلبة وتـذيع مجـدك بين الملوك وتتـولى علينا نحـن الأذلاء لأننا غدرنا ، ولأننا حنثنا بـأيماننا فـأستحسن زنكي كلامـه ، وقـال له : قد صدقت فيما قلت ايها المطران ، فإن الله تعالى والبشر كذلك يكرهون الذين يحـافظون على ايمـانهم ويثبتـون عليه حتـى الموت ، وبعد يومين طلب الأمـان مـن التجـأ الى القلعـة وسلموها ، فقتل الأتراك كل من رأوه من الفـرنجة ، وابقـوا على السريان والأرمن ، ان لساننا عاجـز عن الاسـترسال في شرح تلك الداهية الهائلة ، ولأرميا النبـي ونظـرائه أن يفيضـوا في المراثـي ويستدعوا النائحات النادبات ليفعلن مثلهم ويندبن الشعب الجـدير بالعطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها دير القـراريط ببلدة خـرشنة واتلفت حجره جميعا ، وقضت على شيخ راهب ، ونجـا سـائر الرهبان ، واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلدة مرعش ، وسقطت نار على دير مار برصوم واتلفت ثلاث غرف الى ان تم اطفاؤها ، وقـد نظم في مأساة الرها هـذه ديونيسـيوس بـن الصـليبي قصيدتين ، وباسيليوس مطرانها ثـلاث قصـائد ، كلهـا على وزن قصيدة مار يعقوب .

وبعد أن احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعـة حصـينة للأفرنج تطل على الفرات ، وحاصرها حصارا شديدا،لكن خبرا أتاه ان فتنة وقعت في الموصل ، وأن نائبه نصير الدين قتل ، فترك البيرة وعاد الى بلده ، أما الفرنج فقد خافوا مـن عودة زنكي فـكتبوا الى

حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلموه اياها .

وخاف ايلغازي أن يزحف زنكي الى بلاده ويحتل قلاعه وسائر ولايته ، فقوض قلاعاً كثيرة منها قلعة حور عبار ،وقلعة تلبسمة (٩) وقلعة تل شيخ ، وقلعة المرأة التي بجانب دير مار حنانيا ، وبقي تمرتاش يحاصر قلعة الهتاخ (١٠) سنة واربعة أشهر حتى انتزعها من صاحبها الكردي ، وهادنه ودفع له كمية من الذهب وترك له بعض القرى .

وفي هذا الوقت خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وسار الى بلد تل ارسانيوس (١١) وطلب الى اصحابه أن يسلموه اياه فرفضوا لأن اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد ، فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وعددهم خمسة عشر الفا مع اسقفهم طيمثاوس وباعهم .

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤ م) دفع زنكي جنودا الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو(أو ابن عمر) وهي قلعة حصينة تطل على دجلة ، احتلها الاكراد البشنويون منذ ثلاثمائة عام.

مقتل زنكي

وفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) أصلح زنكي الاوضاع في الموصل على أثر مقتل نائبه نصير الدولة ، واقبل الى حلب وحشد الجنود ، وزحف الى قلعة جعبر ، وفي احد الأيام بينما كان جالسا في خيمته احضر اليه الصناع طبقا ذهبيا لينظره ، فحنى رأسه وأخذ يتأمله ، فاستل أحد الحرس سيفه وطعنه من خلفه وحز رأسه ، وروى غير هذا قيل قتل ليلا وهو سكران غارق في نومه ، وأسرع ثلاثة من عبيده الى اسفل القلعة وهم يصيحون للحراس اسحبونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم ، فدلوا حبلا

وسحبوهم واحدا فواحدا ، فـأخبرهم هؤلاء بمـا حـدث وقـالوا لهم : انفخوا الأبواق ونادوا مـن اسـفل القلعـة اليه وشـاهدوه مذبوحا .

أما محمود بن زنكي الذي دعي نور الدين ، وكان مع أبيه ، فقـد شدد القتال على القلعة حتى أرهق هـو والمحـاصرين ، ثـم قـال لهم : سلموني قتله أبي وكونوا في طمأنينة ، فسلموه الثلاثة فقتلهم واحرق جثثهم .

وكان لزنكي أربعـة بنين وابنة واحـدة وهـم : سـيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وقـطب الدين مـودود ، ونصرة الدين امير اميران ، وأختهم ، وكان قد بنى في الموصل دورا ملكية لأنه لم يكن فيها الا دارا ملكية واحدة مقابل الميدان . وقد عمـق اسـاسها ووطد أسوارها ، وفتح بابا يقال له بـاب العمادي أقـام حـوله الحدائق ، وقد ازدهرت الزراعة في زمانه ، وكان لزنكي جـواسيس في بلاط السلطان يخبرونه بكل مايجري هناك ، وكان اذا ماقدم الى بلاده رسول ما ، نهاه عن محادثة الجنود والأهالي .

وقد دفع يوما الى واحد مـن عبيده طبيخـا وقـال له : احفظه لديك ، فأبقاه عنده سنة كاملة ، ولما سألة زنكي عنه اعاده له فـورا فأعجبه ذلك العمل وقال له : الى مثلك ينبغـي ان افـوض حـراسة البلد ، ثم ولاه قلعـة كواشي ، وقـد ملك زنكي سـورية تسـع عشر سنة ، وكان عنده عندما قتل في قلعة جعبر امير كبير عاقـل اسـمه اسد الدين شيركوه ، قـال لنور الدين بـن زنكي :يلوح لي أن وزير أبيك يحاول استمالة الجيوش الى اخيك سيف الدين ليأتـي بـه الى الموصل ، فالافضل أن آخذك الى حلب لتتولاها ، وتتـولى سـورية معها ، وبذلك يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق .

ولما تم ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم الى حلب وتولاها مع قلعتها ، ثم ارتحـل أخـوه سـيف الدين الى الموصـل وتولاها وأيده السلطان مسعود الذي كان يخلص له المودة ، وسـبق

نور الدين، فأدى له خدمات جلى يوم كان والده حيا يرزق ، وارسـل السلطان الى سيف الدين حله ملكيه تأييدا له في منصـبه ، وكان نور الدين يخاف أخاه سـيف الدين فيرسـل اليه الهـدايا معـربا عن اخلاصه متجنبا لقاءه ، وبعد ان تعاهدا معا سار سـيف الدين الى سورية، وبادره نور الدين مقبلا الأرض أمامه فتعانقا وبكيا، وقـال سيف الدين لأخيه:لماذا لم تأت الي ، هل خفت مني ، ثق ياأخـي انه لم يخطر ببالي ماخطر ببـالك ، ومـاذا تنفعني الحياة والبـلاد اذا أسأت الى أخي ، وهـكذا اتفـق الأخـوان وعاد كل منهمـا الى بلده ، وعلى أثر مقتل زنكي سـار ريمـوند صـاحب انطـاكية الى أطراف حلب وحماة ، وفتـك بـكثير مـن العـرب ، وغنم غنائم وافرة ، وفي طريق العودة ادركه شـيركوه ، واسـترد منه الغنائم ، وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وحاصرها حتى انتزعها من نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وتـرك له بعض القـرى ، وعاد الى دمشق.

واقعة الرها الثانية

وفي تشرين الاول مـن عام ١٤٥٨ يونانية (١١٤٧ م) اقبـل جوسلين وبلدوين صاحب كيسوم الى الرها ، وتسلق رجال الفـرنج البرجين ليلا بعد ان اتفقا مع حراس السور ، وكانوا مـن الارمـن فهرب الاتراك الى القلعـة ، وفي الصـباح فتحـوا بـاب الماء ودخله جوسلين لكن لم تمض ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قـادما مـن حلب في عشرة الاف تركي ، فاجبر جوسلين الرجـال والرهـاويين ونساءهم وفتيانهم وفتياتهم على الرحيل قسرا في السـاعة الثـانية ليلا ، ولما جاء الصباح رآهم الاتراك فهاجموهم واخـذوا يرمـونهم بالسهام التي اخذت تتساقط عليهم مثل حبات المطـر ، ثـم انقض الاتراك على الرهاويين الاسرى فـي صفوفهم الطـويلة ،وانقضـوا على الاشراف من ابناء المدينة العظيمة ، وبعدما تـركهم الفـرسان

- ٢٣٠٥ -

الفرنج وانهزموا ، اذ عجزوا عن المقـاومة ، امـا الجنود الافـرنج فالتجأوا الى حصن خـراب يدعى حصـن كوكب ، واحتمـوا بـه ، يالزمان الغضب ، تبا لهذا اليوم المشؤوم ولهـذه الليلة التـي كانت احدى ليالي جهنم ، لقد خرق الاتراك هذه الصـفوف الطـويلة مـن البشر بسيوفهم ، ثـم اخـذوا يسـحقونهم سـحق النار للهشيم وذلك بعدما أخذوا ينتزعون أحـذيتهم وثيابهـم ويوثقـونهم بالحبال ويحشـونهم على الركض حفـاة عراة رجـالا ونسـاء ، ويضطرونهم أن يتبعوا الخيل ، وقد زاد عدد القتلى في المرتين الاولى والثانية على الثلاثين الفا ، واستعبد الاتراك ستة عشر الفـا ، ولم يفلت مع رجال الفرنج الذين انهزموا الى حصـن كوكب سـوى الف رجل فقط ، وقد باع الاتراك كل مـن اسروهـم في بـلاد مختلفـة ، واصبحت الرها خاوية خالية مخضبة بدماء اولادها ، مليئة بعظامهم تتغذى بلحومهم وحوش الليل ، وقـد فقـدت جثـة بلدوين صـاحب كيسوم ، وافلت جوسلين اللعين الى سمسياط ، وهـرب المطـران باسيلوس مطراننا وقبض على مطران الارمـن مـع عدد كبير مـن جماعته.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع الفرنج بما جرى من الفـظائع في الرهـا تـدفقوا مـن إيطـاليا ، واقبـل ملك الالمان (١٢) في تسـعين ألف فـارس وملك فرنسا (١٣) الذي يدعوه العرب فوتش في خمسين ألف فـارس ، عدا الرجالة الذين بلغـوا أعدادا كبيرة ، وتـوجهوا سـنة ١١٤٨ م إلى القسطنطينية وشنوا عليها هجـوما مـريرا بعـد أن عرفـوا خيانة اليونان للأفرنج وغدرهم بهم ، فدفع لهـم الملك منويل ذهبـا كثيرا ، وأقسم أن يدلهم على طريق آمنة ، لكنه غدر بهم ثانية وأرسل معهـم أدلاء أرشدوهم إلى طريق وعرة وجبال قاحلة لاماء فيهـا ، فتـاهوا

وبقوا خمسة أيام لايعرفون أين هم بعد أن هرب اليونانيون ، فمات العديد منهم عطشا مع خيولهم ، وسمع بهم الأتراك فانقضوا على شتاتهم في الجبال وراحوا يفتكون بهم مجموعة تلو الأخرى حتى امتلات بلادهم من الغنائم،وبيعت الفضة في ملطية بثمن الرصاص .

أما الأفرنج الذين نجوا وعادوا إلى سواحل بحر بنطس فقد أخذ اليونان يخلطون لهم القمح كلسا ويطعمونهم إياه ، فكانوا يسقطون موتى بالأكوام ، وقد تمكن ملك الألمان من النجاة مع ثلاثة من القمامصة فسار إلى بيت المقدس وصلى وتبرك بقبر المخلص ، وأقام فيها بضعة أيام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين الف راجل وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل عدا الفرسان ، ولكن الفرنج دبت فيهم الشجاعة والا[illegible] فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن ، فقام معين الدين ــ حسبما ذكر البطريرك ميخائيل السرياني في تـ[illegible]ـخه ــ صاحب دمشق وأرسل إلى ملك بيت المقدس مائتي ألف دينار من النحاس المصري ، لكن المطلي بالذهب ، وأرسل كذلك إلى صاحب طبرية خمسين الفا من الذهب الزائف ، وعندما اكتشف الأفرنج الخديعة وأدركوا الحيلة ترك ملكهم دمشق ، وعاد إلى وطنه وقلبه يتقطر ألما وأسى ، على أني قد طالعت خمسة كتب عربية مختلفة ، لكنني لم أعثر فيها على قصة التزييف الذي تكلم عنه البطريرك ميخائيل في تاريخه .

وهكذا كانت نهاية هذه الحملة ، ونهاية أعدادها الهائلة .

ولما علم ملك صقلية نبأ خيانة اليونان غضب غضبا شديدا ، وسار إلى مدينة تيبايس،فاحتلها وقوض أركانها وأهلك أهلها بقوة السيف ، وكذلك فعل في أدرنة ، وفي فيلبة ، ثم توجه إلى القسطنطينية نفسها فخرب ضواحيها وأتلف زروعها ، وعاث في الأرض فسادا

- ٢٣٠٧ -

ظهور توماس الأرمني

في تلك الأثناء مات لاون الارمني صاحب قيليقية في القسطنطينية وفر ابنه تـوماس راجـلا إلى قيليقيه ، وزار مـطران السريان أثناسيوس طالبا صلواته ليرد الله تعالى ميراث آبائه إليه ، فصـلى له وأهداه حصانا بمثابة بـركة ، ومـالبث أن لحـق بــه اثنا عشر أرمنيا ، وسار أول الأمر إلى حصن عامودا فلما شاهده الحـراس وعلموا أنه ابن مولاهم فتحوا له الأبواب ، فدخل الحصـن بسـلام وقتل من كان فيه من اليونان ، واحتل في مدة وجيزه أماكن شـتى ، فبدأ الروم الذين في سـائر الحصـون يهـابونه ويحسـبون له ألف حساب ، ثم اتفق الفرنج معه وقاتلوا الأتراك وفتـكوا بثـلاثة آلاف منهم ، وذاع خبر انتصاره،وبات الأتراك يرهبون سطوته وبـأسه ، فقام واحتل بعد ذلك عين زربه وغيرها من الأماكن . وفي تلك السـنة اسـتولى نور الدين بـن زنكي على أفـاميا ، وعلى بعض حصـون الفرنج ، فأعد له صاحب أنطاكية كمينا فتك بكثير من عسكره ، لكنه نجا مع قلة من رجاله فاتجهوا إلى حلب .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) زحف نور الدين إلى حارم وغزا ضاحيتها ، وهدم أبنيتها المقـامة خـارج القلعـة ، وسار البرنس صاحب انطاكية إلى محاربته والدفاع عن حارم ، لكن الأتراك تغلبوا عليه وقتلوه ، وكانوا قبل ذلك يهـابونه جـدا لقـوته الجبارة ، ثم وقعت فتنة بين الأنطـاكيين ، فقـد أراد غالبيتهـم أن يسلموا مـدينتهم لنور الدين،إلا أن بعضـهم أرسـلوا إلى ملك بيت المقدس طالبين النجدة ، فسارع إليهم وبث الشـجاعة والنخـوة في قلوب فرسانهم ، وجعل بطريركهم مـدبرا لأمـورهم إلى أن يكبـر بوهيموند ابن البرنس القتيل ، وقتل صاحب كيسوم في هـذه المرة ، فتولاها جوسلين وتولى أيضا قرية بيت حسنه .

وفي هذه السنة أقبل قلج أرسلان بـن مسـعود سـلطان قـونية

وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج ويسر للفرسان وللأسقف وللقساوسة الذهاب إلى انطاكية ، لأنه كان قد تعهد بذلك قبلا ، إلا أن الاتراك أدركوهم وفتكوا بهم ، وانتزع قرا أرسلان صاحب حصن زياد من الفرنج بلدة الجبولة وبعث جنودا إلى جرجر كمنوا في ثلاثة أماكن مستورة ، وكان أهلها مختبئين في جبال برصوما ، فانقض هؤلاء الجنود صباحا ونهبوا المواشي والبقر ، وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير وأرسلوا إلى الرهبان يقولون : سلمونا أهالي جرجر نرد لكم الغنائم ونحترم قديسكم ، ونقدم له النذور ، لأننا لم نأت معتدين على أديرة وليس في نيتنا أن نستعبد الأهالي ، لكننا نريد أن نعيدهم إلى أراضيهم ليفلحوها ، إلا أن الرهبان لم يتفقوا على رأي ، فأراد بعضهم التسليم بينما رفض بعضهم الآخر هذه الفكرة حتى أدى بهم الخلاف إلى القتال بالسيف ، وعند ذلك نهض راهب شيخ واصطحب شخصين من كلا الفريقين وساروا خمستهم إلى الأتراك وقالوا لهم : إن كنتم صادقين في طلبكم الأهالي للحراثة لا للعبودية فليأت فريق منكم معنا فنذهب ونراجع أميركم المحروس ، ونأتمر بأمره ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا مكر الأتراك ، وأجمع الرهبان ومن معهم على الرفض فثارت ثائرة الأتراك وأحرقوا المعاصر وسياج الكروم ، وانقلبوا عائدين ، وسار الرهبان إلى حصن زياد وقابلوا الأمير فأشفق عليهم ورد لهم كل ما أخذ الأتراك منهم .

وفي السنة ذاتها قدم جوسلين من تل باشر في مائتي فارس ، وتوجهوا إلى انطاكية وفي اعتقادهم أنهم سيواجهون ألفا فقط ، فباغتهم التركمان ليلا وهزموهم وطاردوهم حتى قبضوا على جوسلين وساقوه إلى نور الدين فاشتراه بألف دينار ثم أوثقه وحبسه ، وبقي جوسلين محبوسا تسع سنوات ، وكانوا يلجأون إلى الوعد تارة وإلى الوعيد تارة أخرى ليجبروه على المجاهرة بالاسلام ، لكن إيمانه كان راسخا ، وكان يدرك في قرارة نفسه أن الرب إنما أدبه لتعديه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخ الكنيسة .

ولما أحس بدنو أجله استدعى أسقف المدينة فعرفه وأعطاه الأسرار المقدسة ، وقضى في قاع البئر حيث كان مسجونا ، وأثناء أسره حمل الأتراك على كثير من أماكن الافرنج واحتلوها مثل جرجر وختي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير ، ولما علم الافرنج بوفاته أقاموا ابنه الفتى خلفا له في تل باشر ، وكان اسمه جوسلين أيضا .

وفي عام ١٤٦١ يونانية (١١٥٠ م) أرسل أهالي كيسوم مطرانهم ايوينس إلى مسعود سلطان قونية طالبين الأمان للفرنج الذين عندهم ليذهبوا إلى عينتاب فلبى طلبهم ، ثم استولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ، ورعبان وفرزمان ومرعش ، وعندما كان يحاصر تل باشر أقبل إليه نور الدين فزف إليه السلطان ابنته ، فترك تل باشر ولم يتيسر له احتلالها ، ولم يمض وقت قليل حتى جاء ملك بيت المقدس ونقل معه زوجة جوسلين وأبناءه وجميع الفرنج وأقام في تل باشر بعض أتباع يونان فاحتلوا عينتاب وأعزاز ، ثم ضيق عليهم نور الدين قتلا وجوعا فسلموه إياه دون حرب ، واحتل تمرتاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وفي ذلك الوقت كان في قلعة الروم ميخائيل الأرمني،فكتب إلى زوجة جوسلين وابنها ليأمرا غريغوريوس جاثليق الأرمن الموجود في دير البحره أن يأتي إليه ويقيم عنده ويساعده،لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتل كل ماله وطرده واستقل بقلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية (٥٤٤ هـ/ ١١٤٥) انتزع سيف الدين ابن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تمرتاش صاحب ماردين،ثم زحف إلى ماردين وحاصرها فزف إليه تمرتاش ابنته وهادنه ، لكن ما إن وصل إلى الموصل حتى مرض ومات وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، فتزوج ابنة تمرتاش وعند ذلك أرسل أحد زعماء الموصل إلى نور الدين ليتجه من حلب إلى الموصل ، فركب مع سبعين فارسا واحتل سنجار ، وأرسل في طلب المساعدة من قرا أرسلان صاحب الحصن مقابل منحه قلعة هيثم .

أما أخوه قطب الدين فقد حشــد الجيوش ومشى إلى تــل أعفــر ليصــد نور الدين ، فتدخل الزعماء واقترحوا حــلا وســطا يجعــل حمص لنور الدين بعد انتزاعها من ســيف الدين وأن يرد نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويرجع إلى حلب .

وفي ٢٣ آب من تلك السنة حدث فيضــان في حصــن زياد جــرف صبيا مع أمه وبغلين وحمارا وقد هلكوا جميعا ٠

وفي ســنة ١٤٦٢ يونانية (١١٥١ م) قتلت زوجــة صــــاحب ايزنجي زوجها واتت بأخيه من ديباريجي وتزوجته ، وملكت مــكان زوجها الأول .

وزحف أمير تركي إلى دير سيريكا اليوناني في بنطس ، وانتــزع منه الصليب الذهبي الذي كان يحوي قطعة ثمينة من خشب الصليب حيث تمت به عجائب كثيرة ، ولم يعدها إلى الرهبان إلا بعد أن سلب منهم كمية كبيرة من المال .

كذلك اخذ اليونان يسخرون ويجدفون على مار برصوم ، ويقولون لو كان قادرا على فعل العجائب لما ترك جوسلين يسلب ذخيرته .

وفي تلك السنة زحف نور الدين إلى ضواحي دمشق وأرسل يقول لأهلها : انا لم آت لأحاربكم بل لأزيل العار عنكم ، فــأنتم مــازلتم حتى الآن تؤدون الجزية للفرنج ، وقد اصبح أبناؤكم أسرى لديهم ، ولم يساعدهم احد ، فبعث إليه الدمشقيون يقــولون : إننا نعيش في بحبوحة وأمان مع الفرنج ، ولسنا في حاجة إلى مساعدتك ، وإن لم ترجع إلى حلب فإننا سوف نرسل إلى الفرنجة ليقفوا معنا ضــدك ، فــاستشاط نور الدين غضــبا وأراد أن يحـــــاصر المدينة لكن الله سبحانه أنزل من السماء وابلا من الأمطار لم ينقطع ففترت همتــه ، وسار إليه زعماء دمشق وهــادنوه أن يخــطبوا له بعــد الخليفـــة والسلطان ، فتركهم وعاد إلى حلب

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانية من رومية غاضبين على اليونان فاقبلوا الى ضواحي القسطنطينية واحرقوها جميعها ، ثم ذهبوا الى فلسطين فأحرقوا قرى عديدة في عسقلان وقتلوا عددا كبيرا من الاتراك والعرب ، ثم تابعوا الى مصر فخرجوا واحرقوا كثيرا من قراها الغربية ، ثم عادوا الى وطنهم ٠

وفي السنة ذاتها مات دولت صاحب ملطية وخلفه ابنه ذو القرنين ، فعلم بذلك مسعود سلطان قونيه فهجم على يعقوب ارسلان اخي دولت واخضعه ، ثم هاجم ملطيه فخرب ضواحيها،فخرجت اليه ابنة اخيه والدة ذي القرنين وتوسلت اليه يدع ابنها،وقال لها السلطان : إذا اتى إلي خاضعا تركت له المدينة فخرج اليه ذو القرنين حاملا سيفا وكفنا فرحب به مسعود وأيده وتركه وشأنه وهكذا استحوذت أمه على المدينة وفرضت الضرائب على المسيحيين والعرب وحشدت نساء لتفتك بابنها الصغير،الا ان الزعماء اطلعوا على نيتها فطردوها مع ساحراتها ، وصحت فيها بذلك آية النبي.« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، قد أعييت من كثرة مشورتك»(اشعيا ٤٧ : ١٢ ــ ١٣).وفي هذه السنة هطلت امطار غزيرة جرفت احجارا ضخمة وتلالا وصدعت جانبا من الجبل وتدحرجت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وخرشنة ، وتوقف مجرى الفرات ثلاث ساعات تقريبا ووصلت المياه الى قرية فروسيدين المبنية على قمة الجبل ، ثم انشقت السدود المقامة على جوانب جبل قلونية ، وفاضت المياه فأحدثت دمارا هائلا في سورية ، وفي السنة نفسها فتك الوباء باثني عشر الفا من اهالي دمياط حتى خلت بيوت كثيرة من السكان .

في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) زحف نور الدين ثانية الى دمشق فحشد الفرنج قواتهم لرد الغزو الجديد ورد نور الدين على اعقابه سرا الى حلب ٠

- ٢٣١٢ -

وفي تلك السنة ايضا ٥٤٦ هـ ـ ١١٥١ م خرج صلاح الدين من عند ابيه نجم الدين ايوب في بعلبك،واتجه الى حلب يريد عمه أسد الدين شيركوه ، فاصطحبه الى نور الدين فرحب به وخصص له بعض المال لمعيشته ٠

- ٢٣١٣ -

استيلاء الفرنج على عسقلان

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) نشب نزاع بين ملك بيت المقدس وأمه ، فاتخذت من بـرج داود حصـنا لهـا فتـوسط الاقطاب وتركوا لها بيت المقدس كما تركوا لابنها سائر المدن وقيادة الجيش ، فسار ابنها الى عسقلان وكانت للعـرب المصريين واقـام برجا خشبيا ومنجنيقات وأحدث فجوه في سورها دخل منها اربعمائة من الرهبان الداوية ، فهجم عليهم عشرون الفا مـن العـرب وهـم مدججون بالسلاح وأهلكوهم ، فـانفعل الملك لذلك ، وأراد مغـادرة المدينة لولا تشجيع أحد المحاربين له على البقاء ، ثم قام الفرنج بعد ذلك بحراسة الفجوة ومنعوا العرب من ترميمها ، وفي الصباح حمـل الملك الصليب واتجه الى المدينة وهو ينادي : مـن لايتبـع الصـليب لايعد مسيحيا،فاندفعوا اندفاع رجـل واحـد ودخلوا المدينة ، وقتلوا مايزيد على خمسة عشر ألف عسكري ، فهرب البقية في السـفن الى مصر ، والحقيقة التـاريخية هـي ان الفـرنج احتلوا عسـقلان عام ١٤٦٥ يونانية (٤٥٨ هـ / ١١٥٤ م) لكن البطريرك ميخائيل السرياني ذكر أن ذلك تم سنة ١١٥٣ م ، وبسبب هـذا الانتصـار الذي احرزه ملك بيت المقدس انيطت به امارة انطـاكية وزفـت اليه ارملة صاحبها .

وفي سنة ٤٥٩ هـ (١١٥٤ م) انتـزع نور الدين دمشـق مـن صاحبها مجير الدين حربا ، إذ اثـار في البـداية خـلافا بينه وبين زعمائه ، وأخذ يكتب اليه سرا قائلا : احترس من مكر فلان وفـلان وفلان وفلان ، لأنهم يكتبون إلي ويريدون تسـليمي المدينة ، وأنا لا أريد أن أترك قتال الافرنج وأقاتل العرب ، وصـدق مجير الدين ذلك الكلام ففتك بقواده واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا ، وأصـبح دخول نور الدين دمشق سـهلا ، وبعـد أن دخلهـا ولى صـاحبها السـالف مجير الدين بعض قـرى حمص ، وقـد عامـل نور الدين الدمشقيين معاملة طيبه ففرحوا به وظنوا أنه يسـتطيع التغلب على الفرنج .

وفي هذه السنة قتل الظافر بن الحافظ خليفه مصر ، وخلفه ابنه عيسى وهو في الثالثه من عمره وسمي الفائز ، وفي غياب فارس الدين الأمير الكبير تولى الوزارة العباس ، فسخط فارس الدين على العباس وهدده لانه اخذ يتصرف دون الرجوع اليه ، فخاف العباس واخذ أمواله وخرج في ثلاثة آلاف من الأرمن ، وطلب مساعدة نور الدين إلا أن المصريين تبعوه فضربهم الأرمن ، وقضوا على اكثرهم ، ثم تفرق العباس ورجاله في الصحراء فأدركهم الجوع والعطش ، ولما وصلوا عسقلان برز الفرنج لملاقاتهم ، وعندما رأى الارمن الصلبان في رؤوس رماحهم ألقوا عنهم السلاح وانضموا إليهم ، وقتل يومئذ من العرب قرابة خمسة آلاف ، وقبض الفرنج على العباس وفتكوا به.

وفي تلك السنة سار الخليفه المقتفي الى تكريت وشدد الحصار عليها ، وهدم أبنيتها ووجه ضرباته نحو قلعتها ، فأرسل محمد شاه ابن السلطان مسعود الى أمراء الموصل يقول : إن آبائي قد ولوكم هذه البلاد لتنجدوهم ، والآن لم يبق لنا في أرض شنعار كلها سوى قلعه تكريت ، والخليفة يحاول انتزاعها منا ، فنرجو منكم الحضور ومساعدتنا لدفعه عنا ، فاحتشد الموصليون ، وزحفوا الى تكريت ، ولما علم الخليفه بعددهم أصابه الزعر ، فترك عدته وعتاده ، وعاد مسرعا الى بغداد.

وبعد أيام قليلة حشد أمير تركي قرابه إثني عشر ألف جندي وأرسلهم الى تكريت ، فأنقذوا ارسلان شاه بن طغرك السلجوقي من السجن لأنه ينحدر من سلاله الدولة السلجوقية ، وخرج الخليفة مع جيشه لملاقاتهم ، وظلوا ثمانية عشر يوما يقفون وجها لوجه دون قتال ، ولما وقعت المعركة هزم أصحاب الخليفه ، وحاول هو الفرار فتوسل إليه رجلان من أتباعه أن ينتظر قليلا ووضعوه أمام الصفوف مع حصانه على كره منه ، فتشجع البغداديون وكروا على الاتراك وانتصروا عليهم وأخذوا غنائمهم ، وكانت فيما قيل اربعمائه ألف شاة عدا البقر والجمال.

وفي هذه السنه كانت مياة دجله تسيل كالدماء الحمراء.

في سنة ١٤٦٧ يونانية (١١٥٦ م) تحرش البرنس صاحب انطاكيه بطوروس صاحب قيليقيه وأخذ يطالبه بالحصون التي انتزعها الأرمن من اليونان ، والتي انتزعها اليونان من الفرنج ليولي عليها الرهبان الداوية جزاء قتالهم في سبيل توحيد المسيحيين ، فامتنع الأرمن واصطدموا مع الفرنج عند باب سقنطرون ، فهزم الأرمن ، وهرب طوروس ، ثم تصالح الفريقان وتولى الرهبان الداوية تلك الحصون.

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش الى إحدى قرى الأرمن ، فحشد أسطفان أخو طوروس جيوشه وانطلقوا ليلا ، واختفوا في البيوت ، وعندما فتح باب القلعه في الصباح نهضوا فدخلوه واحتلوا السور الخارجي ، واخذوا يحفرون داخلا وبلغهم حينها أن الأمير قادم في جيش تركي ، فملكهم الفزع وخافوا أن ينحصروا بين السورين ، فيشرع بقتلهم الداخل والخارج ، فنهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي كل ما تعذر عليهم نقله ، وهربوا مع جميع الأهالي،وقد ساق هؤلاء الأرمن الخبثاء المطران ديونيسيوس ابن الصليبي فوصل ماشيا الى دير كاسليود ،(١٤) وتمكن من النجاه ونظم في خراب مرعش ثلاث قصائد لأنه كان راعيها يومئذ ، ولما وصل الأتراك عاملوا المسيحين معامله حسنة ، وردوا الى الأرمن العائدين جميع بيوتهم وكرومهم واراضيهم ، إلا أنهم سلخوا جلد قسيس أرمني ، وهو حي ، وبتروا لسانه وأيديه وارجله ، وأحرقوه بعد ثلاثه أيام بالنيران ، وما أن بلغ الأرمن ذلك حتى عاملوا هم بدورهم بعض الأتراك مثل هذه المعامله القاسيه.

وفي تلك السنه سلخ حيا قسيس آخر أرمني في ملطيه ، لأنه أغرى فتاة مخطوبه حديثا ، ومضى بها الى الكنيسة ، وحاول اغتصابها ، فأخذت المسكينة تصرخ مستغيثة ، لكن القذر وضع يده على فمها حتى أكمل شهوته ، وبعد هذا شاهدها على آخر رمق

فأجهز عليها ، وقتلها وبتر أذنيها وبعض أصابعها لعجــزه عن نزع الخواتم منها ، وأخفى ما سرقه منها في قنديل ، ثم أخفى الفتـــاة في لحاف ضمن المذبح ، ولما خرج والدها وحمواها للبحث عنها،أخبرهم بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق أنها دخلت الكنيسه مـــع القسيس ، ولما سألوه قال لهم قد دخلت وخرجت بسرعه ، فـــأخذوا يبحثون عنها في كل مكان ولم يجدوها وشاهدوا ذلك القسيس خارجا من باب المدينة ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فضربه حتـــى اعترف بفعلته الدنيئه ، وأراهـــم جثمــــان الفتـــــاة وأذنيهـــــا وأصابعها ، وقد شيعها الناس بمراره ، أما القس فقد سلخ وقـــطع إربا إربا وأحرق وهو حي حتى هلك.

وفي سنة ١٤٦٨ يونانية (١١٥٧ م) اتجــه البــرنس صـــاحب انطاكيه الى قبرص ، وكانت لليونان فســبى أهلهـــا مـــع أغنامهـــم وابقارهم وخيولهم وأمتعتهم ، ولما وصــلوا ســـاحل البحـــر قـــدم القبرصيون ذهبا كثيرا مقابل نجاتهم ، فتـــركهم الفـــرنج مـــكتفين بأموالهم ومواشيهم واستاقوا الاساقفة ورؤســـاء الأديرة والكنائس والزعماء الى انطاكية بمثابه رهائن الى أن أخذوا مطالبهم كامله.

في سنة ١٤٦٩ يونانية (١١٥٨ م) حاول اسطفان الأرمني أن يفتك بأخيه طوروس ، وشعر طـــوروس بـــذلك فقبض عليه واعتقله عشرة شهور ، ثم عفا عنه تلبيه لطلب الأفرنج وانضم الى جيشهم.

وفي ســـنة ٥٥٢ هـــ (١١٥٧ م) حـــــدثت في ســــــورية زلازل عنيفه ، ففـــــي حمـــــاه ســــقطت القلعـــــه وجميع البيوت على أهلها ، وسقطت كذلك قلعه شيزر كلها ، ولم ينج من أهلها ســـوى امرأة واحده وحاجب واحد ، أما أهل حمص فقد سارعوا الى خارج المدينه ونجوا وهدمت دورهم وقلعتهـــم ، وفـــر أهــــل حلب مـــــن مدينتهم ، وظلوا أياما خارجها للنجـــاة بـــأنفسهم مـــن الموت وقـــد تهدمت بيوتهم وهلك منهم خمسمائه نسمة فقط ، ولم ينج أحد مـــن أهالي كفر طاب وفـــاميه ، وهـــدمت بيوت كثيره في الرحبـــة ، كذلك

اجتاح الزلزال من مدن الافرنج :حصن الاكراد وعرقه ، ولم يبق في اللانقيه سوى كنيستها الكبرى ، ونجا جميع أهلهـا ، وتصـدعت أرضها وانفتحت ودفن في وحلها تمثال مسبوك ، كذلك تصدعت أكثر بيوت أنطاكية وطرابلس •

وفي تلك السنة مات جوسلين في سجن حلب بعـد أن تـاب تـوبة نصوحا كما ذكر أغناطيوس أسقفها الذي زوده بالأسرار المقدسه.

وفي تلك السنه أيضا وصل السلطان محمد بـن محمـود في جيش ضخم كبير الى بغداد ، وشدد الحصار عليها مدة أربعة أشهر إلا أن بعض أقطابه نصحوه بأخذ المال بدلا من الحرب ، وبلغهم آنذاك خبر احتلال ملك شاه أخي السلطان لهمذان وسـبيها واختـطاف نسـاء زعمائها فضعفت همة السلطان وغادر بغداد وتبعته جيوش الخليفـه وفتكوا بعدد كبير من الاتراك دون رحمه ، انتقاما منهم لما أحـدثوه من الخـراب غربـي العـاصمه حيث كانوا مخيمين ، اضـافة الى ارتكابهم الفواحش مع النساء ضمن المساجد أمام أزواجهن ، والى ما احدثوه من قتل واحراق للبيوت.

وفي هذ السنة مات السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسـلان ابن داود إثر نجاته من الغزاة الذين اعتقلوه.

وفي سنة ١٤٧٠ يونانية (١١٥٩ م) زحـف منويل ملك اليونان الى قيلقية واستعاد طرسوس وعين زربه وغيرها ، وأقام فيها مـدة فصل الشتاء ، بعد أن هزم طوروس الأرمني ، ثـم تـوجه ملك بيت المقدس وأمير أنطاكيه وبطريرك الفـرنج الى زيارة منويل واتفقـوا معه وصالحوه مـع طـوروس وأحضروه اليه ، فعينه قـائدا لجميع الجيوش اليونانية في سـاحل البحـر ، واجتمـع اليونان والفـرنج والأرمن للزحف على حلب ودمشق وسائر المدن السورية لكن بلغهم آنذاك خبر أفاد أن شعب اليونان يحاولون تعيين ملك آخر ، فسارع الملك منويل في العودة الى عاصمته ، ولم يكمل مـا اتفـق عليه مـع الفرنج والأرمن.

وفي نيسان من تلك السنة حدث طوفان في بغداد خلخل بعض جدران دار الخلافة ، وفر الأهالي الى غربي المدينة حاملين المرضى والعجائز والصغار على الأكتاف خوفا من الغرق ،وبلغت أجرة ركوب الزورق في أحد المعابر أربعة دنانير ذهبية .

وفي سنة ١٤٧١ يونانية (١١٦٠ م) قرر ابن جوسلين الخروج من حارم والاغارة على أطراف حلب ، فنصب له نور الدين كمينا وقبض عليه ثم ألقاه في البئر الذي كان فيه والده.

وفي آذار من تلك السنه وهي سنة ٥٥٥ هـ ، في الثاني من ربيع الأول توفي الخليفه المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد*.

ابـــو المظفـــــر يوســـــف المســــــتنجد بالله ـ ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

دام حكمه أثني عشر عاما وحين توفي والده دبــرت له امــرأة ابيه التركية ووالدة أخيه الصغير مكيدة للايقاع به وتولية ابنها،فسـلحت جواريها بالسكاكين وأمرتهن أن يهاجمن المســتنجد حـالما يدخـل غرفته ، لكن احدى الجواري أفلتـــت مـــن بينهـــن وأخبــرت المستنجد ، فحشد جنده وقبض على أخيه وزجه في الســجن ، ثــم أعتقل هؤلاء النسوة ، فسجن بعضهن ، وقتل بعضــهن ، وهــكذا ثبتت له الخلافة

أخبار الافرنج في عهد المستنجد

وفي عام ١٤٧٢ يونانية(١١٦١ م) ذهب السير عمــوري أخــو ملك بيت المقدس الى مصر وسلب من المصريين أموالا طائله ، وعاد لكن ما لبث أن تــوفي الفــائز خليفــه مصر ، فــارتضى المصريون أن يدفعوا للفرنج كل عام مائه وستين ألف دينار ذهبــا ، كذلك هــاجم جورجي ملك الكرج مدينة آني وانتزعها من الأتــراك ، وغنم منهــا غنائم كثيرة واعتقل عددا كبيرا من العــرب وعاد الى بلده. وفي هــذه الفتره امتاز الأمير الموصــلي جمــال الدين(١٥) بعــطفه وحسـناته فــأرسل المفــريان اغناطيوس الى الملك جــورجي لافتــداء الأسرى العرب ، فاستقبله الملك جورجي أحسن استقبال وأطلق العديد مــن الأسرى مجانا وحمله هدايا كثيرة الى الأمير ، وبعث معــه سـفراء كرجيين فاستقبلهم الأمير في الموصل استقبالا حسنا ، ورحب بهــم ترحيبا حارا ، وقد وصل المفريان والسفراء الى الموصل والصــلبان تتلألأ في رؤوس الرماح ، وقد انعش هذا المســيحيين،كذلك ابتهــج العرب بعودة اسراهم.

وفي هذا الزمان نصب الفرنج كمينا لسارق فرنجي ظهر في بغراس فقبضوا عليه واحرقوه بعد أن كان قد التجأ الى نور الدين ، وأخذ من عنده جماعة من الأتراك وأخذوا يسرقون وينهبون في ضواحي أنطاكية .

توفي ذو القرنين صاحب ملطيه وخلفه ابنه الصغير عام ١٤٧٣ يونانية (١١٦٢ م) كذلك حاول يعقوب أرسلان ومعه مجموعة من الأمراء خلع قلج أرسلان وتوليه أخاه عوضا عنه ، فتوجه قلج أرسلان الى القسطنطينية وبقي هناك ثمانين يوما ، وقد احتفى به الملك خلالها وحباه بالرعاية والعناية،وبقي هناك ثمانين يوما كان يرسل له الملك خلالها كل يوم الطعام مرتين في أطباق ذهبية وفضية جديدة ، وكان يشير له بابقائها لديه ، وظل كذلك طوال مدة اقامة السلطان في العاصمة ، وفي آخر يوم من اقامته تناول مع الملك طعام الغذاء ، ثم حمله بالهدايا الثمينة ، وأغدق بعطاياه على الفي تركي ، وعاد الى عاصمته ، فأدى له يعقوب أرسلان الطاعه وتهادنا.

وفي تلك الفترة أقام حاكم طرسوس اندرو نيقس اليوناني وليمة لا سطفان أخي طوروس الارمني صاحب قيليقية ، لكن أسطفان وجد مقتولا ومرميا عند باب المدينة ، فغضب طوروس وقتل أكثر من عشرة آلاف يوناني ، لكن ملك بيت المقدس جاء وأصلح ذات البين بين الأرمن واليونان ٠

وفي عام ١٤٧٤ يونانية(١١٦٣ م)اختلف عسكر قرا أرسلان صاحب حصن زياد عند حصاره مدينة آمد فترك المدينة وانقلب راجعا ، فتوجه يعقوب أرسلان الى بلد قرا ارسلان واستطاع انتزاع قلعة شوموشكي منه ، وأسر مائه ألف نسمة تقريبا وترك القرى خالية ، وكان بين الأسرى اغناطيوس مطران تل ارسانيوس فأعاده من قماح الى ملطيه ، وبعد يومين أعاد مطران حصن زياد.

في هذا الوقت كانت زوجة البرنس السجين في حلب تناصب العداء ابنها وتنافسه على الولاية ، لكن الزعماء وقفوا في وجهها ، فـطلبت من صهرها ملك اليونان أن يذهـب الى انطـاكية ويتـولاها ، لكن البطريرك والاقطاب سرعان مـا اكتشـفوا الامـر ، فسـارعوا واستدعوا طـوروس مـن قليلقية الى انطـاكية: حيث نفـى الملكة ، وأعلن الولاء لابنها وأيده في الامارة.

وفي عام ٥٥٨ هجرية(١١٦٣ م)أراد نور الدين غزو ضـواحي طرابلس ، فحشد جيوشا كثيرة مـن الأتـراك وتـوجه الى حصـن الأكراد ، وخيم هناك ، لكن الفرنج فـاجأوه وانقضـوا عليه وعلى جيوشه ، فقتلوا العديد من الأتراك وأسروا البقية واستاقوهم الى طرابلس بعد أن قتلوا واحدا من الأكراد كان قد سـاعد نور الدين في الفرار وجعله ينجو.

وفي عام ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤ م) فاجأ الموت يعقوب أرسلان عند نهر سانجر على شاطىء نهر أليس ، فخلفـه اسـماعيل حفيد أخيه ، ثم اقترن بامرأته التى هي بنت السلطان.

هزيمة الفرنج وأسر أمير انطاكية وكونت طرابلس

جمع زعماء الفرنج جيشا يبلغ ثلاثة عشر ألف فارس وراجل بقيادة خمسة من رؤسائهم وهم : البرنس صاحب انطاكية ، وقمص طرابلس،وطوروس صاحب قيليقية،ودوقاس اليوناني صاحب طرسوس،والماستر مقدم الداوية ، وزحفوا ليحاربوا نور الدين الذي كان يحاصر مدينة حارم ، فانهزم شر هزيمة ، وأسر الاتراك القمص ودوقاس والبرنس وساقوهم الى حلب كذلك قتلوا الرهبان الداوية قاطبة ، لكن طوروس استطاع ان يهرب الى انطاكية،وقد اقام بطريرك الافرنج مناحه عامة ، وحطم النواقيس واوقف الصلوات ، وقد استطاع نور الدين ان يستولي في هذه الموقعة على مدينة حارم وعلى دير سمعان وقد اسر الرهبان والسكان وساقهم جميعهم عبيدا .

وفي عام ٥٥٩ للعرب (١١٦٣ م) سير نور الدين الى مصر الامير اسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ٠

وكان اسم والد الأخوين الأمير أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب أبي صلاح الدين شادي كودبين ، (١٦) من مدينة دوين وهي مدينة بارمينة .

وقد توليا خدمه مجاهد الدين بهروز الحاجب امير تكريت،الذي كان يحب النصارى،وقد هربا الى الموصل بعد أن قتل شيركوه احد نصارى تكريت،وكان عزيزا على قلب اميرها،فاستقبلهما زنكي ورفع من شأنيهما ، وعندما احتل زنكي بعلبك جعل على قلعتها نجم الدين الذي بقي فيها حتى وفاة زنكي ثم سلمها الى صاحب دمشق،كذلك تولي أسد شيركوه اخوه ، خدمة نور الدين ثم ولاه على حمص وكان للأخوين مكانة رفيعة عنده.

وعندما ضعف المصريون استنجد وزيرها شاور بنورالدين،فوجه نور الدين الى مصر جيشا بقيادة الامير أسـد الدين شـيركوه الذي حاول احتلال مصر ، لكن عندما احس شـاور بـذلك بعـث يهـادن الافرنج ورفض ان يدفع لشيركوه ماوعده به من الذهب والمناطـق ، فاحتل شيركوه وجيوشه مدينة (بلبيس) فقـام ابـان ذلك شـاور وطلب من ملك بيت المقدس المساعدة فزحف في جيش كثيف وحـاصر بلبيس ثلاثة اشهر بعد أن انهزم شيركوه وتحصن فيهـا ، لكن ملك بيت المقدس سمح لشيركوه بمغادرة بلبيس والعودة الى بلاده وترك مصر لاهلها بعد ان علم بانهزام الفرنج في حارم شر هزيمة،فـوافق شيركوه وعاد إلى دمشق .

وفي عام ١٤٧٦ يونانية (١١٦٥ م) أصبح السلطان قلج أرسلان سلطان قونية يعادي بني دانشـمند بعـد أن احتـل جـادوج وأبلستين وطورنده . واحتل نور الدين بانياس وعززها وأطلق مـن كان لديه قد أسر من زعماء المسـيحيين ومـن بينهـم بـوهيموند البرنس الفتى بمائة ألف دينار ، وذلك بعد أن غزا طوروس الأرمني مرعش ، وقبض على أربعمائة تركي وهدد نور الدين بحرقهم إذا لم يستجب لطلبه بإخلاء الأسرى المسيحيين ، وتوجه البـرنس لزيارة حمية ملك اليونان في القسـطنطينية ، فـأغدق عليه الملك الأمـوال الطائلة ، وعاد البـرنس إلى أنطـاكية بصـحبة بـطريرك اليونان أثناسيوس ، فارتاب بطريرك الفرنج وأبرم الحرم على الأنطـاكيين الفرنج ثم ارتحل إلى قلعة القصير ، وفي شباط السنة نفسها تـوفي وحيد عصره في الطب ، الطبيب المسيحي أمين الدولة ابـن التلميذ ، بعد أن بلغ التسعين من عمره،وكان ضليعا في العلوم وكذلك في نحـو العرب وفصاحتهم ، وتقلب في أيامه بين خفض العيش وعلوه ، وقيل أن ابنه سأله قبل وفاته : ماالذي يؤلمك ؟ فقال : كمية التسعين مـن عمري ، وسأله كذلك : ماتشتهي ؟ فقال : أن أشتهي .

وفي سنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥ م) حين اجتاح قـرية أليناس الوباء بسبب وفرة المياه وغزارتها ، وردنا خبـر غريب عن أهـالي

القرية : فقد جاء إليهم رجل تركي وطلب منهـم أن يبحثـوا عن أول إنسان مات بهذا الوباء ، وكان قد مـر على مـوته أربعـة أشـهر فبحثوا ، وفتحوا قبره فوجدوا جسده بـاقيا ويده اليمنى مبتـورة ، وهي بجانبه وكفن رأسه وصدره مأكولا ولحيتـه مقصـوصة وعينيه مفتوحتين وفمه أيضا مفتوحا شـبرا وأربـع أصـابع ، فسـد ذلك التركي فمه وسمره بمسمار ضخم ، ومنذ ذلك الوقت لم يمت أحد في القرية .

وفي سـنة ١٤٧٧ اليونان(١١٦٦)م سـقط الملك منويل عن حصانه ، وأصيب أثناء حـرب وقعـت بين اليونان والبلغـار ، وانقض رجل بلغاري على الملك يريد قتله ، لكن الملك عرفـه بنفسـه وسأله أن يمضي به إلى القسطنطينية وحلف له أنه سيكافئه ، فلبـى البلغاري طلبه ، وانقذه ووفى الملك بوعده أضـعافا ، ويقـال ان الملك منويل سقى زوجته الملكة سما لأنها لم تلد له ولدا ، وخالف شريعـة الملوك وتزوج بامرأة ثانية .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان(٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) تـوجه أسـد الدين شيركوه بأمر من نور الدين إلى مصر فعبر النيل مـن الناحية الغربية ، وسار مطمئنا حتى الصعيد ، وكان برفقته صلاح الدين بن أيوب ، فاستنجد شاور وزير مصر بـالفرنج الذين لبـوه بجيوشس كثيفة اتحدت مـع جيوش المصريين ، وتـوجهوا نحـو شـيركوه ، فاقترح زعماء جيش شـيركوه التـراجع مـن الناحية الشرقية إلى سورية كأنهم سيعجـزون أمام القوة الهـائلة للفـرنج والمصريين ، عدا عن أن جميع الأهالي أعداء للأتراك .

عندها برز شاب شجاع مصارع يدعى بنغـوش،وهـو عبـد نور الدين ، فحمسهم على القتال،وقال لهم بأنهم إذا تخلوا عن محـاربة الأعداء وعادوا إلى نور الدين هكذا فلسوف يقـطع عنهـم المعـاش ويطالبهم بما أعطاهم ، لأنهم لايصلحون لأن يكونوا جنودا ، فوافقه

صلاح الدين على رأيه ، وعقدوا العزم على القتال وقاتلوا على الرغم منهم .

واستطاع شيركوه ومعه ألفي جندي لاغير أن ينتصر على الفرنج والمصريين ، وكانوا أكثر من عشرة آلاف جندي ، وذلك بعد أن أوعز شيركوه لصلاح الدين بأن يبقى في وسط الجيش ليظن الجيش المقابل أنه هو ، ثم ينقلب راجعا ، ونجحت الخطة ، وظن الفرنج والمصريون أن شيركوه انهزم فلحقوا به لكن شيركوه وقلة من جنوده الأشاوس لحقوا بالفرنج والمصريين ، فأطبقوا عليهم من الخلف وصلاح الدين من الأمام ، فانكسروا وانهزم منهم من استطاع الفرار .

وبعدها سار شيركوه واحتل الاسكندرية دون حرب ، وترك مصر وعاد إلى دمشق بعد أن أرسل إليه الفرنج والمصريون في الصلح، ودفعوا له خمسين ألف دينار على أن يعود إلى بلده تاركا الاسكندرية للمصريين ، ودفع المصريون للفرنج مائة ألف دينار ليعودوا إلى بلادهم وبقيت مجموعة من الجند والفرسان لحراسة أبواب الاسكندرية كي لايطمع بها نور الدين مرة أخرى .

وفي العام نفسه (١١٦٧ م) استطاع قرا أرسلان صاحب حصن زياد أن يحتل برجين من أبراج آمد بالتآمر مع حراسها ، لكن بقية الحراس انقضوا على الأعداء وفتكوا بهم ، فعاد قرا أرسلان إلى بلده منهزما وخلفه ابنه بعد أن توفي في (١٧) تموز .

وفي كانون الثاني عام ١٤٧٩ يونانية (١١٦٨ م) توفي صاحب قيليقية طوروس بعد أن انقطع في أواخر حياته إلى الرهبنة وحرم أخاه مليح وراثته ، وأوصى أن يخلفه ابنه الصغير ويشرف عليه ابن خالته توماس ، عندها غضب مليح غضبا شديدا ، فقصد نور الدين الذي أمده بجيش تركي توجه به إلى قيليقية ، وأسر ستة عشر ألفا من الأهالي والقسس والأساقفة وساقهم إلى حلب وباعهم ، ودفع

إلى الاتـراك بأثمانهم . فاستدعاه الأرمن وولوه نصف البلاد فأقسم بالمقابل أن يترك للفتى النصف الثـاني ، لكنه نكث بـوعده وقسـمه واحتل بلادهم ، وأعمل البطش ففقأ عيون العـديد مـن الأسـاقفة والأعيان ، وبتر أيديهم وأرجلهم وسلخ بعضهم أحياء وألقـى بهـم للوحوش .

وفي عام ٥٦٣ للعرب (١١٦٧ م) أدرك الهرم صاحب الموصـل قيم قطب الدين الأمير التركي زين الدين فطرش وعمي ، فانتقل إلى إربيل واكتفى بها ، وقد كانت في حوزته منذ عهد زنكي وفيها تـوفي ، وتنازل لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهـكارية وتكريت وشهرزور ، وتولى بعده ولده مظفر الدين وجعل قيمه مجاهد الدين ، واتصف زين الدين ببساطة التصرف وعفـويته ، واشـتهر بعدله وعطائه ، ويحكى أن أحد الفرسان جاءه يوما وبيده نيل وقال له بأن حصانـه هلك ، فأمر له بحصـان ، وهـكذا تناوب النيل إثنا عشر فارسا ، لكنه قال : لقد اسـتغربت أنكم لم تخجلوا مني خجلي منكم ، فقد عرفت أن النيل هو عينة أحضر لي إثني عشر مرة ومـع ذلك كله لم أخجلكم ، وأرفض طلبكم وأجزيت لكم العطاء كمن يؤدي فرضا .

ويحكى أيضا أن أحد الشعراء أنشده يوما قصيدة ، لكنه لم يفهم منها شيئا ، ومع ذلك لم يرده خـائبا ، وأمـر له بخمسـمائة دينار وحصان وكسوة قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

في عام ١٤٨٠ يونانية (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) استولى سلطان قونية قلج أرسلان على مدينتي قيسارية كبدوكية وسمندو مـن بني دانشمند ، وانتزع أنقرة وقنقار من اليونان ، وانتـزعت مـن الأمير المعدي المتصل ببني عقيل قلعـة جعبـر ، انتـزعها منه نور الدين ، وأعطاه عشرين ألف دينار وسروج والمالحة وباب بـزاعة بـدلا مـن القلعة ، ومكث شهاب الدين زمنا في سروج،لكنه بقـي يفضـل حياة العز في القلعـة على أن الوارد مـن سروج كان أكثـر ، فهـكذا كان

- ٢٣٢٧ -

يوضح كلماً سأله أصدقاؤه عن أي البلدين أطيب بنظره ؟ وفي هذه السنة انتزع قلج أرسلان أنقره وقنقار من اليونان .

استيلاء صلاح الدين على مصر

في تلك السنة بعث الفرنج المقيمون في مصر والاسكندرية من أجل حراسة الأبواب وجبـاية الضرائب إلى ملك بيت المقـدس عمـوري يخبرونه بأن مصر خالية من الجيوش والفرصة مواتية لاحتـلالها ، وتحمس الزعماء لتلبية الطلب ، لكن الملك نبههم مـن حقـد العـرب عليهم وقال : إن أموال مصر تأتينا عفوا صفوا ، وإذا زحفنا إليهـا لابد أن هذا سيدفع العرب للاستنجاد بنور الدين وعندها سيغلبوننا بعد أن ينضم الغرباء والمصريون في جيش واحد ، وتضيع الأمـوال التي تأتي للفرنج من مصر ، لكن الزعماء رفضوا اقتراحه ، وعقدوا العزم على الحرب قبل أن يستعد نور الدين ، وتـوجهوا إلى مصر ، واحتلوا بلبيس ونهبـوها وأسروا أهلهـا وحـاصروا القـاهره ، واصطف أهالي مصر فوق الأسـوار وجـاهدوا جهـادا حسـنا ، وقاوموا الأعداء فاستنجد خليفة مصر العـاضد بنور الدين بعـد أن قص ضفائر نسائه وأرسلها إليه قائلا : إن نسائي يتـذللن بـاكيات بدموع مدرارة ويلتمسن أن تسـارع إلى إغاثتهـن وأن تعمـل على إنقاذهن من الوقوع في أيدي الفرنجة ، ومكث نور الدين شهرين يعد العدة للقتال وبسبب تمهله واشتداد القتال أرسل وزير مصر شـاور إلى عموري وزعماء الفرنج يقول لهم : إنكم تعلمون بمـودتي لكم ، ولو أعرف أن العرب يسايروني لتخليت لكم عن مصر حالا ، لكن لو سمعوا شيئا مني حول هذا الموضوع لقتلوني حالا ، ولهـذا أعرض عليكم ماشئتم من الذهب شرط أن تعودوا إلى بلدكم ، ويمـكنكم أن تقيموا لكم وكلاء يجبون الجزية كما كان من قبـل لأنه إذا جـاء نور الدين واحتل المدينة فستخسرون وقتها الجزية والمدينة معا ، واقتنع الفرنج وعادوا إلى بلدهم وغادروا مصر بعد أن رحبوا برأي شـاور وعقدوا الصلح وفرضوا على المصريين ألف ألف دينار ، دفـع لهـم شاور منها على الفور مائة ألف على أن يجمع لهـم بـاقي الذهـب ويبعثه لهم بعد رحيلهم .

وعندما علم نور الدين أرسل جيوشه إلى مصر وسير معها شيركوه وسير معه صلاح الدين ابن أخيه ، وزار شيركوه عند وصوله مصر الخليفة العاضد ، وحظي لديه ، وشرع يمالئه بكلمات مغرية لأن الوزير شاور المسؤول عن توزيع الأرزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئا من المال ،واستعد شاور ليولم وليمة لأسد الدين وصلاح الدين ليقبض عليهما لولا أن ابنه ثناه عن عزمه كما أن صلاح الدين كان يريد أن يفتك بشاور ولكن عمه شيركوه نهاه عن ذلك ، وفي يوم من الأيام ذهب شاور لزيارة شيركوه فلم يجده إذ كان قد سار ليتبرك بقبر أحد مشايخ دينه ، فركب حصانه وركب معه صلاح الدين الذي التقى به في الطريق وفيما هما يتحدثان ألقاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يقتله دون أخذ رأي عمه الذي أمره بإعلام الخليفة بذلك ووافقهما الخليفة ، لأن شاور كان لايطيعه ، وهكذا قتل شاور وتم الاستيلاء على أملاكه ، وتولى شيركوه مكانه وسمي ملكا وقائدا أسوة بسائر وزراء مصر ، ولم يتنعم شيركوه بالوزارة سوى شهرين فقد أدركته المنية وتوفي بداء الخناق ، وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين فاستمال بعطائه الجنود واستطاع السيطرة على مصر .

ولم يكن لشيركوه سوى ابن واحد يدعى ناصر الدين ليخلفه وقد أنيطت مدينة حمص به وبأبنائه ، أما أخوه نجم الدين أيوب فكان له ستة أولاد : الأول شمس الدولة توران شاه الذي تولى الاسكندرية ، والثاني : شاهنشاه والدعز الدين فروخ شاه ،وتقي الدين عمر الذي تولى وبنوه حماه ، والثالث : سيف الاسلام طغتكين وتولى اليمن ، والرابع : صلاح الدين يوسف وتولى مصر وفلسطين وسورية ومابين النهرين ، والخامس : الملك العادل أبو بكر الذي خلف صلاح الدين ، والسادس : تاج الملوك بوري الذي مات عندما حاصر أخوه صلاح الدين حلب .

- ٢٣٣٠ -

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي السنة ١٤٨١ لليونان (١١٧٠ م) ولى زعماء ملطيه أبا القاسم الاخ الصغير لمحمد صاحبها ، بسبب كره الملطيين واشتد غضبهم على محمد هذا بسبب ملازمته لامرأة زانية وساحرة فأخذها وغادر ملطيه وجعل يتنقل من دار إلى دار .

وفي هذا الوقت أخذ مليح الأرمني صاحب قيليقية يعتدي على المسيحيين فزحف ضده ملك بيت المقدس تحته الحمية وسجنه في أحد الحصون ، وبقي كذلك حتى استغفر من الملك وأقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الأتراك ، فعفا عنه وعاد .

وفي عام ٥٦٥ للعرب (١١٦٩ م) توفي صاحب الموصل ابن زنكي قطب الدين مودود وأوصى أن يخلفه ابنه عماد الدين زنكي ، وكان لقطب الدين نائب وقيم يقال له فخر الدين عبد المسيح ، أصله من أنطاكية ، وكان قد وقع أسيرا وكان يكره عماد الدين فغير الوصية بالاتفاق مع قطب الدين ووليا الابن الصغير سيف الدين غازي خلفا لأبيه فعاهده الزعماء على ذلك ، وعندها توجه عماد الدين إلى عمه نور الدين في سورية تاركا الموصل ، وأخذ يبكي المملكة والوراثة ويشتكي من عبد المسيح لأنه حرمه اياهما .

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين ٢٩ حزيران ــ ١٢ شوال اهتزت الارض اهتزازا عظيما لم يشهد له مثيل من قبل،وكانت الارض مثل السفينة في لجة البحر،واستغرقت الزلازل مناوبتها خمسة وعشرين يوما ، سقطت فيها اسوار حلب وبعلبك وحماه وحمص وشيزر وبغراس وجميع حصونها ودورها وتوفي اهلها .

وقد سقطت حلب كلها سوى كنيستنا ، وكذلك سقطت ثلاث

كنائس لنا في انطاكية هـي : كنيسـة والدة الرب ، وكنيسـة مـار جرجس وكنيسة مار بـرصوما ، وبقيت كنيسـة جبلة الصـغيرة ، وكنيسة في اللاذقية . وذلك تمجيدا لله عز وجل وتشـجيعا للايمـان القويم والمؤمنين ، وقد وصـف البـطريرك ميخـائيل السرياني تلك الزلزلة قائلا : « كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا (الزعفـران) نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسـمعنا بغتـة صوت رعد قوي وسـقطنا على وجـوهنا امـام المائدة المقـدسة ، وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك ، وبعد مـدة طـويلة افقنا كمـن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه مـن ينهض مـن رقـاد ، وتـدحرجت الدموع من عيوننا واطلقنا الالسنة بالشكر والتسـبيح لله تعـالى ، واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومذبح بيعة القسيان وهـي للفرنج ، وقد اشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعـطف على ذلنا نحن الذين لم يبق لنا ملك ولاحاكم منا .

وفي العام ١٤٨٢ (١١٧١ م) زفت ابنة قرا ارسـلان صـاحب حصن زياد الى صاحب ملطية ابـي القـاسم الذي تهـور عن ظهـر حصانه في غمرة الاحتفال بالعرس في ميدان الخيل فـانقلب الفـرح حزنا ، فولى الملطيون افريدون الصغير اخاه عوضا عنه بعد ان زفوا اليه العروس ذاتها على كره منها .

ويومها اجلى قلج ارسلان اهالي ضواحي ملطية بعد ان زحف اليها مع جيوشه من قونية ، وبعـدها انقلب الى قيسـارية لكن نور الدين كان له بالمرصاد فنهض نحوه مـع صـاحب مـاردين وحصـن زياد وارمن قيليقية وابن دانشمند صاحب سبسطية ، فوصلوا الى بـاب قيسارية فطلب قلج ارسلان الصلح ولم يخرج ليحاربهم ، ورد الذين اجلاهم عن ملطية وضواحيها ، وابقى عنده اولاد اخوته الاربعـة ، وحين طالبه نور الدين وجماعته بهم ارسل لهم احدهم على طبق بعد ان ذبحه وشواه ، واقسم ان يفعل الشيء نفسه مع الثلاثة اذا طالبوه بهم ، فتركوه ، وعادوا .

وفي عام(١١٧١ م ــ ٥٦٦ هـ) اغتصبت كل بلاد بني دانشمند من قبل قلج ارسلان .

وفي السنة نفسها وصل خبر وفاة قطب الدين الى اخيه نور الدين وتولى سيف الدين بعد وفاة والده قطب الدين . وبقي عبد المسيح في الموصل يضغط على الاهالي ويشدد عليهم ، ويتصرف كما يحلو له في شؤون الموصل ، مما دفع نور الدين ليقول : ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لاعبد المسيح ، فتوجه نور الدين الى الرقة واحتلها واحتل الخابور كله ونصبين ايضا بعد ان غادر حلب ، وقد زاره صاحب حصن كيفا محمد بن قرا ارسلان ، واستطاع نور الدين ان يحتل جبل سنجار ، واستعمل عليه ابن اخيه عماد الدين ، وحط رحاله شرقي الموصل جهة نينوى ، بعد ان توجه الى مدينة بلد وعبر دجلة ، وقد سقط صدفة احد ابراج الموصل الذي يبدو انه تصدع في السنة الماضية عند حدوث الزلزلة العنيفة . عند وصول نور الدين الموصل .

وخاف عبد المسيح ان يقتل فأرسل يطلب الامان ، عندما وجد ان العرب قد مالوا الى نور الدين ، واشترط ان تبقى الموصل مع سيف الدين ، لكن نور الدين اجابه بانه لايريد انتزاع الموصل من ابنائه ، لكنه يريد انقاذ اهلها من ظلم عبد المسيح وينقله معه من الموصل الى سورية ، فتم الصلح وترك سيف الدين متوليا امور الموصل بعد ان دخلها نور الدين ومكث في قلعتها ، واقام شحنة يتولى القلعة اسمه سعد الدين كمشتكين ، وتصرف احسن تصرف فاعفى الاهالي من الضرائب وقسم ارث اخيه على جميع اولاده ، وبنى مسجدا ضخما سمي المسجد النوري نسبة اليه ، والحق جزيرة قردو (١٧) بالموصل ، ورجع الى سورية وبرفقته فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله واعطاه عطايا كثيرة بعد ان بقي في الموصل سبعة عشر عاما ، وقد شبه البطريرك ميخائيل السرياني عبد المسيح بمردخاي لانه كان يكره العرب وعلماءهم وقد تظاهر بالاسلام وظل يضمر النصرانية ، وكان يعامل النصارى احسن معاملة .

- ٢٣٣٣ -

وفاة الخليفة المستنجد

وفي هذا العام يئس الزعماء ولاسيما الاستادار من بقاء الخليفة المستنجد حيا ، بعد اصابته بداء المفاصل ، ففتحوا ابواب السجون ، واطلقوا المساجين،فاخبر الوزير الخليفة بذلك فغضب واوعز الى ابن صفية الطبيب النصراني الوحيد الذي كان يزور الخليفة عند مرضه بالكتابة الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفتك بهم ، فنفذ امره وكتب رسالة ووضع الخليفة ختمه عليها وارسلها مع حاجب صغير ، وقال له بان يدفعها الى الوزير دون ان يعرف به احد ، وذهب الحاجب منفذا امر الخليفة لكن الطبيب ذهب الى الاستادار واخبره بما حصل فقبض على الحاجب وفتشه كما قتله ، ودخل مع رفاقه الى دار الخلافة الداخلية وفيها الجواري اللائي صرخن في وجوههم قائلات : كيف هجمتم ياكلاب علينا هجومكم على سفيهات عاريات ، لكنهم لم يعطوا بالا لذلك وتابعوا طريقهم ، ودخلوا غرفة الخليفة وحملوه الى الحمام على الرغم منه بحجة ان الطبيب امرهم بذلك ، وعروه هناك ،ووضعوه في بيت داخلي شديد الحرارة حتى سقط صارخا متأوها ، واخذوا بقرع الباب حتى لاتسمع الجواري صراخه ويعرفن من قتله اذ لم يستطع الزعماء طردهن او ان يتخلصوا منهن،ثم دخل احد الزعماء على الخليفة واخذ يدوس عليه حتى بعج بطنه فنقلوه على آخر رمق حتى تشاهده الجواري ويتحقق انه لم يقتل قتلا،وبعدها رفض الزعماء ان يعطوا الخليفة ماء،وبعدها وعند الحاح الخليفة بطلب الماء امر الطبيب باعطائه الماء ، ظنا منه انه سيموت لدى شربه ولكنه توفي قبل ان يمتص الماء لان حلقومه كان قد انسد ويبس ، وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان يحب جاريه اسمها بنفشة فغارت منها امرأة الخليفة وحثت ابنه ليضاجعها وفعل كذلك ، وعندما طلب الخليفة الجارية اطلعته زوجته على الحقيقة وانها لم تعد تحل له فغضب ، وخولط بعقله وأمر بقتل ابنه ، لكن الزعماء خالفوه فقتلوه وبايعوا ابنه بالخلافة .

ابــــــو الحســــــن المســـــــتضيء بـــــــأمر الله ـ ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م

دام حكم المستنجد تسـعة اعوام ، وكان للمسـتنجد ابـن حليم ومتواضع لم يفكر يوما بالخلافة ، وقد وقـع عليه اختيار الزعمـاء الذين قتلوا والده فبايعوه ، ولكنهم قبل ان يبايعوه اسـتحلفوه بـان يرد لهم ما اخذه ابوه منهم ، والا يغدر بهم او يقتلهم ، فاقسم لهـم بذلك ، وكذلك فعلوا باخيه بعد ان اسـتحلفوه وهـددوا بقتله ، ثـم هددوا بالقتل جميع ابناء الاسرة ، فلمـا اسـتحلف الزعمـاء جميع ابناء الاسرة بايعوه بالخلافة واطلقوا عليه اسم المستضيء .

وفي عام ١٤٨٣ يونانية(١١٧٢ م) عم الارض الثلج حتى الهند التي لم تكن تعرف الثلج ابدا ، ويقال ان ارتفـاع الثلج بلغ يومهـا اربعة عشر شبرا ، وتجمدت الينابيع والانهار ، ومـاتت الحيوانات والطيور من الجوع والعـطش ، امـا الناس فلم يعـد يتيسر لهـم الانتقال من قرية الى اخرى ، فلزموا بيوتهم لايتحركون منها وكأنها قبور ، وقضى الثلج على العديد مـن المسـافرين وسـكان الخيام ، وعندما تفاقم الجوع في سبسطية بسبب بعد المسـافة ، طلب زعمـاء سبسطية من صاحب كبدوكية اسماعيل بـن دانشـمند قمحـا لهـم ولذويهم يمسكون به رمقهم الى ان يحل الصيف لانه يملك اهـراءات كثيرة مملوءة بالقمح ولكنه رفض طلبهم ، فهجمـوا عليه ، واحتلوا الأهراء وفتكوا به وبامرأته التي هي أخت السلطان قلج ارسـلان ، وقتلوا معهما خمسمائة شخص من الحشم والعبيد والجـواري ثـم أرسلوا الى دمشق في طلبه عمه ذو الذون ، فأقبل وتولى السـلطة في سبسطية بعد أن كان منهزما من وجه السلطان.

في عام ١٤٨٢ يونانية(٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)ارسـل نور الدين كتابا الى صلاح الدين كي يخطب لخليفة بغداد ويلغي الخطبة بـاسم العاضد ، لكن صلاح الدين اجل هذه المسألة خوفا من قيام ثـورة ،

فالح نور الدين مرة ثانية ولم يستطع ان يخالفه ، فاختلف زعماء مصر وانقسموا الى فرقتين عندما استشارهم صلاح الدين في هذه المسألة ، احداهما وافقت على ذلك والثانية نهت عنه ، وحضر الى هناك الامير العالم وهو رجل فارسي وقال لهم : انني سأبتدي الخطبة واجنبكم المشكلة،وبالفعل صنع كذلك،فصعد يوم الجمعة المنبر ، ودعا لابن العباس المستضيء بدلا من ابن علي العاضد ، وايده الجمهور ، وحصل مثل ذلك في مساجد مصر كلها يوم الجمعة التالية والغيت بذلك خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر أنذاك مريضا ، وتوفي دون أن يدري بما حصل،لأن اصدقاءه لم يعلموه بذلك خوفا من أن يعاجله الموت، أما ابناء الخليفة وآله فقد اعتقلوا من قبل صلاح الدين الذي فصل الاناث عن الذكور كي يقطع نسلهم ، واطلق العبيد والجواري.

وفرح بذلك العرب من جماعة القضاء والقدر وجماعة مؤيدي الحرية والاختيار ، وقد قيل ان الخلفاء المصريين ينحدرون من رجل مجوسي أو يهودي لاكما يزعمون من علي وفاطمة ، وقد نظم الشعراء القصائد الكثيرة التي تتكلم عن ظهور الدولة اليوسفية والغاء الدولة الفرعونية ، وقد ظهر منهم في المغرب اربعة عشر خليفة ، ثلاثة في افريقية ، وهم: المهدي والقائم والمنصور . وأحد عشر في مصر وهم: المعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد.

ولم يعارض صلاح الدين حين استقل بمصر سوى نور الدين الذي ارسل اليه يقول . انني احاصر الكرك فجهز جنودك وسارع بالقدوم الى هناك ، لكن صلاح الدين لم يأبه بالامر . فغضب نور الدين وقرر أن يذهب لمصر بنفسه كي يخرج صلاح الدين ، عندها جمع صلاح الدين أعوانه وشاورهم في الأمر ، لكنهم لم يدروا ماذا يقولون الى أن نهض ابن أخي صلاح الدين الشاب وقال لهم بأن يحاربوا نور الدين اذا حاول دخول مصر ، فوافقه الشباب على

رأيه ، لكن والد صلاح الدين وخاله لم يعجبهما الأمر، فصرخ والد صلاح الدين غاضبا وقال: هل بين الحضور من يرغب لك الخير اكثر مني ومن خالك ؟ فقال صلاح الدين : كلا، فقال والده : كن على ثقة انني وخالك اذا شاهدنا نور الدين سوف نخر ، ونقبل الأرض بين يديه واذا كان الأمر كذلك فمن يتجاسر ويشهر السلاح عليه ؟ ان بلاد مصر بأجمعها وغيرها ايضا هي لنور الدين ، واذا اراد ان يعزلك فلا حاجة به ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه أن يرسل شخصا واحدا ،ثم نهض الشيْخ نجم الدين ووجه خطابه الى الأعوان قائلا . اننا جميعا من عبيد نور الدين وله ان يصنع بنا مايشاءه ، ثم قال والد صلاح الدين لابنه بعد أن انصرف الزعماء . انك يافع لاتملك عقلا ولاسياسة، الا تدري اذا علم نور الدين بتمردك يترك كل شيء ويلاحقك حتى يقضي عليك ، ومن ياترى من جنود نور الدين يتركه ليتبعك ، ونبهه قائلا ان كل كلمة تصدر عني وأنا والدك ستصل الى نور الدين ، ثم نصحه بإرسال رسول يخاطبه بوضوح وصراحة بأنه عبده ويقدم له الولاء ولاء عبد لسيده ، وأن خوفه من الفرنج هو الذي يجعله يتردد في الذهاب لملاقاته ، خاصة أن أحوال مصر مضطربة بسبب ذلك ، وقد فعل صلاح الدين كما أراد الشيخ والده ٠

وفي تلك الفترة تعرضت قرى كثيرة للنهب حين جاءت الى أطراف الصعيد جماعات غفيرة من النوبة ، ونشب القتال بينهم وبين الجنود الذين وجههم صلاح الدين ، فمات العديد من الطرفين ، ثم تقوى السودان فجاء شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين في جيش غفير ، فهربت النوبة ولاحقهم العرب فقتلوا وغزوا واستطاعوا احتلال قلعة ابريم وأقاموا عليها واليا ، لكن العرب عندما رجعوا استرجع النوبة قلعتهم وعادوا اليها ، وقد أرسل ملك النوبة الى شمس الدولة رسولا وهو في قوص ، وطلب منه الصلح فوافق شمس الدولة بشرط تأدية الجزية ، كذلك بعث شمس الدولة مع رسول النوبة رسولا اسمه سعود الحلبي فوصل الى العاصمة دنقلة ، واستطاع خلال مسيرته أن يتعرف على الضيق ويكتشف ان

أهالي النوبة لايزرعون الا الدخن ، وعندهم النخيل ويأكلون الدخن ملتوتا بتمرهم ونتاج مواشيهم ، ولايوجد عندهم سوى بناء واحد هو قصر الملك وداره ويسكنون المغاور والخيام ، وروى سعود الحلبي ان الملك أمر بكي يدي على شكل صليب وذلك عندما دنوت منه وسلمت عليه ، وقد كان عاريا ويركب حصانا عاريا لكنه التف برداء اطلس غير مخيط ، وكان رأسه مكشوف واصلع ، وقد أطلقني الملك بعد ان دفع لي خمسين رطلا من القمح ، وروى ايضا انه عندما سلم عليه استغرق بالضحك والقهقهة .

وفي عام ٥٦٩ للعرب (١١٧٣ م)احتلت اليمن واستملكت من قبل شمس الدولة .

وفي أيار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) توفي بداء الخناق في دمشق نور الدين،وكان رجلا قامته طويلة لالحية له وتحت ذقنه بضع شعرات ، بسيطا في لباسة وكسوته يكره العرب المتحدرين من علي ، واستعاد ابان حياته من الفرنجة مايزيد على خمسين مدينة وقلعة ، وبنى في دمشق بيمارستانا كبيرا ومدرسة وبني مسجدا ضخما في الموصل ، وحدث الرحبي الطبيب الدمشقي الذي ادركت انا الحقير ابنيه الطبيبين الفاضلين ، قال:« لما تفاقم داء نور الدين ودعيت الى عيادته مع سائر الأطباء ، شاهدناه في بيت ضيق صغير وطلبنا منه أن يفصد في الوريد فأبى ، ولم نر أن نلح عليه لأننا كنا نهابه جدا ، وما عتم ان مات».

الملك الصالح اسماعيل

وقام بعد نور الدين ابنه الصالح اسماعيل ، وحالفه جميع الزعماء ، وخطب له في مصر صلاح الدين ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وفرح صاحب الموصل سيف الدين غازي فرحا عظيما حين نعي اليه عمه نور الدين ، وأمر المنادين ان ينادوا بحرية الأهالي في أن يشربوا ويسكروا ويبذخوا علنا ، ثم احتل الرها

وحران وماحولهما حين جاء الى بلاد مابين النهرين بجيوش جرارة ، وبعث قائد الجيش الحلبي شمس الدين الى زعماء دمشق وقال لهم بأن يرسلوا الى حلب الملك الصالح قبل ان ينتزع من ايديهم ، لكنهم لم يتركوا الملك الصالح يغادرهم خوفا من ان يتولى سياسة الدولة ، وبعث صلاح الدين يعاتبهم لأنهم لم يستعينوا به ولم يطلبوا منه المساعدة وقال : « لو عرف نور الدين ان بينكم من هو انشط مني لولاه مملكة مصر ، والآن فاني قادم اليكم اذ يترتب علي ان ادبر مولاي وابن مولاي دونكم ».عند ذلك خاف الزعماء فارسلوه الى حلب ، وجعلوا سعد الدين الحاجب قيما للصالح ، وقد كان سعد الدين في الماضي حافظا لقلعة الموصل ثم هرب وجاء الى دمشق .

وبعث الدمشقيون في طلب الصلح مع ملك بيت المقدس عموري وقبلوا بتأدية الجزية وذلك تخوفا من صلاح الدين ، لكن بعد مرور أربعين يوما على موت نور الدين توفي في عكة في الحادي عشر من تموز الملك عموري ، وقد عظم حزن المسيحيين لموته وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان عرب سورية ومصر يهابون عموري .

وزحف سلطان قونية قلج أرسلان الى سبسطية ونوقيسارية وقومانا وملكها جميعها جين بلغه نبأ وفاة نور الدين حليف ذي النون بن دانشمند ، فتوجه ذو النون الى القسطنطينية ، فطلب النجدة من ملك اليونان ، وانتهت يومها زعامة بني دانشمند التي دامت (١٢٢) سنة.

وفي هذا الزمان ضايق امير ميافارقين الأرمن السناسنة ، فبعثوا الى شاه أرمن صاحب خلاط وسلموه حصونهم ، كذلك عاد ملك الكرج انتزع من العجم مدينة آني .(١٨)

قدوم صلاح الدين الى دمشق

وفي عام ١٤٨٥ يونانية(٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) أقبل صلاح الدين الى دمشق بعد ان حشد جيشه متظاهرا بأنه قادم ليساعد مولاه ، ودخل الى بيت ابيه ومكث فيه،ثم وسوس الى حافظ القلعة ريحان الخصي ففتح له الباب ، ودخل دمشق واحتلها أخوه سيف الاسلام وأصحابه وأيد الخطبة للملك الصالح اسماعيل ، ثم ترك دمشق واتجه الى حمص واستولى عليها وتابع الى حماة وملكها ، وحين وصل الى جبل جوشن قرب حلب ، احتشد الحلبيون جميعا ومعهم أميرهم أمام ميدان باب العراق ، وطلبوا من الصالح ان يخرج ويكلم الجماعة بشكل مؤثر لصغارهم وكبارهم ، فلبى الصالح طلبهم ووقف في مكان مجاور في الميدان ، وقال لهم : أيها الحلبيون لقد ربيتموني وهاأناذا استغيث بكم ، وليس لي أب أو أخ سواكم ، ثم اجهش بالبكاء لدرجة الاختناق فبكوا جميعا لبكائه ، ونادوا بصوت واحد : نحن عبيد لك ومستعدين للتضحية فداء لك .

أما الفرنج فقد لاموا صلاح الدين على عمله هذا وأرسلوا اليه ينكرون ذلك وقالوا له : بعملك هذا تنكر جميل مولاك ، ودعوه الى ان يسمعهم ويترك حلب والا فسوف يهجمون عليه وينقلبون ضده ، ولما رأى صلاح الدين أن الأمور لن تسير كما رسم لها ، وأيقن أنه لن يقدر على خداع الحلبيين ، انقلب عائدا نحو بعلبك فاحتلها ، ثم توجه الى حمص وتمكن من امتلاك قلعتها ، وبعث الحلبيون الى صاحب الموصل سيف الدين قائلين له ومنبهين بأنه اذا سمح لصلاح الدين باحتلال حلب فلن يترك الموصل ابدا ، فاتفق سيف الدين مع الحلبيين وساروا الى حماة بجيش كثيف بقيادة عز الدين اخي سيف الدين ، وبعثوا الى صلاح الدين وهو في حمص رسولا يخبره انهم يريدون ان يسترجعوا جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق فقط ويكون مثله مثل جميع الأمراء

الذين يخضعون للملك الصالح ، فأجابهم صلاح الدين : بأنه لم يأت الا ليحفظ مولاه وبلاده وخزائنه لا ليحاربه وأنه لن يخالفهم ابدا ، ولكن لما سمعوا رده استضعفوه ، فأضافوا طالبين منه مغادرة سورية والعودة الى مصر والا ليس له الا السيف ، ثم توجهوا الى الرستن فسار اليهم صلاح الدين وتحارب الجيشان في ضواحي حماة ، فانتصر صلاح الدين وجماعته ، وهزم المواصلة والحلبيون وارتدوا منهزمين ، فأمر صلاح الدين جيوشه بألا يلاحقوا المنهزمين ولايقتلوا أحدا ، وعندها بعث اليه الملك الصالح يسأله الصلح ويعرض عليه ترك سورية الخارجة للصالح ، ويتولى دمشق وحماة وحمص ، فرفض صلاح الدين ذلك ولم يقبل الا بعد ان اضافوا الى ذلك المعرة وكفر طاب ، واقسم أن يخطب للملك الصالح في كل البلاد التي يأمرها وأن يساعده كلما دعت الحاجة لذلك .

ولما سمع المستضيء خليفة بغداد أخبار انتصارات صلاح الدين أرسل اليه حللا ملكية وسيفا وألوية ومرسوما ، وكان يومئذ قطب الدين قايماز متمردا على الخليفة ومحاصره في قصره ، فخاف الخليفة خوفا شديدا ووثب الى السطح وأمر المنادي بالمناداة بأعلى صوته مستنشدا البغداديين لمساعدة خليفتهم وامام دينهم وليحثهم على ذلك بدافع الدين ، وقد لبى اهالي بغداد النداء وهجموا على قايماز بالعصي والسيوف والأحجار وقطع القرميد واستطاعوا ان يتغلبوا عليه وعلى رجاله فهربوا الى الصحراء وكان العطش قد أدركهم فوجدوا صهريج ماء خنقت فيه الأفاعي ، فانتشر السم في أجسادهم وفي خيولهم ، وعادوا الى الموصل ليقضوا نحبهم بعد ان قضي على أغلبهم في الطريق .

وفي عام ١٤٨٦ يونانية (١١٧٥ م)حاول زعماء أرمينيا اغتيال اميرهم مليح فهرب الى احد الحصون ، لكن الحراس تمكنوا منه وقطعوا جثته اربا اربا والقوها للكلاب ، وذلك انتقاما للمسيحيين الذين عذبهم والحق بهم السوء والأذى ، ثم طلب الزعماء من

طرسوس روفين ابن اخيه اسطفان وسلموه زمام الأمور فقضى على قتلة عمه مليح لأنهم مثلوا في جثته بالقائها للكلاب .

وفي عام(١١٧٥ م ـ ٥٧١ هـ) بعث صاحب الموصل سيف الدين الى الصالح في حلب يلومه على مهادنته صلاح الدين ، ثم سير حيشه وكان يضم نحو عشرين ألف فارس واتجه الى حلب ، وأطلق سراح زعماء الفرنجة الذين كانوا قد سجنوا هناك منذ فترة طويلة .

ثم باع بثمانين ألف دينار قمص طرابلس وبخمسين ألف دينار جوسلين بن جوسلين ، وبمائة وعشرين الف دينار امير انطاكية البرنس ، واستحلفهم ان يساعدوا العرب اينما وجدوا

وتوجه الحلبيون والمواصلة الى حرب صلاح الدين الذي حشد بدوره قواته وتوجه للتصدي لهم ، فالتقى بهم عند اطراف تل السلطان بين حلب وحماه فهزمهم ، واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم ووجد هناك مجموعة من الطيور كالبلابل واليمام والحمام في اقفاصها ، ومائة من المطربات العاهرات ، وطلب احد ممثلي الروايات ، وبعثه مع الاقفاص الى سيف الدين ،وقال له بأن يذهب ويسلم على سيف الدين بدلا مني وقل له : « ارجع الى شنشنتك ولا عب طيورك لانها تحميك من كل خطر » وكان قد قيد زعماء الموصل ومن بينهم فخر الدين عبد المسيح ففكهم والبسهم ثيابا ومنحهم هدايا وأرجعهم بأمان وسلام تاركا حلب على ماكانت عليه ، واحتل قلعة بزاعا عندما مر بها وتوجه الى منبج وتولاها ، ووقع على ثلاثمائة ألف دينارفي قلعتها ، ثم توجه فحاصر عزاز أربعين يوما استطاع بعدها احتلالها .

الحرب التي اندلعت بين منويل وقلج ارسلان

وفي عام ١٤٨٧ يونانية (١١٧٦ م) بنى ملك اليونان منويل مدينتين على حدود الأتراك وجعل فيهما الجنود وأخذوا بازعاج اصحاب قلج ارسلان ، لأن قلج ارسلان رفض ان يرد الى آل دانشمند أماكنهم على الرغم من الحاح منويل ، فسير الملك ثلاثين ألف فارس من اليونان مع ذي النون التركي ابن دانشمند ، وتمكنوا من محاصرة نوقيسارية ، فكتب اتراكها بلسان اهليها النصارى في اليونانية رسالة يقولون فيها : « لاتصدقوا ذي النون فهو يواصل الاتراك برسائله ، ويحاول ان يغدر بكم ويدفعكم الى اصحابه » .

عندها دب الخوف في قلوب اليونانيين فتركوا المدينة وتتبعهم الأتراك وقتلوا ابن اخت الملك ، فغضب الملك وتوجه الى حدود الأتراك مصطحبا معه جيوشا كثيفة ، وترك العجلات والأثقال ، وسمح لليونان بنهب وحرق القرى التركية الخالية من الناس والزاد ، وأثناء ذلك تمكن الرجالة الأتراك من اجتياز الأودية العميقة والجبال الى أن وصلوا الى معسكر اليونان فنهبوه وأحرقوا العجلات وأخذوا يدحرجون الحجارة الضخمة من قمم الجبال فسحقت اليونان وخيلهم ، وعندما حل الليل بعث الملك الى السلطان سفيرا يطلب الصلح فلبى السلطان طلبه لأنه كان خائفا مثله ، وسير السلطان في خدمة الملك ثلاثة أمراء من الأتراك رافقوه الى حدود بلاده ، وكان الأتراك قد انتهبوا من اليونان صليبا يشتمل على قطعة من خشب صليب الصلبوت ، وذلك بين حملة الصلبان والحلل التي كانت ترافق اليونان في كنائسهم (النقالة)، فأرسل الملك ذهبا وافرا الى السلطان واسترجع عود الصليب .

موت نجم الدين حاكم ماردين

وفي هذا العام توفي صاحب ماردين نجم الدين بعد ان دام حكمه اثنين وعشرين عاما ، عامل خلالها النصارى خير معاملة وصان كنائسهم وأديرتهم ، وتولى بعده ابنه قطب الدين الذي اقبل اليه عمه صاحب حاني وعمه صاحب دارا طائعين ، وصالحهما بعد ان تحرش بهما ، واستطاع ان يقتل الف عربي (معدي)وينتزع منهم اثني عشر الف جمل بعد ان سارع المعديون الى غزو بلده حين زاع خبر موت ابيه ، وهرب من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦ م) زحف صلاح الدين مجددا ضد حلب ، وعندما لم يستطع صاحبها الصالح مقاومته تذلل وطلب منه الموادعة ، فقبل صلاح الدين وعقد صلحا مع حلب والموصل وارمينية الصغرى ، ثم بعث الصالح اليه اخته التي طلبت منه اعزاز فأجابها ولبى طلبها ، ثم ترك حلب متوجها الى دمشق وتزوج بعصمة الدين امرأة نور الدين ، وسلم أمور دمشق الى أخيه شمس الدين تورانشاه ، وعاد الى مصر وشيد سورا واحدا يلف مدينتي مصر والقاهرة وبنى فوق الجبل المتوسط قلعة .

هزيمة صلاح الدين عند عسقلان

في السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) قتل صلاح الدين العديد من النصارى وسفك الدماء وغزا وأسر عندما زحف الى عسقلان في جيوش كثيرة ، فخاف الفرنج لأن ملكهم كان في بيت المقدس مريضا بمرض الجذام ، فتشجع متحمسا واجتمع بجنوده ثم ترجل عن حصانه وخر ساجدا أمام الصليب المقدس وأخذ بالبكاء ، فتأثر الجنود وأقسموا على الجهاد والقتال حتى النهاية ، وكمنوا حتى

توغل الأتراك في الضواحي منهمكين من الغزو ، ولم يستأنفوا القتال فاعتقد الأتراك أن الفرنج ضعفاء ، لكن الفرنج سرعان ماتوجهوا اليهم وأدركوهم وهم يجتازون النهر ، وقد أعمت عاصفة أرسلها الرب الأتراك بعد أن جرفت الرمال من ناحية الفرنج اليهم ، وهاجمهم الفرنج فتراجعوا وتاهوا في الصحراء القاحلة ، لكن الفرنج لاحقوهم خمسة ايام ، واخذوا بجمعهم جماعة جماعة وقيدوهم وقتلوهم ، لكن صلاح الدين استطاع الفرار الى القاهرة مع قليلين ، قال المؤرخ : « شاهدت حاملي البشرى راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر ، و الفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لأن السلطان سالم ، فعرفت ان البشرى كانت عكس الواقع »

احتلال قلج ارسلان ملطية .

وفي هذا العام (١١٧٧ م)تصالح قلج ارسلان مع منويل ملك اليونان ، وجاء قلج ارسلان الى ملطية وبقي أربعة أشهر مشددا عليها ولم يستطع ان يدخلها فأوعز الى جنوده ليشتوا في بيوت ابتنوها من اللبن ، وشيدوا له بيوتا كبيرة من الحجارة التي نقلوها من المقابر ، وخاف امير المدينة وهو من اسرة دانشمند ان يتفق الزعماء ويسلموه المدينة محتجين بالغلاء ،فسار الى حصن زياد بعد ان بعث اليه السلطان الأمان ، واستطاع السلطان يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول عام ١٤٨٩ يونانية (١١٧٨ م) أن يحتل ملطية .

وفي العام التالي وبغية مضايقة الدمشقيين ابتنى الفرنجة على شاطىء الأردن في مكان يطلق عليه مخاضة يعقوب مدينة بعد ان اتفقوا مع الملك بلدوين(١٩)

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الأفرنج في فلسطين :

وتوجه صلاح الدين من مصر الى بعلبك بعد ان خرج حاكمها عليه ، وشدد عليه الحصار الى ان طلب الهدنة وسلمه المدينة ثم ذهب الى فلسطين فثار عليه الفرنج وانتصروا عليه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا،لكن بعد ان اطمأن الفرنج الى نصرهم كمن لهم العرب وفاجأوهم واعتقلوا نحو مائة محارب منهم وقبضوا على مقدم الداوية ، ثم سار صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الفرنج وامتلكها ، وكان يوجد فيها يومئذ خمسمائة من الرهبان الداوية الذين شاهدوا غلبة العرب عليهم ، فمنهم من أحرقوا انفسهم ، ومنهم من ألقوا بأرواحهم في نهر الأردن ، فغرقوا ومنهم من رموا بأنفسهم على الصخورفماتوا وقضت سيوف العرب على من بقي منهم .

مرض منويل ملك اليونان وموته

وفي السنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) مرض ملك اليونان منويل ، ولما احس بنهايته توجه الى احد الأديرة وبايع ابنه الكس ، ووضع له التاج ، وبقي منقطعا في الدير ، واناط بامرأته والدة الكس خزائن الدولة وجعلها راهبة هناك، ووضع اثني عشر زعيما ليشرفوا على تدبير الجيوش ، لكن الملكة الراهبة ارتكبت المنكر مع احد اولئك الزعماء الاثني عشر فحاول البقية ان يخلعوا ابنها ويولوا مكانه ابنة منويل وهي من زوجته الأولى بدلا من الملكة الراهبة ، ويبايعوا زوجها بالملكة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

وانكشفت المكيدة فهرب الزعماء من الخوف والتجأوا الى الكنيسة الكبرى ، وحدث قتال دام سبعة ايام في المدينة سفكت

خلالها الدماء ، ووجه رجال الملك نحو كنيسة اياصوفيا المنجنيقات ، لكن البطريرك ثيودوسيوس توجه الى الملك وامه اللذان اقسما له بانهما لن يؤذيا احدا ممن هو داخل الكنيسة ، فخرج الجميع مطمئنين ، لكن الملك وامه حنثا بقسمهما وسملا عيون الزعماء وفتكوا باحزابهم ، فانزعج البطريرك والغى قرع الذواقيس واوقف الصلاة تسعة اشهر ، ثم ابرم الحرمان على المدينة وتركها واعتكف في دير قريب ، ثم شيع الموتى جميعا ودفنوا دون صلاة.

وفي تلك السنة وجه السلطان قلج أرسلان جيشا الى رعبان ، فتصدت له جيوش سلطان دمشق ، فما كان منه إلا أن هرب الى كبدوكية ، وكان لجيش دمشق سجلا حافلا في محاربة الفرنجة.

وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله

وفي عام ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) توفي الخليفة المستضيء بأمر الله وخلفه ابنه الناصر.

ابو العباس أحمد الناصر لدين الله

مدة حكمه سبعة وأربعون عاما ، فور تسلمه الخلافة ، أودع الوزير ابن العطار السجن ، واستولى على كل املاكه فتوفي وكان ذلك ليل الأربعاء ١٢ ذي القعدة ، وقد ثار غضب البغداديين عندما شيع جثمانه ، وأنزلوه عن كتف من كان يحمله ، وفلقوه وربطوا احليله بحبل ثم سحبوه متجولين به في بغداد ، وتمادوا في هزئهم به الى أن بادر الأتراك فواروا جثمانه ، وقد شهدت تلك السنة ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة حتى عمت الأرض كلها .

المواجهة بين صلاح الدين وقلج أرسلان

وفي عام ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١ م) خرج صلاح الدين مهددا السلطان قلج ارسلان والقضية أن نور الدين بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا كان متزوجا من ابنه السلطان ، وكان يهضم حقوقها ويسيء معاملتها ، فتدخل السلطان والدها وهدده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين الذي طلب من قلج أرسلان أن يصفح عن زوج ابنته فأبى فاتفق صلاح الدين مع الفرنجة الذين كانوا يقيمون على الساحل وأعد جنده ، وقصد حلب الى أن بلغ برج قرا حصار قرب نهر الأزرق أي بين الحصن وحصن منصور ، فمكث في ذلك البرج ثم واصل مسيره الى نهر كوكسو فبادر اليه نور الدين فرحب له وأعطاه الأمان. فأوفد السلطان قلج أرسلان سفيرا له الى صلاح الدين فعقدا صلحا يضمن أن يعامل نور الدين زوجته معاملة حسنة ، ومن ثم توجه صلاح الدين الى النهر الاسود ، فانتشر جنده في قرى قيليقلية ، والتي كان صاحبها روفين يضطهد الرعاة التركمان ويسبي نساءهم ومواشيهم وأولادهم ، فأرسل روفين هذا كتاب تضرع الى صلاح الدين تذلل فيه ، كما أرسل اليه كمية من الذهب ، وأفرج عن خمسمائة من الأسرى الأتراك وبذلك استطاع أن يعقد صلحا مع صلاح الدين ، فتحول عنه صلاح الدين ، وأما قلج أرسلان ، فقد رجع الى ملطية فأصلح ما تداعى من سورها.

زواج البرنس صاحب أنطاكية من احدى الزانيات

وفي هذه الأثناء - ١١٨١ م - طلق البرنس صاحب أنطاكية زوجته الشرعية اليونانية ، وتزوج من احدى الزانيات ، فحرم البطريرك الأنطاكي القس الذي عقد هذا الزواج ومنع قرع النواقيس وإقامة الصلوات ، فثار البرنس ونهب محتويات كنائس الفرنجة

- ٢٣٤٨ -

وديرتهم ، فبادر بطريرك بيت المقدس وعدة قمامصة ، فصالحوه وباركوا زواجه من تلك الزانية ، فأعاد الى الكنائس والديرة ماأخذه منها.

وفي هذا العام أيضا كانت وفاة سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل ، وقد كان منغمسا في رغد العيش وتعاطي الخمرة ، وكان أهل الموصل إبان ولايته يعيشون حياة رغد وبحبوحة ، وقد خلف سيف الدين هذا أخوه عز الدين مسعود الذي كني بأبي الفتح ، وسار سيرة حميدة ، وأما صلاح الدين ، فقد قصد دمشق ثم غادرها الى مصر ، في حين تداعى بناء قلعة القاهرة ، وفي الاسكندرية توفي شمس الدين أخي صلاح الدين.

وفاة الملك الصالح اسماعيل

وفي عام ١٤٩٢ يونانية ، ٥٥٧ للعرب (١١٨١ م) مرض صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل ، وعندما أيقن أن منيته قد دنت ، كتب لابن عمه عز الدين مسعود كي يبادر ليخلفه في الحكم قبل أن يأتي صلاح الدين ، واتفق مع زعماء حلب على ذلك ، ثم مات ويقال إن عبدا أطعمه عنقودا مسموما ، فقتله ، ويقال ان موته كان بسبب مرض المفاصل ، وقد حزن عليه أهالي حلب،والياروقيون (٣٠) الذين كانوا يسكنون في قرى حلب ، وقد بعث هؤلاء الى صاحب سنجار عماد الدين زنكي كي يجعلوه خلفا للملك الصالح ، وأما الحلبيون ، فقد طلبوا اليه أن يتحول عنهم ، وإلا فسيلقونه في غياهب السجن ، فرحل عنهم في حين وصل الى حلب قادما من الموصل عز الدين مسعود فاحتل القلعة ، وتزوج من أم الملك الصالح ، ثم بعث بها الى الموصل كما بعث اليها محتويات الخزاين المكتظة بالأموال من أيام نور الدين بن زنكي ، ووقع هدنة مع بوهيموند البرنس صاحب أنطاكية لمدة عامين ، ثم غادر حلب تاركا في قلعتها ابنه نور الدين الصغير وأقام عليه وصاية ، وقصد مرج

قرا حصـــار ، واوفـــد الى أخيه عما الدين صـــاحب ســـنجار سفيرا ، ولكن عما الدين هذه كان قد تحول بأهله وابنائه عنهـا الى قرقيسيا مؤملا أن يعيد له صلاح الدين مملكة أبيه ، وأبلغ الســفير بأنه لن يعود مــا لم يتنازل له أخــوه عز الدين مســعود عن حلب أو الموصـــل ، أو مـــا بين النهـــــرين ، فتنازل له عز الدين عن حلب فقط ، على أن يبقى ابنه نور الدين الصغير مقيما في قلعتها فــرفض ذلك عماد الدين بــدعوى أنه يأنف أن يكون تحـــت طـــاعة ابـــن اخيه ، فأضاف عز الدين الى حلب عربان والمجدل وغير ذلك من بلاد الخابور لتكون تحت إمرة عماد الدين ، ولكن هذا الأخير رفض هذا العرض أيضا ، فاقترح الأعيان أن يتنازل عز الدين لعماد الدين عن حلب وقلعتها ، وأخيرا اتفق الأخوان على أن تكون حلب وضواحيها لعماد الدين ، وأن تكون الموصل وسنجار لعز الدين .

وفي هذا العام قصدت سفن فرنجية دمياط ، وقد كان الفرنجة قد هادنوا العرب لمدة سنتين ولكن العرب غدروا بالفرنجة وقبضوا على الفين وخمسمائة من ملاحيمهم وتجـارهم بـدعوى انقضـاء مـدة الهدنة ، ولهذا اغار الفرنجة على مدينة ايله بسفن كثيرة ، وساروا في اماكن لم يسيروا فيها واغتصبوا ســفنا عربيــة كثيرة مشـحونة بالأسلحة والأموال الكثيرة وبـــطشوا بـــالعديد مـــن ســـكان عيذاب ، فوجه صلاح الدين سفنا عدة من الاسكندرية أدركت ســفن الفرنجة وقتل من الطرفين خلق كثير.

خبر عن اندورنيقس اليوناني الخبيث

وفي عام ١١٨٣ لليونان ١٤٩٤ م احتــال الزعيم اليوناني أندرو نيقس الذي كان قد طرده مــن العــاصمة الملك منويل فخــدع الكس ورجع الى القسطنطينية متظاهرة بالاذعان والطــاعة ، ومــالبث أن رمى بأم الفتى وصـــهرها وابنتهـــا بـــالبحر ، ثـــم

فتك بالفتى نفسه سرا ، كما فتك بما يزيد على الف زعيم واحرقهم وفقأ أعين بعضهم ، واغتصب هذا العجوز الخبيث زوجة الكس ، وطرد الفرنجة من العاصمة لكن قبل أن يغادر هؤلاء الفرنجة العاصمة اشعلوا النيران في أربعة عشر ألفا من قرى اليونان واديرتهم ، وعلى أثر ذلك داهم ملك صقلية مدنا يونانية عدة ، وتركها خاوية من سكانها.(٢١)

في عام ١٤٩٣ يونانية ، ٥٧٨ للعرب (١١٨٢ م) غادر صلاح الدين مصر الى دمشق ثم الى حلب في محاولة لاحتلالها ، فنصحه بعض الأعيان أن يتجاوز الفرات أولا ويبسط سيطرته على مدن ما بين النهرين وآثور ، ومن ثم يرجع لاحتلال حلبْ ، فأخذ بهذه النصيحة فاجتاز نهر الفرات ومدن الرها حران والرقة فاحتلها ، وعندما بلغ مدينة عربان دخلها بلا مقاومة ، لأن حراسها قدموا له مفاتيحها ، كما بسط نفوذه على بلدة ماكسين ، وأحسن معاملة أهالي الخابور ، ثم يمم شطر نصيبين ، فاستعد حكامها لملاقاته لكنه حاصرهم وشل حركتهم ، فلم يكن أمامهم إلا أن يسلموه مدينتهم ، فدخلها ثم قصد الموصل وطوقها من جميع نواحيها ، فتوسل صاحبها عز الدين الى خليفة بغداد أن يصلح بينه وبين صلاح الدين ، فكان له ما أراد ، وأرسل الخليفة سفيرا الى صلاح الدين لهذا الغرض ، لكن شرط صلاح الدين كان أن يدفع له أهالي الموصل نفقات رحلته ، أو أن يتخلوا له عن حلب ، فأجابوا بأن ليس لديهم ذهب ، وأما حلب ،فصاحبها عماد الدين وليس من حقنا أن نعطي ما لا نملك

فغادرهم متوجها الى سنجار فتحارب مع صاحبها شرف الدين ابن قطب الدين مودود ، وانتزعها منه ، ثم توجه الى دارا فأذعن له صاحبها صمصام الدين بهرام من بني أرتق ، فتركه عليها ، ورجع الى حران فجعل جنوده في استراحة طوال الشتاء وشهر رمضان والعيد ، وأما هو ، فقد ظل في حران مع قليل من الجند.

وخشي أهالي الموصل أن يرجع صلاح الدين ثانية في الربيع ليحتل

مدينتهم كما فعل بسنجار ، فأستنجدوا بشاه أرمن صاحب خلاط فأنجدهم واتفق لهذا الغرض مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش صاحب ماردين خال عز الدين صاحب الموصل ، واجتمع الخلاطيون والمواصلة والماردينية في البارعية ، وانضم اليهم ألف وتسعمائة فارس من الياروقية المجاورين لحلب ، وزحف هؤلاء جميعا للهجوم على صلاح الدين الذي بادر عندما علم بذلك الى جمع جيشه من حمص وحماة وما بين النهرين ، وقد أتم ذلك خلال ثمانية أيام ، وانضم اليه ابن قرا ارسلان من حصن كيفا ، وعندما بلغت شاه أرمن استعدادات صلاح الدين هذه هرع الى صاحبي الموصل وماردين واقنعهما بعدم جدوى الحرب في الشتاء فعاد كل منهم الى بلاده على أن يجتمعوا في الربيع القادم ، ومع ذلك أخبر صلاح الدين خليفة بغداد بما صنعه المواصلة ، واستأذنه باحتلال آمد ، فأذن له بذلك

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وأيار ١٤٦٤ لليونان(١١٨٣)تمكن صلاح الدين من احتلال مدينة آمد بعدما حاصرها وقتا طويلا ، قاتل خلاله صاحبها ابن نيسان أعداءه قتالا ضاريا ، ولكن الآمديون خذلوه ، وبيان ذلك أن أصحاب صلاح الدين لما احتشدوا بين سوري المدينة هجم عليهم الآمديون وضيقوا عليهم ، فرفع صلاح الدين رايات كتبت عليها عبارات تهديد تحمل الوعيد والايمان المغلظة بأنه لن يرجع عن هذه المدينة ما لم يدخلها ويبطش بأهلها إن لم يستسلموا ، وارتعدت فرائض الآمديون وصاحبهم ابن نيسان خوفا ، فاستسلم وطلب من صلاح الدين الأمان له ولأهله ، فأمهله ثلاثة أيام ليخرج من المدينة ما يشاء من أمواله ومقتنياته ، ثم احتل المدينة ، وقد أخرج ابن نيسان من هذه المدينة الكثير الكثير من الذهب والفضة والآنية والأحجار الكريمة على أن كل ما نقله لا يعادل عشر ما كان بحوزته من الأموال ، وبعد أن بسط صلاح الدين نفوذه كاملا على مدينة آمد أوكل أمرها وأمر خراجها من المال لنور الدين بن قرا أرسلان ، فقيل لصلاح الدين إنك وعدته المدينة لا بأموالها التي تزيد على ثلاثة آلاف دينار؟ فأجاب :إنه لا يحسن بنا

أن نعطي صديقنا المدينة فارغة ، وقد قيل انه عثر في أحد أبراج هذه المدينة على مائة الف شمعه ، وأنه كان في مكتبها الف الف وأربعون الف مجلد أهداها صلاح الدين كلها لكاتبه القاضي الفاضل ، ومكن ولاية ابن ارسلان على مدينةآمد ، ثم توجه الى عينتاب ، فأذعن له صاحبها نصر الدين بن كمرتكين ، ثم تحول عنها الى حلب فحاصرها ، ولم يكن صاحبها عماد الدين على حال يحسد عليه ، فقد كان استلمها خاوية من المال حتى انه لم يكن لديه ما يقدمه لجنوده ، يضاف الى ذلك أنه لم يجب شيئا من أهالي حلب وضواحيها ، ويروى انه قال لاحد الزعماء : ليس لدي ماأقدمه لك ، فاجابه هذا الزعيم قائلا : بع حلي زوجتك وادفع للمحاربين اذا شئت ان تكون ملكا ، وقد افضى به العوز الى حد صار معه الاهالي يطعمونه واهل بيته يوما فيوما ، وهذا مادفع القادة والجنود الى ان يتركوا امر الحرب للاهالي الذين اخذوا ذلك على عاتقهم ، ومع ذلك لم يتسن لصلاح الدين ان يحتل حلب عنوة ، فلجأ الى المفاوضات ، وبيان ذلك انه استمال ود زعماء حلب بما اغدقه عليهم من الاعطيات ، فأقنع هؤلاء عماد الدين بتسليم حلب لصلاح الدين والاكتفاء باماكن اخرى حتى لايفقد كل شيء ، ثم قالوا له:هل تظن ان العامة يمكنها ان تدافع عنك وتعمل في سبيل رزقك ، وقد نفد الطعام ولم يعد عندك ماتعطيهم ، فارتضى عماد الدين بأن يدخل صلاح الدين الى مدينة حلب ، وان يستولي عماد الدين على سنجار والرقة ونصيبين والخابور ، وعندما علم اهالي حلب بذلك لفهم الحزن وسخطوا سخطا شديداً على عماد الدين ، فاجتمعوا عند القلعة وراحوا يسبونه ويهزأون به ، ووضعوا طستا ورداء ونادوه قائلين : تبا لك من خنثى لايصلح لك الاغسل الاواني ، وذلك بينما كان يرمقهم بنظراته من شرفة القلعة التي نزل منها في ١٨ صفر متوجها الى خيمة ضربت له ، ثم قصد سنجار فتولى امرها وامر البلاد التي نص الاتفاق على ان يتولى امرها ، واما صلاح الدين ، فقد كان سروره شديداً باحتلال حلب ، ويحكي انه ردد وهو يصعد درجات القلعة قوله تعالى :« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك

على كل شيء قدير »(آل عمران: ٢٦)، ويقال انه حدث من معه من الزعماء قائلا : الان عرفت ان الملك استتب لي ، صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ، ولم اتمن سواها ، وبعد ان تمكن منها اعفى الناس من عدة ضرائب ، ثم وزع عليهم من المال مامقداره ثمانمائة وخمسين الف دينار .

وقد اصيب في المعارك التي دارت قبل ان يدخل صلاح الدين حلب اخوه تاج الملوك بوري فمرض عدة ايام ، ثم قضى نحبه،وعندما زاره صلاح الدين قال:« يجب ان تسر بامتلاكنا حلب وهي لك منذ الان ، فأجاب تاج الملوك قائلا : ان السيادة تفيد الاحياء وليس من دنت اجالهم مثلي ، ثق تماما انك دفعت ثمن ملكها غاليا ، فقد ضيعت اخاك في ذلك»، وقد كان تاج الملوك محاربا مقداما ، فبكاه صلاح الدين ومن معه من الحضور بكاء شديداً .

وفي تلك الاثناء ادرك حراس حارم ان صاحبها ينوي بيعها للفرنجة ، فاغتنموا فرصة خروجه للنزهة ، فاوصدوا الابواب دونه ، ومنعوه من الدخول ، واخبروا صلاح الدين ان يأتي ويأخذ مدينة حارم ، فندب لذلك ابن عمه ، وابن اخيه ، ولكن الحراس ، اصروا على ان يحضر هو بنفسه فكان لهم ماارادوا ، فقد جاءهم صلاح الدين واجزل عطاءهم واخرجهم من القلعة ، ولكنه لم يتعرض لصاحبها بأذى لان الزعماء دافعوا عنه ، واكدوا ان الحراس غدروا به .

وجعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر مكانه في قلعة حلب ، وقفل راجعا الى دمشق ، ثم غادر دمشق بجيوشه الى قلعة الكرك فطوقها ، ولكن الفرنجة استعدوا للاغارة عليه فأحس بذلك فرجع الى دمشق .

وفي هذا الوقت جاء اخوه الملك العادل من مصر محملا بالذهب الكثير ، فولاه امر حلب ومايتبعها من رعبان وسواحل الفرات حتى

حماة ، وقد خرج الظاهر بن صلاح الدين من قلعة حلب بعد مقدم عمه الملك العادل ، ولحق بأبيه بعد ان أقام في القلعة ستة اشهر .

في عام ١٤٩٥ يونانية ٥٨٠ للعرب(١١٨٤ م) استعد صلاح الدين للهجوم على الكرك فاستقدم نور الدين من حصن كيفا ، واخاه العادل من حلب ، وتقي الدين من مصر ، وتجمعوا هناك ، وفي المقابل استعد الفرنجة فتخوف صلاح الدين ، وامر ان تحرق المنجنيقات ، ثم تحولت جموعه الى السامرة وداهمتها وكان البرنس ارناط صاحب الكرك قد حصن مدينته هذه تحصينا جيداً.واتجه البرنس صاحب انطاكية نحو حارم بمائتي فارس ، فبطش في ضواحيها بعدد كبير من العرب ، كانوا مجتمعين عند جسر الحديد ، كذلك صعد نحواً من عشرين فارسا الى الكمناء في الجبل وكان عددهم نحواً من اربعمائة راجل فقتلوهم على بكرة ابيهم .

وفي هذا العام توفي قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، فتولى امرها من بعده حسام الدين بولق ارسلان ، ولأنه كان بعد فتى ، عين خاله ناصر الدين شاه ارمن وصيا له اسمه نظام الدين ، فتزوج نظام الدين هذا بأم حسام الدين ونهض بشؤون الملك خير قيام ، وعندما توفي الفتى حسام الدين ، خلفه اخوه الاصغر قطب الدين بايعاز من نظام الدين وصار امر المملكة بيده وبيد عبده لؤلؤ ، وما ان كبر قطب الدين حتى احس بذلك ، فعمل على التخلص من نظام الدين وعبده لؤلؤ وحدث مرة ان مرض نظام الدين فعاده قطب الدين وعندما انتهت الزيارة خرج قطب الدين فرافقه العبد لؤلؤ الى الباب اكراما له ، وبينما هما في دهليز ضيق ضرب قطب الدين العبد بسيفه فقتله وعاد الى نظام الدين المستلقي على فراش المرض فأجهز عليه ، وقذف برأس العبد ورأس سيده بوجه الزعماء ، فسيطر عليهم الرعب واذعنوا لحسام الدين ، وبذلك انتهت وصاية نظام الدين التي دامت عشرين عاما ، فقد قتل في عام ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م).

وفي السنة ٥٨١ للعرب ، ١٤٩٦ يونانية (١١٨٥ م) اتجه صلاح الدين نحو حلب ، ثم تجاوز الفرات الى الرها ، فاخرج منها صاحبها مظفر الدين بن زين الدين ، ثم واصل مسيره الى دارا ورأس العين ، فقدم عماد الدين بن قرا ارسلان لزيارته بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا ، ومن ثم استأنف صلاح الدين مسيره الى بلد ثم الى الموصل ، فبادر صاحب اربيل ، زين الدين بن علي كوجك اليه ، وقد كان صلاح الدين صاحب حران مظفر الدين ، وعندما احكم صلاح الدين قبضته على الموصل توسلت اليه صاحبتها أم عز الدين بنت أرتق ، فقد خرجت إليه هي وبنت نور الدين وتذللتا إليه في محاولة لأن يترك الموصل لعز الدين ، ولكن محاولتهما لم تجد نفعا ، فثار اهالي الموصل تعبيراً عن تأييدهم لزنكي ورفضهم لصلاح الدين ، لذا لم يجد بداً من الرحيل ، فقصد خلاط لانه علم ان صاحبها شاه ارمن قد توفي ، فقام عبده بكتمر الذي عامل الخلاطيين جيداً ، فأحبهم واحبوه ، وعندما علم بقدوم البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم استنجد بصلاح الدين ووعده بان يتخلى له عن المدينة ، ولكنه حصن مدينته ولم يخرج للقاء صلاح الدين عندما قدم وعندما قدم شمس الدين البهلوان وقف على الطرف الاخر للمدينة ، وتأهب لمنازلتها ، نصحه زعماؤهما بألا يضغط على بكتمر ، والا انحاز هذا الأخير إلى صلاح الدين ، فأخذ البهلوان بنصيحة الزعماء وتقرب من بكتمر فطيب خاطره ، وقدم له محظية من خاصته ، ثم غادره وتركه وشأنه .

وعندما رأى صلاح الدين ذلك انقلب الى ميافارقين التي كان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد توفي فتولى امرها ابنه الفتى كما سلف بيانه ، فطوق صلاح الدين هذه المدينة ، والتي كان قائدها اسد الدين يرنقش ، وكان فيها خاتون زوجة قطب الدين صاحب ماردين ومعها بناتها ، فراحت تشجع المقاتلين ، فامتدت الحرب طويلا دون ان يحقق صلاح الدين مطامعه فيها ، فلجأ الى المالقة ، فقد منى زوجة قطب الدين المذكورة انفا بان يزوج ابنه من احدى

بناتها ان سلمته المدينة ، فوافقت على ذلك شريطة ان يترك لها قلعة الهتاخ ، فكان لها ماارادت ، فتركت له المدينة وقصدت تلك القلعة .

وقدم صاحب امد قطب الدين سقمان بن نور الدين بن قرا ارسلان لزيارة صلاح الدين فأحسن صلاح الدين استقباله ، ثم رجع الى مدينته ، ومن ثم قصد صلاح الدين من ميافارقين شاطىء نهر قرمان،كما قصد كفر زمار على ساحل دجلة .

وفي هذه الاثناء شعر اهالي الموصل بضيق شديد ، فبعثوا الى صلاح الدين غير مرة المرأتين المشار اليهما من قبل في محاولة لعقد معاهدة معه ، فتدخل بين الطرفين صاحب سنجار عماد الدين وتمت بناء على ذلك بينهما معاهدة تنص على ان يتخلى عز الدين صاحب الموصل عن شهر زور وعن الزابين وبيت وازيق ، وكل الشرق ، كما تنص على ان تضرب النقود باسم صلاح الدين ، وان ينادى في الخطب باسمه ايضا ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين الى حران حيث ابتلي بمرض شديد ظن انه سيموت بسببه ، ولهذا قصد ابن عمه ناصر الدين بن اسد الدين شيركوه الذي كان معه الى مدينته حمص حيث اتفق مع الشبان على ان يكون هو خلفا لصلاح الدين ان مات ، ولكن شاءت قدرة الله ان يموت ناصر الدين ، وان يتماثل صلاح الدين الى الشفاء ، فتوجه صلاح الدين الى حمص واستولى على ماكان بحوزة ناصر الدين من الاموال ، وجعل الفتى الملك المجاهد ابن ناصر الدين خلفا له في حمص ، ويقال ان صلاح الدين عندما زار حمص بعد سنة سأل الملك المجاهد الى اين وصلت من القرأن ؟ فقال الى قوله :(ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلونة في بطونهم ناراً) (النساء: ١٠) فأعجب صلاح الدين بذكاء هذا الفتى ، وقال ان كان هذا الفتى قد فهم ماقال ، فقد لزم ان نخافه .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

وفي عام ١١٨٥ م ١٤٩٦ لليونان ، تـأهب البـاغي أندرونيقس ليبطش باسحق آخر من بقي مـن أسرة منويل الملكية ، فـاعتصم ، اسحق بمنزله ، فبعث أندرونيقس قائد العسـكر ليحضره ، فـطعنه اسحق بسيفه عدة طعنات ، ثم ركب جواده وتوجه نحو الكنيسة وهو يصرخ وسيفه في يده يقطر دما ، فلحق به بعض الأهالي ولفيف مـن القادة المعادين للبـاغي أندرونيقس ، فـدخلوا الكنيسـة ، وحملوا البطريرك على أن يتوج اسحق ملكا ، وعندما سمع أندرونيقس بذلك لاذ بالفرار عن طـريق البحـر ، فقبضـوا عليه ، وأرجعـوه إلى العاصمة ، ونكلوا به وقطعوه بسيوفهم إربا إربا ، ثم أحرقوه أمـام الجماهير المحتشدة ٠

وفي هذا العام اشتد داء الجذام على ملك القدس بلدوين ، فتخلى عن المملكة لابن أخته الصغير بلدوين (الخامس) ومالبث أن توفي .

أخبار صلاح الدين في هذه الفترة

وفي سنة ٥٨٢ للعرب ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) تماثل صلاح الدين إلى الشفاء ، فترك حران متوجها إلى حلب ثم حمص ، وأيقن أن ناصر الدين ابن عمه شيركوه قـد مـات ، فـأخذ قلعـة حمص من ابنه الذي كان قد خلفه في ولاية حمص ، وقد وجد في القلعة أشياء كثيرة ، ومن ثم واصل مسيره إلى دمشق ، ثم عاد إلى حلب فعـزل عنها أخاه العادل وجعل مـكانه ابنه الملك الظـاهر ، كمـا ولى ابنه الثاني الملك الأفضل على دمشق ، وأما مصر ، فقد جعلها لابنه الملك العزيز ، وبعثه إليها مع أخيه العادل ، ولما علم ابن أخيه تقـي الدين أن مصر لم تعد له ، ارتـاب واسـتعد للرحيل إلى إفـريقية ، ولكن صلاح الدين عمل على إرضـائه وطلب إليه أن يحضر إليه ، وأقنعـه بأنه إنما قربه منه طمعا بقوته وولاه حماه والمعرة وسـلمية ومنبـج

وقلعة نجم وميافارقين ، كما استقدم صلاح الدين ابنه الملك المنصور وجيوشه من مصر ، لكن مملوكه بوزباه رفض المجيء اليه ويمم شطر المغرب وملك افريقية.

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

وفي عام ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) اجتمعت الكواكب السيارة الستة في برج الميزان ماعدا زحل فقد كان على شكلين في ١٤ أيلول و ٢٩ جمادى الآخرة ، فتكهن المنجمون بأنه سيحدث طوفان وريح صرصر تهلك الخلق كلهم ، وأنه سيقع طوفان نظير طوفان نوح فيما لو تجمعت الكواكب كلها في برج الحوت ، وقد كان سلطان قونية قلج ارسلان أكثر الناس اقتناعا بهذه المزاعم لهذا هرع لحفر الأنفاق ، وبناء البيوت المحكمة ، وقد كلفه ذلك مبالغ كثيرة ، ولكن الله تعالى كذب المنجمين ،فقد كان الجو في اليوم الذي زعموا أن الطوفان سيقع فيه أكثر نقاء وصفاء منه في سائر الأيام ، ولم يلاحظ فيه سوى كسوف شمسي مألوف ، ولم يعد للمنجمين مكانة مرموقة في نظر الملوك والسلاطين لكذب دعواهم ولم يحافظ على هذه المكانة سوى منجم مشهور خالف المنجمين فيما زعموه من أن طوفانا سيحدث ، ولما سأله السلطان عما استند إليه فيما قاله قال : إنه لم يعتمد فيما ذهب إليه على التنجيم ، لكن قدر إن وقع الطوفان فسيموت هو وغيره ولن يبقى من يلومه على خطأ مزاعمه ، وإن لم يحدث ، فسوف تصدق تقديراته ويكسب الجائزة ، فضحك السلطان من هذا المنجم وأجزل له العطاء .

وفي هذه الأثناء عقد البرنس صاحب أنطاكية صلحا مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية وأوثقه بالسلاسل وحشد جنده وتوجه بهم إلى بلاده،فوقف بوجهه لاون وقفة الأبطال ورده إلى بلده مخزيا ، وعلى إثر ذلك دفع له الأرمن ثلاثين ألف

- ٢٣٥٩ -
دينار مع المصيصة وأذنة ، فأفرج عن روفين ، الذي ارتد واستعاد المدينتين ، فنقم البرنس وعاث فسادا في بلاد قيليقية كلها .

وفي هذه الأوقات تم اغتيال البهلوان سلطان العجم ، وقد نجم عن ذلك حروب طاحنة ، فقد اقتتل الأكراد والتركمان غير مرة في ضواحي نصيبين ، وبيان ذلك أن أحد التركمان اقترن بتركمانية ليست من عشيرته ، وعندما مر موكب العرس بحصن كردي في زوزان اعترض طريق الموكب عدد من الأكراد وطلبوا منهم وليمة العرس ، لكن التركمان رفضوا هذا المطلب ، فأغار الأكراد عليهم ، وانتزعوا منهم العروس وساقوها إلى حصنهم فنشب القتال بعنف وشراسة فقطعت الطرق ونهبت البضائع ، وقتل من الجمعين نحو عشرة آلاف شخص ، ثم تجمع نحو ثلاثين ألف كردي واشتبكوا مع التركمان في موقعة قرب الخابور ، فهزم الأكراد وتناثرت جثث قتلاهم مابين الخابور ونصيبين ، ثم التقى الجمعان ثانية بضواحي الموصل وانهزم الأكراد ثانية ، وشرع التركمان بمهاجمة الأكراد على التوالي حتى طردوهم إلى قيليقية وأوسعوا رجالهم ونساءهم وفتيانهم قتلا وجرحا وظلوا يلاحقونهم حتى أجبروهم على الرحيل عن سورية وبلاد مابين النهرين ، ثم دخلوا أرمينية ، واعتقلوا ستة وعشرين ألف من الأرمن وجعلوهم عبيدا ، ثم باعوهم ، وأشعلوا النيران في دير كرابيد وبطشوا برهبانه ، وفتكوا في تل بسمة (٢٢) بمائة وتسعين من السريان ، وأغاروا على مائتي شاب من مسيحي السريان في قرية أمرون بقلوذية التابعة لملطية وقتلوهم ، وانتشرت الفوضى وعم الهلع في كل من ملطية وكبدوكية

وفي ذلك الوقت اندلع قتال أيضا بين الاسماعيلية والعرب وفتك كل منهم بالآخر بشكل فظيع .

الصراعات داخل صفوف الفرنجة في هذه الفترة

وفي هذا العام اختلف الفرنج فيما بينهم وبيان ذلك أن صاحب القدس قبل أن يموت أوكل أمر تربية نجله الصغير إلى قمص طرابلس ، ولكن الطفل مالبث أن مات ، فصار أمر المملكة إلى أمه (٢٣) التي وقعت بحب رجل يدعى غي ، فتزوجته ، وجعلته ملكا مع أنه ليس من أسرة ملكية ، فنقم عليها قمص طرابلس ولجأ إلى صلاح الدين وراح يشي بها وبسائر النصارى ويعرض الاتفاق معه .

وفي عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) لاحظ صلاح الدين أن البرنس أرناط نكث بتعهده ، فقد تعرض لقافلة تجارية عربية ونهب محتوياتها ، فأعد صلاح الدين جيشا وقصد الكرك ، فحطم أشجارها وخرب القرى التي حولها ، ثم تحول عنها إلى الشوبك وفعل بها مثل مافعل بالكرك ، وأما ابنه الملك الأفضل ، فقد يمم شطر طبرية وغزة ، وتحرك الفرنجة ولاقوا العرب ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما لولا أن ظاهرهم الحلبيون ، ثم تداول قادة الفرنجة في أمر مقاتلة العرب فرأى قمص طرابلس مصالحة صلاح الدين محذرا من قوته التي استطاع بوساطتها أن يبسط نفوذه على مصر وفلسطين وسائر بلاد المشرق ، وأما غي الملك الغر الذي تزوج من ملكة القدس فقد قال بغطرسة : لابد من منازلة العرب ، وعندئذ أجابه قمص طرابلس : سترى عاقبة ماستفعل ، وكذلك تداول صلاح الدين أمر منازلة الفرنجة مع زعمائه الذين رأوا ألا ينازلوا الفرنجة الآن وهم في أوج قوتهم واجتماع شملهم ، كما رأوا أن يتريثوا حتى يتشتت شمل الفرنجة فيضعفوا ويسهل على العرب البطش بهم ، وأما صلاح فرأى خلاف ذلك ، فقد قال : ترى متى يجتمع لي مثل هذه الحشود الغفيرة ؟ الأجدر أن نتشجع ونبارزهم وليفعل الله مايريد ، قال ذلك ، ثم امتطى جواده واتجه هو وجنده نحو الأردن ، فتوقفوا على ضفاف بحيرة طبرية ، واحتشد الفرنجة في صفورية ومكث الجمعان عدة أيام ، لم يتعرض أحدهما للآخر ، إلى أن بعث

صلاح الدين فريقا من جنده في طريق مـائية ومجهـولة إلى طبـرية ليلا ، وعندما انبلج الصبح تسللوا إلى المدينة وأعملوا فيها السـيف والنار ، فاعتصمت الملكة بالقلعة وعندما سمع زوجها غي (٢٤) بذلك خارت قـواه ، ولكنه مـالبث أن اسـتعاد قـوته وتحمس وحمس الفرنجة ، وأغاروا على العـرب ، ولما حـل الليل وقـف الطـرفان أحدهما الآخر يرقبا بعضهما طيلة الليل ونال العطش من الفـرنجة دون العـرب ، لأن هؤلاء كانت بحـوزتهم ناحية الأردن ، ولما لاح الصباح وتبين للعرب قوة الفـرنجة ، وهـم يتقـدمون ويقتحمـون كالدبابير خارت قواهم وأحجموا عن القتال ، فبادر صلاح الدين إلى وسط جموعهم وهو يردد صيحات مدوية تتمثـل بـالتشجيع تـارة وبالتهديد أخرى وتعد بالمنى حينا وبالمنية حينا آخر ، فـأثار بـذلك عزيمة شاب شجاع يدعى منغورس وهو مملوك من مماليك صـلاح الدين فاندفع هذا المقاتل إلى مابين الصفين ، فبرز له مقاتل فرنجي وطعنه برمحه فهوى عن فرسه ، فانقض عليه وسحبه من ضـفيرته متجها به نحو صفوف الفرنجة ، ثم حز رأسه وكان هذا عاملا هاما في رفع معنويات الفرنجة فقد اعتقدوا أنه واحـد مـن أبناء صـلاح الدين ، ولما كان قمص طرابلس يبطن المكر فقد خشي أن تكون الغلبة للفرنجة ، فتصبح مشورته بعدم القتال سـببا لاحقـا لهـلاكه ، لذا طالب بالانقضاض على العرب والبطش بهم ، ففتحوا له الطريق بين الصفوف ، فعبرها متجها نحو طرابلس،لكن انسحابه هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة الفرنجة لهذه الموقعة ، فلم يبق بينهم من يثق بصاحبه ، ومع ذلك لم يجدوا للحرب بـديلا ، فخـاضوها ، فكانت وبالا عليهم فقد فتك بهم العرب ، وأسروا صـاحب القـدس والبرنس أرناط صاحب الكر ك ،ولفيفا مـن الرهبـان الاسـبتارية والداوية وغيرهم ، ولم ينج منهم إلا القليلون .

وعندما وضعت الحرب أوزارها اجتمع صـلاح الدين في خيمتـه بـزعمائه وطلب أن يحضروا له البـرنس أرناط ، وغي زوج الملكة صاحب القدس ، فأكرمه وقد كان العطش قد نال من غي ، فـأمر له صلاح الدين بماء حتى يشرب ، فأتي بماء مثلج ، فشرب نصفه ودفع

بنصفه الآخر إلى أرناط فقال له صلاح الدين : لايجوز أن تسقيه دون أمري ! فقال غي : إن الأسر موت فلا تمته مرتين ، إن الهزيمة قتل ، فلا تقتله مرتين ، فأعجب صلاح الدين بهذا الكلام ، وكاد يعفو عن أرناط لولا معارضة الزعماء الذين أصروا على قتله قائلين : إنه لايستحق أن يبقى على قيد الحياة ، لأنه أقسم مرارا ولم يبر بيمينه ، وبعد ذلك أرسل الأسيرين إلى خيمة ضربت لهما وبعد ساعة من الزمن ، استحضر صلاح الدين أرناط وحده واستل سيفا بيده وقطع رأسه ، وكان أرناط هذا قد خاض كثيرا من الحروب ضد العرب وقتل عددا كبيرا منهم .

فتح بيت المقدس

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى قلعة طبرية فاستمال ملكتها ، وحلف لها ، وأجزل لها العطاء ورحلها مع أهلها وحاشيتها وأموالها إلى طرابلس ، في حين قبض على الرهبان الاسبتارية والداوية ، وبطش بهم ، ثم باع الفارس منهم بخمسمائة دينار ، وقد كانوا ثمانين فارسا ، وكان صلاح الدين يقول : إن هؤلاء يفوقون الفرنجة جميعا خطرا وأذى للعرب ، لأنهم يؤثرون الموت في سبيل الايمان ، فيجب الأجهاز عليهم ، ثم توجه صلاح الدين إلى عكا ، فدخلها بعد أن هرب زعماؤها بحرا إلى صور ، ولم يبق في عكا إلا الضعفاء والمساكين ، ودخل حيفا ونابلس وصيدا وتبنين ويافا وقيسارية والناصرة وبيروت ، وقد ازدرى العرب النصارى الذين كانوا يقيمون في البلاد العربية ازدراء تعجز الكلمات عن وصفه ، ومع ذلك نجا صاحب جبيل ، لأنه سلم العرب مدينته . ثم قصد صلاح الدين عسقلان ، وقد كانت في ذلك الحين تعج بالمحاربين ، فطوقها، لكنه لم يستطع دخولها ، فسأل صاحب طبرية ملك بيت المقدس الذي كان أسيرا عنده أن يساعده في دخول عسقلان لقاء أن يفرج عنه ، فاستحضر ملك بيت المقدس حاكم عسقلان وطلب إليه أن يسلم مدينته لصلاح الدين فأبى فأمر باعتقاله ، ونصح أهالي عسقلان أن يسلموا مدينتهم فأذعنوا وسلموها ، وحاول أهالي صور أن يسلموا

المدينة ، لكن قمصـها كونراد حضر إليهـا وعمـل على حـراستها والدفاع عنها .

وتحول صلاح الدين إلى بيت المقدس فحاصرها وأقام المنجنيقات على الجانب الشمالي من سورها لاتساع هذا الجانب ، ومـواءمته لتمركز المحاربين عليه ، وبقيت الأمور على هذه الحال ثـلاثة أيام ، فخنق الفرنجة وهم ستون ألفا مابين راجل وفارس ، وخـرجوا إلى قتال العرب فبطشوا بالعديد منهـم و كان بين هؤلاء عز الدين عيسى صاحب قلعة جعبـر ،و في ذلك الوقـت شرع الجنود العـرب يقـذف السهام ليشغلوا المراقبين على السور ، بينما شرع العمال الحلبيون باقتلاع الحجارة بسرعة من فتحة نقبوها في جسـم السـور و بـدأ بالانهيار ، و عندما رأى الفرنجة هـذا انهـارت قـواهم و خـارت عزائمهم ، و بدأ اليأس يدب إلى نفوس الفرنجة فبعثوا باثنين مـن حكمائهم إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والسلام ، فرفض صـلاح الدين ، و قال : لن أفتح المدينة إلا بالسيف ، و سوف أفعل بكم كما فعلتم بالعرب حين ملكتموها ، فأنتم تعرفون كم قتلتـم وسـبيتم ، فقال أحد الزعيمين : لي كلمة اريد أن أقولها ، و لكن ليس قبـل أن تعطيني الأمان ،فقال له صلاح الدين : عليك الأمـان ،فقـل :فقـال السفير : لو لم نعرف قوة ايمانك و ارتبـاطك بشريعتـك و تمسـك بسـنة مـن تقـدمك مـن الملوك المنتصرين الذين كانوا إذا انكسر أعداؤهم و ألقوا سلاحهم طلبوا الأمـان و أعطـوه ، لما أتينا إليك ، والآن بعد أن جئناك و لم نجد من من كرمك مـا كنا نأمـل ،سـنعود وسنبلغ رجالنا الأبطال المجاهدين ما لاقيناه لديك ،و اعلم أن أول ما سنفعله هو البطش بمـن لدينا مـن الأسرى العـرب ، و سـنحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الأبنية ، ثم الأمـوال و المقتنيات و لن نبقي على شيء ثم سنذبح نساءنا و أبنائنا و بناتنا بـأيدينا ، و لن ندع لكم فرصة الانتقام منا ،ولن يستسلم الرجل منا قبل أن يقتل واحـدا أو اثنين منكم ، فـأخذ صـلاح الدين بهـذا الكلام و أوعز للسفيرين أن يمكثا في إحدى الخيم إلى أن يتداول الأمر مـع قـادته الذين قالوا له : إن كل ما قاله هذا الرسول صحيحا ، و قـد يصـنع

الفرنجة أكثر من ذلك فاستدعى صلاح الدين الرسولين و قال لهما : إنني أقبل بما عرضتما ، و لكن لا يمكن أن يخرج كل الفرنجة من بيت المقدس مجانا ، و أمرائي يطلبون ذهبا لأنهم خسروا في هذه الحرب كثيرا فاتفق الطرفان على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير و المرأة خمسة دنانير ، و أن يدفع كل ولد ، و كل بنت دينارين ، ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله ، فأدى الأغنياء عنهم و عن غيرهم من الفقراء و خرجوا جميعا آمنين و كان مجموع ما استطاع أن يدفعه الأغنياء عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، لكن مع هذا فقد بقي خمسة آلاف ممن لم يستطيعوا أن يدفعوا شيئا فساقهم العرب أسرى ، لكن بعض الحراس أفرجوا عن عدد كبير من المسيحيين لقاء رشوة مقدارها دينار أو دينارين ، في حين أفرج مظفر الدين ابن زين الدين عن ألف شخص تقريبا من الأرمن و السريان بلا مقابل ، لأنهم كما قال : رهاويون من أبناء رعيتي ، و مثل ذلك فعل ابن شهاب الدين صاحب البيرة ، فقد أفرج عن معظم أبناء بلده.

و في ذلك الوقت كان في القدس ملكة يونانية متوشحة بثوب الرهبانية و منقطعة للعبادة في أحد الأديرة فالتمست من صلاح الدين أن لا يتعدى عليها ، فكان لها ما أرادت ، فقد أمر صلاح الدين أن تخرج هي وأموالها و الشمامسة ، و الشماسات والخدم تحت حماية كوكبة من الفرسان الى حدود الفرنجة ، و صنع صلاح الدين الأمر نفسه مع جميع الملكات الفرنجيات اللواتي كن في القدس ، و أخرج البطريرك جميع محتويات كنيسة القيامة وسائر الكنائس و قناديل الفضة والذهب ورحل ، و أما أهالي القدس فقد باعوا ما لم يقووا على حمله ، و باختصار سلموا صلاح الدين المدينة خاوية من الذخائر ، و هذا ما حمل العماد الكاتب على أن يقول لصلاح الدين : لماذا ينقل هؤلاء كل هذه الأموال علما أن اتفاقك معهم لا ينص إلا على الأمان ، فقال له صلاح الدين : هذا صحيح ، و لكن الفرنجة اذا ما اعترضناهم لن يتفهموا موقفنا على هذا النحو بل سيفسرونه تراجعا عن قسم قطعناه على أنفسنا و سيبثون ذلك في الأصقاع فيشوهون سمعتنا ، و هكذا انتزع صلاح الدين القدس من

الفرنجة يوم الجمعـــة ٢٧ رجـــب ســـنة ٥٨٣ للعـــرب (١١٨٧ ميلادي)و ١٢ تشرين الأول ١٤٩٨ لليونان ، و ذلك بعد ٢٨ يوما من تجمــع الكواكب الســيارة الســتة ، ولم يتســن للمسيحيين بعد هذا التاريخ أن يملكوا القدس أبدا ، و مع ذلك أبقى صلاح الدين أربع رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليقــوموا على خدمة القبر المقدس و تولى بعد زمن قصــير بــطريرك لليونان أمــر رعاية هذه الكنيسة

وبعد بيت المقدس يمم صلاح الدين شطر مدينة صور القــابعة في قلب البحر فأقام حولها أبراجا قوية وقد استنفد كل طــاقاته في قتال هذه المدينة ، وكان يشجع جنده قائلا : لم يعد للفــرنجة على البحــر موقع يقيمون فيه الا صور ، فــاذا طــردناهم منهــا لن يقــووا على مهاجمتنا بعد الآن ، فاندفع جند صلاح الدين يقــاتلون الفــرنجة في هذه المدينة بلا هوادة ، لكن دون جــدوى ، فقــد أحــكم تحصــينها بالخنادق ، المركيز الذي قــدم مــن رومية ، و كان رجــاله الابــطال الملاحون يغيرون على العرب ويبطشون بهــم و يعــودون ، و لهــذا استعان صلاح الدين بألف سفينة ضخمة من الاسكندرية ، فــأغار الفرنجة عليها ليلا وحطموا معظمها ، واعتقلوا ملاحيها ، والقى ما تبقى منهم أنفسهم في البحر فغرقوا ، في حين فر آخــرون بســفنهم الى بيروت ، فتبعهم الفرنجة والقوا القبض عليهم وعندما شــاهد صلاح الدين دفاع الفرنجة المستميت أمر بإحــراق مــا أقــام مـــن الأبراج ، وما بقي لديه من السفن والمنجنيقات أمر بتحــويلها مــن صور الى عكا وأمــر جنده بــأن يمضي كل منهــم الى وطنه كي ينال قسطا من الراحة في بيته.

الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر

نشب في هـــذه الآونة خـــلاف بين صـــلاح الدين وبين الخليفـــة الناصر ، وسبب ذلك أن صـــلاح الدين لم يؤد الجــزية للخليفـــة عن

سورية ، كما أنه لم يبعث له شيئا مما كان يجبيه من مصر ، بل حاول في نشوة انتصاراته أن يلغي الخطبة للخليفة ، ويجددها للفاطميين بمصر ، وقد استاء الخليفة أيما استياء عندما أخبره بغدادي كان من قبل يعمل في خدمة صلاح الدين باستيلائه على بيت المقدس.

وفي هذا العام حشد واحد من الرعاة التركمان يدعى رستم خمسة آلاف فارس ، وجمعا غفيرا من الرجالة وتوجه لغزو قيليقية ، فبادر صاحبها لاون الى سد الثغور في ناحية مرعش ، ثم أغار على هؤلاء التركان فهربوا وتحولوا الى غزو أطراف حلب ، فانبرى لهم البرنس بوهيموند وأبادهم جميعا.

وفي عام ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) قاد صلاح الدين جنده بنفسه الى حصن الأكراد لفتحه ، فحاصره يوما كاملا لكن استعصى عليه فارتد الى طرطوس ، وقبل أن ينهي جنده نصب خيامهم تمكن الحلبيون من احتلال أسوار هذه المدينة ، واعتصم الفرنجة في برجين من أبراجها ، ولكن هؤلاء جميعا لم يصمدوا في وجه صلاح الدين فاستسلموا له فهدم قلعتها وأسوارها وكنيستها المعروفة بكنيسة مريم والدة الرب وكل ابنيتها ، ثم قصد قلعة المرقب فلم يلق فيها أحدا ، ثم قصد جبله فسلمه أياها من فيها من العرب ، ثم توجه الى اللاذقية فهاجمها بقوة وضراوة ، ثم قام الحلبيون بحفر نفق تحت الأرض طوله ستون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، فخارت قوى الفرنجة واستسلموا لصلاح الدين وطلبوا منه الأمان فأذن لهم أن يخرجوا بأولادهم ونسائهم وأموالهم ما عدا آلات الحرب والبهائم والقمح ، وقد جعل صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة واليا على اللاذقية.

وقدمت في هذه الأيام جيوش فرنجية في كثير من السفن من صقلية لنصرة المسيحيين ، وبادر قائدهم ليحادث صلاح الدين قائلا: لقد بسطت نفوذك على كل السواحل التي كانت بيد الفرنجة ولم تدع

لهم إلا القليل ويحسن بك أن تكف عن محاربتهم ، وإلا أغاروا عليك من البحر زرافات ووحدانا وضايقوك ، فالأجدر بك ألا تسيء معاملة جيرانك فهم بمنزلة الحصن الذي يحميك من الأهالي ، فأجاب صلاح الدين قائلا إن مبادىء ديننا تملي علينا أن نعزز هذا الدين ونحميه ، والله يفعل ما يشاء ، فرجع القائد الفرنجي الى بلده ، ثم تابع صلاح الدين زحفه فوصل قلعة صهيون القائمة على صخرة واقفة بين واديين عميقين ، فطوقها ثم دخلها بسلام ، وجعل ناصر الدين منغورس بن عمر تكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان واليا له عليها ، ثم اجتاح شغر بكاس وزحف نحو الدربساك واحتلها ، كما انتزع بغراس من الرهبان الداوية ، وقد كانت هذه المدينة خالية من الجنود ، وهكذا أصبحت كل هذه البلاد للعرب ، وهذا ما أقلق الأنطاكيين لأن طرق الامداد سدت في وجوههم ، فقلت مؤنهم ، لهذا تذلل البرنس لصلاح الدين ورجاه الأمان ، فكان له ذلك لمدة ثلاثة أشهر ، ثم توجه صلاح الدين الى حلب ومنها الى دمشق لينال قسطا من الراحة ، ومن ثم يمم شطر صفد فحاصرها الى أن أخذها من ولاتها كما أخذ بلدة كوكب بعد أن ضيق عليها.

وفي هذا العام توفي طبيب دمشقي يدعى الموفق أسعد ، ويعرف بابن المطران ، وكان نصرانيا فاعتنق الاسلام ، وقد اجتمع لديه المال الكثير وزوجه صلاح الدين إحدى جواريه ، ولكنه مالبث أن مات فخبت شهرته ، وبعد أن توفي صلاح الدين شوهدت امرأته وواحد من فتيانه يتسولان في بيوت الضباط •

وفي عام ٥٨٥ للعرب(١١٨٩ م) غزا صاحب أنطاكية البرنس بلدتي حارم وشيح ، وبطش بمن فيها من المسيحيين والعرب ، وفي هذه الأونة وبعد أن أخذت صيدا من صاحبها أرناط توجه أرناط هذا الى شقيف‌ارنون بإذن من صلاح الدين ، ثم قدم الى صلاح الدين نفسه وطلب منه أن يمهله ثلاثة أشهر ليعمل على نقل أهله من صور الى دمشق ويتخلى له عن الشقيف المذكور آنفا فأذن له صلاح الدين ، لكنه مالبث أن أدرك أن أرناط يراوغ ويخادع فاعتقله ، ثم

بعث به الى دمشق ولم يفرج عنه إلا بعدما تخلى له عن الشقيف المذكور ٠

وفي هذا العام ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) نشب خلاف بين السلطان قلج أرسلان وبين ابنه الأكبر المقيم في سبسطية ، فقتل نحو أربعة آلاف تركي من اتباع الولد ، ومن ثم أصلح بينهما الأمير بهرامشاه صهر السلطان الذي أبعد عنه حاجبه الأمير اختيار الدين حسن الذي سبب الخلاف بين السلطان وولده ، فجمع اختيار الدين نحو مائتي فارس من اقربائه وتوجه بهم الى مرج كينوك ، فحمل عليهم جماعة من التركمان بأمر من ابن السلطان ، فبطشوا باختيار الدين واتباعه ، ثم قطعوا اختيار الدين وجعلوا أشلاءه على رؤوس رماحهم وطوفوا بها في سبسطية يوم عيد الصليب.

قدوم الافرنج الى صور

وتولى في هذا العام ملطية معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلج أرسلان ، وقدمت في هذا العام أيضا الى صور جماهير غفيرة ومختلفة من الفرنج ، ثم توجهوا منها الى عكا ، وما أن علم صلاح الدين بذلك حتى تأهب فاستنفر جميع جيوشه ، وزحف بها الى مقربة من الفرنجة ، ولاحظ انهم يزدادون يوما إثر يوم ، فتداول الأمر مع قواده فرأوا أن يغيروا على الفرنجة قبل أن يزدادوا أكثر فأكثر ، فاستعدوا لذلك أول رجب في ليلة الجمعة ، وفي الصباح التحم الجمعان وأمضوا طيلة النهار يقتتلون سجالا حتى إذا جن الليل بات الجميع على جيادهم ، وفي صباح السبت استؤنف القتال ، فاستمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك انسحب الفرنجة من جهة الجانب الشمالي لعكا لانه لم يكن لديهم خيام هناك فدخل صلاح الدين مع عدد من رجالته عكا ، وأدخل الامداد اليها وأخلاها من الضعفاء ، وأوعز الى جنده أن يستمروا في القتال دفاعا عن السور وضد سائر الفرنجة لعلهم يستسلمون ، ولكن هؤلاء ـ الفرنجة ـ لكثرة عددهم لم يستسلموا بسهولة ولم

يسمحوا للعرب أن يفتحوا ثغرات في جيوشهم ، ولهذا لم يكن من السهل على صلاح الدين الابقاء على عكا ، فقد أغار عدد من الفرسان الفرنجة على مخيم للعرب ، وفتكوا بالعديد منهم ، فطاردهم العرب الى تل يدعى تل المصلوبين حيث كان يعتصم هؤلاء الفرنجة ويتحصنون بإحكام ، فتحول صلاح الدين الى تل يقابل التل السالف ، ويطل على عكا ، وصار الرجالة من الجيش يتبارزون في كل يوم حتى سئم الفرنجة ، فنادوا العرب قائلين لا شك أن كلانا سئم من هذه الحرب وتريد اليوم أن نلهو قليلا بمبارزة الفتيان الصغار منا ومنكم ، فجمعوا مائة فتى من كل طرف ، وأخذوا يتقاذفون بالحجارة ثم الرماح والعصي واخيرا هزم الفتيان الفرنجة الفتيان العرب وحشروهم في المدينة ، على أن الملحمة العظمى كانت يوم الأربعاء ٢٠ رجب عندما انطلق الفرنجة من خيامهم كالنسور يتقدمهم الملك والكهنة وقد حملوا الانجيل فوق رؤوسهم مغطى بقماش حريري أحمر ، ففوجىء صلاح الدين واستنفر جنده بصيحات مدوية ، فتحول الفرنجة من الجهة اليسرى الى الجهة اليمنى حيث كان ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر الذي كان يقاتل الفرنجة بضراوة ، وعندما أيقن الملك أن العرب صامدون وضع شارة الصليب على وجهه وهجم يشق صفوف الجيوش العربية حيث كان ولدا صلاح الدين الظاهر والأفضل ، وقطب الدين ابن نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وابن لاجين صاحب نابلس وغيرهم والتحم الجمعان وراح الفرنجة يلتهمون العرب التهام النار للهشيم ، ففر العرب وطاردهم الفرنجة وأبواقهم تصدح بصيحات النصر ، وقد هزم العرب شر هزيمة في ذلك اليوم فقد بلغ الفرنجة حدود طبرية ودمشق وسلبوا العرب خيامهم وبطشوا بالضعفاء منهم ، ثم عادوا فطاردوا العرب ، نحو فرسخ ، فوجدوا بقية باقية منهم ، فلم يتعرضوا لهم بأذى لما لاحظوه عليهم من الضعف والاعياء ، بل خلدوا الى الاستراحة في خيامهم ، في حين كان صلاح الدين يصيح بجنده المنكسرين ويستنهض هممهم،لكنهم لانوابخيامهم وقد نال منهم التعب والاعياء،وكان من نتائج هذه الموقعة مقتل الفي

فرنجي ، وأربعة الاف ومائة عربي فأمر صرح الدين بأن تلقى جثثهم في البحر ، فامسك رجل بخيط وصار يعقد فيه عقده كلما القيت جثه في البحر ، وفي هذه الاحيان رأى قادة صلاح الدين أن يبعدوا بعض الشيء عن الفرنجة محتجين لذلك بفساد المناخ بسبب الروائح المنتشرة من جثث القتلى ، وأما الفرنجة فقد أخذوا بحفر خندق من التل الى البحر يفصلهم عن الجيوش العربية ، ثم طوقوا عكا من ناحية البحر ، فقطعوا الطريق عليها ، فلم يعد بوسعهم أن يدخلوا الى المدينة أو أن يخرجوا منها .

وفي هذه الآونة قدم ملك الألمان عن طريق القسطنطينية بمائتي الف فارس وراجل ، فخاف صلاح الدين ، وبعث سفيرا له يدعى بهاء الدين ابن شداد الى خليفة بغداد وكل ملوك المشرق ، يستنجدهم والا فالعربية ستضمحل لا محالة.

وعندما اهلت سنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) ارتاح صلاح الدين لتحول الفرنجة الذين ركزوا كل اهتمامهم على مدينة عكا ، ومع ذلك فاجأوا العرب حين كان صلاح الدين في رحلة صيد ، فاستنفر الجند أخوه العادل فاغاروا على الفرنجة ، وتتالت القتلى من الطرفين ولو لم يحل الظلام لحسمت المعركة لصالح أحدهما ، وارتد الفرنجة الى معسكراتهم ، وهطلت أمطار غزيرة فشكلت أوحالا حالت دون استمرار القتال ، ولا سيما على الفرسان ، ولم يعد بمقدور صلاح الدين أن يعرف شيئا عن الذين في عكا من العرب حتى استطاع أحد سكان عكا أن يسبح في البحر ، ويذهب الى صلاح الدين ويعلمه أن الفرنجة يحاربون هذه المدينة حربا ضروسا وأنهم يستعدون لاقتحامها بعدما بنوا أبراجا عالية تطل على المدينة ، وهذا ما جعل سكانها في خطر داهم ، فقرر صلاح الدين أن يزحف الى الفرنجة ليشغلهم قليلا عمن في داخل عكا ، لكن اعترض سبيله عدة خنادق كان الفرنجة قد حصنوا انفسهم بها ، ولهذا يئس صلاح الدين من الوصول اليهم ، فتراجع الى تل يعرف بتل العجول بعيدا عن الفرنج. وفي هذا الوقت اتى الى نجدته ملوك عدة من العرب نذكر منهم ، على

سبيل المثال : معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب اربيل ، وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل إلى عكا رجالا ذوي خبرة باشعال النار فأحرقوا ثلاثة أبراج فرنجية ، ولو لم تعصف في تلك الفترة رياح شديدة لكان قد أحرق لهب الأبراج الافرنج كلهم ، ومن سوء حظ الافرنج أن الخنادق التي تربصوا بها لم تدع لهم فرصة للفرار أو النجاة من النيران ، وأما الأبراج التي احترفت فقد صممت على نحو يذهل من يراها ، فقد وضعت على عجلات تمكنهم من دفعها والصاقها بالسور متى شاؤوا كما كان بمقدورهم أن يجتنبوها بالحبال اليهم دون أن ينزلوا من عليها من المتحاربين.

وأما ملك الألمان ، فقد منعه اليونان في البداية من أن يغادر القسطنطينية ، ولكنه الح عليهم فأفسحوا له المجال ، ليصل الى بلاد قلج أرسلان حيث جيش السلطان قطب الدين ملكشاه الجيوش واعترض بها الألمان لكنه هزم امامهم ، وبلغ الألمان قونية وبطشوا بالعديد من اهلها ، وفي هذا الوقت قصد بباس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي الى قونيه لدفع الخراج فأغار عليه التركمان وأردوه قتيلا ، وبقي قلج أرسلان معتصما بقلعة قونيه الى أن دفع مبالغ طائلة لملك الألمان وصالحه ، وفتح في وجهه الطريق الى قيليقية ، فبادر اليه لاون ابن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية ، وزاره في طرسوس وأزعن له ، ومن ثم ذهب ملك الألمان ـ وهو شيخ يسبح في النهر مع أن البرد كان في ذلك الوقت قارسا فمرض ومات فنقل ابنه جثمانه الى انطاكية ، ثم سار باقي الألمان ـ وقد أنهكوا ـ الى ضواحي طرابلس ، ثم أبحروا الى عكة ، ولكن معظمهم قضى نحبه في قيليقية بسبب المرض.

وفي هذه الأثناء قدم ملك انكلترا ، فتوقف في قبرص وانتزعها من اليونان ، ومن ثم واصل مسيره الى عكا فقويت شوكة الفرنجة في هذه المدينة التي كان فيها أيضا عشرة أمراء عرب ، فأخبروا صلاح الدين بأن الحروب المستمرة أوهنتهم ، فاستبدل بهم أمراء لم يكن

لهم مزيد خبرة بفنون القتال على السور ، ولهذا ازداد موقف الفرنجة قوة ومنعة ولا سيما بعد أن نصبوا سبعة منجنيقات مقابل كل برج ، ومع ذلك بعث ملك انكلترا الى صلاح الدين سفير يسبر امكانية الاجتماع به والاتفاق على تدبير يخدم مصالح الطرفين ، فكان جواب صلاح الدين أن يصطلح الطرفان أولا ومن ثم يمكن أن يترتب أمر الاجتماع ، لأنه لا يليق بالملوك أن يقتتلوا بعد اية مفاوضات ، ثم حدث أن مرض ملك انكلترا ، فتوقف الفرنجة عن متابعة الحرب ، لكن ما أن تماثل الملك للشفاء حتى أرسل سفيره ثانية الى صلاح الدين ، وقال له: أرجو أن تعذرني عن التقصير في اجابتك ، فقد انتابني مرض أعاقني عن ذلك وهاأنذا قد شفيت الآن وبادرت الى مراسلتك وأرغب أن أبعث اليك ببعض الهدايا ، فلا يحسن بالملوك أن يقطعوا عرى المودة وتبادل الرسل والهدايا والتهاني ولو في أوقات الحروب ، هذا ما علمنا اياه آباؤنا الملوك السالفون،فقال صلاح الدين :إن هادنتمونا هادناكم ، فأجاب السفير إن لدينا حماما زاجلا ونسورا وبواشق وليس لدينا ما نطعمها فلو أعطيتمونا زغاليل ودجاجا اطعمناها واحضرناها اليكم ، فقال أخو صلاح الدين العادل للسفير على سبيل المزاح : طالما ملك انكلترا قد عوفي فلا شك أنه يحتاج الى زغاليل.

ثم ألبس صلاح الدين السفير الانكليزي حلة ملكية وحمله بعض الدجاج والحمام والزغاليل ، وبعد ثلاثة أيام عاد سفراء الفرنجة الى صلاح الدين يريدون ثلجا وثمارا فحملوا ما طلبوا ورجعوا ، وقد قيل إن الملك الانكليزي لم يهدف من ارسال سفرائه الى صلاح الدين المرة تلو الأخرى الا ليقف على مالديه وعلى ما لدى ملوك المشرق من القوات ، وعندما ضيق الفرنجة على العرب في عكا قال أهلها لصلاح الدين: أنجدنا والا فسوف نسلم المدينة ، وكان صلاح الدين يعمل جاهدا على شغل الفرنجة بالقتال داخل عكا وخارجها ، وهذا ما حدث فقد أجبر صلاح الدين الفرنجة على تقسيم جيوشهم الى قسمين ، قسم لمنازلة العرب داخل عكا ، وقسم لمحاربتهم في الخارج ، ولما أيقن العرب داخل عكا انهم

مهزومون لا محالة ، طلبوا الأمان ، فـأجابهم الفـرنجة بـأن ذلك مشروط بأن يرد لهم صلاح جميع الأسرى الفـرنجة ، وكل البـلاد والمدن التي أخذها منهم ، فكان رد صلاح إني أفرج عن ثـلاثة آلاف أسير فقط لقاء العرب الذين داخـل عكا ، وإذا تخلى الفـرنجة عن المدينة بادلتهم بمدينة عوضها ، والا فليسـتعيدوا تلك المدن بـالقوة كما أخذتها منهم ، وما إن علم الفرنجة بـذلك حتـى صـعدوا على أسوار عكا بالسلالم ثم هبطوا الى قلب المدينة وفتكوا بالكثير ممـن فيهـا ، وانحسر بعض الاهـالي في ناحية مـن المدينة ، فقـالوا للفرنجة : انتظروا ريثما نطلب من صلاح الدين أن يدفـع لكم ذهبـا ويفرج عمن لديه مـن أسراكم ، فـوافق الفـرنجة على ذلك واتفـق الطرفان على أن تكون المهلة أربعة عشر يوما حتى يبدو القمر الجديد وعلى أن يقدم صلاح الدين للفـرنجة مـائتي ألف دينار ذهبـي،وأن يفرج عن مائة أسير تحدد أسماؤهم مـن الكونتية والقمـامصة وأن يفرج عن ألف وخمسمائة أسير آخرين غير محددين ، وبعـث بهـذا الاتفاق الى صلاح الدين ، فتداول الأمر مع قواده ، فقالوا بصـوت واحد: إن هؤلاء العرب أخواننا ويجب أن ننقذهم ، فـأخذ صـلاح الدين بهذا الرأي وجمع الأسرى الفرنجة ، وأما الذهب ، فقد تقرر أن يدفـــع للفـــرنجة في كل عشرة أيام ثلث المبلغ الذي تقـــــرر دفعه ، وعندما انتهت الأيام العشرة الأولى طلب مـن الفـرنجة أن يفرجوا عن كل الرهـائن الذين عندهم ، على أن يدفـع ثلث الذهـب وجميع الرهـائن بدلا من الثلثين الباقيين : أو أعطـونا رهـائن مـن عندكم بدلا من ثلث الذهب الذي سوف تقبضونه ، فقال الفـرنجة : تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهـائن ، فأنف صلاح الدين من هذا الجواب ، ورفض طلبهم فنقموا نقمة عارمة وقيدوا كل من لديهم من العرب بالحبال وساقوهم الى تل قرب المدينة ، وأوثقوهم بـالحبال وجمعوا حولهم براميل الخمرة العتيقة والحطب وحشروهم ثم فتكوا بهم بالسيوف ، وكان كاتب الديوان يشهد ذلك ، وقـدر عدد القتلى من العرب المتناثرين داخل عكا وخارجها وعلى أسوارها وعلى التل المذكور آنفا بمائة ألف وثمانمائة نسـمة ، وكان ذلك في رجـب مـن عام ٥٨٧ للعرب ، وفي آب من عام ١٥٠٢ لليونان ، (١١٩١ م)

وإنما أطلنا في الحديث عن هذا الحصار لكونه مشهورا عند العرب ، فقد كتبوا فيه مجلدات حول ما أصابهم من الشدة من الفرنجة.

وما أن مكن الفرنجة أقدامهم في عكا حتى بادروا الى تنظيم جيش لحراستها ، ورمموا ما تداعى من أسوارها ، ثم توجهوا الى أرسوف ، وكذلك رحل صلاح الدين لكن مع ذلك ظل كل منهما يتعرض للآخر بين الفينة والأخرى على الطريق ، وفي أحد الأيام هاجم صلاح الدين الفرنجة فحنق الملك الانكليزي وأغار على صلاح الدين وصحبه غارة بددتهم ، ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من أخيار العرب وحملة الرايات ونافخي الأبواق ، وكان يمكن أن ينقض الفرنجة على صلاح الدين ومن بقي معه وأن يأسروا صلاح الدين فيقوضوا بذلك أقوى سند للعرب ، ولكنهم خشوا أن يتربص بهم كمين ، فأقلعوا عن ذلك.

وسير صلاح الدين في ذلك الحين فرسانا وبنائين الى قلعة بغراس ليأتوه بما فيها من الذخيرة والمؤن وليهدموها ، ولكنهم ما إن بلغوا تلك القلعة حتى علموا أن لاون صاحب قيليقية استعد ليغير عليهم ، فرجعوا فارين ، وعندما علم الأنطاكيون بذلك توجهوا الى هذه القلعة ــ وكانوا إذ ذاك في ضيق من أمرهم ــ فوجدوا فيها اثني عشر ألف مكوك من القمح ففرجوا بذلك عن أنفسهم لأن الجوع كان قد ضايقهم جدا ، وما هي الا أيام حتى أغار لاون على بغراس وأخرج الفرنجة منها.

واغار صلاح الدين على عسقلان واخلاها من سكانها ، ولكن العرب عجزوا عن حراستها ، وقد سوغوا ذلك بأن الفرنجة بنوا بينها وبين القدس مدينة يافا ، وذهب صلاح الدين الى بيت المقدس ووضع فيه من العتاد والرجال ما يمكن أن يحميه ، وفي ذلك الوقت قصد صاحب ملطية معز الدين صلاح الدين وشكا اليه محاولة أبيه

وإخوته انتزاع هذه المدينة منه فأوسع له صلاح الدين وزوجه من ابنة أخيه العادل ، وطمأنه قائلا: لا تخف أباك ولا اخوتك.

وأرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين رسولا يقول له: لقد أتت الحرب على جندنا وجندكم والام ستظل الأمور على هذه الحال ، وقد رويت سيوفنا وسيوفكم من الدماء ، فلترد ما أخذته منا من البلاد ولا سيما بيت المقدس مقردينا الذي تركنا أوطاننا من أجله فإن قبلت ذلك غادرنا الى أوطاننا تاركين كل شيء فتستريح ، فأجاب صلاح قائلا : ان هذه البلاد كانت فيما سبق لليونان لالكم ، وقد أخذها العرب منهم وعندما ضعف العرب أخذتموها منهم ، ونحن الآن نسترد بلادنا منكم ، وأما القدس التي تعدونها مقام دينكم ، فهي ايضا مقر ديننا ، ونحن نقدسها أكثر منكم ، وهذا ماأوصانا به الله في القرآن .

ثم أرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين مرة ثانية ، وقال : أرغب في أن يصاهرني العادل أخوك ، فأزف له شقيقتي التي جاءت معي لتسجد في بيت المقدس واذا ما اكتفيت أنت بالقلاع والمدن ، وبقيت القرى بيد الرهبان الداوية والاسبتارية ، وتخليت لأخيك العادل عن المدن الساحلية ، عند ذلك يتم الزواج ، وسأستعمل أختي على كل المدن التي بحوزة الفرنجة الآن ، وسيكون مركزها بيت المقدس ، فأبى صلاح الدين ذلك في حين كلف أخوه بشقيقة الملك الانكليزي ، وطلب الى القواد والأعيان ان يقنعوا أخاه صلاح الدين بعرض ذلك الملك ، فتشبث صلاح الدين برأيه ، لكن هؤلاء القادة قالوا له نحن متأكدون من أن هذا الزواج لن يكون ، فابنة الملك الكبير تأنف الزواج من عربي ، ولعل الملك عرض عليك ذلك مازحا كعادته ، ولهذا كله يحسن الا تخجل اخاك ، فوافق صلاح الدين وبعث سفيرا الى ملك الانكليز ليخبره بذلك فأقام السفير ثلاثة أيام ، ثم قال له الملك : استغرقت ثلاثة أيام في سبيل ان أقنع أختي بهذا الزواج ، فلم تقنع بذلك الا اذا تنصر العادل ، فعاد السفير خائبا .

وفي هذه الأيام توفي تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وهو في طريقه الى خلاط لمحاربتها ، فحمل الى ميافارقين حيث دفن ، وكان تقي الدين هذا شديد الكراهية للمسيحيين ولهذا كان يبطش بالفلاحين الأرمن بلا رحمة في جبل جور ، وكان مع تقي الدين المتوفى ابنه الملك المنصور فاعتصم بميافارقين،وأرسل لصلاح الدين قائلا ان أخذت مني بلاد أبي تقي الدين تحالفت مع بكتمر صاحب خلاط ، فأذعن له صلاح الدين قليلا ، ثم جعل العادل واليا على بلاد ابيه ، في حين نصب الملك المنصور على سميساط وحران والرها .

وبعد يوم واحد من رحيل العرب والفرنجة عن عسقلان كمن العرب للفرنجة وهم يقطعون الحطب خارج المعسكر ، ولكن الفرنجة اكتشفوا أمرهم فامتطوا جيادهم ، وبطشوا بثلاثة من قواد صلاح الدين في حين أسر العرب فارسين من الفرنجة ، فوجه ملك الانكليز الى الملك العادل سفيرا يعاتبه على ذلك الكمين ، وأبدى رغبته في أن يجتمع بأخيه السلطان صلاح الدين في تلك الخيمة ولكن صلاح الدين رفض ذلك لأمرين أحدهما الخوف ، وثانيهما أنه لم ير ذلك مقبولا قبل ان يعقد بينهما صلح وهذا مالم يكن ، وعلى افتراض حصول مثل ذلك الاتفاق فان احدهما لايفهم لغة الآخر الا بمترجم فليكن اذن المترجم سفيرا ، وذلك يغني عن الاجتماع المباشر ، وعندما حل الشتاء ارتحل صلاح الدين الى بيت المقدس وارتحل الملك الانكليزي الى عكا ، ثم ارسل صلاح الدين للملك اربعة وعشرين ألف دينار ذهبي من أجل أن يفرج عن الأسرى العرب .

وفي مستهل عام ٥٨٨ للعرب (١١٩٢ م) سار الفرنجة الى عسقلان وبدأوا بترميم ابنيتها ، وكان قد نشب خلاف بين المركيز صاحب صور وبين ملك الانكليز ، فقد طمع المركيز ان يستقل بهذه المدينة عن الملك ، فحاول الملك أن ينزعه عنها ، فأرسل المركيز الى صلاح الدين يخبره بالتحالف معه لمحاربة أبناء جلدته الفرنجة ، وبينما كان سفير المركيز عند صلاح الدين تسلل اليه

رجلان اسماعيليان تنكرا بلباس الرهبان ، فطعنه أحدهما بسكينة ، وفر الثاني الى كنيسة مجاورة كان قد نقل اليها سفير المركيز ، وعندما سمعه هذا الاسماعيلي الثاني يتكلم هجم عليه ضمن الكنيسة وطعنه ثانية فأجهز عليه فألقى الفرنجة القبض على هذين الرجلين وعذبوهما فزعما أن ملك انكلترا هو الذي بعث بهما ، فصدق الفرنجة ذلك لما بينه وبين المركيز من خلاف ، ولكن تبين فيما بعد أن (سنان) زعيم الاسماعيليين هو الذي أرسلهما ليغتالا سفير المركيز ، واثر ذلك جعل الملك الانكليزي الكونت هنري واليا على مدينة صور ، فتزوج امرأة المركيز وجامعها وهي حامل مخالفا بذلك الناموس .

وفي هذه الغضون زحف الفرنجة الى الداروم ، واخذوها من المسلمين وبطشوا بأهلها ، كما اعترض الفرنجة قافلة كبيرة للمسلمين آتية من مصر تحمل ذهبا لصلاح الدين ، أضف الى ذلك أن معلومات وردت اليه تفيد أن الفرنجة يستعدون للهجوم على القدس فجهز جيوشه لمنازلتهم ، واحكم تحصين أسوار المدينة وخرب كل القنوات خارج السور ، وعندما علم ملك انكلترا بذلك أوعز الى الفرنجة بالتوقف عن الزحف الى بيت المقدس قائلا : لم يعد في ضواحي المدينة ماء ، فالعرب قد خربوا قنوات المياه وأما النهر فبعيد عنها مسافة تزيد على الفرسخ ، ولاتظنوا أن بيت المقدس مثل عكا التي لولا البحر لما استطعنا أن نحاصرها أكثر من يومين ، فأخذ الفرنجة برأي الملك وتحولوا الى غزة ، ففرح صلاح الدين بذلك ، لكن الملك عاد فأوفد اليه سفيرا ليقول له : لاتظن أني أعرض عن غزو بيت المقدس ضعفا وجبنا ، فإن الكبش لايرجع القهقرى الا لكي ينطح الرأس ، فإن رأيت أن نتهادن على مانريد ، فهذا أفضل لك ، وبعد عدة مراسلات تهادن الطرفان على أن تبقى بلاد الفرنج للفرنج ، وهي : يافا وضاحيتها ، وطرابلس وأنطاكية وعكة ، وحيفا وقيسارية وأرسوف ، وتظل سائر البلاد تحت سلطان العرب ماعدا عسقلان التي يجب أن تمسي خرابا على أن يدفع صلاح الدين للفرنجة ماأنفقوه من أجل إعادة

بنائها ، وافسح المجال أمام جماهير الفرنجة لزيارة القدس ، وقد غالى صلاح الدين في إكرام هؤلاء الزوار واجزل لهم العطاء كما قدم لهم خيولا ليركبوها ، ويقال ان ملك الانكليز بعث الى صلاح الدين يقول ان كل فرنجي لايحمل علامتي لاتسمح له أن يدخل بيت المقدس ، فاستفسر صلاح الدين من بعض العقلاء عن هذه العلامة ، فقيل له ان العبادة هي الدافع الأسمى الذي يحمل الفرنجة على المجيء الى بيت المقدس ، فاذا ماحجوا ورجعوا الى أوطانهم لم يعد لديهم مايحملهم على العودة الى المشرق ، وعليه اذا مااحتاج الملك العودة ثانية الى المشرق لايمكنه أن يلزمهم بمرافقته ، وعندما فهم صلاح الدين ذلك ، بعث للملك يقول : ان هؤلاء الناس هم غرباء لايحسن بي ان أضايقهم ، وأما أنت فبوسعك أن تمنعهم من المجيء الى هنا .

واثر احتلال الفرنجة لعكة قبضوا على زعيمين عربيين ، وهما ابن المشطوب ، وقرقوش الحاجب الرومي الأصل الذي بعثه صلاح الدين الى افريقية ، وفتح مدنا عدة ، ومن ثم رجع الى مصر حيث اشاد سورا مايزال يعرف باسمه الى اليوم،وقد عهد اليه فيما بعد بقيادة الجيش في عكا ، وقد طالبه الفرنجة بثمانية آلاف دينار للافراج عنه ، فقال لهم:كم دفع ابن المشطوب حتى أفرجتم عنه؟ فقالوا دفع ثلاثين ألف دينار ، فقال :ليس من الانصاف أن يدفع هو ثلاثين ألف وانا ثمانية آلاف ، فضحك الفرنج وقبضوا منه ثلاثين ألف ،ولقرقوش حكايات طريفة مثل هذه ، من ذلك أن أحد الشعراء نظم فيه ديوانا تاما لم يظهره الا بعد ان توفي ذلك الشاعر .

وبعدما عقد الصلح بين العرب والفرنجة ذهب صلاح الدين الى بيروت ، حيث زاره البرنس بوهيموند صاحب أنطاكية فغالى في اكرامه وضيافته ووشحه كما وشح الأعيان الأربعة عشر الذين حضروا معه حللا ملكية ، ومنحه نصف غلة أنطاكية التي كان العرب قد احتلوها من قبل ، وقد أعجب صلاح الدين بمجيء البرنس

اليه بهذه الثقة وتلك الطمأنينة ، ولهذا بالغ في إكرامه وأجزل عطاءه وأحسن توديعه ، ومن ثم رحل صلاح الدين عن بيروت الى دمشق .

أما ملك انكلترا فقد استعمل على عكا ابن اخته القمص هنري ، ومن ثم عاد الى وطنه ويظن انه مات قبل ان يصل اليه (٢٥)

وفاة السلطان قلج ارسلان

في آب من سنة ١٥٠٣ لليونان ، ١١٩٢ م توفي في قونية السلطان قلج أرسلان الذي كان يتحلى بشجاعة وذكاء تمكن بهما من طرد اليونان من عدة مواضع ، وعندما تقدمت به السن قسم مملكته على أبنائه ، ويبدو أن هؤلاء الأبناء لم يكونوا يبرون بأبيهم ، فقد كان اذا حضر عند أحدهم للغذاء ـ مثلا ـ ملة فاضطر للتحول الى ابن آخر ، الى أن زار ابنه صاحب مدينة بروغلو غياث الدين كيخسرو فرحب به وأحسن وفادته ، ثم جيش جيوشه واصطحب اباه وتوجه الاثنان الى قونية فانتزعها من اخيه قطب الدين ،ثم سارا الى أقصر حيث مرض الأب الشيخ هناك فأعاده ابنه كيخسرو الى قونية وتوفي هناك وكانت مثواه الأخير ، وبقي كيخسرو متوليا أمر قونية ، الى أن أخرجه منها أخوه ركن الدين ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ، والجدير بالذكر ان مدة حكم السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش بن يبغو بن سلجوق بن دقاق قد استمرت ثمانية وثلاثين عاما وقد كان أبا لاثني عشر ملكا (٢٦)

- ٢٣٨٠ -

وفاة صلاح الدين

وفي هذه الآونة ابتلي صلاح الدين بحمى شديدة مات على اثرها في دمشق ليلة الأربعاء ٢٧ صفر من سنة ٥٨٩ للعرب (٤ آذار ١١٩٣ م) وقد خلف سبعة عشر ولدا بين ذكر وانثى ، وقد كان جوادا معطاء ، ولهذا مات ولم يكن في خزانته سوى دينار وستة وثلاثين فلسا ، وقد كان كرمه من عوامل نجاحه الأساسية في إدارة شؤون البلاد ، ويحكى أنه لما احتل دمشق ووضع أمامه ما في خزانتها من الدنانير والدراهم ، أوعز الى ابن المقدم ان يعطي كل واحد من الزعماء والفرسان والعبيد حفنة من هذه الأموال ، فصار ابن المقدم لايملأ حفنته جيدا ، فنهره وقال : املأ حفنتك ، فضحك ابن المقدم ولما سأله عن سبب ذلك قال : أذكر ان نور الدين كان يوما في مكانك وأحضرت له علبة من جيد الزبيب ، فقال لي وزع بحفنتك على الأعيان ، ولما لاحظ اني املأ حفنتي جيدا ، همس قائلا : ان وزعت هكذا فلن يكفي الجميع ، فضحك صلاح الدين وقال:ان البخل لايوائم الملوك ، بل يوائم التجار ولن توزع بعد الآن بيد واحدة ، بل بكلتا يديك ، وقد قال أحد الحاضرين ان الحفنة التي أصابته كانت مائة وخمسين دينارا .

ومما يحكى عن صلاح الدين انه بينما كان يحاصر عكا ركب يوما مع قاضي المعسكر واذ بيهودي يقول اني أتظلم الى الشرع العربي ، فسئل عن خصمه وعمن أكل حقه قال ان خصمي هو السلطان ، لأن عبيده تعدوا علي ، فلم يغضب صلاح الدين بل استدعى هذا اليهودي وأجلسه الى جانبه ، فقال اليهودي أنا تاجر من دمشق أتيت من الاسكندرية ومعي عشرين حملا من السكر وعندما حللت في مرفأ عكا ، نهب عبيدك مابحوزتي من السكر وأخذوه الى الخزانة بدعوى انني كافر ومالي يجب ان يكون للسلطان ، وعندما تبين صلاح الدين صدق ما قاله اليهودي أوعز الى خزنته ، فدفعوا الى اليهودي ثمن سكره .

ومما يحكى عن صلاح الدين ايضــا انه كان يومــا جــالسا مــع الزعماء ، وكان العبيد يلعبــون على مقــربة منه ، فــرمى أحــدهم صاحبه بحذاء فسقط قرب ركبة صلاح الدين ، فالتفت الى الجــانب الآخر وشرع يحدث جليسه موهما بأنه لم ير ماحدث ، ويحكى ايضا أنه عطش يوما فطلب ماء فجعل العبيد كل منهم يأمر صــاحبه بــأن يحضر الماء دون أن يأتوا بشيء ، فــطلب صــلاح الدين الماء ثــانية وثــالثة ورابعــة وخــامسة الى أن أحضر له الماء ، فشرب بــــدون تذمر ، ودخل يوما الحمام فعطش فطلب مــاء بــاردا فعندمــا أتــي تساقطت قطرات منه على جسمه فارتعدت فرائصه لما كان بــه مــن مرض ، فرفض ان يشرب فازداد عطشــه فــاضطر ان يطلب ثــانية وعندما أتي بــالماء اندلق الماء كله على جســمه فــارتعد ارتعــادا شديدا ، ثم قال للخادم : هل تنوي ان تقتلني ، ولم يزد .

وقد سر بكتمر صــاحب خــلاط بمـــوت صـــلاح الدين سرورا بــالغا ، وأعد جنده ليغير على ميافــارقين ، فــوثب عليه صـــهره هزارديناري ، عبد شاه أرمن وقتله وحل محله ، ورعى ولده محمدا الصغير رعاية الأب لولده (٢٧)

وممن ماتوا في هذا العام ســنان امــام الاســماعيلية (شـــيخ الجبل) في مصيات ، وقام مقامه ابنه الناصر الفارسي ، وقــد كان سنان هذا مهيبا لدى الملوك العرب والفرنجة ، فقد صــنع ســكاكين عدة صك على كل واحدة منها اسم أحد الملوك ، وكان على من تهدى اليه إحدى هذه السكاكين ، ان ينجز مايطلبه منه ســنان ولو كلفــه ذلك حياته ، وقد نهــل هـــذا الزعيم الاســـماعيلي مـــن جميع العلوم ، واعتنق مبـــدأ تناســـخ الأرواح الذي ينســـــب الى افلاطون ، وقد علم أتباعه هذا المبدأ ، ولهذا كانوا لايبالون بــالموت ظنا منهم أنهم سيبقون أحياء بعد أن يموتوا ، وقد اختفى ســنان في حياته غيرمرة ، وكان يشاع في كل مرة أنه قد مات ، ولكنه مــايلبث أن يظهر ثانية ، وهذا ماجعل اتباعه يعتقــدون أنه حــي يرزق بعــد موته .

وفي ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) تمكن لاون صاحب قيليقية من خداع البرنس بوهيموند صاحب انطاكية ، واعتقله وسبب ذلك ان بغراس كانت بيد لاون ، فعندما تركها العرب استعادها لاون وأوعز الى واليها الأرمني أن يسر الى البرنس أنه يرغب في الايقاع بمولاه لاون ، كما يرغب في أن يتخلى له ـ اي للبرنس ـ عن القلعة ويعود الى أنطاكية للاقامة هناك ، فبعث هذا الحاكم بذلك الى البرنس ووعده بأنه سيسلمه قلعة بغراس ، فانطلت الحيلة على البرنس وصدق كلام الحاكم ، فسار هو وامرأته وابنه متظاهرين بأنهم يصطادون،وعندما بلغوا عين ماء بظاهر البلد دلى لهم الحاكم طعاما وخمرا ، ونصحهم الا يدخلوا القلعة نهارا وأن عليهم الانتظار الى أن يخيم الظلام ، فيقبلوا على القلعة حيث يجدوا أبوابها مفتوحة فيدخلوها سرا ، كما نصحهم بألا يصطحبوا معهم شيئا من الفرسان والأسلحة ، لئلا يتنبه حراس القلعة فيفتضح الأمر ، فانطلت على البرنس الحيلة كلها ، فترك عين الماء التي كان يخيم عندها موهما بأنه يقصد أنطاكية ، حتى اذا جن الليل ، ارتد هو وابنه وزوجته وخدمه ، الى باب القلعة ، فوجدوه مشرعا فولجوه بسرور بالغ حيث استقبلهم الحاكم قائلا : لتخلدوا الآن الى الراحة وفي صباح الغد نستدعي فرسانكم شيئا فشيئا ونقبض على حراس القلعة ، فأطمأن البرنس وصحبه الى كلام الحاكم الذي مالبث أن أبلغ لاون ، فأقبل مع عدد من الأرمن فاعتقل البرنس وامرأته وابنه وأوثقهم بالقيود ، ونكل بالبرنس تنكيلا شديدا انتقاما منه لأنه سلف ونكل بروفين أخي لاون ، وبقي البرنس معتقلا لدى لاون الى أن قدم هنري ابن أخت ملك انكلترا فأفرج عنه بالوعد والوعيد ، وقويت شوكة لاون ، بعد أن مات السلطان قلج أرسلان ، فقد بسط نفوذه على اثنين وسبعين حصنا ، بعضها كان بحوزة الأتراك وبعضها كان بحوزة اليونان ، وكان منتصرا في معاركه كلها .

وما أن بلغ نبأ وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين بدأت الاحلام تراوده باحتلال سورية ، فاستنفر قوى أخيه عماد

الدين صاحب سنجار ونصيبين ، وقوى ابن أخيه صاحب الجزيرة ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وهيأهم جميعا للاستيلاء على مابحوزة آل صلاح الدين من البلاد ، ولكن الملك الافضل ، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين ، والذي خلف أباه في ولاية دمشق استقدم عمه العادل الذي كان في دمشق ، وارغمه على قيادة الجيش ، ومن ثم راح يجيش جيوش نويه من الولاة ، فقد استدعى أخاه الملك العزيز من مصر ، وأخاه الظاهر من حلب ، وابن عمه المنصور صاحب حماة ، وابن عم أبيه الملك المجاهد بن ناصر الدين منحمص ، ثم جعل جيوش هؤلاء جميعا جيشا واحدا ، ووجهه بقيادة عمه العادل الى مرج الريحان بضواحي الرها ، فما أن علم بذلك عماد الدين صاحب الموصل حتى توجه بجيوشه الى نصيبين حيث أصيب باسهال حمله على العودة الى بلاده ، ومالبث ان توفي هناك ، وقد كان هذا الحاكم طيب الطوية خير النزعة ، كريم اليد واللسان ، وقد حل محله في ولاية الموصل ابنه نور الدين أرسلان شاه الذي كان وصيه مجاهد الدين قايماز(٢٨)

وفي عام ٥٩٠ للعرب ، ١٥٠٤ يونانية (١١٩٣م) ، توجه علاء الدين تكش خوارزمشاه بجيشه الى خراسان فاشتبك مع طغرل قرب الري ، فقتل طغرل وقطع رأسه وارسله الى بغداد حيث رفع على قصبة ووضع بباب قصر الخليفة ، وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان وعين عليها نائبا يدعى قتلغ اينانج بن البهلوان ، سلطان همذان السالف ، فاستحضر خوارزمشاه عندما هرب طغرل من سجنه ، واخذ منه مقاليد الحكم في البلاد ، وقد كان طغرل هذا اخر حكام الدولة السلجوقية في خراسان ، وظلت دولتهم في بلاد الروم ، وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ارسلان بن داود بك بن ميخائيل بن سلجوق بن تقاق .

وفي هذا العام زحف صاحب مصر الملك العزيز الى دمشق ليخرج اخاه الملك الأفضل منها ، فتدخل عمهما الملك العادل فأصلح بينهما بأن تظل القدس للعزيز واللاذقية وجبلة لصاحب حلب الملك

الظاهر ، وبعض قرى مصر للملك العادل ، ومن ثم عقدوا هدنة فيما بينهم وعاد كل منهم الى بلده .

وفي عام ٥٩١ للعرب ١٥٠٥ يونانية (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشا بامرة سيف الدين طغرل أحد قادته الى أصفهان ، ففتح الأهالي له أبواب المدينة لبغضهم الشديد للخوارزميين الطغاة الذين قهروهم .

وفي هذا العام ايضا استعد صاحب مصر العزيز للقدوم الى دمشق وانتزاعها من أخيه الأفضل ، ولما علم الأفضل توجه بنفسه الى قلعة جعبر يطلب نجدة العادل وأخيه الظاهر ، فذهبا معه الى دمشق في حين كان العزيز قد قدم اليها ، ثم بعثوا الى العادل والأفضل يقولون هلم الينا نسلمكما اياه ، فأحس العزيز بمكيدة تعد له ، فأسرع بالعودة الى مصر فلحقه الأفضل والعادل وبلغا بلبيس ، وكان بمقدورهما أن يحتلا مصر لولا ان العادل طلب الى الأفضل أن يتريث ، وأصلح بينهما ، فعاد الأفضل الى دمشق وتولى القدس ايضا ، وأما العادل فقد أقام في مصر يسوس مملكة العزيز .

وفي عام ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) زحف الملك العادل والملك العزيز من مصر الى دمشق ليأخذاها من الملك الأفضل فتأهب الأفضل لمواجهتهما ، ووزع قواده على الأسوار والأبراج والأبواب ، فخانه حارس الباب الشرقي واسمه عز الدين الحمصي ،وأدخل العادل الى دمشق ، فنزل في دار عمه أسد الدين شيركوه ، ثم تبعه الملك العزيز ، وأخذا دمشق من الأفضل ، ثم ولياه امر قلعة صرخد ، فذهب اليها ، وأما الملك العزيز ، فقد رجع الى مصر وبقي العادل في دمشق كأنه نائب يقوم مقام العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز وقد بعث الملك الظاهر مرارا من حلب الى الملك الأفضل يقول له : لاتصدق العادل ، فلن يجديك نفعا ، وأنا أعرفه أكثر منك ، فأنا ابن أخيه وصهره ، ولو كان

يشفق علينا لعاملني أفضل من معاملته لك ، فأجابه الأفضل قائلا : لقد ساء ظنك فيمن هو بمقام أبينا ، ومن لا يمكن أن يؤذينا .

وفي العام ٥٩٣ للعرب ١٥٠٧ لليونان (١١٩٦ م) هاجم الملك العادل الفرنج زاعما أن الصلح ، قد أصبح لاغيا بوفاة صلاح الدين وملك انكلترا ، ولهذا زحف الى يافا ودخلها عنوة ، فاستنجد الفرنجة الذين كانوا في الساحل بأصحابهم صارخين أنجدونا والا احتل العرب كل السواحل ، فأنجدوهم بجيوش جرارة يقودها رجل يدعى(شنسلير) (٢٨) وهو من رجال الكهنة فحاصرت الجيوش تبنين طويلا وكادت أن تقتحمها لولا ان ذاع خبر سقوط هنري صاحب عكا من مكان مرتفع وموته ، ولهذا توقفت الجيوش عن القتال ، لأنه لم يبق لهم ملك ، فاستحضروا ملك قبرص وزفوا له زوجة هنري ، وعندما علم الملك العادل بذلك بعث الى الفرنجة يرغب في مصالحتهم ، فاصطلح الطرفان على أن تكون بيروت للفرنج وتبنين للعرب ، ولهذا غادرها الفرنجة وذهبوا .

وفاة ملكشاه وطغتكين بن أيوب وعماد الدين زنكي

وفي هذا العام (١١٩٦ م)مات ملكشاه بن خوارزمشاه في نيسابور ، فحل محله قطب الدين محمد علما ان المملكة بحسب وصية ابيه كان يجب ان تؤول الى ابنه هندوخان ، كما مات في هذا العام سيف دين الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين ، صاحب بلاد اليمن ، فخلفه ابنه اسماعيل ، ولكن اسماعيل هذا لم يكن مؤدبا ، فثار عليه الزعماء وقتلوه .

وفي عام ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) مات عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين والرقة فخلفه ابنه قطب الدين محمد ، وكان وصي محمد هذا عبد ابيه مجاهد الدين يقش .

هجوم نور الدين ارسلان على نصيبين

وفي هذا العام سار نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين واخذها من ابن عمه قطب الدين محمد ، ذلك أن محمدا كان قد تمادى على قرى مابين النهرين على حدود الموصل فعمل نور الدين على اخراج محمد منها فأبى ، فوجه اليه جيوشا طردته الى حران ، فاستعان محمد بالعادل ، وأما نور الدين ، فبعد ان مكث أياما في نصيبين التى كان قد انتزعها حديثا من ابن عمه محمد فقد استشرى المرض بجنده ، فمات ستة من أشهر زعماء الموصل ، منهم حاجب نور الدين ، مجاهد الدين قايماز ، مما حمل نور الدين على العودة الى الموصل ، فارتد قطب الدين واستعاد نصيبين .

خوارزمشاه ينتزع بخارى من الصينيين

وفي هذا العام زحف خوارزمشاه الى بخارى ، وأخذها من الصينيين الذين كان العرب البخاريون ينعمون معهم بدفء المحبة والسلام على اختلاف أديانهم ، مما دفعهم الى الوقوف في وجه خوارزمشاه ، فقد تصدوا له على الأسوار وقاتلوه أشد مايكون القتال ، والبسوا كلبا ثوب خوارزمشاه ، وطرحوه بين الأهالي وهم يقولون لهم هذا هو ملككم ، ومع ذلك احسن خوارزمشاه معاملتهم بعد أن دخل بخارى ، فقد صفح عنهم وعاهدهم وأعطاهم ذهبا .

الملك العادل يستولي على ماردين

وفي هذا العام ايضا استولى الملك العادل على ماردين بعد أن قاتل صاحبها حسام الدين قتالا شديدا ، وقد كان حسام الدين هذا

فتى وكان نظام الدين بن يقش وصيا عليه ، وقد خدع أهالي ماردين بالملك العادل ، فسلموه المدينة ، فما ان دخلها جنده حتى سلبوا مافيها وبطشوا بأهلها وحاصروا قلعتها .

وفاة العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر وتولي أخيه الأفضل .

وفي عام ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) توفي صاحب مصر الملك العزيز ابن صلاح الدين ، فقد سقط عن حصانه بينما كان يطارد ذئبا في رحلة صيد ، فألمت به حمى شديدة وعاد الى مصر فمات فيها ، فاختلف الزعماء فيمن سيخلفه من ذويه ، فقد رأى بعضهم أن يخلفه ابنه الصغير الملك المنصور ، في حين رأى آخرون أن يخلفه الملك العادل ، ورأى غيرهم أن يكون الملك الأفضل خلفا للملك العزيز ، وقد رجحت كفة هؤلاء ، فاستدعي الملك الأفضل من صرخد وجعل ملكا ، ففر أعداؤه في مصر الى بيت المقدس واحتلوها ، وأما الملك الأفضل ، فقد جيش جيوش مصر وسار بها الى دمشق يريد احتلالها ، فأعلم الدماشقة الملك العادل الذي كان بماردين بذلك ، فترك فيها ابنه الملك الكامل محمدا ، وتوجه هو الى دمشق التي كان الملك الأفضل قد سبقه اليها ، ولكن جيوشه انقسمت على أنفسها فارتد الى مصر دون ان يفيد شيئا من مجيئه الى دمشق .

وأما الملك الكامل بن الملك العادل ، فقد بقي في ماردين يضغط على من كان في قلعتها الى ان نفدت ذخائرهم ، واستشرت بهم الأمراض ، فرأى نظام الدين الذي كان وصيا على الطفل حسام الدين ان يسلم هذه القلعة ، وهذا ماأثار صاحب الموصل نور الدين وولدي عمه صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وقال بعضهم لبعض . اذا ماتمكن أتباع العادل من ماردين ، فسيتمكنون من احتلال بلادنا كلها ثم اتحدوا وزحفوا جميعا الى دنيسر (٢٩) ، فنزل الملك الكامل الى البرية حيث لاقاه المواصلة ، ففر هو واتباعه الى ماردين ، فوجدوا أن حماة قلعتها قد نزلوا عنها الى المدينة ، فنهبوا

خيامه ، وهذا ماحمل الكامل علي أن يعود في تلك الليلة الى حـــران ومن ثم تحول الى دمشق حيث ابوه الملك العـــادل ، ويروى بعضـــهم أنه لو لم ينزل أصحاب الكامل عن الجبل الى البرية ، لصــعب على المواصـــلة ان يخـــرجوهم مـــن مـــاردين ، ولما كادوا يحتلوا القلعة ، ولكن الله ــ جلت حكمته ــ يفعل مايشاء .

الملك العادل يرحل إلى مصر

في سنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩ م) جمــع الملك العــادل جيوشـــه وسار باتجاه مصر ، وعلم الأفضل بذلك فهيأ جيوشه واستعد لقتال عمه ولكنه هزم واضطر للعودة إلى القاهرة ليلا ، مما جعل العـــادل يتابع طريقه إلى القاهرة ويحاصرها بقصـــد أخـــذها وهنا اقتـــرح الأقطاب على الأفضل أن يلجأ إلى الهـــدنة ويطلب المصـــالحة لعـــدم مقدرته على القتال ، وقد اقتنع الأفضل بهذا الرأي ، ورضي أن تؤول إليه ولاية دمشق أو الرها وحران بدلا من مصر ، إلا أن الملك العادل رفض طلبه هذا ، ولكنه وافق على تـــوليته على ميافـــارقين وحـــاني وجبل جور وأقسم كل منهما للآخر وتوجه الأفضل إلى صرخد وبعث أتباعه ليتسلموا ميافارقين ، ولكنه فوجيء بابن الملك العـــادل نجـــم الدين أيوب يرفض تسليمه الولاية فشكاه إلى والده الذي أجابه بأن ابنه متمرد عليه ، وعلم الأفضل أن هذا اتفاق بين العـــادل وابنه فلم يفكر بإرسال وسيط بينه وبين العادل .

وفاة خوارزمشاه صاحب خوارزم

وفي السنة نفسها توفي خوارزمشاه تكش بن ألب أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان كالري وجزء من بلاد الجبل ، فتولى مكانه محمد بن قطب الدين الذي سمي علاء الدين باسم أبيه .

وفي السنة نفسها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

إلغاء العادل الخطبةللملك المنصور

في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م قام العادل بإلغاء الخطبة للملك المنصور الفتى ابن الملك العزيز مما أزعج الأقطاب ، وجعلهم يكتبون إلى الملك الأفضل في صرخد وإلى أخيه الملك الظاهر في حلب يطلبون منهما القدوم إلى دمشق وأبدوا استعدادهم لاعتقال العادل إذا مابرز إليهما،ولكن الأنباء تسربت إلى العادل فأرسل إلى ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى الذي كان في دمشق وطلب منه أن يسرع إلى صرخد لحبس الأفضل في قلعتها ، فهرب الأفضل إلى أخيه الظاهر في حلب وتوجها معا إلى منبج واحتلاها ، ثم تابعا فاحتلا قلعة نجم ثم سارا إلى حماة حيث قدم لهما ناصر الدين بن تقي الدين ثلاثين الف دينار صوري فتركاها وتوجها إلى دمشق عن طريق بعلبك ، واتفق الاثنان على أنهما إذا احتلا دمشق فإنها تبقى للأفضل إلى أن يسترد مصر فعندها تصبح مصر للأفضل ويرد دمشق للظاهر ، إلا أن الخلاف وقع بينهما عندما احتلا دمشق فقد طلب الظاهر أن تكون دمشق له على أن يرسل مع أخيه الأفضل جنوده لاحتلال مصر ولكن الأفضل قال له : إن أمي وأهلي ضيوف في حمص ، ولذا أرغب وقد أتيت بهم من صرخد إلى حمص وأعطيتها إلى زين الدين قراجا عبد أبي حتى يساندني فأرجو أن تترك لي دمشق لتمكث فيها النساء ، وتدافع أنت عنهن حتى تستولي على مصر ، ولكن الظاهر ظل مصرا على رأيه حتى علم الناس بذلك فانصرف قسم من زعمائهم إلى العادل وقسم آخر إلى دمشق إلا أن الأخوين اتفقا بعد ذلك ، وطلبا الصلح من عمهما العادل ، وقد استجاب العادل لهما ومنح الملك الظاهر منبج وأفامية وكفرطاب وبعض المعرة إضافة إلى حلب ، وأعطى الملك الأفضل سميساط

وسروج ورأس العين وجملين ، ودخل الملك العادل إلى دمشق وانصرف كل واحد إلى شأنه .

محاولة انتزاع مابين النهرين من آل العادل

وفي الوقت الذي كان فيه الأفضل والظاهر يحاصران دمشق قام نور الدين بجمع جيوشه واصطحب ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وصاحب ماردين ، وتوجهوا جميعا ليستردوا مابين النهرين من آل العادل ، ولكن المرض تفشى بينهم عندما وصلوا إلى رأس العين وكان ذلك في الصيف ، وقد أرسل الملك الفائز بن العادل الذي كان في حران إلى نور الدين يطلب الهدنة ، فوافق الأخير ولاسيما أن نبأ اتفاق الأفضل والظاهر والعادل قد وصل إليه مع نبأ المرض وهكذا عاد نور الدين إلى الموصل ، وعاد كل واحد إلى مركزه ٠

ركن الدين بن قلج أرسلان يأخذ ملطيه

وفي ذلك العام كان معز الدين قيصر شاه واليا على ملطيه ، فزحف أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان وحاصرها واستطاع أخذها منه في حزيران ١٥١١ لليونان (١٢٠٠ م) ، وفر الملك معز الدين يطلب العون من حميه الملك العادل الذي بعثه إلى الرها ومنحه مساعدة ، فيما كان ركن الدين يتابع طريقه من ملطيه إلى ارضروم التي كان يتولاها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من الأسرة المالكة في المدينة،وقد خرج إلى ركن الدين مظهرا الود والطاعة إلا أن ركن الدين لم يعبأ بهذا بل سجنه ودخل المدينة ، ثم أخذ قونية من غياث الدين كيخسرو أخيه . وقد فر غياث إلى سورية وقصد الملك الظاهر صاحب حلب وأخبره بما حدث طالبا نجدته ، ولكنه قوبل بالرفض فترك حلب وجعل يتنقل بين البلاد حتى وصل إلى قسطنطينية التي أكرمه ملكها وزوجه إحدى بنات بطارقته

العظام ، وبقـي غياث هناك حتـى وصـل الفـرنج إلى هناك حيث غادرها غياث يريد حميه وكان صاحب إحدى القلاع فرحب به وقـال له : يكفيني هذا البلد ويكفيك إلى أن يقضيالله امره ، واقـام هناك إلى حين وفاة أخيه .

كوارث طبيعية

وفي تلك السنة قلت مياه النيل ولم يفض فحدث ارتفـاع شـديد في الاسعار ، واكل الناس في مصر جثـث الحيوانات والبشر ، وانتشر الطاعون ، ثم حدث زلزال هدم الأسوار والأبنية في دمشـق وحمص وحماه وطرابلس وصور وعكا والسامرة ، واصـاب الزلزال بـلاد الروم إلا انه لم يكن قويا في بلاد المشرق .

خوارزمشاه محمد بن تكش ينتزع مرو ونيسابور

سار خوارزمشاه محمد بن تكش سنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١ م) إلى خراسان ، وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين واخيه شهاب الدين فقد كانت لهما،ولما رجع إلى خوارزم بسبب موت أبيه اخذهما غياث الدين فبعث إليه قائلا : كنتِ اظـن انك تسـاعدني وتحـارب الصين معي ، ولكنك ابيت إلا أن تضرني ، ولكن غياث الدين لم يعد إليه المدينتين مما اضطره للسـير إليه وأخـذهما عنوة ولم يسـتطع غياث الدين أن يقف في وجهه بسبب داء النقرس الذي اصابه . وكان اخوه شهاب الدين يقاتل الهنود يومئذ .

محاولة الملك العادل الاستيلاء على ماردين

في سنة ٥٩٩ للعرب (١٢٢٠ م) أرسل الملك العادل أبو بكر بن ايوب حاكم مصر ودمشق جيشا كبيرا مع ابنه الملك الأشرف مـوسى

إلى ماردين وهناك حاصر هذا الجيش المدينة ، وسيطر على بعض المناطق والقرى ، فتدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب بين الطرفين وعقد هدنة تقضي بأن يدفع صاحب ماردين إلى الملك العادل مائة وخمسين الف دينار ، قيمة كل دينار منها ستة دراهم فضة وأن يدعو له على المنابر ويكتب اسمه على الدراهم والدنانير ، وقد تسلم الملك الظاهر عشرين الف دينار من ذلك المبلغ وأخذ منه قرية قرادي في شبختان وتركه وانصرف .

وأثناء الأحداث السالفة كان التركمان يعيثون في البلاد فسادا ويسلبون وينهبون حتى صار الناس يخشون السفر دون حماية الجند .

العادل ينتزع سروج ورأس العين

وفي تلك السنة انتزع العادل من أخيه الأفضل سروج ورأس العين وجملين ، وانتزع منه أخوه الظاهر صاحب حلب قلعة نجم ، ولم يتبق له إلا سميساط ، ولما وجد الأفضل أن عمه وأخاه قد ظلماه راسل ركن الدين سليمان بن الملك قلج أرسلان صاحب ملطية وقونية وأبدى له إذعانه واستسلامه له وخطب له ، وسك الدراهم باسمه وأصبح بمثابة واحد من الأمراء في بلاد الروم ، ثم أرسل إلى أمه فذهبت إلى الملك العادل ورجته أن يرد لابنها ماأخذه من يده ، إلا أن العادل رفض رجاءها ليلقى آل صلاح الدين العقاب نفسه الذي عوقب به آل أتابك عندما بعث أمه وابنة عمه فرفض توسلهما .

وفي هذه السنة أرغم الملك العادل الملك المنصور ابن الملك العزيز على ترك مصر وجعل إقامته في الرها إلى جانب أمه وأخوته وذلك خشية من أن يبايعه المصريون .

انتزاع الفرنج القسطنطنية من اليونان

في نيسان سنة ٦٠٠ للعرب (١٥١٥ لليونان / ١٢٠٤ م) أخذ الفرنج القسطنطينية من اليونان وألغوا دولتهم منها ، وكان ملك اليونان قد تزوج أخت الملك فرنسيس ورزق منها طفلا ، وكان للملك اليونان أخ تمرد عليه وفقأ عينه وأماته في السجن ، فهرب ابن الملك المقتول وقصد خاله الملك فرنسيس ، فتحمس وحشد جنوده ، وسار الى محاصرة القسطنطينية ، وكان الاهالي حاقدين على ملكهم فأشعلوا المدينة بالنار ، وساعدوا الافرنج على دخول المدينة والقضاء على الملك الظالم ، ومن ثم سلموا عرش المملكة للفتى شكليا فيما تولوا الأمر عمليا ، وراحوا يرهقون الأهالي بالضرائب الباهظة ، وسلبوا الكنائس الأمتعة والصلبان والأناجيل والمذهبات ..

ولما رأى الأهالي القسوة والنهب ، هبوا على ملكهم وقتلوه وطردوا الفرنج وأغلقوا الأبواب في وجههم ، واستمر الفرنج في قتالهم على الأسوار حتى مل الأهالي وضعفوا فاستنجدوا بالسلطان ركن الدين صاحب قونية الذي لم يستطع مساعدتهم مما أدى الى ثورة التجار الفرنج وعددهم نحو ثلاثين ألفا ، وقاموا بإضرام النار في المدينة حتى أحرقت ربعها ، ثم فتحوا ابوابها للفرنج الذين قتلوا أعداد كبيرة من اليونان ولاذ العديد بكنيسة اياصوفيا حتى اضطر الرهبان والأساقفة للخروج وهم يحملون الصلبان والأناجيل يرجون منهم أن يكفوا أذاهم ، ولكن الفرنج لم يهتموا بما سمعوه منهم وتابعوا فتكهم وقتلوا الكهنة وسرقوا الكنيسة وكان للفرنجة ثلاثة قواد هم : دوقس البنادقة الضرير ، وقد ركبوا في سفنه والثاني المركيس مقدم الافرنسيس وثالثهم غوندفلند ، وقد اختير الأخير لملك قسطنطينية بالقرعة فيما أخذ الأول أقريطش ورودس وغيرهما ، وتولى المركيس البلاد الواقعة شرقي الخليج المار في بنطش مثل لوذقية ونيقية وفيلادلفيا

وغيرها الا انها لم تبق له فقد تغلب عليه الأشكري الامبراطور اليوناني واستطاع انتزاعها منه.

محاولة نور الدين شاه الاستيلاء على نصيبين

كان الاتفاق سائدا بين نور الدين شاه حاكم الموصل وقطب الدين محمد بن زنكي ابن عمه حاكم سنجار ، إلا أن العادل أوقع الفتنة بينهما ، فهاجم نور الدين نصيبين وهي لابن عمه ، وكادت تقع في يده لولا الخبر الذي جاءه من الموصل والذي مفاده أن مظفر الدين كوكبري صاحب إربيل زحف الى نينوى وعاث فيها فسادا ، ولذا عاد نور الدين الى مدينة بلد ، ولكن نمي اليه أن مظفر الدين رجع الى اربيل فسار هو الى تل أعفر ، وأخذه عنوة ويومها كان الملك الأشرف في حران فجاء الى رأس العين واتفق مع مظفر الدين صاحب اربيل ومع حاكم آمد وحصن كيفا ، ومع حاكم الجزيرة ليمنعوا صاحب الموصل من احتلال شيء من صاحب سنجار وقد اجتمعوا في نصيبين ثم زحفوا الى باعر بايا ، وتوجه نور الدين الى كفر زمار ثم الى بوشذه وأقام مع جنده حتى يستعيدوا قوتهم ، فتوجه اليهم الأشرف بجنوده ، وقاتلوهم وخسر نور الدين المعركة وهرب مع أربعة من رجاله الى الموصل ، أما خصومه فقد زحفوا الى ضواحيها فاستأسروا وأحرقوا وأفسدوا ولا سيما في بلد.

مصادفة غريبة

وسمعت إحدى النساء ـ وكانت تطبخ ـ بما يحدث فخشيت من السبي وكان في معصمها ذهب فأخفته تحت الموقد ، فدخل أحد الفرسان ونزلها يفتش عن طعام فوجد بيضة فشواها على الموقد وعندما حاول تقليب النار وجد ذلك الذهب

- ٢٣٩٥ -

دخول الفرنج الى حماة

بعد احتلال الفرنج قسطنطينة استجمعوا قوتهم ، وساروا الى قونيه وسبوا حتى الأردن وقضوا على كثير من العرب ، ودخلوا حماة فخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب ولكنه هزم وفر الى حماة ، وخرج أهل حماه لقتال الفرنج فهلكوا جميعا ، فبعث الملك العادل ومنح الفرنج الناصرة وبقية البلدان التى كانت أموالها تقسم بين العرب والفرنج وعقدت الهدنة بين الطرفين.

استرداد أنقرة

وفي هذه السنة استرد السلطان ركن الدين حكم ملطية وقونية ومدينة أنقرة من أخيه بعد حصار دام سنين ، ونفى أخاه وأولاده الى قلعة خارجية ، ولكنه أختبأ لهم في الطريق مع رجاله وفتك بهم ، بيد أنه اصيب بداء المفاصل بعدها بخمسة ايام ومات ليخلفه ابنه قلج ارسلان الذي كان شابا.

وقد عرف ركن الدين بالدهاء والانتظام في أفعاله وميله الى رأي الفلاسفة الخارجين،ولكنه لم يظهر ذلك.

وفي تلك السنة حدث زلزال عنيف دمر سور مدينة صور وأبنية كثيرة في مصر وفلسطين وما بين النهرين والموصل وقبرص وصقلية.

أفعال خصوم نور الدين

وراح خصوم نور الدين يعيثون في الضواحي فسادا واسترجعوا تل أعفر ومنحوه لابن عمه وعقدوا الصلح ، وتشتت الجند.

خلاف بين سلاجقة الروم

في سنة ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م) نشأ خلاف بين زعماء بلاد الروم ، وبعث أحد أمراء أوج ببلاد التركمان المجاورة لليونان يطلب غياث الدين كيخسرو الذي سلف له وفر الى اليونان وجمع لأجل ذلك جيشا كبيرا وجهه الى قونيه ، فخرج أهلها وجندها اليهم وهزموهم ، وحار غياث الدين بأمره فلاذ بمدينة صغيرة مجاورة لقونية هي ابجرام ، ثم عطف عليه أهالي أقصرا فطردوا حاكمهم وولوه عليهم ، وكذلك فعل أهل قونيه فاعتقل قلج أرسلان ابن اخيه وخضعت له البلاد كافة ، فجاد عليه بذهب كثير وجعله يعود الى الرها ولم يبقه عنده.

وتوجه السلطان غياث الدين الى قيسارية ، وأتى الى زيارته الملك الأفضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ونظام الدين صاحب حصن زياد وخضعا له ، فشهره ذلك..

ناصر الدين والأشرف يستردان حصن زياد

وفي السنة نفسها توجه ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان حاكم آمد الى الملك الأشرف طالبا منه أن يمده بالعون لاستعادة حصن زياد ، ولبى الأشرف هذه الدعوة وجهز جنودا من سورية والموصل وسنجار والجزيرة وسار واحتل المدينة وأخذ الجمعان يقاتلان في القلعة ، وحين ذلك طلب صاحب حصن زياد من السلطان غياث الدين المعونة ، فأرسل اليه ستة آلاف فارس بقيادة الملك الأفضل صاحب سميساط ، وعلم الأشرف ناصر الدين بهذه المساعدة فغيروا جبهة القتال ، ودخلوا القلعة وعينوا فيها حراسا.

- ٢٣٩٧ -

زحف الكرج الى أذربيجان

وفي عام ١٥١٦ لليونان (١٢٠٥ م) قام الكرج بـالزحف الى أذربيجان فبـطشوا بـأناس عديدن ، وغنمـوا كثيرا ، وبعـد ذالك ساروا الى خلاط وارضروم ، فسار صاحب خلاط ابن قلج ارسلان صاحب ارضروم واخذ جيشا من عنده ، وعاد لمقاتلة الكرج ، وقتـل في المعركة القائد الكرجي زكري الصغير ، وفـر أهـل امـكرج الى بلدهم.

حوادث طريفة

وفي تلك السنة أنجبت امرأة طفلا له رأسان وأربعة أرجل وأربعة أيد ومات في اليوم نفسه.

ودخل اثنان من العميان مسجدا في بغداد وقتلا أعمى ثالثا ليأخذا أمواله ، وفي الصباح هما بالفرار الى الموصل فرآهما أحد الحراس فقال ممازحا : هذان الأعميان قتلا ذلك الأعمى لأنه لا يقتل الأعمـى إلا مثله ، فراح كل منهما يحلف أنه لم يقتل الرجل بل قتله صـاحبه فقبض عليهما الحارس واعترفا بفعلتهما بأن أحدهما قد أمسكه ثـم خنقه الثاني بحبل ، فأصدر الحاكم أمرا بقتلها.

أكراد مخربون

وفي سنة ٦٠٢ للعرب (١٢٠٥ م) ظهـر جمـاعة مـن الأكراد التيرهانية من جبـال حـاداي وأحـدثوا دمـارا كبيرا في تلك البلاد[١]، فلاقاهم العجم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وهؤلاء الأكراد لم يسلموا بـل ظلوا على وثنيتهـم ، وكانوا ينكلون بـالمسلمين أشـد التنكيل ويقتلونهم ، وكان من عادة هؤلاء أنه إذا ما ولدت لهم فتـاة

وقف أبوها في باب منزله وصاح : من يخطب هذه الفتاة ، فإن خطبها أحد تركها حية وإلا قتلها ، ولهذا قل عدد نسائهم ، وربما كان ينكح المرأة الواحدة كل رجال البيت.

وإذا دخل عليها أحدهم جعل حذاءه خارجا على الباب حتى لا يدخل سواه ، حتى يخرج هو فيأذن للثاني بالدخول ، ويكون المولود ابنا لأكبرهم سنا.

احتلال أنطالية

وفي عام ٦٠٣ للعرب (١٢٠٦ م) زحف الكرج مرة ثانية الى خلاط ، ففعلوا فيها ما فعلوا من سبي وقتل وحرق ، وفي شهر شعبان احتل غياث الدين كيخسرو أنطالية التي على ساحل البحر ، بعد أن كان قد وجه اليها الجيوش في العام المنصرم ، فما كان من أهالي اليونان إلا أن استنجدوا بالفرنج في قبرص ، واستدعى السلطان جيوشه من المدينة ، وجعلهم في الجبال ، حتى إذا خرج من المدينة أحد قبضوا عليه ، وبقيت الحال على هذا النحو حتى سلمت المدينة الى السطان ، أما اليونانيون والأتراك فقد اتفقوا معا وحاربوا الفرنج وانتزع السلطان القلعة وأسر من فيها من الفرنج ، كما احتل كوتاس أيضا.

تسليم مدينة خلاط

وفي العام نفسه قوي أمر سلطان خلاط محمد بن بكتمر فقضى على صهره هزار ديناري الذي قتل أباه وعاش في بذخ كبير منذ أن كان طفلا حتى كرهه الخلاطيون ، وثار عليه بلبان أحد عبيد شاه أرمن في منازكرد ، وبعث بعض الخلاطيين الى ناصر الدين أرتق ابن ايلغازي بن البي بن تمرتاش بن

ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين يحرضونه على ابن خال أبيه ويدعونه لاستلام المدينة ، فما كان منه إلا أن زحف بجيوش أتراك ومعديين وقد استعدوا للقتال ، ولكن الذي جرى أن بلبان أرسل الى صاحب ماردين يطلب منه ترك خلاط ليتدبر أمرها هو زاعما أن أهل خلاط ينفرون من المعديين ، وعندما لم يقبل بذلك هدده بلبان إذا لم يعد الى بلده ، ولكنه خاف بعد أن وجد جيوشه قليلة ، فعاد ليرى أن بلده قد غزاه الملك الأشرف ، وأقام الأشرف في دينسر وجمع منها أموالا طائلة ثم مالبث أن تركها وعاد الى حران.

محاولة الملك الأوحد احتلال خلاط

وقام بلبان بالزحف الى خلاط بعد أن حشد الجنود ، ولكنه لم يستطع احتلالها ، فجعل يعطي لأهل خلاط الوعود والمواثيق على أنه لن يؤذي أحدا منهم ، حتى سلموه المدينة فقام بسجن ابن بكتمر في حصن من الحصون ، واستفحل أمره ، وفي هذه الأثناء احتل الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل قلعة موش ومدينتها ، وتوجه الى خلاط ، ولكن بلبان سد الثغور ، وقضى على عدد كبير من أعوانه ، وأفلت الأوحد وعادا الى بلده ميافارقين مع نفر من المصابين.

كيف تم الأمر للملك الأوحد

وقام الكرج باحتلال مدينة القرص بولاية خلاط في العام نفسه بعد أن قاموا بمحاصرتها عدة أعوام قاطعين عنها الذخيرة,وفي عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م طلب الملك الأوحد نجدة من أبيه الملك العادل حتى يزحف الى خلاط

فبعث الملك الأشرف جيشا كبيرا قبع قرب المدينة ، وحاول بلبان

محاربته ولكنه عجـز عن ذلك وعاد الى خـلاط ليبعـث رسـولا الى صاحب أرضروم مغيث الدين بن قلج أرسلان ليستنجده ، فاستجاب له وأقبل ليحارب مع بلبان الملك الأوحد مـع أخيه حتـى تـم النصر لهما ، فزحفا الى موش لاحتلالها.

ولكن مغيث الدين خان بلبان وقتله ليستولي على خلاط ، وعندما توجه إلى المدينة ليتولاها وجد أبوابها مغلقة في وجهه ، فتحـول الى منازكرد ، ولكن أهلها قاوموه أيضا ممـا جعله ييأس ويجـر ذيول الخيبة الى بلده ، ثم إن أهل خلاط استدعوا الملك الأوحد وسـلموه المدينة ليتولاها.

اضطرابات في خلاط

وكان الولاة العرب المجـاورين يتخـوفون مـن الملك العـادل فلم يرضهم ان يتولى ابنه المدينة فراحوا لذلك يغزون الخلاطيين وخاصة الكرج ، فقام بعض الأمراء الخلاطيين بانقلاب على الأوحد ، واحتل أهم قلعة هناك وهي قلعـة (وان) اضـافة الى أرجيش ، وبعـد تدخل الأشرف أخي الملك الأوحد استطاع هذا الأخير أن يسـترجع قلعة وان ، ولكنه لما خرج فيما بعد الى منازكرد لينظمهـا كمـا يريد ثار الخلاطيون من زعماء الصفوف وكانوا قد استاءوا لتسليم المدينة الى أصحاب العادل فـطردوهم مـن المدينة وقـاموا بمحـاصرة القلعة ، فما كان من الملك الأوحد الا أن جاء الى خـلاط في جيوش مابين النهرين واحتل المدينة بعد أن دب خلاف بين أهلها وفتك بعدد كبير منهم ، واعتقل العديد ونفاهم الى ميافـارقين ، وهـكذا تـم اخماد حركة زعماء الصفوف الذين كانت أمور العـزل والتـولية في أيديهم .

موت كيخسرو

وفي هذه السنة مات غياث الدين كيسخرو فخلفه ولده عز الدين كيكاوس،الذي قام باعتقال اخيه علاء الدين كيقباذ في قلعة مسارا بأسفل دير مار أهرون في الجبل المبارك قرب ملاطية .

الفرنج في حمص

وفي هذه السنة ايضا قام الفرنج بالزحف الى حمص قادمين من طرابلس فعاثوا الفساد في أرجائها ولم يستطع صاحب حمص أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه الكبير أن يكفهم عن ذلك،وقام القبارصة ايضا بالاستيلاء على بعض السفن العربية واعتقال أصحابها،مما جعل الملك العادل يسير في جيوشه من مصر ليكف الفرنج .

موت صاحب مراغة

وفي السنة ذاتها مات صاحب مراغة علاء الدين بن قرا سنقر ، فخلفه ابنه الصغير ، ولكنه مالبث ان مات أيضا فأقبل صاحب تبريز نصر الدين أبو بكر بن البهلوان واحتل المدينة دون أن يتمكن من قلعة راوند التي قاومه فيها مربي الغلام المتوفى .

زحف الكرج الى مدينة أرجيش

في عام ٦٠٥ للعرب (١٢٠٨) م زحف جيش عرمرم من الكرج الى مدينة أرجيش من ضواحي خلاط فقاموا باحتلالها ونهبها والفتك بأهلها شيبا وشبابا وأسر نسائها وأطفالها ، ولم يتركوها الا خرابا ، ولم يتمكن نجم الدين الأوحد الذي كان في خلاط أن

يقاومهم لكثرتهم ، ولعدم ثقته بالاهالي الذين فتك بهم فيما ســاف ، وكان يظـــن انه لو تـــرك المدينة لســلمها أهلهـــا الى الكرج .

زلزال في نيسابور

وفي هذه السنة أصاب نيسابور زلزال قوي ، فهــرب على أثــره جميع السكان متوجهين الى البــرية فبقــوا عدة ايام حتــى ينتهــي الزلزال فيعودوا ، كما أنه حصل زلزال آخر في خراسان ، ولكنه لم يكن بالقوة نفسها لزلزال نيسابور .

اتفاق نور الدين ارسلان مع الملك العادل

وفي عام ٦٠٦ للعــرب (١٢٠٩) م زوج نور الدين ارســـلان صاحب الموصل ابنته لأحد ابناء الملك العــادل بعــد أن تــم الصــلح بينهما ، واتفقا على انتزاع مدينة سنجار من صاحبها قــطب الدين ليتولاها العادل ، كما اتفقا على احتلال جزيرة قــردو (٣١) مــن صاحبها ابن سنجر شاه ليتــولاها نور الدين ارســلان ، ولكن نور الدين بعد ان فكر مليا ندم على ماخطط لأنه ايقــن انه ســينتزع منه سنجار والجزيرة ان احتلهما بل وينتزع منه الموصل ايضا ، وعندما شاور اصحاب الرأي لامــوه جميعــا ، اذ لم يطلعهــم على اتفــاقه السري مع الملك العادل ، ونصحوه بأن ينجز وعده للعادل كيلا يعــد ذلك نقضا للعهود فيقيم عليه الحجة ، وبينما كان نور الدين في حيرته هذه ويتظاهر بتهيئة جيش ليرسله الى نصرة الملك العادل أتــاه ليلا رسول من صاحب اربيل مظفر الدين كوكبري يعده بأنه سيوافي اليه بجيوشه ليتفقا معا على الملك العادل ويحــولا دون تمــكنه مــن تلك البلاد ، فرضي بذلك نور الدين مبتهجــا وعاهــد على ذلك فعــاد الى الخليفة يحثه على تعنيف العادل بسبب طمعه ، كما بعث رسولا الى صاحب حلب الملك الظافر بن صلاح الدين والى الســلطان عز الدين كيكاوس ووعدهم بــالمعونة ، اضــافة الى أن أصــحاب العــادل لم

يحاربوا سنجار بشدة وخاصة أسد الدين صاحب حمص/الذي كان يبعث علنا الى المدينة مؤنا مختلفة ، وتشجع صاحب سنجار على التشبث بمدينته بعد أن كان مستعدا لتسليمها ، وأخذ بدلا منها ، ثم جاء الى الملك العادل رسول الخليفة الناصر فوبخ العادل على طمعه مما جعله يعقد الصلح ويكتفي بالخابور ونصيبين ويعود الى سورية

مظفر الدين والملك العادل

وكان صاحب إربيل مظفر الدين وقتئذ في الموصل فقام بتزويج ابنتيه الى ابني نور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي ، على أنه فيما سلف ، كان مظفر الدين يساند أصحابه العادل ، لكن الحال تغيرت بعد ان ارسل اليه صاحب سنجار ابنه راجيا أن يراجع العادل ليدعه في مركزه ، فكتب اليه في هذا الشأن وكله ثقة أن طلبه لن يخيب عند العادل مهما كان ولكن العادل غض طرفا عن طلبه مما دعا مظفر الدين أن يرتاب وينضم الى نور الدين على الرغم من المشادة التي كانت بينهما ...

وفاة نور الدين ارسلان

وفي السنة ذاتها توفي صاحب الموصل نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، وكان قويا عادلا تخافه رعيته ، وسلاطين عصره ، ولما حانت وفاته استحلف زعماءه من أجل ابنه الكبير الملك القاهر عز الدين مسعود ، وولى ابنه الصغير عماد الدين زنكي قلعتي العقر وشوش مع اصقاعهما ، وجعل لهما وصيا مملوكه (بدر الدين لؤلؤ) وكان رجلا حكيما ذا هيبة يستحق هذا المنصب،وعندما استفحل المرض على نور الدين اقترح عليه الأطباء ان يسبح في عين دير القديس زينا في سواحل دجلة (٣٢)

فذهب مع بدر الدين وسبح هناك الا انه لم يستفد من ذلك اذ كان مرضه مميتا ، وماكاد بدر الدين يركبه في السفينة ليرجعه الى الموصل حتى سبقته المنية وكان معهما مملوكان فحسب ، فحملوه في الليل الى بيته دون اشعار احد ، وبقي بدر الدين طوال النهار مشغولا بتصريف الامور الضرورية حتى الساعة التاسعة وعندها اعلن نبأ وفاته ، فشيعوه ليلا ودفنوه في قبر اعد من قبل تجاه منزله ، وخلفه ابنه الملك القاهر ، وامست ازمة امور الولاية بيد بدر الدين.

وفي عامي ٦٠٨ ـ ٦٠٩ للعرب (١٢١٢ ـ ١٢١٣ م) لم نجد اي خبر هو أهل لأن يذكر

الحواشي والهوامش

حواشي المؤرخ الرهاوي المجهول .

١ ـ أي السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م) .

٢ ـ أمير الجيوش الافضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي ثاني الملوك الارمن الذين تحكموا بالخلافة الفاطمية في مصر ، اغتيل سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م .

٣ ـ من كبار قادة التركمان الذين دخلوا الشام ، تعاون مع تتش بن ألب ارسلان صاحب دمشق ، واستقر فترة في القدس ، وبعد استرداد الفاطميين للقدس ، ترك الشام إلى الجزيرة حيث أسس أولاده عددا من الامارات ، وكان تاريخ الامارات الارتقية موضوع إطروحة للدكتور عماد الدين خليل ، نشرت في بيروت ١٩٨٠ .

٤ ـ أي الخلافة الفاطمية مع من دان لها بالطاعة والولاء

٥ ـ الرها هي إديسا في السريانية ، وهي أورفا الحالية داخل الاراضي التركية مقابل الحدود السورية ، تمتعت بمكانة تاريخية كبيرة ، ويشير المؤرخ هنا إلى حملة السلطان ألب ارسلان عليها ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . انظر كتابي « مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ط دمشق ١٩٧٥ ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

٦ ـ يريد به الامبراطور البيزنطي

٧ ـ حول أوفى التفاصيل عن علاقات الامبراطور الكسيوس بقادة الحملة الأولى انظر ماكتبته الاميرة أنا كومينا

٨ ـ فراغ بالأصل السرياني المخطوط

٩ ـ يشير هنا إلى ما حل بالقوات التي قادها بطرس الناسك .

١٠ ـ كانت نيقية غير بعيدة عن القسطنطينية ، وكانت حاضرة دولة سلاجقة الروم ، انظر حول سقوطها وما جرى من مشاكل تاريخ الحروب الصليبية تاليف ستيفن رنسمان ـ ترجمة عربية ط . بيروت ١٩٦٧ ، ١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٩ .

١١ ـ دخل في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م السلطان ملكشاه مدينة انطاكية حيث الحقها باملاكه ، وقبل مغادرته لها عين واحدا من ضباطه واسمه يغي سيان ، وهو الذي حاول التصدي الحملة الأولى انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، ٢٣٧ ـ ٢٤٢

١٢ ـ الحقيقة أن هذا حدث قبل وصول الحملة إلى أنطاكية انظر رنسمان ١ / ٢٨٧ ـ ٢٩١ .

١٣ ـ بياض بالأصل .

١٤ ـ انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٣٧ ـ ٢٤٢

١٥ ـ انظر المصدر السابق

١٦ ـ حدث خلاف بين الفرنجة حول أنطاكية وادارتها انتهى بتولية بوهيموند ـ انظر رنسمان ١ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦

١٧ ـ بلدة قُرَيْبَة من حران من ديار مضر ـ معجم البلدان

١٨ ـ تبعد عن البيرة قليلا إلى الشمال ، والبيرة عند ياقوت في معجم بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

١٩ ـ قرية مستطيلة من اعمال سميساط ، ولها عرض صالح ، وفيها سوق ودكاكين وافرة وفيها حصن كبير على قلعة .معجم البلدان .

٢٠ ـ مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم ، وهي قلعة تحت جبل . معجم البلدان .
٢١ ـ كذا والأصح « سليمان بن ملك غازي » كمشتكين بن دانشمند .
٢٢ ـ مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الارمن . معجم البلدان .
٢٣ ـ مرعش مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق ، والجبل الاسود قريب منها ـ معجم البلدان .
٢٤ ـ عين زربة بلد بالثغور الشامية من ناحية المصيصة ـ معجم البلدان .
٢٥ ـ ماتزال معروفة بهذا الاسم في الجنوب الغربي من تركية على مقربة من الاراضي السورية .
٢٦ ـ هي أضنة حاليا داخل الاراضي التركية على مقربة من الحدود السورية .
٢٧ ـ كذا أي (١١٠٢ م) وهو خطأ والمفروض أن يقول : « ١٤٠٦ » أي ١٠٩٩ م ، ثم القدس لم تسلم بل سقطت عسكريا واقتحمت اقتحاما وتم قتل كل من كان فيها . انظر النصوص المقبلة ، هذا ويلاحظ أن سمة الاختصار واضحة هنا .
٢٨ ـ كان لقيام مملكة القدس اهمية قصوى في تاريخ الحروب الصليبية ، فقد عدت أكبر ممالك الفرنجة في الشرق ، وهددت بنشاطاتها كل من دمشق ومصر ، وظلت هكذا حتى سقطت لصلاح الدين إثر معركة حطين .
٢٩ ـ بني الحصن المذكور على تلة واقعة على الضفة اليسرى لنهر قاديشا كانت تعرف باسم تلة الحجاج ، واسمها الآن تلة أبي سمرة . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للدكتور سيد عبد العزيز سالم ط الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٨٨ ـ ٩٥ .
٣٠ ـ كذا ومرت أعمال حصار طرابلس بعدة مراحل ، وسقطت لبرتراند بن صنجيل سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ٠ ٨٨ ـ ١٢١ .
٣١ ـ انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ١٤٣ ـ ١٥١ .
٣٢ ـ انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ٢١٠ .
٣٣ ـ عين السلطان ملكشاه بوزان في منصبه ، وقد قتل بوزران من قبل تتش بن الب ارسلان ، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٠٤
٣٤ ـ كان هذا سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٠ م . انظر زبدة الحلب ٠ ٢ / ١٤٥ .
٣٥ ـ كذا ويعتمد في هذا المقام ما جاء في النصوص الاغريقية واللاتينية والعربية
٣٦ ـ هو وليم التاسع صاحب بوتو .
٣٧ ـ يعرف الآن باسم تل باجر في محافظة حلب .
٣٨ ـ مقدر أنها سقطت سنة ١١٠٣ م ، وقد تعرض ابن العبري لهذه الحادثة في تاريخه الكبير بالسريانية ، انظر الترجمة الانكليزية ص ٤٦٣ .
٣٩ ـ ذكر ياقوت سروج وقال عنها هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، هي الآن داخل الحدود التركية قريبة من الاراضي السورية .
٤٠ ـ سيرد ذكر بلك مرارا في نصوص كتابنا هذا ، وهو نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق مات سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م أمام أسوار منبج .
٤١ ـ توفي سكمان سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . انظر حوله الامارات الارتقية في الجزيرة والشام لعماد الدين خليل . ط بيروت ١٩٨٠ ص : ٢٠٦ ـ ٢١٩ .
٤٢ ـ كان هذا سنة ١١٠١ م
٤٣ ـ في الأصل قربوقاد ، وهو تصحيف زاد به الناسخ حرف « الدال » .
٤٤ ـ هو شمس الدين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر . انظر الكامل لابن الاثير ٠ ٨ / ٢١٠ .
٤٥ ـ لم يتحدث مصدر أخر عن هذه الغارة التي قام بها جكرمش على الرها ، ولعل هذه العملية جاءت مقدمة لمعركة البليخ سنة ١١٠٥ م .

٤٦ ـ كركر حصن بين سمسياط وحصن زياد ـ خرتبرت أو خربوط ـ معجم البلدان .

٤٧ ـ هو قسطنطين عند ابن العبري .

٤٨ ـ أي سنة ١١٠٧ م .

٤٩ ـ رأس عين الخليل عند نبع نهر البليخ حاليا .

٥٠ ـ في السابع من أيار ١١٠٤ م .

٥١ ـ اعتمد الفرنجة على الفرسان الثقال ، بينما اعتمد التركمان على الفرسان النبالة ، وكان يسددون رماياتهم على مطايا الفرسان الفرنجة ، لهذا عمدوا إلى استخدام ستارة من الرجالة ، وقام تكتيك التركمان الآن على فصل المشاة عن الفرسان والايقاع بكل قوة على حدة ، وأحيل القارىء هنا على التفاصيل التي أوردتها في كتابي « حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » ط . دمشق ١٩٨٤ .

٥٢ ـ ذكر ابن العديم هذه الحادثة بين وقائع سنة ٥١٧ هـ ، انظر زبدة الحلب . ٢ / ٢١٠ ـ ٢١١ ، وأيضا ذكرها ابن القلانسي . ٢٣٢ ، وعنده وقعت المعركة قرب قنطرة سنجة ، وفي معجم البلدان : سنجة نهر عظيم لايتهيأ خوضه لأن قراره رمل سيال كلما وطئه انسان برجله سال به فغرقه ، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا ، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط .

٥٣ ـ هو ابن أخ لبوهيموند .

٥٤ ـ نجم الدولة سالم بن مالك العقيلي ، أول من تسلم قلعة جعبر توفي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م انظر ترجمته في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية . ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

٥٥ ـ نسبة إلى ميخائيل امبراطور بيزنطة .

٥٦ ـ جاولي سقاوة أقطعة السلطان السلجوقي محمد الموصل في محرم سنة ٥٠٠ هـ انظر الكامل لابن الاثير ٠ ٨ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

٥٧ ـ سنة ١١٠٨ م .

٥٨ ـ في الأصل بين كيرهاز ودليك ، والقرية الأولى هي بالعربية كلز ، ذكرها ياقوت وبين أنها قرية « من نواحي عزاز بين حلب وانطاكية » ، ودلوك عند ياقوت « بلدة من نواحي حلب بالعواصم » ، وهي تقع بين كلز وعين تاب .

٥٩ ـ بدأ الحصار في شهر أيار ١١١٠ ، وكان هناك باب في الرها يدعى باب كاساس .

٦٠ ـ كان رجال الفرنجة خاصة الفرسان منهم هواة حرب ، يندفعون إلى المعركة بشكل جنوني دونما مراعاة للنظام والعمل الجماعي ، فجندهم تشكل من مجموعات اقطاعية ، وكان الفارس من بينهم ما أن يمتطي حصانه ويتقلد رمحه حتى يحرك مطيته ويندفع نحو خصومه بشكل صاعق ، وهنا توجب على خصوم الفرنجة الابتعاد من طريقهم حتى تتبدد طاقات الهجوم ، وخير من تنبه لهذا الموضوع وعالجه في العصور الوسطى الامبراطور البيزنطي ليون في كتابه حول التكتيك حيث يقول « يعتقد الفرنجي أن الانسحاب عملا غير مشرف مهما كانت الظروف ، وهو مستعد للقتال متى ما عرضت عليه ذلك ، لذلك يتوجب عليك ألا تشتبك به حتى تضمن لنفسك جميع أسباب النجاح ، فالفارس الفرنجي ينقض كالصاعقة ورمحه الطويل مسلط وبيده ترسه الطويل ، وهنا عليك أن تتحاماه ، وإذا أمكن استدرجه نحو الاماكن المرتفعة ، فالفارس الفرنجي أقل فعالية في الهضاب منه في المنبسطات ، وإذا ما عسكرت أمامك جيوش للفرنجة طاولها ولاتشتبك معها ، فقد يمل جندها خلال أسابيع ويركب كل جندي مطيته وينطلق عائدا نحو موطنه ... إنك ستجد الفرنجة لايعتنون بالحراسة والاستطلاع ، لهذا سيكون من السهل عليك الايقاع ببعض فئاتهم عن طريق الكمائن أو مهاجمة معسكراتهم ، ولاتعرف قوات الفرنجة أي نوع من الانظمة وكل ما يربطهم لايتعدى يمين الولاء ، والفرنجة يفرقون عادة في لجة من الفوضى فور شروعهم بالحملة على خصومهم ، وعليك هنا التظاهر بالفرار (الفر) ثم الارتداد عليهم ، ومهما يكن الحال إنك ستجد على العموم من الاسهل والأقل كلفة اتعاب قوات الفرنجة وانهاكها بالمناوشات والعمليات

الدفاعية ، ومن ثم محاولة تدميرها بضربة حاسمة » . انظر تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى تأليف أومان ـ ط . نيويورك ١٩٥٣ ص ٣٤ (بالانكليزية).

٦١ ـ هذا هو الحصار الثاني للرها من نيسان حتى حزيران لسنة ١١١٢ .

٦٢ ـ سنة ١١١٣ م .

٦٣ ـ جرى اغتياله في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م وكان مغتاله من الحشيشية ، ولربما كان لكل من رضوان بن تتش وطغتكين دور في ذلك . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٢٩٨ ـ ٩٩ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٦٤ ـ في كانون أول عام ١١١٣ م .

٦٥ ـ كان هذا سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م . انظر زبدة الحلب . ٢ / ١٨١ ـ ١٨٦ .

٦٦ ـ هي « مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم » معجم البلدان .

٦٧ ـ كان هذا سنة ١١١٣م .

٦٨ ـ ١٠ كانون أول سنة ١١١٣ ، انظر ترجمته بين نصوص كتابنا هذا .

٦٩ ـ سنة ١١١٤ م ، وللبرسقي ترجمة مطولة بين نصوص كتابنا هذا .

٧٠ ـ في أيلول سنة ١١١٥ م ، وكان قائد المسلمين في هذه السنة برسق بن برسق انظر الكامل : ٨ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

٧١ ـ ذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها « بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

٧٢ ـ أي سنة ١١١٨ م .

٧٣ ـ أراد امتلاك مصر ، بلغ حتى تنيس ، وسبح في النيل وانتقض جرح كان به » ابن الاثير : ٨ / ٢٨٤ .

٧٤ ـ هنزيط عند ياقوت من الثغور الرومية ، وخرتبرت اسم أرمني لحصن زياد في أقصى ديار بكر « بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينهما الفرات » . معجم البلدان

٧٥ ـ معروفة حتى الآن بهذا الاسم من أعمال حلب .

٧٦ ـ أي عام ١١١٩ م .

٧٧ ـ سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م . انظر تاريخ دمشق ٣١٩ ـ ٣٢٠ . الكامل لابن الاثير : ٨ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩ . زبدة الحلب : ٢ / ١٨٧ ـ ١٩٠ الامارات الارتقية : ٢٤٣ .

٧٨ ـ كان هذا في آب سنة ١١١٩ م .

٧٩ ـ في سنة ١١٢٠ .

٨٠ ـ في أيار سنة ١١٢٠ م .

٨١ ـ كذا في الأصل ، والمقصود هنا الكرج ، لكن المؤلف استخدم هذا المصطلح على أساس خضوع شعوب ما وراء أرمينية سابقا إلى امبراطورية الخزر التي اعتنق ملوكها اليهودية ، وقد أتى المؤرخون المسلمون على ذكر هذه الواقعة وأفضل تفاصيل حولها في الجزء غير المنشور من تاريخ ميافارقين ، وقد أثبت رواية هذا الكتاب في حاشية تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ فلتنظر .

٨٢ ـ انظر تاريخ دمشق . ٣٣٠ ـ ٣٣١ حيث ـ في الحاشية ـ رواية صاحب تاريخ ميافارقين .

٨٣ ـ جرى حذف هنا فقرتين تختصان بالشؤون الاغريقية .

٨٤ ـ المشار إليه هنا قلج أرسلان الأول من سلاجقة الروم

٨٥ ـ كانون أول عام ١١٢٤ م .

٨٦ ـ قرب بحيرة وان في تركيا حاليا ماتزال تحمل الاسم نفسه.

٨٧ ـ آب ١١٢٣ م .

٨٨ ـ في زبدة الحلب ٢ / ٢١٣ « وسيرهم الى حران وحبسهم بها » .
٨٩ ـ من المفيد مقارنة معلومات المؤرخ المجهول مع ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب ٢ / ٢١٤ ـ ٢١٥ .
٩٠ ـ عام ١١٢٤ م
٩١ ـ إن ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب . ٢ / ٢١٦ ـ ٢١٩ حول ملابسات مصرع بلك أوضح وأكثر تفصيلا
٩٢ ـ من المفيد العودة الى رواية ابن القلانسي بين نصوص كتابنا هذا ، وكان هذا كله عام ١١٢٤ م .
٩٣ ـ ذكر ابن العديم في الزبدة ٢ / ٢١٧ أن بلك نقل الاسرى من سجن حران إلى سجن حلب
٩٤ ـ نحيل القارىء هنا على ترجمة البرسقي بين نصوص كتابنا هذا ، انظر أيضا زبدة الحلب . ٢ / ٢٣٥ ، هذا ويلاحظ أن الفقرة وضعت في غير مكانها فقد توجب تأخيرها إلى ما بعد الحديث عن حصار حلب .
٩٦ ـ كذا ويمزج المؤلف هنا بين وفاة اق سنقر البرسقي التي سبق له أن ذكرها وبين وفاة ابنة مسعود في الرحبة ، انظر زبدة الحلب ٢ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧
٩٧ ـ نهاية عام ١١٢٦ م .
٩٨ ـ ذكرها ياقوت فقال عنها : « قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب » وفي منطقة جرابلس التابعة الآن لمحافظة حلب قرية اسمها أعرن
٩٩ ـ الياغسياني من كبار رجال دولة زنكي ، له ذكر كبير أيامه وفي أيام نور الدين من بعده
١٠٠ ـ هذا وهم فقد مات مسعود صاحب أصفهان سنة ١١٥٢ ، ولم يتسلم اخوه سليمان السلطة إلا عام ١١٥٩ .
١٠١ ـ أي السن عند ملتقى الزاب الأدنى بنهر الفرات ، وكان ذلك سنة ١١٢٩ م .
١٠٢ ـ عملية الحصار تمت ضد رفنية (أو بعرين أو بارين) وليس ضد حصن الأكراد ، انظر الباهر في الدولة الاتابكية لابن الأثير ٥٩ ـ ٦١
١٠٣ ـ لعل ذلك كان ١١٣٦ م
١٠٤ ـ عين الدولة بن غازي ، وقد أولد فرعا من فروع أسرة الدانشمند في ملاطية توفي سنة ١١٥١ م .
١٠٥ ـ أي الثغر ، وهي تسمية أطلقت في المشرق على الأراضي المجاورة للاراضي البيزنطية
١٠٦ ـ جيش السلطان مسعود ، سلطان قونية سنة ١١٣٧ م .
١٠٧ ـ عام ١١٣٨ م .
١٠٨ ـ العام نفسه ١١٣٨ م .
١٠٩ ـ الياغسياني .
١١٠ ـ هو محمد بن دبيس ، ذلك أن دبيس سبق أن قتل عام ١١٢٩ .
١١١ ـ كان هذا هو المطران المسؤول .
١١٢ ـ هو جقر بن يعقوب ، انظر تفاصيل المؤامرة في الموصل في الباهر ٧١ ـ ٧٢ ، تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٣٧ ـ ٤٤٠ .
١١٣ ـ حذفت هنا قصة البئر .
١١٤ ـ اقليم ميديا هو اقليم الجبل عند العرب ، وقاعدته همذان
١١٥ ـ نهر مراد صو شرقي الفرات .
١١٦ ـ في أراضي مستنقعات العمق شرقي نقطة اتصال قره صوبها ، بجوار دربساك ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب ـ فيما عدا ابن القلانسي ـ يجعلون هذه المعركة نصرا لنور الدين . انظر تاريخ دمشق : ٤٧٠ . زبدة الحلب : ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ . الكامل لابن الأثير : ٩ / ٣٢ . الروضتين . ١ / ٥٥ . الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه : ١٣٠ .

١١٧ ـ ترد في بعض النصوص شيخ الدير ، وهي الآن قرية كردية اسـمها شـادر . انظـر زبـدة الحلب : ٢ / ١٢٥ .
١١٨ ـ يحسن مقارنة هذه الرواية بما أورده ابن العديم في زبدة الحلب : ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .
١١٩ ـ كذا والاسم الصحيح ريناك أوف شـاتيلون (أرناط) ، وقـد تـزوج في عام ١١٥٣ مـن كونستانس ابنة بوهيموند ، أرملة ريموند بواتيو (بيتابين) .
انظر تاريخ وليم الصـوري (تـرجمة انكليزية) : ٢ / ١٩٨ ـ ٢٠٠ . ابـن القـلانسي : ٣٧٢ ـ ٣٧٣ . الباهر لابن الاثير : ٩٨ ـ ١٠٠ .
١٢٠ ـ هو بوهيموند الثالث ابن ريموند بواتيو .
١٢١ ـ في الاصل أرنفد وهو الرسم الأرمني لريناك.
١٢٢ ـ من أجل تفاصيل موازية انظر الباهر : ١٢٢ ـ ٣١ب . زبـدة الحلب ٢ / ٣١٨ ـ ٣٢١ والمراد ببانياس هنا بانياس دمشق .
١٢٣ ـ مقارنة عامة مع مواد تاريخ ابن العبري المطـول بـالسريانية اعتمـادا على التـرجمة الانكليزية .
١٢٤ ـلم يستعمل ابن العبري كتاب المؤرخ المجهول ، فهو يتحدث عن الرشوة التي أعطيت الى ملك القدس على يد أهالي دمشق ، ويضيف إنني لم أجد هذه الرواية في خمسة كتـب عربية مختلفـة ، ولكن وجدتها في كتاب ميخائيل فقط ، وحتى عندما يتفق مع ما قاله المؤرخ السرياني المجهـول نراه يضيف تفاصيل .

حواشي ميخائيل السوري •

١ ـ كذا بالاصل وتضبط المدد والتواريخ وتصحح على ما جاء بالاصول الاخرى المعتمدة خاصة رواية أنا كومنينا والمؤرخ الفرنجي المجهول صاحب اليوميات حول الحملة الاولى .

٢ ـ كتب مترجم أو ناسخ مخطوطة صدد هذه الحاشية . « فدان آرام اليوم اسمها عين العروس ، وهي قبلي حران باربع ساعات ، ونهر بليخا يطلع منها ويسموه البليخ ، وفي وسط الماء يصير زهر اصفر اسمه نيلوفر » .

٣ ـ مزج المصنف هنا بينهم وبين الاسبتارية .

٤ ـ كذا وهو وهم صوابه ايلغازي بن ارتق .

٥ ـ هو فخر الدولة أبو المظفر بن نظام الملك ، اغتيل عام ٥٠٠ ، انظر المنتظم لابن الجوزي ٩ / ١٤٨ .

٦ ـ في ابن الاثير : ٨ / ٢٤٨ ـ حوادث ٥٠١ ـ « وعبر عسكر السلطان دجلة ولم يعبر هو فصاروا مع صدقة على أرض واحدة بينهما نهر » . وفي مرآة الزمان ـ ط . حيدر اباد ١٩٥١ : ١ / ١٦ « وفي موضع يقال له يغانيا » .

٧ ـ نقل السوري هذه الاخبار بايجاز وتداخل ، وامكن التقويم على ما أورده ابن الاثير في الكامل ٨ / ٢٦١ (حوادث سنة أربع وخمسمائة) حيث التشابه كبير .

٨ ـ هو سكمان القطبي ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي . ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .

٩ ـ اغتيل سنة ٥٠٧ ـ انظر ابن القلانسي . ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

١٠ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٨ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ـ حوادث سنة ثمان وخمسمائة

١١ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ابن الاثير : ٨ / ٢٦٦ ـ ٣٠٨ ، وكانت وفاة ايلغازي سنة ٥١٦هـ •

١٢ ـ تساوي سنة ١٤٣٦ يونانية سنة ١١٢٥ م ، وكان المستظهر قد توفي سنة ١١١٨ م •

١٣ ـ كذا بالاصل وكان صدقة قد قتل سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وخلفه ابن دبيس بن صدقة وهو المقصود هنا .

١٤ ـ كذا والصحيح الموصل ، وحدث هذا كما أسلفنا سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ويلاحظ قلة الدقة لدى السرياني في ضبط تواريخ الاحداث .

١٥ ـ لاتتوافق تفاصيل هذه الرواية مع مااورده ابن الاثير في الكامل ٨ / ٣٢٤ ـ حوادث سنة ٥٢١ هـ ـ

١٦ ـ يلاحظ ان السرياني يكرر رواياته .

١٧ ـ هذه الرواية تنقصها الدقة والتفصيل قارنها برواية زبدة الحلب ٢ / ٢٤١ ـ ٢٤٢ •

١٨ ـ لم يوضح السرياني اسم هذه القلعة او اسم صاحبها ، ومعروف أن زنكي قد تزوج من ابنة رضوان بن تتش ، وكان رضوان صاحب قلعة حلب •

١٩ ـ ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني ، وتفاصيل الواقعة رواها ابن القلانسي في تاريخ دمشق ٣٥٠ ـ ٣٥٦ وحدث ذلك سنة ٥٢٢ هـ ، وفي هذا مثال جديد على عدم تقيد السرياني بدقة التواريخ .

٢٠ ـ لايمكن الركون إلى هذه الرواية لامن حيث التفاصيل ولامن حيث التاريخ قارن للتدقيق الكامل لابن الاثير : ٨ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧ . ابن القلانسي : ٤٨ . اتعاظ الحنفا للمقريزي ٣ / ١٥٥ ـ ١٦١ .

٢١ ـ لمزيد من التفاصيل والضبط انظر الباهر لابن الاثير فيمايلي بين نصوص موسوعتنا .

٢٢ ـ تضبط هذه الرواية على ترجمة دبيس بن صدقة في كتابنا هذا وعلى مااوردت ابن القلانسي ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

٢٣ ـ انظر الباهر أيضا
٢٤ ـ لمزيد من التفاصيل والضبط انظر ابن القلانسي : ٤٠٨ ـ ٤١٠ .والباهر أيضا .
٢٥ ـ كان بظاهر مدينة ديار بكر ، قامت مكانه قرية يقال لها قره كليسيا . انظر اللؤلؤ المنثور لاغنا طيوس افرام الاول . ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٥١٣ .
٢٦ ـ بلده دائرة كان موقعها الشمالي بيرة جيل (البيرة) على نهر فرزمان أحد فروع نهر الفرات ويقال له موزيمان . اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .
٢٧ ـ حدث هذا سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . انظر التفاصيل عند ابن القلانسي ٤٢١ ـ ٤٢٢ .
٢٨ ـ إلى الشمال الشرقي من ماردين على بعد مرحلة منها اللؤلؤ المنثور ٥١٧
٢٩ ـ اشار ابن الاثير في الباهر إلى نشاط زنكي في ديار بكر سنة ٥٣٨ وأوضح انه فتح عدة بلاد منها . مدينة طنزة وأسعرد ، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من ارمينية ومدينة حيزان وملك ايضا حصن الزوق وحصن فطليس وحصن باتاسا ، حصن ذي القرنين ، وورد هذه الاسماء في الكامل : ٩ / ٧ بشكل مخالف ، فتعذر على هذا امكانية ضبط الاسماء هذه .
٣٠ أوفده البابا انوسنت الذي جاء بعد هونيروس انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري بترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢ / ٧١٦ ـ ٧٢١ .
٣١ ـ في أرض كرر ـ هنا مااوضحه المؤرخ السرياني المجهول .
٣٢ ـ إلى الجنوب من جبل سمعان . اللؤلؤ المنثور ٥١٠ .
٣٣ ـ أشهر ديرة طور عبدين . اللؤلؤ المنثور . ٥١٢ .
٣٤ ـ طور عبدين جبل مشرف على نصيبين ، وكورة كثيرة الزيرة والصوامع قصبتها بلدة منيات . اللؤلؤ المنثور . ٥١٧ .
٣٥ ـ كونراد ملك النمسا ، وانظر المزيد من التفاصيل في النصوص المقبلة
٣٦ ـ لويس السابع ١١٣٣ ـ ١١٨١ .
٣٧ ـ مدينة في نواحي ملطية اللؤلؤ المنثور . ٥١٨ ، وارجح انها قلونية ، وقلونية اسم حصن كان بقرب ملطية ـ المرجع نفسه ص ٥١٨ .
٣٨ ـ عند ابن العبري زوجته
٣٩ ـ سقط في مطلع الخبر .
٤٠ ـ سقط بالأصل الم بمطلع رواية الاتفاق بين عموري ملك القدس وشاور
٤١ ـ عز الدولة نصر بن نيسان انظر خبره في قطعة اخبار الاراتقة من تاريخ ميافارقين لابن الازرق ، وأكل من قرن ماردين معجم البلدان
٤٢ ، سقط بالأصل .
٤٣ ـ من المدهش صدور هذا كله عن ميخائيل السوري ، والمثير هنا ليس تعصبه بقدر جهله بالاسلام وعزوه اشياء الى القرآن الكريم والصاق دعوى النبوة بذور الدين .
٤٤ ـ سقط بالأصل .
٤٥ ـ أي رئيس الشمامسة
٤٦ ـ سقط بالأصل
٧ ـ أي كونت فلاندر انظر تفاصيل الخبر في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، ترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢ ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧
٤٨ ـ انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ج ٢ ص ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨ .
٤٩ ـ ترجم له صاحب اللؤلؤ المنثور ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ واوضح انه توفي سنة ٨١٧ م .
٥٠ ـ ارزون مدينة كبيرة كانت على مقربة من بدليس اللؤلؤ المنثور ٥٠٤
٥١ ـ في جبل سنجار . اللؤلؤ المنثور ٥١٠
٥٢ ـ انظر ترجمته في اللؤلؤ المنثور ٣٨٢ ـ ٣٩١
٥٣ ـ مجلد او مجموع عام يتضمن صلوات وأدعية .

٥٤ ـ لمزيد من الايضاح انظر اللؤلؤ المنثور ٤٩٤ ـ ٣٩٧ .

٥٥ ـ بظاهر مدينة ديار بكر مسيرة ساعة ونصف الساعة عنها ، اطلالة الآن قرب قرية تدعى قره كاسيا . اللؤلؤ المنثور ٥١٣

٥٦ ـ للتدقيق الزمني لهذه الهزيمة التي الحقها قلج ارسلان بالامبراطور مدويل ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ٩٨٧ ـ ٩٨٨ .

٥٧ ـ بقرب تل موزل . اللؤلؤ المنثور ٥١٢

٥٨ ـ على مقربة من تل غرب اللؤلؤ المنثور ٥٠٥

٥٩ ـ تحدثت المصادر العربية عن صراع مع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وعن انتزاع تقي الدين لمدينة حاني انظر الكامل لابن الاثير ٩/ ٢١٢ ـ ٢١٣ (حوادث سنة ٥٨٧ هـ) مفرج الكروب ٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٦

حواشي تاريخ ابن العبري:

١ - كذا بالاصل ، وكان الفرنجة قد استولوا على طرسوس والمصيصة واذنة قبل الاستيلاء على انطاكية ولعل هناك تصحيف صوابه · طرطوس وبانياس واللاذقية .

٢ - لم يحتلها هو بل ابنه برتراند في سنة ٥٠٢ هـ . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للسيد عبد العزيز سالم . ط . الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٣ , ١٢٣ .

٣ - في الموصل .

٤ - بلد غناء بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .

٥ - كان أبو الفرج الملطي من أتباع المؤمنين بالطبيعة الواحدة ، مثله مثل برصوم هذا ، وكان المجمع الخلقيدوني المسكوني المنعقد عام ٤٥١ م . بحضور ستمائة وستة وثلاثين أسقفا قد أصدر أمرا بحرمان برصوما .

٦ - بلدة في كورة كركر (جرجر) إلى الجنوب الغربي من ديار بكر وبينهما يومان اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .

٧ - كان على ضفة الفرات اليمنى بقرب كركر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧ .

٨ - مدينة في نواحي ملطية . اللؤلؤ المنثور : ٥١٨ .

٩ - بلد من نواحي ديار ربيعة ثم من شبختان شمالي غربي ماردين - اللؤلؤ المنثور : ٥٠٥ .

١٠ - قلعة وبليدة شمالي ميافارقين . اللؤلؤ المنثور . ٥٢٠ .

١١ - على ضفة الفرات بالقرب من خربوط (حصن زياد) اللؤلؤ المنثور · ٥٠٥ .

١٢ - كونراد ملك الالمان وامبراطورهم .

١٣ - لويس السابع (١١٣٣ - ١١٨١) .

١٤ - من أبيرة كورة مرعش . اللؤلؤ المنثور : ٥١٣ .

١٥ - جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير الاتابكة بالموصل . انظر الباهر لابن الاثير · ١١٨ .

١١٦ - انظر حول نسب الأسرة الأيوبية كتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن ابراهيم الحنبلي ط بغداد ١٩٧٨ ص ٢١ - ٢٣ .

١٧ - انى قلعة حصينة ، ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة . معجم البلدان .

١٨ - انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري · ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠١١ .

١٩ - فرقة من الجند التركمان .

٢٠ - لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري : ١٠٣٠ -١٠٣٦ . ونصوصنا المقبلة عن الحملة الرابعة

٢١ - تل بسمة بلدة في نواحي ديار ربيعة على مقربة من شبختان شمالي غربي ماردين . اللؤلؤ المنثور . ٥٠٥ .

٢٢ - ايزابيل أخت بلدوين الرابع ووالدة بلدوين الخامس تزوجت بغي لوزنغنان وجعلت منه ملكا على القدس . انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ص ١٠٧٢ - ١٠٧٦ .

٢٣ - هذا وهم فزوجة ريموند صاحب طرابلس هي التي كانت في طبرية .

٢٤ - هذا الظن قائم على وهم ، انظر ماسيأتي من مواد عن الحملة الثالثة ، لاسيما ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢٥ - لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ /٢٢٢ - ٢٢٣ - حوادث سنة ٥٨٨ هـ

٢٦ - لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ / ٢٢٨ - ٢٢٩ (حوادث سنة ٥٨٩) .

٢٧ - انظر الكامل لابن الاثير : ٩ / ٢٢٨ - حوادث سنة ٥٨٩ .

٢٨ - أي المستشار الالماني . انظر ما سيأتي حول الحملة الثالثة .

٢٩ - جنوبي ماردين بينهما فرسخان ، كانت فيما مضى مدينة عظيمة أما هي الآن فمجرد قرية اسمها قوج حصار . اللؤلؤ المنثور . ٥١٦

- ٢٤١٥ -

٣٠ ـ أي جزيرة ابن عمر .

٣١ ـ في الكامل لابن الاثير : ٩ / ٣٠٤ (حوادث سنة ٦٠٧ ها) « أمره الاطبـاء بـالانحدار إلى الحامة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل » .

المحتوى